تيسير التفسير

لقطب الأئمة

الشيخ الحاج امحمد بن يوسف اطفيّش

(ت: 1332هـ / 1914م)

تحقيق وإخراج

الشيخ إبراهيم بن محمد طلاي

بمساعدة لجنة من الأساتذة

الجزء التاسع

من أوّل سورة مريم إلى آخر سورة الحجّ

الطبعة الثانية

1439 هـ - 2018 م.


تيسير التفسير
الجزء التاسع



الطَّبعة الثَّانية
مزيدة ومنقَّحة
1439هـ / 2018م

سلطنة عُمان ـ ص.ب.: 668 مسقط، الرمز البريدي: 100
هاتف: 24641300 / 24641325، فاكس: 24641331
البريد الإلكتروني: info@mhc.gov.om
موقع الوزارة على الإنترنت: www.mhc.gov.om



لِقُطب الأئمة

الشيخ الحاج امحمد بن يوسف اطفيش

(ت: 1332هـ / 1914م)

تحقيق وإخراج

الشيخ إبراهيم بن محمد طلاي

بمساعدة لجنة من الأساتذة



من أوَّل سورة مريم إلى آخر سورة الحجِّ



تَخرِيجُ ٱلأَحَادِيثِ وَوَضعُ ٱلتَّرَاجِمِ :

أ. أحمد بن حمو كرّوم

أ. عمر بن أحمد بازين

ٱلرَّقْنُ وَٱلفَهْرَسَةُ وَمُتَابعَةُ ٱلطَّبْعِ :

أ. مصطفى بن إبراهيم طلاّي

تَدقِيقُ ٱلنَّصِّ وَمُتَابعَةُ ٱلطَّبْعِ :

د. مصطفى بن محمد شريفي

19

تفسير سورة مريم

مريم مكّيّة إلّا الآيتين 58 و71 فمدنيّتان، وآياتها 98 ـ نزلت بعد سورة فاطر

هذه التسمية جاءت عن الطبري وأبي نعيم والديلمي، بسندهم إلى أبي بكر بن عبد الله بن أبي مريم الغسّاني عن أبيه عن جدِّه، قال: أتيت رسول الله ﷺ فقلت: ولدت لي الليلة جارية ولعلّه سمّاها مريم فقال: «**والليلة أنزلت عليَّ سورة مريم**»(1).

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ كهيعص ① ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ② إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ③ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ④ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ⑤ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ⑥ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ⑦ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ⑧ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ⑨ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ⑩ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ⑪﴾

(1) أورده **السيوطي** في الدر: ج 4، ص 283. وقال: أخرجه الطبراني وأبو نعيم والديلمي من طريق أبي بكر بن عبد الله بن أبي موسى الغساني عن أبيه عن جدِّه مرفوعا.

دعاء زكرياء ﷺ طالبا الولد وبشارته بيحيى

﴿**كٓهيعٓصٓ**﴾ كافٍ هادٍ يُجير عظيمٌ صادق ﴿**ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ**﴾ هذا المتلوُّ ذكر رحمة ربِّك، أو مِمَّا يتلى عليكم ذكر رحمة ربِّك ﴿**عَبْدَهُۥ**﴾ مفعول به لـ«ذِكْرُ»، والذكر فعل للرحمة على التجوُّز في الإسناد، فإنَّ الذاكر هو الله وأسند الذكر للرحمة.

ومعنى كون الرحمة ذَكَرتْ عبده أنَّها أصابته، كما تقول: «ذَكَرَنِي معروفُك» بتخفيف الكاف وضمِّ الفاء، أي بلغني، أو شبِّهت بالإنسان ورمز إلى ذلك بذكر ما للإنسان وهو الذكر، على أنَّ الرحمة: الخير لا صفة لله، أو «عَبْدَ» مفعول لـ«رَحْمَةِ» لأنَّه مصدر مبنيٌّ على التاء من أول، وإنَّما الذي لا يعمل إلَّا شاذًّا هو الذي زيدت فيه التاء للوحدة ﴿**زَكَرِيَّآءَ**﴾ عطف بيان، ولا دليل على نصبه بـ«أعني».

﴿**إِذْ نَادىٰ رَبَّهُۥ**﴾ متعلِّق بـ«رَحْمَةِ» أو بـ«ذِكْرُ» المجعول فعلا لـ«رَحْمَةِ» أو بدل اشتمال من «عَبْدَ» أو «زَكَرِيَاءَ» ﴿**نِدَآءً خَفِيًّا**﴾ في جوف الليل لا أحد معه مراعاة لجلال الله بأنَّ السرَّ والجهر عنده سواء، ولأنَّ ذلك أحضر للنفس. والنداء لا ينافي الخفاء لأنَّا نقول: يا رَبِّ، ولا تسمع أذننا، أو تسمع ولا يسمع من معنا، وإذا جهرنا بالنداء فذلك أيضا خفاء حيث لم يسمع لعدم من يسمع هناك، وقصدنا أن لا يسمع؛ أو ذلك كناية عن الإخلاص، **والأوَّل أولى** لأنَّه الظاهر مع المناسبة، فإنَّه قصد الإخفاء للإخلاص، ولئلَّا يلام على حبِّ الولد في كبر سنِّه، ستِّين سنة أو خمس وستِّين أو سبعين أو خمس وسبعين أو ثمانين أو خمس وثمانين أو اثنتين وتسعين أو تسع وتسعين أو مائة وعشرين، وهو أشدُّ خفاء للصوت، وقد قيل: خفاء صوته لضعفه بالكبر.

وَمِمَّا يناسب الخفاء حذف حرف النداء في قوله: ﴿**قَالَ رَبِّ**﴾ وهذه جملة مستأنفة جواب لقائل: ما نداؤه الخفيُّ؟ أو مفسِّرة لـ﴿نَادىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾

﴿إِنِّي وَهَنَ﴾ ضعف ﴿الْعَظْمُ مِنِّي﴾ أفرد لإرادة الجنس، فشمل عظامه كلَّها، لأنَّ كلَّ فرد منها يصدق عليه أنَّه عظم، والعظم دعام البدن فإذا ضعف ضعف البدن، فيجوز أن يكون ضعفه كناية عن ضعف البدن.

وعن قتادة: العظم السنُّ، ووهنها سقوطها، ولا دليل له على هذا التخصيص، ولو كان له وجه وهو أنَّ ذلك من شأن كبار السنِّ، وأنَّ مِن شأنه ضعف البدن لانتفاء أكله ما يؤكل بالأسنان، وأيضا سقوط الأسنان ليس وهنا لها بل انتفاؤها من الفم، ولو كان سقوطها لسبب الوهن.

ولم يقل: وهن عظمي، مع أنَّه أقلُّ حروفا لعدم التفصيل بعد الإجمال فيه، بخلاف ما إذا قال: ﴿وَهَنَ الْعَظْمُ﴾ وقال بعده: ﴿مِنِّي﴾ بالتفصيل ولأنَّ «العظم» أدلُّ على الجنسيَّة من «عظمي».

[بلاغة] ولا يخفى ما في كمال الرغبة إذ نادى المنعم عليه المربِّي له، وأدخل «إِنَّ» وقال: ﴿مِنِّي﴾ ونسب الوهن للعظم الموجب وهنُه وهنَ باقي البدن، وزاد بذكر الشيب وما بعده إلى ﴿رَضِيًّا﴾.

﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ تمييز محوَّل عن الفاعل بمعنى انتشر شيب الرأس، ولا حاجة إلى دعوى أنَّ «شَيْبًا» مفعول مطلق وأنَّ «اشْتَعَلَ» بمعنى شاب.

[بلاغة] شبَّه الشيب بشواظ النار لجامع عدم السواد فيها وثبوت بعض بياض فيها، وشبَّه انتشاره في الشعر باشتعالها لجامع التنقُّل، ففي «اشْتَعَلَ» استعارة تصريحيَّة تبعيَّة، وفي الشيب مكنيَّة، والتحقيق جواز انفكاك المكنيَّة عن التخييليَّة كما بيَّنته في شرحي[1] على شرح عصام الدين وبيان البيان[2]،

(1) شرح للمؤلِّف مخطوط على متن الاستعارات لعصام الدين إبراهيم بن محمَّد بن عرب المُتَوَفَّى سنة 945هـ. انظر: الأعلام للزركلي.

(2) تقدَّم التعريف به في ج 8، ص 300.

وفائدة بناء الكلام على التمييز إفادة العموم، إذ لو قيل: اشتعل شيب الرأس لم يفد العموم مع أنَّه مراد، كما إذا قلت اشتعل البيت نارا أفاد العموم تصريحا، وإذا قلت: اشتعل نار البيت لم يفده ولو أريد بالنية.

﴿وَلَمَ اكُنۢ بِدُعَآئِكَ﴾ بطلبي لك أن تفعل لي كذا ﴿رَبِّ شَقِيًّا﴾ تعبا بلا فائدة فيما مضى من عمري، فأحسن إليَّ بالولد كما أحسنت إليَّ في ما مضى بالإجابة، ولا سيما أنِّي الآن أشدُّ احتياجا منِّي فيما مضى. وهذا كما سأل سائل معاوية أو معن بن زائدة أو حاتما الطائي، فقال: بم تتوسَّل إليَّ؟ فقال: بإعطائك إيَّاي وقت كذا، فقال: مرحبا بمن توسَّل بنا إلينا، فأعطاه.

وكما ذكر لفظ الرُّبُوبِيَّة المشعر بتقدُّم إنعام سابق، وإفاضة ما فيه صلاح المربوب مع الإضافة إلى المربوب، وذلك أولى من أن يكون المعنى: لم أكن بدعائك إيَّاي إلى الطاعة شقيًّا بتركها، أو مفسدا لها بالرياء، بل عبدتك مخلصا، إذ ليس فيه تصريح بالرغبة ولو تضمَّنها بذكر موجب القرب وهو الدعاء إلى الطاعة، وذكر الرُّبُوبِيَّة.

روي أنَّ موسى عليه السلام قال: يا ربِّ، فقال الله جل جلاله: لبَّيك يا موسى، فقال موسى: أهذا لي خَاصَّةً؟ فقال الله تبارك وتعالى: لا، ولكن لكلِّ من يدعوني بِالرُّبُوبِيَّةِ، وروي أنَّ العبد إذا قال: يا رَبِّ قال الله: لبَّيك يا عبدي.

﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَٰلِيَ﴾ عصبتي كما روي عن ابن عَبَّاس ومجاهد، أو بني عمِّي التالين لي في النسب، أو قرابتي التالين لأمري، وكان هؤلاء الموالي شرار بني إسرائيل، فخاف أن لا يحسنوا الخلافة في أمَّته بعده ﴿مِن وَّرَآئِي﴾ أي وإنِّي خفت الموالي من بعد موتي أن يجوروا في أمَّتي، وهو حال من «الموالي»، فالخوف الآن والموالي بعد موتي، أو يقدَّر وإنِّي خفت جور الموالي من ورائي، فيتعلَّق بـ«جور»، ويجوز تعلُّقه بالموالي لتضمُّنه معنى الولاية للأمر بعدل.

وقيل: الآية في الميراث، فالموالي بنو العمِّ أو العصبة أو الكلالة أو الورثة، أقوال، لكن ليس إرث مال، لأنَّ الأنبياء لا تورث وما يتركونه صدقة، ويبعد أن يشفق نبيء على ماله، وإنَّما المراد ميراث العلم ونحوه.

﴿**وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا**﴾ لا تلد، يقال امرأة عاقر ورجل عاقر كلاهما بلا تاء ﴿**فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا**﴾ من عندك وفيضك الواسع وكيف شئت. «مِنْ» للابتداء سواء علِّقت بـ«هَبْ» أو بمحذوف حال من «وَلِيًّا» وهو الولد كما في قوله تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ [سورة آل عمران: 38] [قلت:] وبعد هذا التخصيص في سورة آل عمران لا يصحُّ دعوى أنَّ المراد وليًّا مَّا من قرابته يرثه ولدا أو غيره، ولا دعوى أنَّ ما في آل عمران قبل الإيَّاس من الولادة بحسب عادة البشر، وما هنا بعده. طلب قريبا لحسن الخلافة، وكان يكفي: «هب لي وَلِيًّا»، لكن زاد ﴿مِن لَّدُنكَ﴾ تلويحا بعظم ما يوهب لأنَّ الموهوب من الكريم لا يكون إلَّا كاملا، إذ لا يهب الناقصَ المنافي لكرمه.

﴿**يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنَ ـ الِ يَعْقُوبَ**﴾ أي يرث علمي، فحذف المضاف، ويرث العلم من آل يعقوب. واختلف الأسلوب بذكر «مِن» لكثرة ما يرث من زكريَّاء وقلَّة ما يرث من آل يعقوب، أو لأنَّه يرث منه الحبوريَّة، وكان زكريَّاء رئيس الأحبار.

ويرث من آل يعقوب ـ وهم بنو ماتان ـ الملكَ، وكان بنو ماتان ملوكا، أو لأنَّه يرث من زكرياء النبوءة ومن آل يعقوب الملك؛ وقيل: يرث مالي، ويردُّه أنَّه لا شأن للمال عنده حتَّى يعتني به، [قلت:] إلَّا إنْ طلب أن يرثه وليٌّ له مطيع ليصرفه في وجوهه لا من يفسد به، رغبة في إقامة الدين به، لا خوف أن يعاقب بإفساد المفسِد به بعده، إذا لا عقاب بذلك على الموروث إذا لم يقصد الإفساد، لا يقال: هلَّا تصدَّق به لأنَّه رجا الانتفاع به في الإسلام بعده على استمرار، **وهذا منِّي مجرَّد توجيه لا ترجيح**، فالراجح أنَّ المراد وراثة العلم أو النبوءة أو الملك والعدل أو الحبورة، وكان زكريَّاء رأس الأحبار.

[لغة] ولا يستدلُّ على أنَّ الموروث المال بأنَّ الإرث حقيقة فيه خَاصَّةً، وإن سلَّمنا فاستعماله في غيره مجاز مشهور، ومن ذلك ما ورد أنَّ «**العلماء ورثة الأنبياء**»(1) وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ﴾ [سورة فاطر: 32] وقوله: ﴿خَلْفٌ وَرِثُواْ الْكِتَابَ﴾ [سورة الأعراف: 169] وقوله: ﴿وَإِنَّ الذِينَ أُورِثُواْ الْكِتَابَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ [سورة الشورى: 14] وقوله: ﴿إِنَّ الَارْضَ لِلهِ يُورِثُهَا مَنْ يَّشَآءُ﴾ [سورة الأعراف: 128] ﴿وَلِلهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ﴾ [سورة آل عمران: 180] وقول الكلبي عن أبي عبد الله: إنَّ سليمان ورث داود، وإنَّ محَمَّدًا ﷺ ورث سليمان، والأنبياء لا يرثون مالا ولا يورثون، وقيل: يرثون ولا يورثون، وعن ابن عَبَّاس في الآية: يرثني مالي، وعن الحسن عنه ﷺ: «**رحم الله تعالى زكرياء ما كان عليه من وراثة ماله**»(2)، ورجَّح بعض أنَّ الموروث المال لأنَّ الإرث لا كسب فيه، والعلم بالكسب، فتبقى النبوءة إذ لا كسب فيها فتحتملها الآية.

ولا مانع أن يعطى نبيء بعض ما دعا دون بعض، بأن أعطاه يحيى ومات قبله، والأكثر أنَّه مات بعد زكرياء. والآل من يؤول إليه الأمر لقرابة أو صحبة أو دين، وزكرياء من ولد هارون، وهارون من ولد لاوي بن يعقوب، وكان زكرياء متزوِّجا بأخت مريم، وهي من ولد سليمان، وسليمان من ولد يهوذا.

﴿**وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا**﴾ دليل على أنَّه ليس الموروث النبوءة، لأنَّه لا يكون نبيء إلَّا رضيًّا، فلا يدعو زكرياء أن يكون رضيًّا مع أنَّه يكون نبيئا، و«رَضِيًّا» فعيل بمعنى مفعول أي مرضيًّا عندك قولا وفعلا، وبين عبادك فيتبعوه.

(1) رواه **ابن ماجه** في المقدِّمة (17) باب فضل العلماء والحثُّ على طلب العلم، رقم 221. من حديث أبي الدرداء، وأوَّله: «كنت جالسا عند أبي الدرداء...». وأورده **الهندي** في الكنز في كتاب العلم (1) باب في الترغيب فيه، ج 10، ص 135. وقال: أخرجه البخاري عن أنس مع زيادة.

(2) أورده **السيوطي** في الدر: ج 4، ص 284، مع زيادة. وقال: أخرجه ابن عبد الرزَّاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن.

﴿**يَا زَكَرِيَّآءُ اِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيىٰ**﴾ أي قال الله، أو قيل لزكرياء: ﴿يَا زَكَرِيَّآءُ اِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾وذلك بواسطة ملك كما في آية أخرى، أو بإلقاء كلام في سمعه يخلقه فيه، أو حيث شاء فيسمعه، وهذا جواب ندائه وإجابة دعائه.

وما في الوعد من التراخي لا ينافي التعقيب فإنَّ التعقيب بحسب ما تعورف وناسب المقام، كما يقال: تزوَّج فلان فولد له، أو نقول: الفاء في مثل ذلك للسببيَّة دون التعقيب، وذلك أنَّ الله تعالى قال: ﴿فاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ [سورة الأنبياء: 76] وللتأخير قال بوعد واستجابة في قوله: ﴿نُبَشِّرُكَ﴾ ولم يقل: أعطينا، بل الوعد استجابة متَّصلة فهو تعقيب متَّصل.

والمشهور أنَّ هذا القول إثر الدعاء ولم يكن بين البشارة والولادة إلَّا أشهر، وقيل: رزق الولد بعد دعائه بأربعين عاما، وقيل: بسنتين، وأكَّد الوعد بذكر اسم الولد وبأنَّه لم يسمٍّ به أحدا قبله كما قال: ﴿**لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا**﴾ مماثلا لاسمه.

وقيل: لم نجعل له مماثلا في اجتناب المعصية، والروايتان عن ابن عَبَّاس قائلا: إنَّ النبيء ﷺ قال: «**إنَّ يحيى لم يفعل خطيئة ولا همَّ بها وكلُّ ابن آدم همَّ بها أو فعلها**»[1] أو مماثلا في أنَّه من امرأة عجوز عاقر وشيخ فان. وهو لفظ عجميٌّ وافق العَرَبِيَّة، وقيل: عربيٌّ، فهو من جملة غرابة شأنه فإنَّه ليس من عادتهم التسمية بالألفاظ العَرَبِيَّة، وعليه فهو تفاؤل بحياة طويلة، أو حياة حتَّى يرث أباه ويبنى على العَرَبِيَّة، [ويضعف] ما قيل: سمِّيَ لأنَّه يحيى بالحكمة والعفَّة، وما قيل: إنَّه سمِّي لأنَّه حيي به رحم أمِّه، وما قيل: لأنَّه حيي

(1) أورده **السيوطي** في الدر: ج 4، ص 288. وقال: أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه وابن خزيمة والدارقطني في الإفراد وأبو نصر السجزي في الإبانة والطبراني عن ابن عَبَّاس. وأوَّل الحديث عنده هو: «كُنَّا في حلقة في مسجد النبيء ﷺ نتذاكر فضائل الأنبياء فذكرنا نوحا...» مع اختلاف في اللفظ.

بين عجوز عاقر وشيخ فان، وما قيل: لأنَّه يحيى بإرشاد الخلق، وما قيل: يموت شهيدا والشهداء أحياء.

ولا يخفى أنَّه من رغب في شيء ولا سيما الشيء الغريب ووعد به يتشوَّق إلى معرفة شأنه وكَيفِيَّة حصوله، ولا سيما مع حضور الموانع، ولذلك قال ـ مع علمه بوعد الله له مع علمه بفنائه وكبر زوجه وعقرها ـ ما ذكر الله عنه في قوله: ﴿**قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عُتِيًّا**﴾ ولا يتبادر ما قيل إنَّه جواب سؤال كأنَّه قيل: فماذا قال عليه السلام؟ ولا يخفى أنَّه قال بنفسه والله عالم بقوله، ولا حاجة إلى توسُّط ملك يرسله إلى الله، اللهمَّ إلَّا على سبيل تفخيم الأمر لكن مثل هذا يحتاج إلى نقل أو حجَّة.

[نحو] ومعنى ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ﴾ كيف يكون؟ أومن أين يكون؟ أو متى يكون؟ وقوله: ﴿كَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ حال من ياء «لي» على تقدير «قد» لأنَّ الماضي المثْبت المتصرِّف إذا كان من جملة الحال لا بدَّ من قرنه بـ«قد» والواو، وجملة «قَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عُتِيًّا» عطف على الجملة الحالية.

والعتي: يبس المفاصل، وأصله: عُتُويٌ اجتمعت الواو والياء وسكنت الأولى فقلبت الواو ياءً وأدغمت وقلبت الضمَّة كسرة. وعقر امرأته من شبابها وشبابه إلى الآن فكيف تلد وحالها ذلك مع بلوغها ثمانيا وتسعين، وأنا أكبر منها سنًّا؟!.

[نحو] و«مِنْ» للتعليل متعلِّق بـ«بَلَغْتُ» أو للابتداء فيما قيل: إنَّه ابتدأه العتيُّ من كبره لأنَّ هذا راجع إلى التعليل، وقيل: للتبعيض متعلِّقة بمحذوف حال من «عُتِيًّا» وفيه أنَّ العتيَّ ليس ببعض الكبر بل يكون به، وفي آل عمران: ﴿بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ﴾ [سورة آل عمران: 40] وهنا: ﴿بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عُتِيًّا﴾ وما بلغك من المعاني فقد بلغته إلَّا أنَّ المسند إليه هنا المتكلِّم وهناك الكبر.

ولعلَّه دعا أوَّلا فقال: ﴿بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ﴾ أي أدركني المانع من الولادة وهو الكبر تشبيها بالإنسان الذي يتبع الآخر ليمنعه مما أراد فأدركه، ودعا بعد ما زاد كِبَرًا بأنَّه كالإنسان الفارِّ حتَّى حبسه من قدَّامه حابس لتابعه، أو دعاء واحد في وقت واحد ذكره الله ﷻ بالمعنيين في الموضعين.

[بلاغة] وبدأ هنا بحال المرأة وهناك بحاله، وأخَّر هنا ذكر كبره البالغ أقصى مراتب الكبر عن ذكر عقمها لأنَّه قد ذكر حاله من وهن عظمه، واشتياقه إلى الولد، فما ذكر الكبر هنا إلَّا تتمَّة لما سبق وتوسُّط ذكر عقمها، وأمَّا هناك فلم يتقدَّم لحاله ذكر فذكر حاله قبل حالها، لأنَّ ذكر قصور شأنه عن الولادة أهمُّ بذكر قصور شأنها أو تخالف ذلك للتفنُّن مع تضمُّن كلٍّ ما لم يتضمَّنه الآخر، وعرف من نفسه أنَّه لم يكن عاقرا أو عرَّفه الله ذلك، ولذلك لم يذكر العقم بل الكبر.

﴿قَالَ﴾ الله أو الملك المبشِّر ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الأمر كذلك، على حدِّ ما مرَّ في السابق، والإشارة إلى تحقُّق مضمون التبشير، أو إلى الاستبعاد إلَّا أنَّه سهل عند الله ولو صعب عندك كما قال: ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ والخطاب كلُّه لزكرياء. ويجوز كون «كَذَٰلِكَ» معمولا لـ«قَالَ» بعده ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ﴾ من قبل هذا الولد المبشَّر به، أو من قبل أبيك في الأصلاب حتَّى كنت في صلبه ثمَّ خرجت منه ﴿وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ موجودا متشخِّصا بل في الأصلاب، أو خلقتك في آدم من تراب وكلُّ آدميٍّ كذلك، أو لم تَكُن شَيْئًا معتدًّا به، كقول أبي الطيِّب:

وضاقت الأرض حتَّى كان هاربهم إذا رأى غير شيء ظنَّه رجلا

أي غير شيء معتدٍّ به، أو غير شيء خيالا غير محقَّق، والآية ظاهرة في أنَّ المعدوم غير شيء، وتؤوَّل بتقدير النعت كما رأيت.

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي ءَايَةً﴾ علامة تدلُّني على تحقُّق الموعود بأن يعلم متى وقع يحيى في الرحم، ليشكر الله ﷻ من حينئذ ولا يؤخِّر الشكر إلى

ظهوره المعتاد في البطن، ولا إلى أن يولد، وليزداد يقينا بالوعد كقول الخليل: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ [سورة البقرة: 260] وليزداد فرحه كشأن الراغب في حصول شيء غريب يتعرَّف شؤونه باشتياق، وذلك منه في الطاعة لأنَّه طلب الولد لدين الله، وهذا الطلب بعد التبشير بمدَّة لأنَّ يحيى أكبر من عيسى بستَّة أشهر أو ثلاث سنين.

وكان الطلب في صغر مريم لأنَّها ولدت عيسى وهي ذات عشر سنين أو ذات ثلاث عشرة سنة، والمعنى: أبدِعْ لي آية، فـ«لي» متعلِّق بـ«اجْعَلْ» أو حال من «آيَةً» والأوَّل أولى، أو صيِّر لي آية فـ«آيةً» مفعول أوَّل و«لي» ثان.

﴿**قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ**﴾ لا تقدر على أن تكلِّمهم. لَمَّا وقع في بطنها لم يستطع أن يكلِّم أحدا كلاما مَّا، والتوراة والذكر يطيقهما ﴿**ثَلَاثَ لَيَالٍ**﴾ مع أيامهنَّ كما صرَّح بالأيَّام في سورة آل عمران [آية 41]، واكتفى بذكر الأَيَّام فيها لأنَّها مَدَنِيَّة متأخِّرة واليوم متأخِّر، وبذكر الليالي هنا لأنَّ السورة مَكِّيَّة سابقة والليل متقدِّم.

[صرف] و«ليال» كجوار مما زيدت الياء فيه من المجموع كأَهْلٍ وأَهَالٍ، فإذا لم ينوَّن للإضافة أو بـ«الـ» أو في القافية أو نصب ثبتت الياء، أو هو جمع ليلات فالياء بعد اللام هي ألف ليلة وهي زائدة ﴿**سَوِيًّا**﴾ حال من ضمير «تُكَلِّم» أي تامَّ الخَلق والخُلق بلا مرض ولا خرس، وهذا أولى من جعله حالا من «ثَلَاثَ» أي مستويات كاملات.

﴿**فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ**﴾ خرس لسانه عن أن يتكلَّم للناس من أوَّل المغرب، وأصبح فخرج على قومه من المحراب، أي المصلَّى أو الغرفة، وأصله مجلس الأشراف الذي يحارب دونه ذبًّا عن أهله، فسمِّي محلُّ العبادة محرابا لأنَّ العابد يحارب الشيطان فيه، ولم يكن المحراب على عهد رسول الله ﷺ.

وكانوا ينتظرونه أن يفتح لهم الباب ليصلُّــوا فخرج متغيِّر اللون وقالوا ما لك؟ ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُواْ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ أشار إليهم كما يدلُّ له قوله تعالى: ﴿إِلَّا رَمْزًا﴾ [سورة آل عمران: 41] أو كتب لهم على تراب الأرض كما روي عن ابن عَبَّاس، أو على ورقة كما روي عن عكرمة، كقول عنترة:

كوحي صحائف من عهد كسرى فأوحاهــا لأعجــم طمطمي[1]

وقول ذي الرمَّة:

سوى الأربع الدهم اللواتي كأنَّها بَقِيَّة وحي في بطون الصحائف

و«أن» تفسيرية بلا تقدير، قيل: أو مخفَّفة بتقدير الباء، و﴿سَبِّحُواْ﴾: صلُّوا كما روي عن ابن عَبَّاس، ســمَّى الصلاة باســم بعضها وهو التســبيح فيها، و﴿بُكْرَةً﴾ وقت صلاة الفجر و﴿عَشِيًّا﴾ وقت صلاة العصر، فالتسبيح الصلاة في الوقتين على الكَيفِيَّــة التي أمر بها، ولم يتعبَّــدوا بالصلوات الخمس، أو التســبيح ذكر الله وتنزيهه. أُمروا أن يسبِّحوا شــكرا للنعمة كما أمِرَ. أو المراد اســتغراق اليوم بالذكر وذَكَرَ طَرَفي اليوم فقط. أو خصَّ التســبيح لأنَّه من يَرَ أمرًا غريبا يقل: «سبحان الله تعالى، ســبحان الخالق ﷻ» ومثل هذا. أو أخبر قومه قبل طلــب العلامة بما بشِّــر به، ولَمَّا تعــذَّر عليه الكلام أشــار إليهم بحصول ما بشِّر به، فسرُّوا بذلك.

(1) رجل طمطم وطمطميٌّ في لسانه عجمة لا يفصح.

﴿ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍۢ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ۝١٢ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ۝١٣ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ۝١٤ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ۝١٥ ﴾

إيتاء يحيى عليه السلام النبوءة والحكم صبيًّا

ولَمَّا ولد وبلغ سنًّا يؤمر مثله فيه قلنا: يا يحيى كما قال: ﴿**يَا يَحْيىٰ خُذِ الْكِتَابَ**﴾ التوراة المعهودة، أو صحف إبراهيم، أو كتابا خصَّ به. و«ال» للعهد الحضوري، أو جنس الكتب المنزَّلة ولَمَّا يأت الإنجيل ﴿**بِقُوَّةٍ**﴾ بجدٍّ منك في قراءته والعمل به، والأمر به، وعن أنس: القوَّة الدرس بجدٍّ ومواظبة، وفي الأمثال: «عليك بالدرس فإنَّ الدرس هو الغرس».

قيل لعبد الله بن عَبَّاس: بم نلت العلم؟ فقال: بلسان سؤول، وقلب عقول، وفؤاد غير ملول، وكفٍّ بذول، وبدن في الضرَّاء والسرَّاء صبور. وقيل لبزرجمهر: بم نلت؟ فقال: ببكور كبكور الغراب، وتملُّق كتملُّق الكلب، وتضرُّع كتضرُّع السنَّور، وحرص كحرص الخنزير، وصبر كصبر الحمار.

وقال بعض إنَّ القائل: ﴿يَا يَحْيىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ أبوه لَمَّا ترعرع قال له أبوه ذلك، [قلت:] ولا دليل في الآية عليه فلا تحمل عليه، ويزيده بعدا قوله تعالى: ﴿**وَءَاتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَواةً**﴾ فإنَّ الأنسب أن يكون قائل هذا هو قائل: ﴿يَا يَحْيىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾وذلك في ذاته من



الجائز، فيكون «وَءَاتَيْنَاهُ الْحُكْمَ» عطفا على مـا قبل «يَا يَحْيَىٰ» لكن أيُّ دليل على إدخال الأب في ذلك؟ فالقائل الله.

والعطف على «قلنـا» المقدَّر. والحكم: الفهم والعبـادة، قال ابن عَبَّاس: قال رسول الله ﷺ: «**أعطي الفهم والعبادة وهو ابن سبع سنين**»[1] رواه أبو نعيم وابن مردويه والديلمي، وعن بعض السـلف: «من قرأ القرآن قبل أن يبلغ فهو ممن أوتي الحكم صبيًّا»[2] وعـن ابن عَبَّاس قال ﷺ: «**قـال الغلمان ليحيى اذهب بنا نلعب، فقال: أللَّعب خلقنا؟ اذهبوا نصلِّ فهو قوله: ﴿وَءَاتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾**»[3]، والحكم على هذا: الحكمة.

وقيل: هي العقـل، وقيل: معرفة آداب الخدمة، وقيل: الفراسـة الصادقة، وقال كثير: إنَّها النبوءة أوتيها وهو ابن سبع سنين، أو ابن ثلاث أو ابن سنتين. وأكثر الأنبياء لم ينبَّـؤُوا قبل الأربعين. والحنان: الرحمـة، ونكِّر هو و«زكاة» للتفخيم، وزاد التفخيم للحنان بوصفه بقوله: ﴿مِـن لَّدُنَّا﴾ وهذه الرحمة من الله له إنعام عليه بأمر الدين، كما أنَّ الزكاة طهارة موهوبة له من الله، ونموٌّ في الدين منه ﷻ له، وهذا أبلغ من أن يقول: ورحمناه.

ويجوز أن يكون الحنان من يحيى للخلق أي جعله الله راحما لعباده عاطفا عليهم، ثمَّ رأيت عن بعـض أنَّ المعنى: وآتيناه رحمة في قلبه وشـفقة على أبويه وغيرهما، وعليه فالوصف بقوله: ﴿مِن لَّدُنَّا﴾ تحرُّز عن رحمة تؤدِّي إلى ترك واجب كالحدود، أو إشارة إلى أنَّها زائدة على ما في الناس من التراحم، ولا بأس في إفراط لا يؤدِّي إلى بأس.

(1) أورده **السيوطي** في الدر: ج 4، ص 286. وقال: أخرجه أبو نعيم وابن مردويه والديلمي.
(2) نسبه **ابن كثير** لعبد الله بن المبارك عن معمر أثرا. انظر: ابن كثير: ج 3، ص 113.
(3) أورده **السيوطي** في الدر: ج 4، ص 286. وقال: أخرجه الحاكم في تاريخه من طريق سهل بن سعيد عن الضحاك عن ابن عَبَّاس.

وهــذه المعاني صالحة أيضا مع تعلُّــق «مِن لَّدُنَّــا» بـ«ءَاتَيْنَاهُ». وعن ابن زيد[1] وعكرمة: الحنــان المحبَّــة، أي جعلناه محبوبا عند الناس، كموســى ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ [سورة طه: 39] أو جعلناه محبًّا لله. والزكاة: البركة فيما روي عن ابن عَبَّاس، وذلك أنَّه نفَّــاع للخلق معلِّم للخير، أو الطهارة من الذنوب، وقيل: الزكاة الصدقة، والمراد ما يتصدَّق به.

﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾ عظيم الحذر عن المعاصي، مــا عمل معصية ولا همَّ بها، وذكر مالك وأحمد وابــن المبارك وأبو نعيم عن مجاهد أنَّ طعامه العشــب، وأنَّه كثير البكاء من خشــية الله حتَّى اتخذت الدموع مجــرى في خدِّه ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ﴾ محسنا إليهما.

[قلت:] قيل: لا عبادة بعد تعظيم الله تعالــى أعظم من برِّ الوالدين، لقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُواْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَــانًا﴾ [سورة الإسراء: 23] والمراد العبادة التي بين مخلوق وآخر، فلا يبحث بأنَّ الصلاة أفضل لأنَّها بين الخالق والمخلوق، أو المراد أنَّه لا أعظم من بــرِّ الوالدين بعد التوحيد، وأمَّا المُسَــاوِي فموجود على أنَّ الصلاة تكون مساوية لبرِّهما، أو قائل من السلف يعتقد أنَّ برَّهما أفضل من الصلاة.

والعطف على خبــر كان، ولا حاجة إلى تقدير بعــض: وجعلناه برًّا، ولا دليل عليه ولو ناسب نظيره حكاية عن عيسى ﴿وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا﴾ متكبِّرا عن الحقِّ، أو متطاولا على الخلق، أو لا يرى لأحد عليــه حقًّا، وعن ابن عَبَّاس: الجبَّار مــن يقتل ويضرب على الغضــب، أومن يجبر نقصــه بادِّعاء منزلة لا يستحقُّها ﴿عَصِيًّا﴾ مخالفا لأمر الله ونهيه، أو عاقًّا لوالديه.

(1) أحمد بن محمد بن زيد فاضل دمشــقي، من علماء الحنابلة، له تآليف منها اختصاره لسيرة ابن هشام توفي سنة 870هـ. الأعلام للزركلي ج 1 ص 230.

[صرف] وهـو فعيل للمبالغـة، ولا دليل علـى أنَّه «فعـول» وأنَّ أصله عَصُويٌ، بضمِّ الصاد وإسـكان الواو وأنَّه قلبت الواو يـاء وأدغمت، وقلبت الضمَّة كسـرة، وذلك لصرفه عن ظاهره، بخلاف «فعيل» فإنَّـه على ظاهره، والمراد المبالغة في النفي، بمعنى انتفى عنه كونه جبَّارا عصيًّا انتفاء عظيما لا نفي مبالغة كونه جَبَّارًا عصيًّا وإلَّا بقي بعض عصيان وإجبار وهو ممنوع.

﴿**وَسَـلَامٌ عَلَيْهِ**﴾ أمان عليه من الله عن أن يمسَّه الشـيطان كما يمسُّ كلَّ مولود كذا قال الطبري.

وأقول: بل التحيَّة المتعارفة من الله كانت تشـريفا لـه في وقت أحوج ما يكون إليها، ثمَّ رأيته لابن عطيَّة، ويدلُّ له حديث أحمد عن الحسن أنَّه التقى عيسى ويحيى فقال لعيسى: «ادع لي أنت خير منِّي» فقال عيسى: «ادع الله لي أنت خير منِّي سـلَّم الله عليك وأنا سلَّمت على نفسـي» وقيل: سلام عيسى أفضل لما فيه من إقامة الله تعالى له في مقام نفسـه مع إفادة اختصاص جميع السلام به، ونفيه عن أهل العداوة.

﴿**يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ**﴾ أمان من وحشة القبر، وفراق الدنيا وعذاب القبر ﴿**وَيَوْمَ يُبْعَـثُ حَيًّا**﴾ من عذاب النار وهول يوم القيامـة. و«حَيًّا» حال مؤكِّدة لعاملها لأنَّ المبعـوث لا يكون إلَّا حيًّا، وللإشـارة إلى أنَّه حـيٌّ لأنَّه مات مقتولا، والشـهداء أحياء، [قلت:] وإلى أنَّ المبعوث الجسد والروح لا الروح وحدها، ولا سيما أنَّ يحيى اسم للجسد والروح لا للروح وحدها.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿16﴾ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿17﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿18﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿19﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿20﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿21﴾ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿22﴾﴾

ـ1ـ
قصَّة مريم وحملها بعيسى عليه السلام

﴿وَاذْكُرْ﴾ يا محمَّد للناس ﴿فِي الْكِتَابِ﴾ في هذه السورة إذ صُدِّرت بقصَّة زكرياء المستتبعة بقصَّة مريم، وقصص الأنبياء، كما تناسبت هذه السورة وسورة الكهف في الاشتمال على عجائب من أصحاب الكهف والجنَّتين وقصَّة موسى والخضر وذي القرنين وولادة يحيى وعيسى، ولا سيما ما قيل: إنَّ أصحاب الكهف من قوم عيسى، وأنَّهم يبعثون ويحجُّون معه، والجمهور **على أنَّ الكتاب القرآن وهو المتبادر** ﴿مَرْيَمَ﴾ أخبار مريم ﴿إِذِ انتَبَذَتْ﴾ اعتزلت، قيل: متعلِّق بـ«أخبار» الذي قدَّرته مضافا لـ«مَرْيَمَ».

وقدَّر أبو حيَّان: «واذكر مريم وما جرى لها إذ انتبذت» وهو أولى لأنَّ جرى أدلُّ على الحدث من الأخبار جمع خبر، أومن نبأ إن قدِّر، بل لا يجوز

تقدير نبأ أو أخبار لأنَّه لا أخبار وقــت الانتباذ، فلو قدِّر «حوادث مريم» لكان أولى لاختصاره وظهور الحدث.

[نحو] وقيل: حال من «نبــأ» المضاف لمريم، أي اذكر نبــأ مريم ثابتا إذ انتبذت، وفيه أنَّه لم يثبت حين انتبذت كما مرَّ، ويجوز أن يكون بدل اشتمال ولو كان الزمان لا يخبر به عن الجثــة، ولا توصف به، ولا يجيء حالا منها، وقيل: بدل مطابق، وفيه أنَّ وقت الانتباذ غير مريــم، وغير نبئها، والقول بأنَّ «إذ» حرف مصدر على معنى التعليل أي لأَنْ انتبذت **تخليط**.

﴿**مِنَ اَهْلِهَا مَكَانًا شَــرْقِيًا**﴾ متعلِّقان بـ«انتبَذَتْ» وقيل: «مَكَانًا» مفعول به لتضمُّن «انتبَذَتْ» معنى أتت. والمراد: مكانا شــرقيًّا من بيت المقدس، أو من دارها تتخلَّى به للعبادة معتزلة عن الناس، وقيل: قعدت في مشــرفة لتغتســل محتجبة بحائط، أو جبل عند ابن عَبَّــاس، وبثوب عند بعض، وذلك كما قال الله ﷻ: ﴿**فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا**﴾ وكون المكان شــرقيًّا اتِّفَاقي لا قصد لها، ولا تفضيل.

لعنــة الله على النصارى كتــب الله عليهم الصلاة إلى الكعبــة والحجِّ فما صرفهم عن ذلك إلَّا انتباذها من أهلها مكانا شرقيًّا، كما أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عَبَّــاس، فجعلوا المشــرق قبلــة، روي أنَّهم كانوا في زمان عيســى يستقبلون بيت المقدس، وما استقبلوا الشرق إلَّا بعد رفعه، وروي أنَّهم زعموا أنَّه ظهر لبعض كبرائهم فأمره بذلك، ويجوز أنَّ الله اختار لها الشــرق بقصدها أو بدونه لأنَّه مطلع الشــمس والقمر وغيرهما من الأنوار الحسِّــيَّة المطابقة للنور العقلي. وروي أنَّ الشرق موضعها في المسجد إذا طهُرت، وإذا حاضت تحوَّلت إلى خالتها.

[قيل:] أتاها ملك في صورة شــابٍّ أمرد وضيء الوجه، حســن شــعر الرأس وذلــك قوله ﷻ: ﴿**فَأَرْسَــلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا**﴾ جبريــل عند الجمهور،

سمِّي روحا لأنَّ الدين يحيى به، والإضافة للتشريف، أو لحبِّ الله إِيَّاهُ، كما تقول لمن تحبُّه: هو روحي، وفي هذا أيضا تشــريف، أو لأنَّه من المقرَّبين الذين لهم روح وريحان، وقيل: هو عيسى كقوله تعالى في عيسى: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [سورة النســاء: 171] وفي الإضافة ما مرَّ ﴿**فَتَمَثَّلَ لَهَا**﴾ أي تمثَّل لها روحنا أي تصوَّر لها ﴿**بَشَرًا سَوِيًّا**﴾ كامل البنية والأدب، لم يفقد من حسان نعوت الآدمية شــيئا، وقيل: تمثَّــل في صورة قريب لها يوســف مــن خدم بيت المقدس لتأنس بكلامه، وتتلقَّى منه ما يلقى إليهــا من كلماته، ولو بدا لها على صورة ملك لنفرت.

[قلت:] لم يجيء إليها لتنحدر نطفة منهــا من صدرها إلى رحمها لتكون عيسى، فإنَّ هذا خطأ كما يدلُّ له قوله تعالى: ﴿**قَالَتِ اِنِّيَ أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا**﴾ لله ﷻ حاذرا للزنى والمعاصي، وإن لم تكن تقيا لم أطمع أن تؤثِّر فيك استعاذتي بالله، بأن تَرْهَبَهَا إلَّا إن يشــاء الله، بمعنى إنَّ تقواك مانعة من الفجور، وهذا تذكير، وهذا شاهد عدل على ورعها، ويقوِّي عدم النطفة ما ذكره الله من النفخ في الدرع.

ومن عادة الملَك ـ بفتح اللام ـ إذا تمثَّل في خير أن يتمثَّل بصورة حسنة كما كان جبريل يتمثَّل لرسول الله ﷺ وفي مصالحه ﷺ بصورة دحية الكلبي.

[نحو] وما قبل «إِنْ» مغن عن جوابهــا، وذلك أولى من أن تقدِّر: إن كنت تقيا اتَّعظــتَ، أو فاذهب عنِّي، أو فــلا تتعرَّض لي، أو إن كنــت تقيًّا تعوَّذت منك، فكيف إن لم تكن تقيًّا؟ ومن أن تجعل «إِنْ» نافية مســتأنفة أي ما كنت تقيًّا بحضورك عندي منفردا، ومن أنَّ «تقيًّا» رجل طالح حقيق بأن يستعاذ منه، أو صالح حقيق بأن تؤثِّر فيه الاستعاذة.

[قيل:] وابتلاها الله ﷻ بصورة [الشخص] الجميل اختبارا لعفَّتها وإظهارا لها واســتعاذتها بالله خوف أن يكون البشر الســويُّ مريدا للزنى، وحذرا من

اشتهائها الطبيعي، وهو لا ينافي ورعها بل يحقِّقه إذ غلبته ولم تعمل به، وقد قال الله ﷻ عن يوسف ؑ: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [سورة يوسف: 33] وقال: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ [سورة يوسف: 24] وقفنا على «هَمَّ بِهَا» أو وصلْناهُ على أنَّه مما بعده، وذلك مع أنَّه من الطبع استعاذ منه فقال: ﴿مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّيَ أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ [سورة يوسف: 23].

[أصول الدين] وكفر من قال: خلْق شيء لا من شيء محال، وهو قول يوجب التسلسل والتسلسل باطل مناف للقدرة، بل يخلق الله الشيء لا من شيء، ويخلق منه ما يريد.

والملَك: جسم عظيم لكن أقدر الله الملائكة على الانطواء، أو له أجزاء أصليَّة قليلة تمثَّل بها وأجزاء فاضلة أسقطها، وإمَّا على أنَّه روحاني فلا إشكال في أنَّه يتصوَّر تارة بهيكل عظيم وتارة بصغير، ولا يقال: إجازة التمثيل يرفع الوثوق بكلِّ ما نراه، فلعلَّه غيره لأنَّا نرى الشيء مستمرًّا، وأيضا يعاد في ذلك إلى نفس التخييل، لعلَّه غير تخييل.

وإسناد الأشياء إلى الاتِّصالات الفلكيَّة كفر قام الدليل القاطع على بطلانها، والعقل ولو أجاز التخييل لكن بطل بالمشاهدة ودلائل الشرع. وذَكَرَتِ «الرحمن» مبالغة في الحذر بأن يرحم ضعفها وعجزها عن الدفع، واستجلابا لرحمة الله الدافعة.

وعن ابن عَبَّاس: لَمَّا قالت: ﴿إِنِّيَ أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ...﴾ تبسَّم جبريل فقال ما ذكر الله ﷻ عنه في قوله: ﴿**قَالَ إِنَّمَآ أَنَاْ رَسُولُ رَبِّكِ**﴾ [كأنَّه قال لها:] ما أنا إلَّا رسول الذي ملك أمرك ونظر مصلحتك الذي استعذت به، لست من أهل الشرِّ ﴿**لأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا**﴾ لأهب بالهمزة، لأكون سببا وواسطة في هبته لك بالنفخ في الدرع، أو «ليهب» بالياء فوق الأيمن، أي ليهب الله لك،

ودعوى أنَّ الأصل الهمزة قلبت ياء لكســر ما قبلها تكلُّف بلا داع، مع ما فيه من الإلباس، واللام على كلِّ حال متعلِّق بـ«رَسُــولُ» لأنَّه بمعنى مرسل كأنَّه قيل: أرســلني لأهب أو ليهب، وإذا صير إلى التقدير فقدِّر: جئت أو أرسلت. و«زَكِيًّا»: ينمو من خير إلى خير فوقه، وتقدَّم تفســيره، فــإنَّ هذا هو ذاك. ولا دلالة في الآية على نبوءة مريم، لأنَّ تكلُّم جبريل لها ليس على طريق النبوءة، وأيضا لم يوح إليها بشرع.

﴿**قَالَتَ اَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ**﴾ في حلال، والجملة حال ﴿**وَلَمَ اَكُ بَغِيًّا**﴾ زانية يمسني بشر في حرام فأحمل منه. واقتصر في سورة آل عمران على ﴿لَمْ يَمْسَسْــنِي بَشَرٌ﴾ [ســورة آل عمران: 47] فحمل فيها على الحلال والحرام إجمالا، والتفصيل هنا للإجمال هنــاك، وأجملت هناك لعلمها أنَّهم ملائكة، وهنا تخوَّفت من البشر السويِّ.

ويجوز أن يكون المسُّ هنا أيضا شــاملا للحلال والحرام، فيكون: ﴿وَلَمَ اَكُ بَغِيًّا﴾ تأكيدا بعطف خاصٍّ على عامٍّ، وذلك من غاية اســتبعادها للولادة، حتَّى قالت ذلك بعد قوله: ﴿لأَهَبَ...﴾.

[صرف] ولم يقل بغِيَّة لأنَّ وزنه «فعول» بمعنــى «فاعل»، وما كذلك لا يؤنَّث، تقول: امرأة ضروب كما تقول: رجل ضــروب. وأصله: «بَغُويٌ» بفتح الموحَّدة وضمِّ الغين وإســكان الواو اجتمعت الواو والياء وســكن الســابق منهما، فقلبت الواو ياء وأدغمت الياء في الياء، وكســرت الغين لتسلم الياء، ولم يقل بَغُوٌّ بقلب الياء واوا كنَهُوٍّ في نَهُويٍ لأنَّ نهو شاذ، وقيل: وزنه «فعيل» بمعنى «فاعــل»، ولم تلحقــه التاء حملا علــى «فعــول»، لأنَّ كلا للمبالغة، والمعنى: أنَّها تبغي الرجال للزنى، نفت ﵂ ذلك عن نفسها.

[صرف] وقيل: للمبالغة كطالق وحائض وما كذلك لا يجب تأنيثه، أو لم تلحقه لاختصاصه بالمؤنَّث كالمثالين، والرجل بَاغٍ قيل: «فعيل» بمعنى

«مفعول»، وما كذلك لا تلحقه التاء إذا ذكر في اللفظ ما يدلُّ على المؤنَّث، كامرأة كحيل. ومعنى «مفعول» أنَّه يبغيها الرجال للزنى، نفت ﵂ ذلك عن نفسها.

﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ هذا إبطال للاستبعاد وتقرير للتحقيق، وتقدَّم كلام في مثل هذا، ولا يبعد أن يجعل هنا كذلك مبهما و﴿قَالَ رَبُّكِ...﴾ تفسير له، ويكون الأمر كذلك تصديقا للاستبعاد، أو الأمر كما وعدت تحقيقا له و﴿قَالَ رَبُّكِ﴾ إبطال للبعد، وتقرير للتحقيق، ومقول القول الثاني هو: ﴿عَلَيَّ هيِّنٌ﴾ وإن ردَّ القول لِمَا قبله قدِّر: قال هو عليَّ هيِّن، لأنَّ جبريل لا يقول هو علي هيِّن.

﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِلنَّاسِ﴾ أي وفعلنا ذلك أو قضينا ذلك لنجعله آية للناس، أي لنجعل ذلك الفعل أو القضاء أو الغلام، أو وَهْبَ الغلام أو لنجعله آية لها وبرهانا ولنجعله آية للناس كلِّهم، أو المؤمنين كما لابن عبَّاس، يستدلُّون به على كمال قدرتنا، أو لنبيِّن به عظم قدرتنا ولنجعله آية، أو يعطف «لِنَجْعَلَهُ» على «لأَهَبَ» بالهمزة بلا التفات، أو على «لِيَهَبَ» بالياء على طريق الالتفات من الغيبة إلى التكلُّم، وفي الوجهين بعد بين المتعاطفين.

﴿وَرَحْمَةً﴾ عظيمة ﴿مِنَّا﴾ يهتدون بهداه ﴿وَكَانَ﴾ ذلك ﴿أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ محكما قضي به في الأزل، أو المعنى أنَّه كتب في اللوح، أو اقتضته الحكمة ورحمتنا الواسعة، والجملة تذييل لهبة الولد وما يتعلَّق بها ولجعله آية ورحمة، فاطمأنَّت إلى قول البشر السويِّ، فدنا منها فنفخ في جيبها فدخلت النفخة في جوفها، فكان ما ذكر الله ﷿ في قوله: ﴿فَحَمَلَتْهُ﴾ وقيل: نفخ من بعيد فوصل النفخ جوفها كما روي عن ابن عبَّاس.

[قصص] وقال ابن جريج: في كمها، وقيل: في ذيلها، وقيل: في فيها. وسنُّها: ثلاث عشرة حينئذ، وعن وهب ومجاهد: خمس عشرة، وقيل: ست

عشرة، وقيل: أربع عشــرة، وقيل: اثنا عشرة، وقيل: عشــر، وكان الحمل بعد حيضتين، وقال محمَّد بن الهيصم رئيس الكرامية[1] الهيصمية: لم تحض، كما قيل: إنَّها مطهَّرة البتَّة.

ومدَّة حملها تســعة أشــهر، أو نحوها على المعتاد، كمــا روي عن ابن عبَّــاس ومحمَّد الباقر إذ لــو خالفت ذلك لذكــر في غرائبهــا المذكورة في السورة، وقيل: ســاعة واحدة كما دلَّ له التعقيب على ظاهره، بلا تأويل في قوله: ﴿**فَانتَبَذَتْ بِهِ**﴾ أي اعتزلت وهو في بطنها.

[نحو] والباء متعلِّق بـ«انتَبَذَتْ» أو بحال محذوفــة وجوبا كونا عامًّا أي ثابتة معه، أو جوازا كونا خَاصًّا أي ملتبسة به.

[بلاغة] ويدلُّ أيضا لكونه ساعة أنَّها محلُّ الرحمة مع ذكر الرحمة قبل، ولو طالت المدَّة لطــال عتاب الناس لها إن ظهر حملهــا، ويدلُّ له أيضا قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللهِ... ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [سورة آل عمران: 59] ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ثمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ المقتضي للســرعة ولو بقيت طينة آدم مدَّة طويلة.

[قصص] وعن عطاء وأبي العالية والضحَّاك: حملته ســبعة أشــهر، قيل: سِتَّة، وشُهر ثمانية أشــهر، ولم يَحْيَ مولود في ثمانية أشــهر غيره فذلك من خصوصيَّاته[2]، وقيل: حملته ساعة وصوِّر في ســاعة ووضعته في ساعة عند الزوال من يومها، وأقلُّ ما يتحرَّك الولد بعد أربعة أشهر، أو في آخرها، وقيل: بعد ثلاثة أشهر، وقيل: شهران، وهما ثلث أقلِّ الولادة وهو ستَّة أشهر أقلُّ ما يحيا به الجنين، وزعم بعض أنَّ الخلقة تتمُّ في أقلّ من خمسين يوما[3].

---

(1) الكرامية أتباع أبي عبد الله محمَّد بن كرم، وهم فرق متعدِّدة.

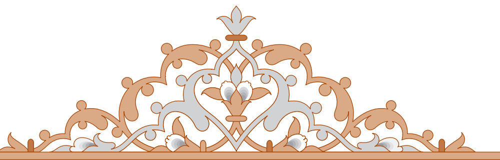
(2) هذا يحتاج لإثباته إلى استقراء علمي، لاسيما مع توفر وسائل رعاية الأطفال الخُدَّج.

(3) وهذا القول يؤيِّده ما ثبت علميا.

﴿مَكَانًا قَصِيًّا﴾ بعيدا من أهلها، لَمَّا أثقلت وجعت وجع الحوامل.

[قصص] وهربت من بيت النبوءة حياء إلى جهة المشرق، وكان قومها يسألون عنها فلا يجدون مخبرا، وكان معها ابن عمٍّ لها يوسف النجار ذهب معها إلى مسجد عند جبل صَهيون، وكانا يخدمان هذا المسجد، ولا أشدَّ عبادة واجتهادًا منهما في زمانهما، وهو أوَّل من علم بحملها وهو عالم بصلاحها لا تغيب عنه، وقال: وقع في قلبي شيء ذكره أشفى لصدري، فقالت: قل قولا جميلا، فقال: هل ينبت بذر بغير زرع؟ وشجرة من غير غيث؟ وولد من غير ذكر؟ فقالت: أنبت الله الزرع يوم خلقه بلا بذر والشجرة بلا غيث أيعجز الله عن ذلك؟ قال: لا، فإنَّ الله يقول للشيء كن فيكون، قالت: والله خلق آدم وحوَّاء بلا ذكر ولا أنثى، فزال همُّه، وناب عنها في خدمة المسجد لضعفها بالحمل والهمِّ.

[قصص] قيل: أوحى الله ﷻ إليها لَمَّا دنت ولادتها: «اخرجي من أرض قومك لِئَلَّا يقتلوا ولدك» فحملها يوسف على حماره إلى مصر، وولدت في أهناس من أعمال مصر، وقيل: ﴿مَكَانًا قَصِيًّا﴾: في دارها، وهو أنسب لقرب مدَّة الحمل.



﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿23﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿24﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿25﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿26﴾ ﴾

ـ 2 ـ

ولادة عيسى وما اقترن بها

﴿ فَأَجَآءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ ﴾ أي صيّرها جائية إليه. وهو جاء دخلت عليه همزة التعدية، جاء بها المخاض إلى جذع النخلة لتستند إليه عند الولادة، ولتستتر به، والمخاض: وجع لتحرُّك الجنين للخروج.

[قصص] و«ال» في «النَّخْلَةِ» للجنس، ولم يعلمها ﷺ، وقيل: للعهد بأن أراه الله تعالى إِيَّاهَا ليلة الإسراء، وهي على أكمة ولا سعف فيها، وقيل: خلقها الله لها حين أشرفت على الولادة، وشاهدت حدوثها، وذلك لتعلم قدرة الله على إيجاد ما شاء، أو رأت جذعا ميّتا فأحياه الله وأسعفه وأثمره في غير وقت الثمر فتسكن للولادة بلا وجل، وفي ذلك تلويح إلى أنَّ ولدها يحيي القلوب والموتى بإذن الله عز وجل.

[قصص] كتب بعض ملوك الروم إلى عمر رضي الله عنه: بلغني أنَّ بيدك شجرة تخرج ثمرا كأنَّها آذان الحمر، ثمَّ تنشقُّ عن أحسن من اللؤلؤ المنظوم، ثمَّ تخضرُّ فتكون كالزمرّدة ثمَّ تحمرُّ أو تصفرُّ فتكون كشذور الذهب وقطع

الياقوت، ثمَّ تينع فتكون كأطيب الفالوذج فتكون قوتــا، وتدَّخر مؤونة، فلله درُّها شــجرة، وإن صدق هــذا الخبر فهــذه من شــجر الجنَّــة، فكتب إليه عمر رضي الله عنه: «قد صدق المخبر وإنَّها الشــجرة التي ولد تحتها المسيح، وقال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللهِ﴾ فلا تدع مع الله إلها آخر».

﴿**قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا**﴾ قبل هذا الوقت الذي لقيت فيه ما لقيت، أو قبل هذا الحمل، أو قبل هذا الوقت وقت الــولادة، وقالت ذلك مع علمها بما قال جبريل لنسيانها بالهول، أو استحياء من الناس وخوفا من لومهم ولو تذكَّرت قول جبريل.

تمنَّت بالطبع ما لم يقضه الله عز وجل مع جزمها بأنَّه لا يكون ما لم يقض، أو حذرا من أن يعصي الناس بنســبتها إلى الزنى، أو لِمَا روي أنَّها سمعت قائلا: «اخرج من بطنها يا من يُعبد من دون الله» ولا يكره لها هذا لأنَّه خوف معصية وذلك تمــنٍّ بعد وقوع الضرر، فــلا يدخل في قولــه صلى الله عليه وسلم: «**لا يتمَنَّيَنَّ أحدكم الموت لضرٍّ نزل به** ـ أي ينزل به ـ **فإن كان ولا بدَّ متمنِّيا فليقل: اللهمَّ أحيني ما كانت الحياة خيرا لي، وتوفَّني إذا كانت الوفــاة خيرا لي**»(1). ولا يصحُّ أن تتمنَّى الموت لشدَّة الوجع.

﴿**وَكُنتُ نِسْيًا**﴾ شــيئا حقيرا لا يعتدُّ به حتَّى إنَّ من شأنه أن يُنسى ولو لم ينس ولم يخطر بالبال ﴿**مَّنسِيًّا**﴾ لا يخطر ببال.

[صرف] أصله «مَنْسُــويًا» اجتمعت الواو والياء وســكن الســابق منهما فقلبت الواو ياء، وأدغمت في الياء وقلبت الضمَّة كسرة.

﴿**فَنَادَاٰيهَا**﴾ أي عيسى، أي فولدت فناداها بإذن الله عز وجل ﴿**مِن تَحْتِهَآ**﴾ قبل تمام خروجه لتحقُّق التحتيَّة أو بعده فالتحتية اعتبــار لِمَا قبل التمام، أو لعلوِّ

---

(1) رواه **البخــاري** في كتاب الدعوات (30) بــاب الدعاء بالموت والحيــاة، رقم 6349. ورواه **مسلم** في كتاب الذكر والدعاء، باب كراهة تمنِّي الموت، رقم 2680. من حديث أنس.

جسدها عليه، وقال ابن عبّاس رضي الله عنه: ناداها جبريل عليه السلام، وقرأ: «فناداها ملك» فمعنى ﴿مِـن تَحْتِهَا﴾: من تحت الكدية التي ولدت عليها، ولم يحضرها احتراما لها وخوف أن تنكشف عورتها.

[قلت:] فما قيل من أنَّ جبريل تحتها عند الولادة يقبل الولد مما لا ينبغي. قيل: هاء «تَحْتِهَا» للنخلة، وأقسم الحسن البصري أنَّه ما كان هذا وأنَّه ناداها من أرض تحت أرض هي فيها.

﴿**أَلَّا تَحْزَنِي**﴾ «أَنْ» تفسيريَّة لتقدُّم معنى القول دون حروفه لا مَصدَرِيَّة بتقدير الباء، وعلَّل النهي بقوله: ﴿**قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا**﴾ عين ماء كما رواه البخاري[1] ومسلم عن البراء مرفوعا، وفي رواية للبخاري وقفه على أبي سعيد وصحَّح السيوطي أنَّه موقوف، قيل: وهو عين من الأردن أجراه الله عز وجل إليها إذ عطشت.

[قصص] وروي أنَّ جبريل ضرب الأرض فظهرت عين ماء عذب فجرى جدولا، فيحتمل أنَّ الله جل جلاله أنبعها من الأردن لضربه، وقال أبو جعفر: نبعت بضرب عيسى عليه السلام، وقيل: العين موجودة من قبل نبَّهها الله إليها، وقيل: عين يابسة أجراها الله تعالى لها، [قلت:] وسياق الآية ومقام الخوارق للعادة يقضيان إحداثها. وسمِّيت العين سريًّا لأنَّ ماءها يسري، وعين الماء يذكَّر ويؤنَّث.

[صرف] و[السريُّ] لامه عن ياء، وقيل: السريُّ عيسى من السرو وهو الرفعة شأنا وقدرا، والسخاء والمروءة، فلامه عن واو وقلبت ياء لتقدُّم ياء ساكنة عليها. و«قد» ولفظ الربوبيَّة لتأكيد التعليل وتكميل التسلية، وفي الإضافة تشريف.

---

(1) انظر: **البخاري**، كتاب الأنبياء (49) باب قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾، رقم 3252 عن البراء موقوفا.

[نحو] ﴿وَهُــزِّي إِلَيْكِ﴾ زعموا أنَّه لا يعمل الفعــل في ضميرين متَّصلين لمسمًّى واحد ولو جرَّ الثاني بالحرف إلَّا في باب ظنَّ وعلم وفقد وعدم ورأى الحُلمية، قلت: لا مانع من ذلــك إذا كان بحرف الجرِّ كما هنا، وكما في قوله تعالى: ﴿وَاضْمُمِ اِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهَبِ﴾ [سورة القصص: 32] وقوله: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ [ســورة الأحزاب: 37] وقولــه: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ﴾ [ســورة الأحزاب: 59] وقوله: ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ [ســورة البقرة: 260] وهو كثير في القرآن [قلت:] **وما كثر لا يحســن منع القياس عليه ولا تأويله**. ولم يجئ فــي القرآن بلا حرف وهو ممنوع، نحو ضربتَكَ بفتــح التاء وضربتُني بضمِّها وزيد ضربَهُ بردِّ المســتتر والهاء إلى زيــد، فهو متعلِّق بـ«هُــزِّي» ولا حاجة إلى تقديــر «أعني إليك»، وأيضا «إلى» في هذه العنايــة إن علَّقت بـ«هزِّي» محــذوف فقد رجعت إلى المحذور ولو قدِّر مضافا أي إلى جهتك لكان أولى مع أنَّه لا حاجة إليه.

ولا حاجة إلى جعل «إلى» اســما بمعنى عند، ولا إلى جعلها اســم فعل وعدِّي بـ«إلى» لتضمُّنه معنى الإمالة، بل لا يحتاج إلى تأويل، ألا ترى صحَّة قولك هزَّه إلى كذا وكأنَّه قيل: حرَّكه إلى كــذا، والهزُّ: التحريك إلى أيِّ جهة بعنف أو بلا عنف، والهزُّ إلى جهتها أو يمينا وشمالا فيسقط التمر قدَّامها.

﴿بِجِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ الباء صلة للتأكيد، والجذع مفعول به، وإن جعلنا الباء للآلة فالمفعول محذوف تقديره: «هزِّي بجذع النخلة فروعَها، أو قِنوانَها»، ولا يحســن «هزِّي ثمارها»، وقــد كان يكفي عن هزِّها هزُّ محلِّها، فلا يحســن جعــل «رُطَبًا» مفعولا به لـ«هُزِّي». ومن خوارق العــادة قدرتها على هزِّ جذع النخلة، أو خلقه الله رقيقا ليِّنا، وكون ذلك في غير أوان الرطب خارق آخر، ويروى أنَّ عيسى أو جبريل ضرب الأرض بعقبه فجرت العين اليابسة واخضرَّت النخلة وأثمرت وأينعت.

﴿تَسَّــاقَطْ عَلَيْكِ﴾ تتســاقط أدغمت التاء الثانية في السين، والفاعل ضمير النخلة ﴿رُطَبًا﴾ تمييز محوَّل عن الفاعل، الأصل: «تتساقط عليك رطبها»، وهي

نضيج البسر والواحدة رطبة، ومعنى «عَلَى» العلوُّ على قدَّامها، ويحتمل السقوط على رأسها أو حجرها، أو على مطلق جسدها، فذلك بيان لكثرة الثمار الساقطة، وأكَّد الكثرة بإسناد السقوط إلى نفس النخلة وأكَّدها أيضا بصيغة التفاعل.

﴿**جَنِيًّا**﴾ تمَّ نضجه كلُّها، خرج عن البسر ولم يصل التمر، وكان بحيث يستحقُّ أن يجنى أي يقطف من متعلَّقه، وما يجنى خير مما يسقط في الجملة لأنَّه يلتصق بالتراب، وقد تأكل منه نملة وقد يكون قديما، وما قرب عهدا أحسن مما بعد عهده، ولكن جمع الله تبارك وتعالى كونه ساقطا في نظافة ما يجنى، وما مفرده بالتاء هكذا يذكَّر ويؤنَّث، ولذا قال: ﴿جَنِيًّا﴾ ولم يقل جنيَّة.

[قصص] وعن ابن عبَّاس: لَمَّا هزَّت الجذع أسعف فأطلع فاخضرَّ فأبلح فاحمرَّ أو اصفرَّ فأزهى فأرطب في ساعة واحدة، وهي تنظر، وكان بَرْنيا أو عجوة وهو المشهور، وقيل: حملت أيضا الموز ولم يذكر لأنَّ غاية النفع للنفساء في الرطب.

[فوائد الرطب] وعن محمَّد الباقر لم تستشف النفساء بمثل الرطب، إنَّ الله أطعمه مريم في نفاسها، وقالوا: ما للنفساء خير من الرطب، ولا للمريض خير من العسل، قيل: ولا سيما إذا عسر نفاسها، وذكروا أنَّ التمر للنفساء من ذلك الوقت، وكذا تحنيك الصبي به إذا ولد.

وفي أمرها بالهزِّ إشارة إلى الأمر بالكسب، وأنَّه لا ينافي التوكُّل قيل:

ألم تر أنَّ الله أوحى لمريم	وهزِّي إليك الجذع يسَّاقط الرطب
ولو شاء أحنى الجذع من غير هزِّه إليها	ولكن كلُّ شيء له سبب[1]

[قلت:] والله تعالى ﷻ أجرى الأمور على الأسباب ليكون للخلق فيها

(1) لم نقف على قائل البيتين، وقد أوردهما بعض المفسرين، منهم **الآلوسي** في روح المعاني، في تفسير الآية ذاتها، ج16، ص85.

مدخل بالكسب، ورجاء وطمع وهروب عن المكروه، وذلك إجراء فيما يكون وما لا يكون، كما في الإمداد بالملائكة بشرط أن يكون كذا، وقد علم الله أنَّه لا يكون كذا فلا إمداد، وكما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾ [سورة الأنفال: 42] وقد علم الله تعالى لا تواعد بينهم ولا تخالف.

﴿**فَكُلِي**﴾ من الرطب ﴿**وَاشْرَبِي**﴾ من السَّرِيِّ، وهذا هو الظاهر، وقيل: اشربي من عصير الرطب وكان في غاية الطراوة، وفيه أنَّه لا ذكر في الآية للعصر، وقدَّم ذكر وجود الماء وأحضره لأنَّ الماء أشرح للنفس ولا سيما الجاري، والاهتمام به أشدُّ، وهو للتنظيف والشرب معا، وأخَّر الشرب عن الأكل لاعتياد ذلك، وليتَّصل الأكل بلفظ المأكول وهو الرطب. وأمرُها بالأكل والشرب للوجوب بمعنى أَنَّ الله عَجَلَّ قضى حياتها وحياة ولدها وقوتهما بالأكل والشرب وهو الأصل، وكيف تترك ضيافة الله؟، وقيل: إباحة، وقيل باحتمال الوجوب والندب.

﴿**وَقَرِّي عَيْنًا**﴾ هذا أمر للوجوب، لكن ليس على ظاهره لأنَّ قرَّة العين ضروريَّة لا كسبيَّة، بل باعتبار ما أريد بها وهو ترك الحزن، كأنَّه قيل: اتركي الحزن إلى الانشراح، فلا يتكرَّر مع قوله: ﴿أَلَّا تَحْزَنِي﴾ وهو المراد إلَّا أنَّ دمعة الحزن حارَّة والعين حارَّة عنده، ودمعة الفرح باردة بمعنى أنَّها ليست حارَّة فعبَّر عنها بالقرِّ وهو البرد، ويجوز تفسير ﴿قَرِّي﴾ بـ«اسكني» عن الاضطراب بالضيق، أَمَرها بالسكون وترك الحزن.

كما روي أنَّ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: ﴿لَا تَحْزَنِي﴾ فقالت: كيف لا أحزن وأنت معي ولست ذات زوج ولا مملوكة؟ فما عذري عند الناس؟ فقال لها: اسكتي وأتكلَّم عنك، كما قال الله عَجَلَّ: ﴿**فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا**﴾ «إمَّا»: «إن» الشرطية و«ما» المؤكِّدة. ﴿**فَقُولِي**﴾ له إن كلَّمك وأراد جوابا ﴿**إِنِّي نَذَرْتُ**﴾ وعدت، فالنذر يكون بلا شرط كما يكون الوعد بلا شرط ﴿**لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا**﴾ لا تنتصري لنفسك فتتعبي، أنا أجيب عنك السفهاء.

[قلت:] فيه أنَّ السكوت عن السفيه مأمور به مؤكَّد حتَّى قيل: واجب، وأيضا الله يجيب عنها وأجاب عنها عيسى، وذلك أقوى من أن تجيب هي، أو لَمَّا أذعنت للصمت أنطق الله لها عيسى مجيبا عنها. و﴿صَوْمًا﴾: إمساكا عن الكلام، أو عنه وعن المفطرات.

[فقه] وكانوا إذا أرادوا التقرُّب إلى الله تعالى لم يتكلَّموا يومهم، أو إلى العشيِّ ولو بلا صوم، ويعدُّون ذلك عبادة عظيمة، وكانوا لا يتكلَّمون في صيامهم، **ونسخ في شرعنا فمن نذره لم يجز له الوفاء به،** دخل الصدِّيق ﵁ على امرأة نذرت أن لا تتكلَّم فقال: «إنَّ الإسلام هدَم هذا فتكلَّمي».

[قلت:] ولا دليل على اختصاص مريم به في رواية حارثة بن مضرب، كنت عند ابن مسعود فجاء رجلان فسلَّم أحدهما ولم يسلِّم الآخر ثمَّ جلسا فقالوا: ما لصاحبك لم يسلِّم؟ فقال: نذر صوما لا يكلِّم اليوم إنسيًّا، فقال له ابن مسعود: «بئس ما قلت إنَّما كانت تلك المرأة ـ يعني مريم ـ قالت ذلك ليكون عذرا لها إذا سئلت فكلِّم وأمر بالمعروف، وانه عن المنكر خيرا لك»[(1)]، وخصَّها بالذكر لأنَّها التي علم منها ذلك في القرآن.

[قلت:] ولعلَّ الرجل أتى قبل الذي سلَّم بحيث لا يكفي أحدهما عن الآخر، وإلَّا لم ينتظر منه السلام، وسلام الواحد يكفي عن غيره، أو أرادوا بسلامه مطلق الكلام لَمَّا رأوه ساكتا.

وتبادر إلى الأفهام أنَّها نذرت الصوم من قبل بأمر الله ﷻ، وأنَّه أباح الله ﷻ أن تتكلَّم بهذا الإخبار ثمَّ لا تتكلَّم، أو أن تخبر بالإشارة، واستظهره بعض.

وعن الفرَّاء: الكلام يصدق بكلِّ ما يفهم به إلَّا إذا أكِّد بالمصدر فباللسان، نحو كلَّمته تكليما لأنَّ المجاز لا يؤكَّد، وإطلاق الكلام على غير النطق مجاز،

---

(1) أورده **السيوطي** في الدر: ج 4، ص 296. وقال: أخرجه ابن أبي حاتم عن حارثة بن مضرب.

وعلى كلِّ حال لم يكن هنا إلَّا أمرهــا بالإخبار بالنذر، وليس فيه إخبار به بل الإخبار به في قوله: ﴿فَأَشَارَتِ اِلَيْهِ﴾ فهو بالإشارة ﴿**فَلَنُ اكَلِّمَ الْيَوْمَ**﴾ كلَّ يوم كلَّموها فيه، قالــت: لن أكلِّم اليــوم، أو أرادت باليوم كلَّ زمــان كلَّموها فيه ﴿**إِنسِيًّا**﴾ تأكيدا لنذر الصوم، وزيادة بيان، ويحتمل أنَّها نذرت من حين قولها: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ...﴾ لا أكلِّم اليوم إنســيا بل ربِّي والملك، أُمرت بذلك لكراهة مجادلة السفهاء وللاكتفاء بنصِّ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

﴿فَأَتَتۡ بِهِۦ قَوۡمَهَا تَحۡمِلُهُۥۖ قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ٢٧ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ٢٨ فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ٢٩ قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ٣٠ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا ٣١ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا ٣٢ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ٣٣﴾

ـ 3 ـ

نبوءة عيسى ونطقه وهو في المهد

﴿**فَأَتَتْ بِهِ**﴾ معه أو صيَّرته آتيا، أي أحضرته ﴿**قَوْمَهَا**﴾ وجملة ﴿**تَحْمِلُهُ**﴾ حال من المستتر في «أَتَتْ» أو من هاء «بِهِ». وهذا المجيء بعد أربعين يوما من نفاسها إذ طهرت من النفاس، رواه سعيد بن منصور عن ابن عبَّاس.

[قصص] [قيل:] ذهب بها يوسف إلى غار فمكثت فيه أربعين يوما، وقيل: حنَّت إلى الوطن وعلمت أن ستكفى أمرها فلمَّا رآها قومها تباكوا، وهمُّوا برجمها فتكلَّم عيسى فكفُّوا، وقيل: فقدوها من محرابها فسألوا يوسف فقال: لا أدري، ومفتاح محرابها عند زكرياء، وفتح زكرياء الباب فلم توجد، ووبَّخوا يوسف على إهمالها، وقال رجل: رأيتها في موضع كذا فخرجوا إليه، وسمعوا صوت عَقْعَقٍ على رأس الجذع فرأتهم فتلقَّتهم بعيسى، وقيل: أرسلوا إليها: احضري بولدك، وقد أخبرهم الشيطان به فجاءتهم به.

فكان ما أخبر الله ﷻ به في قوله: ﴿**قَالُواْ يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا**﴾

عظيما أو عجيبا كشـيء صنع صنعا عظيما مـن الفِرَاء بتخفيـف الراء وهو الجلد، إلَّا أنَّهم أرادوا هنا عظيما في شـرٍّ ﴿يَآ أُخْتَ هَارُونَ﴾ نداء متَّصل بما قبل، أو مستأنف لِمَا بعد تعظيما لتجديد العتاب.

[قصص] وهارون: رجل صالح، والأُخوَّة دِينِيَّةٌ، اتَّبَعَ جنازته أربعون ألف رجل، اسم كلٍّ «هارون» سوى سـائر الناس، رواه عبد الرزاق عن قتادة، وعن الكلبي: أخ لها من أمِّها فالأخوَّة دِينِيَّة ونَسَـبيَّة، وكانوا يسمُّون بأسماء الأنبياء والصالحين، قال المغيرة بن شـعبة: بعثني رسـول الله ﷺ إلى نجران فقالوا: أرأيت ما تقرؤون: ﴿يَآ أُخْتَ هَارُونَ﴾؟ وإنَّ موسـى قبل عيسـى بألف سنة، فأخبرت بذلك رسـول الله ﷺ فقال: «**ألا أخبرتهم أنَّهم كانوا يسمُّون بأسماء الأنبياء والصالحين**»[1]. وعلى كلِّ حال شـبَّهوها بالرجـل الصالح تهكُّما بها كما إذا قلنا أرادوا أخا موسى كما روي عن السدِّي وعليِّ بن أبي طلحة[2]، أو كانت من نسل من هو أخ لموسى فهي واحدة منهم.

أو هارون اسم لذلك النسل لهارون أخي موسى كهاشم وتميم، ولكن لا ينبغي العدول إلى هذا عن حديث المغيرة المتقدِّم الذي رواه أحمد ومسـلم والترمذي والنسـائي والطبرانـي وابن حبَّـان وغيرهم، وقيل: رجل فاسـق أضافوها إليه بالأخوَّة في الشرِّ شتما لها.

﴿مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ﴾ شرٍّ كالفسـق ﴿وَمَا كَانَتُ امُّكِ بَغِيًّا﴾ [قلت:] وارتـكاب الفحش مـن أولاد الصالحين أقبـح من ارتـكاب أولاد غيرهم، وصلاح الأصل يورث الصلاح للفرع أصالة في الجملة أو غالبا.

---

(1) رواه **مسـلم**: في كتاب الآداب. باب النهي عن التكَنِّي بأبي القاسم، رقم: 5721، من حديث المغيرة بن شعبة، بلفظ قريب.

(2) أبو الحسـن علي بن أبي طلحة سـالم بن المخارق، روى عن مجاهـد وغيره، وروى عنه كثيرون. أصله من الجزيـرة انتقل إلى حمص. توفي سـنة 143 هـ. ينظـر: **المزي**: تهذيب الكمال، ج20، ص 490 ـ 493.

﴿فَأَشَارَتِ اِلَيْهِ﴾ إلى الولد أن كلِّموه، فهنا أخبرت بنذرها إشارة لا نطقا فليفسَّر بها قوله: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ للرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ فلا تحاور إنسانا، وقيل: أشارت إلى عيسى أن أجب عنِّي، وقد قال لها في رجوعها من الغار: أبشري فإنَّ الله تعالى يبرِّئك، ويؤيِّد الأوَّل قوله تعالى: ﴿قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ أنكروا جوابها حتَّى قالوا: استخفافُها بنا إذ ردَّتنا إلى خطاب من في المهد أشدُّ من زناها، قلنا: حاشاها.

[لغة] والمهد: ما يفرش للمولود أو يطوى فيه، وقال قتادة: حِجر أمِّه، وقال عكرمة: مصنوع للولد يعلَّق ويحرَّك له، وقيل: سرير.

وإن قلت: كُلُّ من كلَّمناه أو نكلِّمه قد كان في المهد صبيًّا فما معنى الآيَة؟ قلت: معنى ﴿كَانَ﴾: ثبت، والثبوت مستمرٌّ، وَكَأَنَّهُ قيل: من كان الآن، أي ثبت؛ وإن منعنا عملها عَلَى هَذَا المَعْنَى فـ«صَبِيًّا» حال، أو كان أمس، أو في زمان قريب إِلىَ زماننا هَذَا في المهد صبيًّا وَاسْتَمَرَّ إِلىَ الآن فيه، وَالمُرَاد: عيسى عليه السلام؛ أو كيف نكلِّم من مضى في المهد صبيًّا قبل ولدك هَذَا، لا يتَصَوَّرُ ذَلِكَ، فكيف يتَصَوَّرُ مع ولدك، فالمراد: غير عيسى عليه السلام. و«نُكَلِّمُ» للاستمرار، أو زيد «كَانَ» للتأكيد، لا يَدُلُّ عَلَى زمان ولا حدث. و«فِي الْمَهْدِ» صلة، و«صَبِيًّا» حال من المستتر فيه أو الماضي بمعنى مضارع الحال. و«مَن» في ذَلِكَ موصولة أو موصوفة لا تختصُّ الموصولة بما إذا فسِّر بعيسى، والموصوفة بغيره كما قيل. وَكَأَنَّهُ قيل: فماذا كان بعدُ؟ فأجاب بما في قوله:

﴿قَالَ﴾ وهو ابن يومه، وقيل: ابن أربعين يوما على ما مرَّ ﴿إِنِّي عَبْدُ اللهِ﴾ قيل: كان يرضع فترك الثدي إذ سمع كلامهم واستقبلهم بوجهه واتكأ على يساره وأشار بسبَّابته فقال: إنِّي عبد الله، وقيل: استنطقه يحيى فأجابه بذلك.

ولو كان ولدا لله ـ تعالى الله عن الولادة ـ لم يقل إنِّي عبد الله، والولد لا يكون عبدا لأبيه، وكان أوَّل ما نطق به إثبات العُبُودِيَّة على نفسه لله تعالى نفيا

للألوهيَّة عن نفسه، وتباعدا عن أن يتَّخذ إلها وفي نطقه قبلَ أَوَانِ النطق مطلقا إزالة التهمة عن أمِّه، وفي ذكر ما مرَّ عن مريم وذكر صفات عيسى ما دلَّ على براءتها، وبقي يتكلَّم بعد ذلك لتأكيد براءتها، وقيل: لا حتَّى بلغ أوان الكلام، كما رواه بعض حديثا عنه ﷺ.

﴿ءَاتَانِيَ **الْكِتَابَ**﴾ الإنجيل، أو إِيَّاهُ والتوراةَ والصحف ﴿**وَجَعَلَنِي نَبِيًّا**﴾ أي أثبت لي في قضائـه أو في اللوح إيتاء الكتاب والنبـوءة لأوانهما بعد إذا بلغت أربعين عاما على أنَّه حيي حتَّى بلغ الأربعين، كما قال ﷺ: «**كنت نبيئا وآدم بين الروح والجسـد**»[1]، أو الأفعال الماضيات لتحقُّق الوقوع بعدُ فكأنَّه قد وقع ذلك، وقيل: ثبت ذلك في حينه بأن أكمل عقله واستنبأه وآتاه الكتاب وهو طفل، كما روي عن الحسـن، وجاء عن أنس أنَّ عيسـى درس الإنجيل وأحكمه في بطن أمه، وعن الحسن أَنَّه ألهم التوراة في بطن أمِّه.

﴿**وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا اَيْنَ مَا كُنتُ**﴾ نفَّاعا من صغري كإبراء الأكمه والأبرص وتعليـم الدين والأمـر بالمعـروف والنهي عـن المنكر، وقضـاء الحوائج ﴿**وَأَوْصَانِي بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَوٰةِ**﴾ أمرني أمرا أكيدا كما هو شأن الإيصاء بالشيء بصلاة الركوع والسـجود وبزكاة المال على وجه مخصوص في شـريعتهم، وقيل الزكاة زكاة الفطر.

وقيل: الصـلاة الدعاء والزكاة طهارة النفس مـن الذنوب والمكاره، وهو مُكَلَّف من حين ولد إذ ولد بالغا عاقلا كما هو ظاهر قوله: ﴿أَوْصَانِي﴾ وقوله: ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾وكان يعقل عقل الرجال الكمَّل.

وقيل: **أمرني بذلك أن أفعلـه إذا بلغت أوانه**، قلت: ويبحث في تفسـير الزكاة بزكاة المـال بأنَّه لا مال للأنبيـاء وما في أيديهـم لله ﷻ، ولذلك لا

(1) رواه **الترمذي**. في كتاب المناقب، باب في فضل النبي ﷺ، رقم 3609، من حديث أبي هريرة.

يورثون، وقد نزَّههم الله عن الدنيا، ولأنَّ الزكاة تطهيــر للمال وما في أيديهم طاهر. والقول بأنَّ المــراد إيجاب الزكاة على أمَّته خــلاف الظاهر، أو المراد إيجاب الــزكاة عليه إن ملك مالا ﴿مَــا دُمْتُ حَيًّا﴾ معكم فــي الأرض، وإذا رفعت إلى الســماء فلا زكاة مال عليّ، إذ لا يتصوَّر ملك المال في الســماء، وأمَّا الصلاة فكلِّف بها في السماء كما كلِّفت الملائكة بالعبادة.

﴿وَبَــرًّا﴾ عطف علــى «مُبَارَكًا»، ولــو فصل لظهور المعنــى وارتكاب الإعراب على الفصل لظهوره أولى من تقدير: وجعلني بارًّا ﴿بِوَالِدَتِي﴾ ظاهر في أنَّــه لا أب له ولا بدَّ من هذا ففيه إشــارة إلــى براءتها من الســوء ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَــقِيًّا﴾ متكبِّرا ظالما، وقيل: عاقًّا، ويقــال: لا تجد العاقَّ إلَّا جبَّارا شقيًّا، أي لم يقض عليَّ في الأزل واللوح المحفوظ بذلك.

وكان في غاية التواضع يأكل الشجر ويلبس الشعر ويجلس على التراب، ولم يتَّخذ مســكنا بالتملُّك ولا بالكراء ولا بالعاريــة ولا بوجه ما، ولم يضع طوبة على طوبة، ويقول: «سلوني فإنِّي صغير في نفسي ليِّن القلب».

﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ مرَّ مثله. و«ال» للجنس. وسلَّم على نفسه تعريضا بأنَّه لا ســلام على متَّهمي أمِّه من اليهود، بعد ما بيَّن لهم، كأنَّه قال: الســلام عليَّ دونكم وعليكم اللعنة، كقوله تعالى: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾ [سورة طه: 47].

[فقه] وقبل تبيين عيســى لا يعاتب من عاتبها أو ظــنَّ بلا جزم لمخالفة شأنها للمعتاد، والغيب يعلمه الله خاصَّة لا يكلَّفون بالغيب.

وليســت «ال» للعهد، لأنَّ الســلام المتقدِّم ليحيى منقطــع لم ندر أنَّ عيسى علم بسلام يحيى حين قال هذا، ولعلَّه علمه لكن لا يدري أنَّ الناس علموا به حتَّــى يجيء به علــى طريق العهد لهــم، اللهــمَّ إلَّا على طريق

الاستخدام كالضمير في الاستخدام فإنَّ الاســتخدام يقع بالضمير والظاهر والإشارة، وما أمكن.

وأيضــا يمكن أن يكــون كقولــه ﷻ: ﴿هَــذَا الــذِي رُزِقْنَا مِــن قَبْلُ﴾ [ســورة البقرة: 25] أي مثله، أي مثل ســلام يحيى، لكن يعــارض ما ذكرت من الانقطاع، وفي حمله على ســلام يحيى فوت التعريض بــه والتلويح إلى أنَّ اليهود عليهم اللعنة لا السلام، إلَّا أنَّ من الجائز أن يراد العهد والتلويح معا إذ لا مانع من أن يقول: السلام المعهود لي لا شيء منه لهم.

﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ ۝34 مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝35 وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ۝36 فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ۝37 أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ يَوۡمَ يَأۡتُونَنَاۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلۡيَوۡمَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ۝38 وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ إِذۡ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ وَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝39 إِنَّا نَحۡنُ نَرِثُ ٱلۡأَرۡضَ وَمَنۡ عَلَيۡهَا وَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ۝40﴾

ـ 4 ـ

اختلاف النصارى في شأن عيسى

﴿**ذَٰلِـكَ**﴾ الموصوف بالنعوت الجليلة المتميِّز عن غيره بها، البعيد المنزلة، المنزَّل منزلة المشاهَد ﴿**عِيسَى**﴾ خبر «ذَلِكَ» ﴿**ابْنُ مَرْيَمَ**﴾ عطف بيان، أو بدل، أو نعت وعليه الأكثر، أو خبر ثان. وذلك ردٌّ على النصارى، أي ذلك عيسى بن مريم المتَّصف بتلك الصفات: العُبُودِيَّة وغيرها، لا بالبنوَّة لله سبحانه، ولا بالألوهيَّة مع الله، ولا بألوهيَّته دون الله.

[بلاغة] وهذا حصر من خارج لأنَّ الحصر بتعريف الطرفين لا يتصوَّر مطلقا على ما رجِّح، بل مع كون المسند بـ«ال» أو مضافا لِمَا فيه «ال»، أو مع ضمير الفصل، نحو: زيد هو ابنك، أو القائم هو ابنك.

[نحو] ﴿**قَوْلُ الْحَقِّ الذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ**﴾ خبر لمحذوف، أي هو قول الحقِّ، وتناسبه قراءة النصب على أنَّه مفعول مطلق لـ«قَالَ»، من قوله: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ

اللهِ﴾ ولو كثر الفصل لأنَّ الفصل من مقول القول، إلَّا قوله: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ابنُ مَرْيَمَ﴾ فمن قول الله ﷻ، وهو تصديق لتلك المقولات وكأنَّه بعضها، أو مفعول مطلق لمحذوف أي أقول قول الحقِّ، فهو من كلام عيسى، أو من كلام الله، وعلى أنَّه من عيسى ينتهي في ﴿يَمْتَرُونَ﴾ أو في ﴿مُسْتَقِيمٌ﴾ أو مفعول مطلق مؤكِّد لمضمون ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ابنُ مَرْيَمَ﴾ لا حال، لأنَّ لفظه مصدر، ولأنَّه معرفة، فيتكلَّف لذلك بتأويله بمقول وبأنَّ إضافته لنائب الفاعل، ولا داعي إلى ذلك.

والحقُّ: الصدق، والإضافة للبيان أي قولا هو الحقُّ، وهذا أولى من جعله إضافة موصوف لصفته، أو الحقُّ: الله، من الإضافة للفاعل. و«الذي» نعت القول أو الحقُّ، أو القول هو عيسى والحقُّ: الله، كما يسمَّى عيسى كلمة الله، لقوله تعالى: كن فكان، ومعنى ﴿يَمْتَرُونَ﴾ يشكُّون أو يتمارون أي يتنازعون، فقالت اليهود: ساحر، والنصارى: إله أو ابنه، جلَّ الله عن ذلك علوًّا كبيرا.

﴿**مَا كَانَ للهِ أَنْ يَّتَّخِذَ مِنْ وَّلَدٍ**﴾ أي ما يليق به ذلك تعالى ﴿**سُبْحَانَهُ**﴾ سبَّح الله نفسه عن ذلك تسبيحا، أو أمر الله أن نسبِّحه عن ذلك أي سبِّحوه بكسر الباء تسبيحا ﴿**إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ**﴾ بلا علاج ولا كسب في أسرع وقت، ومَن قدرتُه ذلك لا يُتوهَّم له ولد، فإنَّ الولد من أمارات الحاجة، ومن شأن ما يلد أن يموت، والله لا يموت، وهذا وما قبله تبكيت للنصارى وقد صحَّ عندهم أنَّه يعبد الله ويأمر بعبادته، فهو عبد الله تعالى لا إله.

﴿**وَأَنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ**﴾ تقدَّر اللام قبل «أَنَّ» وتعلَّق بـ«اعْبُدُوهُ» على أنَّ الفاء زائدة لتأكيد الربط، أي اعبدوه لأنَّه ربِّي وربُّكم، ولَمَّا قدَّم أظهر لفظ الجلالة كقوله تعالى: ﴿وأَنَّ الْمَسَاجِدَ للهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ اللهِ أَحَدًا﴾ [سورة الجن: 18] إذا قلنا: المعنى لا تدعوا مع الله لأنَّ المساجد لله، وذلك قول الخليل وسيبويه.

أو يقدَّر العطف على الصلاة، أي وأوصاني بالصلاة والزكاة وبأنَّ الله ربِّي وربُّكم، أو خبر لمحذوف، أي والأمر: إنَّ الله ربِّي وربُّكم، ولا يصحُّ العطف على «أَمْرًا» لأنَّه يكون المعنى: إذا قضى أمــرا وأنَّ الله ربِّي وربُّكم فإنَّما يقول له كن فيكــون، لأنَّ كــون الله ربًّا غير حــادث ولا محدث بكــن بل قديم، ويضعف عطفه على «الكتاب» على معنى آتاني الله أنَّــه ربِّي وربُّكم ﴿هَٰذَا﴾ أي ما ذكر من التوحيد ﴿صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ لا يضلُّ صاحبه ولا شدَّة فيه.

﴿فَاخْتَلَفَ الَاحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ ما ذكر من مدح عيسى سبب لمبالغة من بالغ وجاوز الحدَّ، وتقصير من قصَّــر حتَّى كذَّب به، كما دلَّت الفاء، فصار ما هو ســبب للاتِّفاق ســببا للاختلاف بين الأحزاب، قيل: هم المسلمون وهم قالوا بما قال الله ﷻ، واليهود والنصارى ومشركو العرب.

والهاء للأحزاب كذَّبته اليهود وبهتوه وعادوه حتَّــى عملوا في أن يقتلوه، وقال نسطور من النصارى بعد رفعه: هو ابن الله أظهره ثمَّ رفعه، وقال يعقوب: هو الله هبط ثمَّ صعد، وقال ملكان: هو عبد الله ونبيئه، وقال أتباعه بعده: عيسى ناسوت قديم أزليٌّ ولدته مريم، والصلب والقتل وقع على الناسوت، ومن قال هو إله قال: وقع القتل والصلب على الناســوت. ويحكى عن أتباع ملكان أنَّ المســيح ناســوت كلِّيٌّ لا جزئيٌّ، وأنَّه قديم وقد ولدت مريم إلها قديما أزليًّا، وأنَّ القتل والصلب وقعا على الناســوت واللاهوت معا، وقال مشركو العرب بعدم تصديق أنَّ ما في القرآن من الله ﷻ، ومنهم من تنصَّر ومن تهوَّد.

وقيل: ﴿الَاحْزَابُ﴾ اليهود والنصارى لأنَّهم قوم عيسى، وفيهم ولد ونشأ لأنَّه إسرائيلي كما أنَّ اليهود والنصارى إسرائيليون ثمَّ دخل في دين النصارى غير الإسرائيليين، ومن كان منهم غير إسرائيلي أكثر، وأهل الكتاب شهروا به ما بين معاد ومســالم، فهم المــراد بالأحزاب، ومن النصــارى من قال بقول المســلمين ولم يخالطه بكفر وهم قليل، وقيل: الأحــزاب اليهود والنصارى

ومشـــركو العرب، ويدلُّ لعدم دخول المسلمين في الأحزاب لأنَّ معنى ﴿مِنۢ بَيْنِهِـــمْ﴾: أنَّهم اختلفوا اختلافا صادرا من أنفســـهم، أو ثابتـــا منها، ومخالفة المسلمين لهم لمتابعة كلام الله سبحانه لا تبع لأنفسهم.

[نحو] و«مِنْ» للابتداء، وأجاز أبو حيَّـــان زيادتها تأكيدا، وأجاز أن تكون للتعليل علـــى أنَّ معنى ﴿بَيْنِهِـــمْ﴾ انفصالهم عن الحقِّ، وعلـــى زيادتها جاز دخول المســـلمين ومن قال كقولهم، ويناســـبه قولـــه تعالى: ﴿**فَوَيْـــلٌ لِّلذِينَ كَفَرُواْ**﴾ تحرُّزا عن المسلمين ومن قال مثلهم لا ويل لهم، فلو أريد بالأحزاب المشـــركون اليهود وغيرهم لقال: فويل لهم، إلَّا أن يقال: ذكرهم باسم الكفر تقبيحا وتصريحا بسبب الويل، ومن قال بقول المسلمين وكفر بأمر آخر فويله ليس من جانب عيسى، ويجوز دخول المســـلمين ومثلهم فيقدَّر: فويل للذين كفروا منهم أي من الأحزاب.

﴿**مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ**﴾ «مِنْ» بمعنى في، والإضافة للبيان، و﴿مَشْهَدِ﴾: زمان الشهادة وهو يوم القيامة، أو «مِنْ» للتعليل، أو ﴿مَشْهَدِ﴾: نفس الشهادة، أو مكان الشهود في يوم عظيم، أو مشهود به في حقِّ عيسى وأمِّه من السوء، كقوله تعالى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْـــرُجُ مِنَ افْوَاهِهِمْ﴾ [ســـورة الكهف: 5] وعلى كلِّ حال أضيف ليوم القيامة لأنَّه يوم الهول تشهده الملائكة والأنبياء، وتنطق فيه ألســـنتهم وجوارحهم، ويضعف تفســـير ذلك بوقت قتل المســـلمين الكُفَّار وليس وقتا واحدا.

﴿**اَسْمِعْ بِهِمْ**﴾ الباء صلة والهاء فاعل لـ«أَسْمِعْ» بمعنى سمُعوا بضمِّ الميم أي اشتدَّ ســـمعهم، ولَمَّا كان بصورة الأمر جرَّ بالباء ﴿**وَأَبْصِرْ**﴾ حذف الفاعل لأنَّه بصورة الفَضْلَةِ المجرورة بالحرف، نحو مررت بزيد والأصل: وأبصر بهم ﴿**يَوْمَ يَاتُونَنَا**﴾ ببعثنا إِيَّاهُم للحساب، يكونون أَشَدَّ ما يسمعون ويبصرون بعد أن كانوا في الدنيا كالصمِّ والعمي، وذلك تعجيب للمسلمين وتهديد للكافرين.

وقيل: «أَسْـمِعْ» و«أَبْصِرْ» فعـلَا أمرٍ، وفاعلاهما مسـتتر، والباء صلة في المفعول به، وعلى هذا فـ«يَوْمَ» ليس ظرفا بل مفعول، أي صيِّرهم سـامعين الآن مبصرين وعيد ذلـك اليوم، أخبرهم به يا محَمَّد إخبـارا عظيما فإنَّه يوم قاطع لقلوبهم مُسَوِّد لوجوههم، ويناسبه الاستدراك في قوله سبحانه:

﴿**لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ**﴾ أي لكن لا ينفعهم إخبارك إذ هم في الضلال، أو الاستدراك متعلِّق بقوله: ﴿فَوَيْلٌ...﴾ أو بالتعجيب. ولم يقل: لكنَّهم تصريحا بأنَّهم ظلموا أنفسـهم والمسـلمين بكفرهـم. والمراد باليوم الدنيا. ونكِّر الضلال للتعظيم، أي ضلال عظيم لا تدرك غايته بهدى لإهمالهم أسماعهم وأبصارهم بالكلِّيَّةِ.

﴿**وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْـرَةِ إِذْ قُضِيَ الَامْرُ**﴾ الهـاء للظالمين المذكورين، أو للناس الكُفَّار لقوله: ﴿وَهُمْ لَا يُومِنُونَ﴾ على أنَّ الظالمين ليسوا من ذُكر قبلُ بل عامٌّ، وعلى عمومه صحَّ الاستدراك لدخول من ذكر فيه دخولا أوَّليًا.

وَ ﴿يَوْمَ الْحَسْـرَةِ﴾: يوم القيامة يتحسَّر فيه المسـيء لإساءته، والمحسن لعدم زيادة الإحسان كما هو حديث مرفوع، ويتحسَّر الكفَّار على منازلهم في الجَنَّة ضيَّعوهـا للمؤمنين، وحين يقال لهم: ﴿اخْسَـئُواْ فِيهَـا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [سـورة المؤمنون: 108] وحين يقال: ﴿وَامْتَازُواْ الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [سورة يس: 59] وحين إذ برزت النار ورمت بشررها، وحين يأخذون كتبهم بشمائلهم، وحين يظهر الموت لهم في صورة كبش أملح فينادى أهل الجنَّة وأهل النار فيعرفونه فيذبح وهم ينظرون، وينادي ملك: يا أهل الجنَّة ويا أهل النار خلود لا موت، كما رواه البخاري ومسلم والترمذي عن أبي سعيد عن رسول الله ﷺ[1].

(1) رواه **البخاري** في كتاب تفسـير القرآن (1) باب قوله: ﴿وأَنذرهم يوم الحسرة﴾ رقم 4730. ورواه **مسـلم** في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها (13) باب النار يدخلها الجبارون والجنَّة يدخلها الضعفاء رقم 2849. ورواه **الترمذي** في كتاب صفة الجنة (20) باب ما جاء في خلود أهل الجنة رقم 2558. من حديث أبي سعيد الخدري.

وهذا تمثيل لا تحقيق لأنَّ الموت عرض لا جسم، وقد يقال: الله قادر أن يخلق من العرض جسما كما يخلق شيئا من شيء، وشيئا من لا شيء، قال أبو سعيد الخدري: لو أنَّ أحدا مات فرحا لمات أهل الجنَّة من الفرح بذبح الموت، ولو أنَّ أحدا مات حزنا لمات أهل النار من الحزن بذبحه، وقيل: ﴿يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ يوم الموت، و«إِذْ قُضِيَ الَامْرُ» بدل من «يَوْمَ الْحَسْرَةِ»، أو متعلِّق بـ«الْحَسْرَةِ». وقضاء الأمر: إظهار شأن الشقاوة والسعادة، ويضعف تفسيره بسدِّ باب التوبة.

﴿**وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُومِنُونَ**﴾ الجملة الأولى حال من المستتر في قوله: ﴿فِي ضَلَالٍ﴾ أو من هاء «أَنذِرْهُمْ». ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ [سورة يس: 6] أو معطوفة على قوله: ﴿الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ﴾ والثانية معطوفة على الأولى، أو حال من المستتر في قوله: ﴿فِي غَفْلَةٍ﴾ ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الَارْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا**﴾ لا يبقى فيها مُلك لأحد لموت من فيها كلِّهم، وتبقى الأرض ومن عليها، والمراد بمن عليها: العقلاء وغيرهم ﴿**وَإِلَيْنَا**﴾ لا إلى غيرنا وحده، ولا إليه معنا ﴿**يُرْجَعُونَ**﴾ بالبعث وللجزاء.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿41﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿42﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿43﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿44﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿45﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿46﴾ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿47﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿48﴾ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿49﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿50﴾﴾

قصَّة إبراهيم عليه السلام

مناقشته لأبيه في عبادة الأصنام

﴿**وَاذْكُرْ**﴾ يـا محمَّد لقومك العابديـن للجماد، فإنَّهم أضـلُّ ممن يعبد عيسى، والآية مناسـبة لِمَا قبلها في عبادة غير الله عزَّ وجلَّ، عطف على «أَنذِرْ» أو «اذْكُرْ» ﴿**فِي الْكِتَابِ**﴾ القرآن أو السـورة، والصحيح الأوَّل ﴿**إِبْرَاهِيمَ**﴾ قصَّته كقوله تعالـى: ﴿واتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ اِبْرَاهِيمَ﴾ [سورة الشـعراء: 69] ونسـبة الذكر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حقيقة لأنَّ من نطق بكلام غيره هو متكلِّم به وذاكر له، أمره الله بذكر ما ذكره الله وهو قصَّة إبراهيم لأنَّهم ينتمون إليه، فلعلَّهم يتَّعظون، وسواء

في هذا عطف على «أنذر» أو على «اذكــر»، ولا يختصُّ بالعطف على «أنذر» ﴿إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًــا﴾ عظيم الصدق في كلِّ فرد من أفــراد الصدق وكثير أفراد الصدق، وما كذب قطُّ، والأنبياء كلُّهم كذلك.

وليس من التصديق لكتب الله ووحيه كما زعم بعض أنَّ الصدِّيق من صدَّق الله في وَحدَانِيَّته، وصدَّق أنبياءه ورسله، وصدَّق بالبعث وقام بالأوامر وعمل بها، لأنَّ هذا من الرباعي، وصدِّيق من الثلاثي، ولا يكون فعِّيل بشــدِّ العين من فعَّل بشدِّها اللهمَّ إلَّا أن يقــال: لَمَّا كثر تصديقه وعظم لزم منه أنَّــه كثير الصدق وعظيمه، لأنَّه يذكر للناس ما صدَّق به وهو صادق في ذكره لهــم، والصدِّيق: من صدق في قوله واعتقاده وحقَّق صدقه بفعله، ورُتْبَةُ الصدِّيقيَّة قريبة من النبوءة، فقال: ﴿نَبِيئًا﴾ خبر ثان مخصِّص للأوَّل لأنَّ الصدِّيق قد يكون غير نبيء، أو نعت «صِدِّيقًا».

[نحو] ﴿إِذْ قَالَ لأَبِيهِ﴾ بدل اشــتمال من «إِبْرَاهِيمَ» اعترض بينهما بجملة تعليليَّة، وذلك من خروج «إِذْ» على الظرفيَّة كما خرجت عنها بالإضافة إليها في «يومئذ» و«حينئذ»، أو متعلِّقة بـ«كَانَ» لأنَّ الصحيح جواز التعليق بـ«كَانَ» التي لها خبر، وأنَّها تدلُّ على الحدث ولو شــهر منع ذلك، وقيــل: متعلِّق بـ«نَبِيئًا» وفيه أنَّه يلزم أنَّ الله ﷻ جعله نبيئا حين القول لأبيــه ويجاب بأنَّه يطلق الوقت على ما قبله وما بعده مما يليه، فإذا وقع شــيء في شــهر مثلا صحَّ إطلاق أنَّه وقع فيه مع أنَّه وقع في جزء منه، وكذا البحث والجواب إذا علِّق بـ«صدِّيقا».

﴿يَآ أَبَتِ﴾ التاء عوض عن ياء المتكلِّم. وأبــوه: آزر، وهو ظاهر القرآن، وقيل: هو عمُّه، ويصحِّح أنَّه أبوه ظاهر ما رواه أبــو نعيم والديلمي عن أنس عن رسول الله ﷺ: «**حقُّ الوالد على ولده أن لا يسمِّيه إلَّا بما سمَّى به إبراهيم أباه «يا أبت» ولا يسمِّيه باسمه**»(1).

(1) أورده **السيوطي** في الدر: ج 4، ص 296، وقال: أخرجه أبو نعيم والديلمي عن أنس.

﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْـمَعُ﴾ ثناءَك عليه ولا صوتك بالخضوع إليه ولا صوتا ما من الأصوات ﴿وَلَا يُبْصِرُ﴾ خضوعك وخشوعك بين يديه ولا شيئا مَّا من الأشياء ﴿وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾ أي إغناء مَّا، أو لا يدفع عنك شيئا ولا يفيدك شيئا، والجماد من شأنه أن يكون نِسْيًا مطروحا إلَّا إذا احتيج أن ينتفع به فعل به بلا احترام له، فكيف يحترم غاية الاحتــرام ويعبد وهو دون عابده؟ مع أنَّ العاقل المميِّز القادر على النفع والضرِّ بإذن الله سـبحانه لا يسـتحقُّ العبادة، لأنَّه محتــاج ليس بخالــق ولا رازق، ولا محيي ولا مميــت، ولا مثيب ولا معاقب، وذلك حجَّة عَقلِيَّة.

واحتجَّ بالنقليَّة في قولــه: ﴿يَآ أَبَتِ إِنِّي قَـدْ جَآءَنِي مِـنَ الْعِلْمِ﴾ متعلِّق بـ«جَاءَ»، و«مِنْ» للابتداء، أو حال من «مَا» و«مِـنْ» للتبعيض من قوله ﴿مَا لَمْ يَاتِكَ﴾ اسـتماله برفق إذ لم يسـمِّه بجاهل ولا نفسـه بعالم ﴿فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ مستقيما سـهلا لا يضلُّ سـالكه، موصلا إلى أسنى المطالب منجِّيا من المعاطب، وهو مـا أوحى الله إليه من التوحيـد والعمل بما يجب، وترك ما يحرم والوعد والوعيد، وإن كان ذلك قبل الوحي إليه صحَّ أيضا لأنَّه على دين الله قبله أيضا، ثمَّ حذَّره بأنَّ عبادة الأصنام التي تعبدها عبادة للشيطان لأمره بها، وهو عدوٌّ لله الذي منه النعم كلُّها المسمَّى الرحمن، أي المنعِم، أفلا تخاف أن يسـلبها عنك؟ فقال: ﴿يَآ أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّـيْطَانَ إِنَّ الشَّـيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّـا﴾ «فعيل» للمبالغـة، أو «فعول» أدغمت واوه في يائه وكسـر ما قبلها، وأراد عصيانه على الإطلاق أو عصيانه بترك السـجود لآدم تذكيرا له بعداوة أبيه، فيجتنب مصادقة من هو لأبيه عدوٌّ كما رسم في القلوب.

ثمَّ صرَّح له بالتحذير من أن يعاقبه الله على مصادقة عدوِّه وقال: ﴿يَآ أَبَتِ إِنِّيَ أَخَافُ أَنْ يَّمَسَّـكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ والخوف هنا العلم، عبَّر به مجاملة له واسـتنزالا، أو على ظاهره إذ لا جـزم له بِأَنَّهُ يصيبه

عذاب الدنيا ولا بأن يصيبه عذاب الآخرة لإمكان أن يؤمن. ونكِّر العذاب للتعظيم أو للتقليل تلويحا بأنَّه لا طاقة له على قليل منه.

[بلاغة] وذكر الرحمن مع أنَّ الرحمة تستدعي عدم العذاب لأنَّه المذكور قبل، وللإطماع بأنَّ الرحمة باقية له على كلِّ حال، ما لم يمت مصرًّا، ولأنَّ العقوبة من الكريم أشدُّ لأنَّ فيها اعتبار جحود نعمه وإلغائها، وللإشارة بأنَّ كونه رحيما لا يؤمن عذابه، وإلى أنَّ العذاب ليس انتقاما لشيء ضرَّه إذ لا يضرُّه شيء، بل حكمة وبأنَّ الرحمة سبقت الغضب.

ولا دلالة للمسِّ [المذكور] على تقليل العذاب لقوله تعالى: ﴿لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذتُّمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [سورة الأنفال: 68] ومعنى كونه وليًّا للشيطان أنَّهما يقرنان في العذاب، وفي هذا تغليظ عليه بعدما ألان وهو من نفس الرحمة، لأنَّ المراد اِنزجاره عَمَّا يضرُّ إلى ما ينفع قال بعض:

فَقَسَا لِيَزْدَجِرُواْ وَمَن يَكُ حازِمًا فَلْيَقْسُ أَحْيَانًا على من يَرحَمُ(1)

وفي قوله: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾ حجَّة عَقلِيَّة، وفي قوله: ﴿يَآ أَبَتِ﴾ تحبُّب وترغيب في التوحيد، وتمهيد للانتباه، نبَّهه أوَّلا على ما يمنع من عبادة الأصنام، ثمَّ أمره باتِّباعه في الإيمان، ثمَّ بأنَّ طاعة الشيطان غير جائزة في العقول، وختم الكلام بالوعيد الزاجر.

وكأنَّه قيل: فما حال أبيه بعد ذلك الوعظ العظيم الطويل؟ فقال الله عز وجل: ﴿قَالَ﴾ أبوه مصرًّا مقابلا لاستعطافه بالغلظة ﴿أَرَاغِبٌ اَنتَ عَنَ ـ الِهَتِي يَآ إِبْراهِيمُ﴾.

[نحو] «رَاغِبٌ» مبتدأ و«أَنْتَ» فاعله أغنى عن خبره لتقدُّم الاستفهام، وهو هنا توبيخي تعجُّبي، و«عَنَ ـ الِهَتِي» متعلِّق بـ«رَاغِبٌ» ولا يضرُّ الفصل

(1) البيت **لأبي تمام**، من قصيدة: «أرض مصردة وأخرى تثجم». بلفظ: «لتزدجروا». ينظر: الديوان.

بـ«أَنْتَ»، لأنَّه فاعل كما يفصل الفاعــل الفعل عن المفعول وهو الأصل، ولو أغنى عن الخبر، أو «رَاغِــبٌ» خبر و«أَنْتَ» مبتدأ ولا يضــرُّ فصل «أَنْتَ» لأنَّ «رَاغِبٌ» في رتبة التأخير عن «أَنْتَ»، والأصل: أأنت راغب عن آلهتي؟.

[نحو] [قلــت:] ومن التخليــط تقدير لفظ «راغــب» آخر بعد «أَنْتَ» يفسِّــره المذكور تحرُّزا عن هذا الفصل، بل المبتدأ ليس أجنبيًّا من الخبر من كلِّ وَجْهٍ، ولا سيما أنَّ المفصول الجارُّ والمجرور وهم يتوسَّعون فيهما وفي سائر الظروف، وليس في جعل «أَنْتَ» مبتــدأ إلباس بالفاعل بــل اللفظ إجمال، إذ فــي كلِّ وجه خلاف الأصل الرفع بالوصف لما يغني عن الخبر خلاف الأصل، وكونه خبرا مقدَّما خلاف الأصل، بخلاف «قام زيد» لو جعل «قام» خبرا مقدَّما فإنَّه إلباس بالفاعل.

وعلى كلِّ حال جعل «رَاغِــبٌ» تاليا للهمزة لأنَّ محــطَّ التوبيخ والتعجُّب بالذَّات الرغبة عن الآلهة وراغب للحال أو للماضي المستمرِّ ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ﴾ عن الرغبة عن آلهتي وعن النهي عن عبادتها وعن الدعوة إلى ما دعوتني إليه، أقسم بآلهته لا بالله لأنَّه لم يؤمــن إلَّا إن آمن به وعبد غيــره ﴿لأَرْجُمَنَّكَ﴾ بالحجارة عند الحسن، وبشتم اللسان عند ابن عبَّاس والسدِّي والضحَّاك وابن جريج.

[نحو] ﴿وَاهْجُرْنِي﴾ عطف على «لأرجمنَّك» عطف إنشــاء على إخبار، أجاز سيبويه ذلك وعكسه، وفي ذلك جعل جواب القسم غير الاستعطافي إنشاء وهو لا يجوز، والمعطــوف على الجــواب جــواب، أو العطف على محــذوف تقديره: احذرني واهجرني. ﴿مَلِيًّا﴾ زمانا طويلا عند الحسن ومجاهد وجماعة ورواية عن ابن عبَّاس، وأبدا عن الســدِّي، وكأنَّه تفســير بالمراد، وهو منصوب على الظرفيَّة كما رأيت، أو مفعــول مطلق أي هجرا مليًّا أي طويلا، وعــن ابن عبَّاس: ﴿مَلِيًّا﴾ سالما قادرا على الذهاب قبل أن أثخنك بالضرب فلا تطيق التنقُّل، فهو حال.

﴿قَالَ﴾ كأنَّه جواب سؤال عَمَّا قال إبراهيم ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ﴾ سلام موادعة ومقابلة السيِّئة بالحســنة، أي لا يصيبك منِّي ما يؤذيك من دعاء إلى الخير إذ



لم تقبل مِنِّـــي، كقوله تعالى: ﴿لَنَـآ أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَـلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [سورة القصص: 55] إلَّا أنَّه هنا ما ذَكَرَ الجهل.

[فقه] وقيـل: تحيَّة مفارقـة بناء على جـواز أن يبدأ المسـلم الكافر بالسلام وهو مذهب سفيان بن عيينة، مسـتدلًّا بقوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾ [سورة الممتحنة: 8] وقوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ...﴾ الآية [سورة الممتحنة: 4] ويردُّه أنَّ ذلك مقيَّد بما في صحيح مسـلم عن رسـول الله ﷺ: «**لا تبدؤوا اليهود ولا النصارى بالسـلام**»[1]، وقد يخالف شـرع إبراهيم في هذا شرعنا. ﴿سَأَسْـتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيَ﴾ أن يوفِّقـك إلى التوبة، ووفَّى بهذا الوعد بعـدُ كما قال الله ﷻ عنه: ﴿وَاغْفِرْ لأَبِـيَ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّآلِّينَ﴾ [سورة الشـعراء: 86] ﴿وَمَا كَانَ اسْـتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ [سـورة التوبة: 114] أي وعدها لأبيه، لا كما قيل وعدها أبوه له أن يؤمن بالله.

[أصول الدين] والاستغفار: بمعنى طلب الهداية، ولَمَّا تبيَّن له أنَّه قضى الله أن لا يؤمن وجب عليه أن لا يطلب له الهداية، إلَّا أنَّه إذا كان الاسـتغفار بمعنى طلب الهداية فهو جائز لكلِّ فاسق أو مشرك ما لم يمت أو يجئ الوحي أنَّه لا يؤمن لأحاديث: «**اللهمَّ اهدِ قومي فإنَّهم لا يعلمون**»[2] ومشـهور مذهبنا في المغاربة منع ذلك، وقد يكون الاسـتغفار على ظاهره مبنيًّا على اشـتراط الإسلام، مثل أن يقول: اللهمَّ اغفر له على أن يتوب.

---

(1) رواه **مسلم** في كتاب السـلام (4) باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام... رقم 2167، من حديث أبي هريرة مع زيادة.

(2) رواه **البخاري** في كتاب أحاديـث الأنبياء (63) باب حديث الغار، رقم 3465. و**مسـلم** في كتاب الجهاد والسـير (37) باب غزوة أحد، رقم 1792. بلفظ «اغفـر لقومي» عوض «اهد قومي». من حديث ابن مسعود.

[أصول الدين] وأمَّا أن تقول فيمن ظهر لك موجب ولايته: اللهمَّ اغفر له إن كان سعيدا، أو موجب براءته اللهمَّ العنه إن كان شقيًّا فلا يجوز على المشهور، بل تتولَّى أو تتبرَّأ بلا اشتراط لذلك، وَاتَّفَقُوا على أن لا اشتراط في المنصوص عليه، [قلت:] والصحيح أن لا يستغفر لمشرك مطلقا إلَّا إن جاء الوحي أنَّه سيؤمن، وكلُّ من علمت بشركه فقد تبيَّن لك أنَّه من أصحاب الجحيم بحسب الظاهر لك، ولا تُكَلَّف الغيب.

﴿**إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا**﴾ عظيم البرِّ والإكرام لي وكثيره، والجملة تعليل لما قبلها، و«بِي» متعلِّق بـ«حَفِيًّا» قدِّم للفاصلة والاهتمام الذي علمه الله من إبراهيم، ولا يخفى ما في كلام إبراهيم من الرحمة، كما هو شأن الأنبياء كلِّهم، وخصوصا للأقارب وخصوصا من الأقارب الأبوين أداءً لبعض حقوقهما كما هنا، وإن كان عمًّا فالعمُّ كالأب.

﴿**وَأَعْتَزِلُكُمْ**﴾ عطف على «أَسْتَغْفِرُ»، فالسين مسلَّطة عليه أيضا كما سلِّطت على «أَسْتَغْفِرُ»، أو عطف على «سَأَسْتَغْفِرُ» فلا معنى للسين فيه. والاعتزال بالبدن، بمعنى: أتباعد عنك وعن قومك، وإن قلنا: الاعتزال بالقلب والاعتقاد ـ على خلاف الظاهر ـ فلا يعطف على مدخول السين، لأنَّ اعتزاله بذلك غير مستقبل بل ماض مستمر، أخبرهم بحاله، إلَّا أنَّ الظاهر بالبدن فقد هاجر إذ لم تؤثِّر فيهم نصائحه من أرضه «كوثى» إلى «الشام»، أو إلى «حرَّان»، وفي هجرته هذه تزوَّج سارة ولقي الجَبَّار وأعطاه هاجر لخدمة سارة.

﴿**وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ**﴾ عطف على الكاف ﴿**وَأَدْعُو رَبِّي**﴾ أعبده وحده، عبَّر بالدعاء أوَّلا لمناسبة قوله: ﴿أَرَاغِبٌ اَنتَ...﴾ مع قوله: ﴿لِمَ تَعْبُدُ...﴾ وثانيا بالدعاء لأنَّه أظهر في الإقبال المقابل للاعتزال، أو أراد مطلق الدعاء في مصالحه الدِّينيَّة وَالدُّنيَوِيَّة، أو في هبة الحكم والإلحاق بالصالحين، كما قال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وأَلْحِقْنِي بالصَّالِحِينَ﴾

[سورة الشعراء: 83] وفي طلب الولد كما قال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [سورة الصافات: 100] أو كلُّ ذلك.

﴿**عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا**﴾ خائبا ضائع السعي تعريضا بهم إذ خابوا وضاع سعيهم في عبادة غير الله، و«عَسَى» تواضع ومراعاة للأدب، وتلويح بأنَّ إجابة الدعاء وقبول السعي تفضُّلٌ من الله لا واجب على الله، وإنَّ العبرة بالخاتمة والغيب لله ﷻ.

﴿**فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ**﴾ كما وعد ﴿**وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ**﴾ بعد الاعتزال بمدَّة بدلا من مفارقة أبيه وقومه وأقاربه الكفرة، وهب الله له تعالى أوَّلا إسماعيل لقوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ [سورة الصافات: 101] بعد قوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [سورة الصافات: 100] وكان من هاجر فغارت سارة فحملت بإسحاق عليه السلام وَلَمَّا كبر ولد له يعقوب، وذكرهما الله بعد ذكر الاعتزال لأنَّ أكثر الأنبياء منهما وهما شجرتان للأنبياء وذوي شرف شأن والجنود الكثيرة، وذكر إسماعيل على الانفراد.

وروي أنَّه أتى حرَّان وتزوَّج سارة وولدت له إسحاق وولد لإسحاق يعقوب وبعد ولادة إسحاق ولد إسماعيل والمشهور الأوَّل وهو أظهر وأقرب.

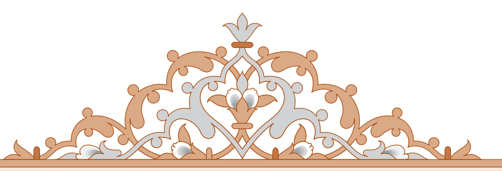
﴿**وَكُلًّا**﴾ من إسحاق ويعقوب أو منهما ومن إبراهيم، وعليه لا يظهر أنَّ إبراهيم نبيء قبل الاعتزال. وقدَّم «كُلًّا» للفاصلة ـ وهو مفعول أوَّل ـ وللحصر. إنَّما جعلنا نبيئا كلًّا منهما أو منهم لا بعضا فقط ﴿**جَعَلْنَا نَبِيًّا**﴾ ويدلُّ على إرادة إبراهيم في «كُلًّا» ضمير الجمع في قوله: ﴿**وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا**﴾ إذ لم يقل: «لهما»، لكن لا مانع من إرادته بلا إدخال في «كلًّا» لأنَّ المقام له عليه السلام. والرحمة هنا المال والأولاد والصحف، وكلُّ خير دينيٍّ أو دنيويٍّ.

وحذف مفعول «وهب» للعموم والكثرة، أي وهبنا لهم شيئا كثيرا من رحمتنا، أو وهبنا لهم المال والأولاد... إلخ من جملة رحمتنا الواسعة. وعن

الحســـن: النبوءة، وعليه فإنَّما أعاد ذكرها بعد قوله: ﴿نَبِيئًــا﴾ ليبيِّن أنَّها من الرحمة الموهوبة المخصوص بها من يشاء.

﴿**وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا**﴾ أي ذكرا شريفا بخير، عبَّر عنه بآلته وهو اللســـان كما يعبَّر باليد عن العطيَّــة، لأنَّ اليد آلتها، وأضــاف الصدق ونعته بـ«عليًّا» تعظيما لما يمدحون بِهِ في الأقاليم والأعصار المتطاولة، وفي جميع الدول والملل، كأنَّه نار على علم، ولا يفسَّــر بقولــه ﷺ: «**كما صلَّيت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم**»[1] فقط. وفي ذلك إجابة لقوله: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْاَخِرِينَ﴾ [سورة الشعراء: 84].

(1) رواه **الربيع** في كتاب الأذكار (23) باب التســبيح والصلاة على رســول الله ﷺ في حديث طويل. ورواه **الترمذي** في كتاب تفســير القرآن، باب: ومن سورة الأحزاب، رقم 3220، من حديث أبي مسعود الأنصاري.



﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ۝51 وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ۝52 وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ۝53﴾

قصَّة موسى عليه السلام

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى﴾ قدَّمه على إسماعيل لِئَلَّا ينفصل عن ذكر جدَّيه يعقوب وإسحاق، وليستعجل ما يجلب أهل الكتاب، بعد ذكر ما فيه جلب العرب وهو إبراهيم وشأنه، وقيل: إسماعيل الآتي غير ابن إبراهيم ﴿إِنَّهُ كَانَ مُخْلِصًا﴾ يعبد الله وحده عبادة خالصة عن الشرك والرياء وكلِّ ما ينقصها، أو لا اشتغال له بغير الله جل جلاله.

﴿وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا﴾ قدَّم «رَسُولًا» مع أنَّه أخصُّ للفاصلة، كلُّ رسول نبيء وليس كلُّ نبيء رسولا، أو لاعتبار أنَّه أعمُّ من النبيء لأنَّ الرسالة تكون بنبوءة وتكون بهديَّة ووصيَّة وإخبار وغير ذلك، أو اعتبر نبيئا بمعنى مخبرٌ أو مخبَر وذلك غير مفهوم الرسالة، أو هو بمعنى الطريق، كما قال الكسائي: النبيء الطريق، والأنبياء عليهم السلام طرق الهدى، أو باعتبار أنَّ الله عز وجل أرسله إلى الخلق فأنبأهم، أو المراد معنياهما اللغويان، وتوزع تلك المعاني على لفظ نبيء في هذه الفواصل، فيفسَّر كلٌّ بغير ما فسِّر به الآخر، أو قصد بتكريرها ما قصد بتكرير ﴿تُكَذِّبَانِ﴾ في سورة الرحمن.

﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الاَيْمَنِ﴾ نعت لـ«جَانِبِ» بدليل أنَّه لَمَّا نصب «جَانِبَ» في الآية الأخرى نصب، وذلك هو الناحية التي تلي يمين موسى، لأنَّ الطور وهو الجبل المعروف بين مصر ومدين لا يمين له ولا

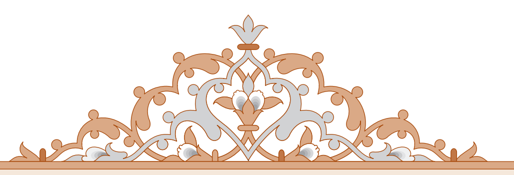
يسار، ويجوز أن يكون اليمين من اليمن وهو البركة، وهو نعت لـ«جَانِبَ» لا لـ«الطُّورِ»، ولا دليل على أنَّه نعت لـه، وأنَّ النصب في الآية الأخرى على القطع.

﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ تقريب تشريف كما يقرِّب السلطان رجلا يختصُّ به للمناجاة، وهي المسارَّة والإخفاء عن الغير. و«نَجِيًّا» «فعيل» بمعنى «مفاعل» بضمِّ الميم كجليس بمعنى مجالس، ونديم بمعنى منادم؛ وهو حال من هاء «قَرَّبْنَاهُ» أو هاء «نَادَيْنَاهُ» ووجه الأوَّل أنَّه متَّصل بـ«قَرَّبْنَاهُ» ووجه الثاني أن يعتبر أنَّ العمدة النداء وذكر التقريب تبع له، والأوَّل أولى، وقيل: «نَجِيًّا» مترفِّعا، من النجوة.

[قصص] روى سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير والحاكم وصححه وغيره، عن ابن عبَّاس أنَّ جبريل عليه السلام أردف موسى حتَّى سمع صرير القلم والتوراة تكتب له، أي كتابة ثانية لأنَّ في الحديث الصحيح الوارد في شأن محاجَّة آدم موسى عليهما السلام أنَّ التوراة كتبت قبل آدم بأربعين عاما[1]، فسيِّدنا محمَّد ﷺ خصَّ بالمعراج الأكمل لا بالمعراج مطلقا، وقيل: ﴿نَجِيًّا﴾ بمعنى ناجيا عن المهالك بصدقه، روي عن قتادة، وهو بعيد.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَآ﴾ من جملة رحمتنا الواسعة، و«مِنْ» للابتداء، أو لرحمتنا له فهي للتعليل ﴿أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ أي معاونة أخيه له بالمعاضدة والمؤازرة إجابة لدعائه: ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنَ اهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ [سورة طه: 29 ـ 32] وليس المراد نفس هارون للإعانة لأنَّه ولد قبل موسى، و«أَخَاهُ» مفعول به و«هَارُونَ» بيان أو بدل.

(1) لا تنس ما يلاحظ في هذا الخبر من الإسرائيليات.



﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (54) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (55)﴾

قصَّة إسماعيل عليه السلام

﴿**وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ**﴾ هو ابن إبراهيم على الصحيح، وهو الحقُّ وهو مذهب الجمهور، وقيل: المراد هنا إسماعيل بن حزقيل بعثه الله إلى قومه فسلخوا جلدة رأسه، فخيَّره الله فيما شاء من عذابهم، فاستعفى الله ورضي بثوابه وفوَّض أمرهم إلى الله تعالى في العفو والعقوبة، رواه الإمامية [قلت:] ولعلَّه لا يصلح.

﴿**إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ**﴾ تعليل جملي، وكذا نظائره مما مرَّ أو يأتي، وصفه الله بصدق الوعد لمبالغته عليه السلام في صدقه.

[قصص] كما روي أنَّه وعد رجلا أن يقيم له في موضع فغاب عنه حولا، ولَمَّا جاء قال: ما برحت من مكانك؟ قال: نعم والله ما كنت لأخلف وعدي، وقيل: غاب عنه اثني عشر يوما، وعن مقاتل: ثلاثة أيَّام، وعن سهل بن سعد: يوما وليلة، والمشهور الأوَّل.

وعن سعيد بن المسيَّب إذا أطلق الوعد فإلى آخر اليوم، إن كان نهارا وآخر الليل إن كان ليلا، وقيل: إلى آخر وقت صلاة كان فيه، والحقُّ أنَّ القول قبلَ هذا للشعبي لا لسعيد بن المسيب.

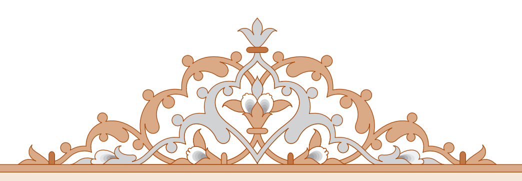
ومن صدق وعده أنَّه وعد أباه أن يصبر للذبح فصبر ﴿سَتَجِدُنِيَ إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [سورة الصافات: 102] ﴿**وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا**﴾ بشريعة أبيه، بعث

بها إلى جرهم بن قحطان بن عابر بن شــالخ، وقحطان أبــو قبائل اليمن من العرب، نــزل جرهم على هاجر وابنها إســماعيل في وادي مَكَّــة، إذ تركهما إبراهيم فيه.

[أصول الدين] ولا يشترط في النبيء أن يكون له كتاب ولا أن تكون له شــريعة مخصوصة، بل يبعثون بشــريعة من قبلهم وكتابه، كغالب أنبياء بني إسرائيل. وقدَّم الرسول مع أنَّه أخصُّ للفاصلة، ولو كانت الواو تغني ردفا عن الياء وبالعكس، لأنَّ الأصل مقابلة الياء بالياء، والواو بالواو، أو قدَّم الرسول لأنَّه أعمُّ باعتبار الرسالة لغة، لأنَّ الإنسان ولو كان غير نبيء يرسل إلى غيره.

﴿**وَكَانَ يَامُرُ أَهْلَهُ**﴾ يبدأ بهم، لأنَّ القرابة قبل غيرهم في تعليم الدين بعد استكمال المعلِّم نفســه بالدين، قال الله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِــيرَتَكَ الَاقْرَبِينَ﴾ [سورة الشــعراء: 214] وقال: ﴿وَامُرَ اَهْلَكَ بِالصَّلَــوٰةِ﴾ [ســورة طه: 132] وقال: ﴿قُواْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [ســورة التحريم: 6] وقيل: ﴿أَهْلَهُ﴾ أمَّته، أي أُمَّة الإجابة، لأنَّ النبيء كالأب لأمَّته، وقيل: أكَّد الاشــتغال بقرابتــه لأنَّهم ينوبون عنه في التعليم ويقتدى بهم بعــده ﴿**بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَوٰةِ**﴾ بمعناهما المشــهور، وقيل: الزكاة مطلق الصدقة، وقيل: تزكية النفــس من الذنوب، ومرَّ غير ذلك، وقيل: يأمر أهله بالصلاة ليلا والصدقة نهارا.

﴿**وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا**﴾ لاســتقامة فعله وقوله وقلبه، اسم مفعول أصله: مَرْضُويٌ، قلب الواو ياء وأدغم وكســر ما قبله، وهذه الياء أصلها واو لأنَّه من الرضوان.



﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ۝56 وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝57﴾

قصَّة إدريس عليه السلام

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ﴾ هو نبيء قبل نوح بألف سنة، كما روي عن ابن عبَّاس، وهو أُخنوخ ـ بضمِّ الهمزة وفتحها ـ ابن برد بن مهلاييل بن أنوش بن قينان بن شيت بن آدم عليه السلام، وعن وهب: إنَّه جدُّ نوح، والمشهور أنَّه جدُّ أبيه على أنَّه ابن لَمك بن متوشلخ بن أخنوخ.

وهو أوَّل من نظر في النجوم والحساب جعل الله ذلك من معجزاته، وأوَّل من خطَّ بالقلم وخاط الثياب، ولبس المخيط، ومن قبل يلبسون الجلود، وأوَّل مرسل بعد آدم، وأنزل الله عليه ثلاثين صحيفة، وأوَّل من اتَّخذ المكاييل والموازين والأسلحة وكان يقاتل بني قابيل [كذا قيل].

وعن ابن مسعود: إنَّه إلياس بعث إلى قومه أن يقولوا: لا إله إلَّا الله، ويعملوا ما شاءوا أي مما ليس من مساوئ الأخلاق فأبوا وأهلكوا، [قلت:] وهو غير صحيح، ولو روى الْقَوْلَ بأنَّه إلياس ابْنُ أبي حاتم بسند حسن عن ابن مسعود. وإدريس لفظ سرياني عند الأكثر لا مشتق من الدرس لأنَّ الاشتقاق من غير العربي لا يقول به أحد، ولو كان عربيًّا لصرف إلَّا أن يكون في تلك اللغة قريب المعنى من ذلك فلقِّب به لكثرة درسه.

﴿إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيئًا وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ في السماء الرابعة عند أنس وأبي سعيد وكعب ومجاهد، وفي السادسة عند ابن عبَّاس والضحاك، وفي الجَنَّة عند الحسن لأنَّه لا أعلى منها إلَّا العرش.

لَمَّا أنشد النابغة الجعدي للنبيء ﷺ قصيدته المختومة بقوله:

بلغنا السماء مجدنا وسناؤنا وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

قال ﷺ: «**إلى أين يا ابن أبي ليلى**» قال: إلى الجنَّة يا رسول الله، قال: «**أجل إن شاء الله**».

وعن الحسن والجياني وأبي مسلم: الرفعة رفعة شأن ونبوءة، وفي السابعة عند قتادة يعبد الله مع الملائكة، ورفع عنه الأكل، وقيل: إذا شاء أكل من الجنَّة، وشذَّ ما روي عن مقاتل: إنَّه مات في السماء، وهذا الرفع ولو كان حسِّيًّا لكن فيه مدح لأنَّه إلى محلِّ الملائكة والعبادة، وهل سمع رفع عاص إلى ذلك! وروح الشقي تردُّ من السماء ولا تدخلها، وقد تكون الرفعة المكانيَّة معنويَّة كما فسَّرها الحسن في رواية وكما قال:

وكُن في مَكانٍ إذا ما سَقَطـ ـتَّ تَقُومُ ورِجلُكَ في عَافِيَة[1]

[سيرة] وفي البخاري ومسلم عن أنس بن مالك عن مالك بن صعصة عن رسول الله ﷺ: «**إنَّه رأى ليلة الإسراء إدريس في السماء الرابعة ليلة المعراج**».

[قصص] وعن كعب الأحبار: أصاب إدريس حرُّ الشمس فقال: كيف بمن يحملها كلَّ يوم مسيرة خمسمائة عام!. فدعا الله تعالى للملك الحامل لها فخفِّفت عليه، فقال: يا ربِّ خفَّفت عليَّ بماذا؟ قال الله ﷻ: بدعاء إدريس، فقال: يا ربِّ اجعل لِّي معه خلَّة، فاستجاب الله ﷻ فأتاه، فقال له إدريس: أُخْبِرْت أنَّك أمكن الملائكة عند ملك الموت فاسأله أن يؤخِّر أجلي لأزداد عبادة وشكرا، فقال: لا يؤخِّر الأجل، لكن أخبره، فرفعه إلى مطلع الشمس، فقال لملك الموت: لي صديق آدمي طلب تأخير الأجل، قال: لا يؤخَّر لكن أخبره بأجله ليقدِّم لنفسه، فنظر في الديوان فقال: كلَّمتني في إنسان لا يموت أبدا، أي لأنَّه قد مات فلا

(1) لم نقف على قائل هذا البيت. وقد أورده **الآلوسي** في روح المعاني، في تفسير الآية ذاتها، ج16، ص107.

يزداد موتا آخر وإنِّي أجد موته عند مطلع الشمس، قال: إنِّي تركته هناك، قال: فانطلق فإنَّه قد مات، فوجده ميِّتا وقد عرف ملك الموت أنَّه أراد إدريس.

[قصص] وكان كما روى ابن المنذر عن عمر مولى عفرة عن النبيء ﷺ أنَّه قسَّم دهره ثلاثة أَيَّام لتعليم الناس، وأربعة للعبادة والسياحة، مجتهدا يرفع من عمله مثل أعمال بني آدم، فأحبَّه ملك الموت فلقيه في سياحته وطلب صحبته، فقال: لا تقدر، فقال: بلى إن شاء الله، فمرَّا آخر النهار بغنم فقال له كالمختبر: لا ندري أين نمسي فلنفطر بجفرة من الغنم، فقال: أتدعوني إلى ما ليس لي؟ لا تعد إلى مثل ذلك، يأتينا رزقنا من الله فأتاه حين أمسى ما يأتيه من الرزق، فقال: كلْ، فقال: والله ما أشتهي، فأكل وحده، فصلَّيا حتَّى فتر ونعس ولم يفتر الملك، فصغرت نفسه إليه، وأصبحا وساحا، ومرَّا آخر النهار بحديقة عنب فقالا مثل ذلك فأتاه رزقه فدعاه فأبى فأكل وحده، فصلَّيا حتَّى فتر دون الملك، فقال: والذي نفسي بيده ما أنت آدمي، فقال: إنِّي ملك الموت، فقال: أمرت بي؟ فقال: لو أمرت ما أنظرتك، ولكن أحبك وصاحبتك في الله تعالى، فقال: لم تقبض روحا من حين التقينا؟ قال: قبضت روح من أمرت به، والدنيا كلُّها لي كمائدة بين يدي الرجل، فقال: أسألك بالذي أحببتني له أن تقضي لي حاجة، فقال: ما هي؟ قال: تقبض روحي ويردُّها الله إليَّ، فقال: أستأذن ربِّي فأذن له ففعل، فقال: يا نبيء الله كيف وجدت الموت؟ فقال: أعظم مما حدِّثت.

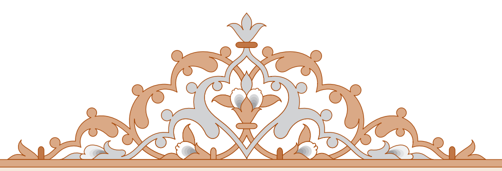
وسأله رؤية النار فنادى بعض خزنتها، فجاء يرتعد إذ علم أنَّه ملك الموت، فقال: أمرت فينا؟ فقال: لو أمرت لم أنتظر، لكن نبيء الله إدريس سأل أن تُرُوه لمحة من النار، ففتح قدر ثقب المخيط فصعق، فقال: أغلقوا، وجعل يمسح وجه إدريس ويقول: ما أحبُّ أن يكون هذا حظُّك من صحبتي، وقال: كيف رأيت؟ قال: أعظم مما حدِّثت.

وسـأله لمحة من الجَنَّة فكان مثل ما مرَّ، وأصابـه بردها وطيبها، فطلب الدخول والأكل والشرب [وقال:] لتشتدَّ رغبتي، فدخل ففعل، فقال له: اخرج يا نبيء الله قد أصبت حاجتك حتَّى تدخلها مع الأنبياء ﵈، فتمسَّك بشجرة، فقال: لا وإن شـئت أخاصمك، فأوحى الله تعالى إليه خاصمه فقال: ما تقول يا نبيء الله، فقال: قد قال الله ﷻ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [سورة آل عمران: 185] وقد ذقته، وقال سـبحانه: ﴿وَإِن مِّنكُمُۥٓ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [سورة مريم: 71] وقد وردتها وقال ﷻ: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [سورة الحجر: 48] فأوحى الله إليه: خصمك عبدي إدريس، وعزَّتي وجلالي إنَّ في سابق علمي أن يكون ذلك، فدعه[1].

[قلت:] وتلك الآيات ألهمهـا الله له إلهاما أو رآها فـي اللوح المحفوظ بإذن الله، وقولـه: «قد وردتها» نصٌّ في أنَّ الورود حضـور كما هو مذهبنا، لا الدخول، وروي أنَّه أتاه ملك الموت قبل الرفع فقال: أين ملك الموت؟ فنظر في الحساب فقال: ما يوجد في الدنيا إلَّا أن تكونه.

(1) لا يخفى على القارئ أن ما ذكره الشيخ ﵀ في الصفحات الأربع من روايات متعلقة بأمور غيبية، لا يجب اعتقاد شيء منها، ما لم يَرِدْ بشأنها دليل قطعي. (المراجع).





﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَبُكِيّٗا ۩ ﴿٥٨﴾ ﴾

الأنبياء عليهم السلام
من جملة من أنعم اللّٰه عليهم وهداهم

﴿ **اوْلَئِكَ** ﴾ إشارة ببعد علوّ المرتبة إلى المذكورين في السورة الكريمة ﴿ **الذِينَ** ﴾ خبر على حذف مضاف أي بعض الذين، لأنَّ الله تبارك وتعالى أنعم أيضا على غير من ذكر في السورة من سائر الأنبياء وغيرهم، أو نقول الحصر إضافيٌّ بالنسبة إلى غير الأنبياء بجعل نعم غير الأنبياء كلا نعمة بالنسبة إلى نعمة من ذكر فيها قبل.

﴿ **أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم** ﴾ بنعم الدين والدنيا والآخرة ﴿ **مِّنَ النَّبِيئِينَ** ﴾.

[نحو] «مِنْ» للبيان للموصول، أو لهائه، أو للتبعيض، حال من أحدهما، ويدفع إشكال الحصر جعل «مِنَ النَّبِيئِينَ» خبر «اولَئِكَ» و«الذِينَ» تابع، وفائدة الإخبار أنَّ لله أنبياء كثيرين وما هؤلاء إلَّا بعضهم، وبجعل الخبر قوله: ﴿ **مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ** ﴾ وفائدته ما عطف عليه، بمعنى أنَّهم من آدم ونوح... إلخ وبالحصر على طريقة العرب في المبالغة، وبجعل الإشارة إلى الأنبياء كلِّهم على طريق الاستخدام، أو بجعل الخبر إلى ﴿ تُتْلَىٰ عَلَيْهِم... ﴾، ورجَّحه بعض المحقِّقين. وقيل «مِنْ» للبيان، وهي ومدخولها بدل من قوله: ﴿ مِنَ النَّبِيئِينَ ﴾ بدل بعض من كلٍّ، على أنَّ المراد بالذرِّيَّة الأنبياء، وقيل: «مِنْ»

تبعيضيَّــة لأنَّ المنعم عليه أخصُّ عــن الذرِّيَّة من وجه لشــمولها، بناء على الظاهر المتبادر منها غير المنعم عليه دونه.

﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَـعَ نُوحٍ﴾ ومن ذرِّيَّة من حملنا مع نوح وهو ســام وحام ويافث إذ لم يلد غيرهم ممن في الســفينة، ولا ممن لم يغرق، وإن ولد نوح الثلاثة بعد الطوفان فهم في صلبه معه في الســفينة، والمراد: من عدا إدريس لأنَّه قبل نوح عليه السلام، وأجمعوا أنَّ إبراهيم من ذرِّيَّة سام.

﴿وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ وهــم الباقون، وأنت خبير بأنَّ هــودا وصالحا عليهما السلام قبل إبراهيم فهم من ذرِّيَّة نوح ﴿وَإِسْرَآئِيلَ﴾ يعقوب، أي ومن ذرِّيَّة إسرائيل كموسى وهارون وزكرياء ويحيى وعيسى، فأولاد البنات من الذرِّيَّة لدخول عيسى ولا أب له، وجعل إطلاقها عليه مجازا بطريق التغليب خلاف الظاهر.

﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَآ﴾ عطف على «مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ»، و«مِنْ» للتبعيض، أي ومن جملة من هديناهم إلى الحقِّ واخترناهــم للكرامة والنبوءة، أو عطف على «مِنَ النَّبِيئِينَ» و«مِنْ» للبيان، وفيه أنَّ ظاهر العطف المغايرة فيحتاج إلى أن يقال: المراد من جمعنا له الهداية والنبوءة والاجتباء للكرامة، وهو خلاف الظاهر.

﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمُۥ ءَايَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّواْ سُــجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ استئناف أو خبر ثان لـ«أُوْلَئِكَ».

[صرف] وهما جمعَا ساجدٍ وباكٍ أصله: «بُكُويًا» قلبت الواو ياء وأدغمت وكسر ما قبلها، وذلك كشاهد وشهود، وقاعد وقعود، وجالس وجلوس.

وحالية «سُجَّدا» مقدَّرة على أنَّ السجود كون الجبهة في الأرض، أمَّا على أنَّه الانحناء إليه فمقارنة، وحالية «بُكِيًّا» مقارنة. والســجود كســجود الصلاة، والخضوع والخشــوع، أو الصلاة، وهو ضعيف، أو ســجود التلاوة إذا قرئ آياتها عليهم، فالمــراد آيات الســجود، [قلت:] وهو لا يتبــادر فضلا عن أن

يستدلَّ بالآية على وجوب سجود التلاوة، والصحيح آيات القرآن مطلقا والكتب الإلهيَّات قبله. والسجود: الخضوع.

وقيل: آيات العذاب، وقيل: الجنَّة والنار، والوعد والوعيد، قال رسول الله ﷺ: «**اتلوا القرآن وابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا**»[1] رواه ابن ماجه وإسحاق بن راهويه والبزار عن سعد بن أبي وقاص.

وقرأ عمر رضي الله عنه سورة مريم فسجد ثمَّ قال: هذا السجود فأين البُكيُّ؟ أي أين الذين يبكون كما في الآية؟ رواه الطبري، وابن أبي حاتم والبيهقي، بياء مشدَّدة مصدر في كلام عمر، ولا يتعيَّن به ولا يقرب أن يكون في الآية مصدرا.

[ما ينبغي أن يدعو به الساجد] وينبغي أن يدعو الساجد بما يناسب آية السجود التي تلاها فيقول هنا: «اللَّهُمَّ اجعلنا من عبادك المنعم عليهم المهتدين الساجدين لك الباكين عند تلاوة آياتك» وفي الإسراء: «اللهمَّ اجعلنا من الباكين إليك الخاشعين لك» وفي تنزيل السجدة: «اللهمَّ اجعلنا من الساجدين لوجهك المسبِّحين بحمدك ورحمتك، وأعوذ بك أن أكون من المتكبِّرين عن أمرك» وفي الحجِّ: «اللهمَّ لا تهنَّا وأكرمنا وافعل بنا من الخير ما أنت أهله ولا تفعل بنا من الشرِّ ما نحن أهله».

(1) رواه **ابن ماجه** في كتاب إقامة الصلاة وَالسُّنَّة فيها (176) باب في حسن الصوت بالقرآن، رقم 1337، من حديث أبي وقاص.

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ٥٩ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ٦٠ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ٦١ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ٦٢ تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ٦٣﴾

حال من جاء بعد هؤلاء الهداة

[لغة] ﴿**فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ**﴾ قوم سوء، ويطلق على المفرد أيضا والاثنين، ومفتوح اللام في الصلاح وهو الأكثر، قال أبو نصر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مخمَّسته[1]:

لنا خَلَف قد قام من بعده خَلْف فما اشتبها إلَّا كذا الحرف والحرف

وقال النضر بن شميل: السكون في الخير والشرِّ، والمفتوح في الخير فقط، ومن استعمال المفتوح في السوء قول لبيد:

ذهب الذين يعاش في أكنافهم وبقيت في خلَف كجلد الأجرب

بفتح اللام، ولا يتعيَّن إلَّا إن كان رواية صحيحة، وإلَّا فالإسكان يقبله الوزن، غايته إسكان ثاني السبب الثقيل، وقيل: الإسكان في الأولاد والفتح فيهم وفي غيرهم، وسواء فيهما السوء والصلاح، ونسب لابن أبي حاتم، وعليه فيتبيَّن السوء بقوله تعالى: ﴿**أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ**﴾ جنس الصلاة، أخَّروها عن وقتها كما قيل عن ابن مسعود والنخعي ومجاهد وإبراهيم وعمر بن عبد العزيز.

(1) تقدَّم التعريف به في الجزء 7، ص 143.

[فقه] أو الإضاعة الإخلال بشــروطها من الطهارة والوقــت، وقد قيل: تأخيرها حتَّى يخرج وقتها، وقيل: إقامتها في غير جماعة، [قلت:] وهو تشديد إلَّا أن يكون حيث يخاف خراب المسجد أو ضعف الجماعة.

والآية في تلك الأقوال واردة على الموحدين، وأخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب القرظــي أنَّ إضاعتها تركها فتحتمل أهل التوحيد والشــرك، ففي أهل الشــرك خطاب لهم بفروع الشــريعة، كما قيل: إنَّها فيمن لم يعتقد وجوبها فإنَّه مشرك خوطب بالفروع، والمشهور عن ابن عبَّاس أنَّها في اليهود، وعن السدِّي أنَّها في اليهود والنصارى، والمختار **أنَّها في الكفرة مطلقا** بقوله بعد ذلك: ﴿وَءَامَنَ﴾. وزعم بعض أنَّها في قــوم يأتون عند ذهاب الصالحين غير مشــركين، يزنون بالذكور في الطرق لا يســتحيون من أحــد، وقولهم: «يأتون» يخالف الماضي في الآية.

﴿**وَاتَّبَعُواْ الشَّــهَوَاتِ**﴾ المحرَّمات لا يتركون إلَّا ما لم يقدروا عليه، وفيها أيضا مع حرمتها الاشتغال عن الصلاة، وعدَّ بعض منها تزوُّج اليهود بالأخت من الأب ولا يصحُّ هذا عنهم، وإنَّما الذي صحَّ عنهم أنَّهم يجيزون نكاح بنت الأخ وبنت الأخت ونحوهما.

﴿**فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا**﴾ قال أبو أمامة: قال رسول الله ﷺ: «**هو نهر في أسفل جهنَّم، يسيل فيه صديد أهل النار، لو ألقيت فيه صخرة ما بلغت قعره سبعين خريفا**»[1] رواه الطبري والطبراني وغيرهما. وأخرج جماعة عن ابن مســعود: «إنَّ الغيَّ نهر ـ أو واد ـ في جَهَنَّم من قيح، بعيد القعر خبيث، يقذف فيه الذين يتَّبعون الشــهوات». وعبارة بعض: «إنَّه آبار في جَهَنَّم يســيل فيها صديد أهل النار وقيحهم». وعن ابن عبَّاس: «واد في جهنَّم تســتعيذ من حرِّه، أعدَّ للزاني

(1) أورده **الســيوطي** في الدر: ج 4، ص 305. وقال: أخرجه ابن جريــر والطبراني وابن مردويه والبيهقي في البعث عن أبي أمامة مع زيادة.

المصرِّ، وشارب الخمر المدمن، وآكل الربا الذي لا ينزع ـ أي لا يكفُّ ـ والعاقِّ وشاهد الزور». وعن قتادة: «الغيُّ السوء» وقال مرقش الأصغر:

فمن يلق خيرا يحمد الناس أمره ومن يغو لا يعدم على الغيِّ لائما

وعن ابن يزيد: «الغيُّ الضلال»، وهو المشهور وعليه الضحَّاك والزجَّاج، وعلى ذلك فالمراد جزاء الغيِّ، وهو ما ذكر، وقيل: ضلالا عن طريق الجنَّة.

﴿**إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا**﴾ الاستثناء متَّصل، فإنَّ المعنى: إلَّا من تاب من الإشراك، وآمن... إلخ، فإنَّ الإيمان ظاهر في أنَّ ما قبل ذلك في الإشراك، فالآية كالنص في أنَّ الخلف المضيِّعين للصلاة المتَّبعين للشهوات مشركون إذ لا يقال في الفاسق الموحِّد: له الجنَّة إن آمن بل يقال: إن تاب وعمل صالحا، إلَّا أن يقال المراد من جمع بين التوبة والإيمان والعمل الصالح، أو يقال: المراد الإيمان الكامل إلَّا **أنَّهما خلاف الظاهر وأنَّه يغني عنه ذكر التوبة والعمل الصالح.**

وإن جعلنا ما قبل هذا في الفسَّاق والموحِّدين كان الاستثناء منقطعا، لأنَّ قوله: ﴿ءَامَنَ﴾ يدلُّ على تقدُّم الإشراك، وإن جعلناه فيهم وفي المشركين كان الاستثناء متَّصلا باعتبار حصَّة المشركين، وقد يقال: ﴿ءَامَنَ﴾ بمعنى صلَّى في مقابلة الصلاة كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [سورة البقرة: 143] أي صلاتكم، ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ في مقابلة ﴿اتَّبَعُواْ الشَّهَوَاتِ﴾ فيكون الاستثناء متَّصلا إن كان ما قبلُ في الموحِّدين الفاسقين، ومنقطعا إن كان في المشركين وهذا في الموحِّدين.

﴿**فَأُوْلَئِكَ**﴾ الذين تابوا وآمنوا وعملوا صالحا ﴿**يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ**﴾ لم يقل: سوف يدخلون الجنَّة لطفا بهم ﴿**وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا**﴾ لا يظلمون بنقص ثوابهم ظلما، أو لا ينقصون ثواب أعمالهم نقصا مَّا، أو لا ينقص أعراضهم نقصا مَّا، بل يعظَّمون، أو لا ينقصون شيئا من ثواب أعمالهم.

[أصول الدين] والآية وأمثالها من القرآن والأحاديث شــرطت في دخول الجنَّة العمل الصالح لمــن أمكنه والتَّقْوَى، ومن آمن فمــات أو جنَّ، قبل أن يكلَّف بفرض فله الجنَّة، **وضلَّ من تكلَّف وقال:** شرط العمل الصالح لدخولها بلا تســويف، أو لكون جنَّته جنَّة عدن، أو لعدم نقص شيء من ثوابه وينقص لغيره، ويردُّه ما ورد في القرآن وغيــره من أنَّه: من فعل كبيرة كترك فرض فهو في النار إلَّا إن تــاب، وكذا إن فعل كبيرة غير تــرك، إلَّا إن تاب كمن زنى أو اغتاب، ومــن تاب لم ينقص من ثوابــه بل تثبَّت له أعمالــه الصالحة وتبدَّل سيِّئاته حسنات، [قلت:] وكلُّ جنَّة هي جنَّة عدن أي إقامة لا يرحل عنها.

﴿**جَنَّاتِ عَدْنٍ**﴾ كلُّ الجنَّــات الثمانية جنَّات عدن، ألا ترى أنَّه جمعها فلو كان اســما لواحدة عنها لم تجمع، فقد ذكــر الجنَّة أوَّلا باســم مفرد مراد به الجنس وجمعها ثانيا بيانا بأنَّ كلَّ واحدة من ذلك الجنس جنَّة عدن، وما ورد من أنَّ جنَّة عدن اســم لواحدة منها غير مراد في القــرآن، وكلُّ جنَّة عدن في القرآن عَامَّة.

وهو بدل من الجنَّة، أو عطف بيان بالنكرة للمعرفة على قول جواز ذلك، ولا نسلِّم أنَّ «عدنا» علم للإقامة فيكون «جنَّة» معرفة لإضافته إليه، إذ لا دليل على تلك العَلَميَّة، وذلك بدل كلٍّ، ولا نسلِّم اشتراط وصف النكرة في إبدالها بدل كلٍّ من المعرفة فائدة، واشــترط أبو عليٍّ إفادتها فائــدة لم يفدها المبدل منه، وقد أفادت العدن، ولم يكن في لفظ الجنَّة، ولا حاجة إلى دعوى نصب «جنَّاتِ» على المدح.

[نحو] ﴿**التِي وَعَــدَ الرَّحْمَنُ عِبَــادَهُ بِالْغَيْبِ**﴾ نعــت الجنَّة، والموصول المقرون بـ«ال» ينعت به كالمشتقِّ، أو بدل من «جَنَّاتِ عَدْنٍ» على جواز إبدال المشــتقِّ أو ما في تأويله. و«بِالْغَيْبِ» متعلِّق بحال محذوفة جوازا كون خاص من هاء «وعدهــا» المحذوفة، أي ملتبســة بالغيب غير حاضــرة لهم، أو من

«عباد» أي ملتبسين بالغيب غير مبصرين لها، فالباء للمصاحبة، أو تعلَّق بـ«وَعَدَ» فتكون للسببيَّة على حذف مضاف، أي بتصديق الغيب، أو بإيمان الغيب، أو متعلِّق بـ«عِبَادَهُ» على معنى الذين يعبدونه بالغيب، أي في السرِّ كما يعبدونه في الجهر.

﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَاتِيًّا﴾ إنَّ الرحمن أو الشأن، والمعنى: موعوده الذي هو الجنَّة، أو كلُّ ما وعد فيشمل بالأولى الجنَّة لمن آمن وتاب وعمل صالحا.

[صرف] و«مَأْتِيًّا» اسم مفعول أصله «مَأْتُويًا» قلبت الواو ياء وأدغمت في الياء وكسر ما قبلها، أي يأتيه الذين تابوا وآمنوا وعملوا صالحا، وما وعد لك يصدق أنَّك تأتيه أي تستقبله حتَّى تصله، كما يصدق أنَّه يأتيك. ولا حاجة إلى دعوى أنَّه اسم مفعول بمعنى اسم فاعل، ولا إلى دعوى أنَّه من قولهم: إنَّه أتى إليه إحسانا أي فعل ما يعدُّ إحسانا، وإن الوعد على ظاهره من المصدريَّة، وإنَّ معنى كونه مفعولا أنَّه منجز لأنَّ فعل الوعد بمعنى صدوره، وإيجاده إنَّما هو تنجيزه، أي إنَّه كان وعده عباده منجزا.

﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ أي لا لغو فيها بسبٍّ ولا بغيره، إذ لو كان لسمعوه، كنَّى عن نفي الملزوم بنفي لازمه، أو عن نفي السبب بنفي المسبَّب، واللغو: كلام لا فائدة فيه، فهو كلغو العصافير بالنظر إلى سماعنا له، وإلَّا ففي أصواتها كلام بعض لبعض وتسبيح، [قلت:] فإذا نفي عن أهل الجنَّة كان ينبغي اجتنابه في الدنيا.

﴿إِلَّا سَلَامًا﴾ استثناء متَّصل، بمعنى: إن كان فيها لغو فبالسلام، والسلام لا يكون لغوا، فهو نفي له بطريق البرهان من تأكيد المدح بما يشبه الذمَّ، كقوله:

ولا عيب فيهم غير أنَّ سيوفهم بهنَّ فلول من قراع الكتائب[1]

---

(1) البيت للنابغة، وهو من الشواهد المتداولة. **إميل يعقوب**: المعجم في شواهد اللغة، ج 1، ص 345.

أو بمعنى: إنَّ السلام فيها لغو باعتبار أنَّه دعاء بالسلامة من الآفات، مع أنَّه لا آفة فيها، ولو كان القصد به التَّحابُ وأنَّه حقٌّ مقصود، أو [الاستثناء] منقطع، أي لكن يسمعون سلام الملائكة عليهم، أو سلام بعض على بعض، أو كلاما ذا سلامة من العيب أو سالما، وقيل: سلام الله يخلقه حيث شاء أو على لسان ملك ﴿**وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا**﴾ أي في كلِّ وقت شاؤوا، فعبَّر بأطراف اليوم لا الوقتين ومن ذلك في غير الزمان قولنا: اللَّهُمَّ ارحم المهاجرين والأنصار، نريد الصحابة مطلقا. والمراد: كثرة الأرزاق بلا حساب.

وكانت للعرب أكلة واحدة ومن أصاب أكلتين سمِّي فلانا الناعم، فنزل اللفظ على رسم ما يرونه خصب عيش، والمعنى أكثر من ذلك، ولا بكرة وعشيا فيها، وجاء الأثر أنَّه يُبَيِّنُ لهم مقدار الليل بإرخاء الستر وإغلاق الباب، والنهار برفع الستر وفتح الباب في ملك كلِّ واحد، لكن الرزق يَعُمُّ البكرة والعشيَّة وغيرهما، أو في الوقتين لا بُدَّ، وفي غيرهما زيادةً بحسب ما شاؤوا.

قال رجل: يا رسول الله هل في الجنَّة ليل؟ فقال: ما هيَّجك على هذا؟ قال: قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ...﴾ الآية فقال ﷺ: «**لا ليل بل ضوء الغدوِّ والعشي يتواردان، وتأتيهم طرف الهدايا من الله تعالى لمواقيت الصلاة في الدنيا، وتسلِّم عليهم الملائكة** عَلَيْهِمُ السَّلَامُ»[1].

﴿**تِلْكَ الْجَنَّةُ**﴾ مبتدأ وخبر. وإشارة البعد للتعظيم ﴿**التِي**﴾ نعت الجنَّة ﴿**نُورِثُ**﴾ نورثها، هذه الهاء مفعول ثان ﴿**مِنْ عِبَادِنَا**﴾ حال من الموصول في قوله ﷻ: ﴿**مَن كَانَ تَقِيًّا**﴾ وهو مفعول أوَّل، أي نصيِّر من كان تقيًّا من عبادنا وارثا تلك الجنَّة، تعدَّى ماضيه لاثنين بالهمزة.

---

(1) أورده **ابن كثير** في تفسيره للآية: ج 3، ص 129، أثرا عن الحسن البصري.

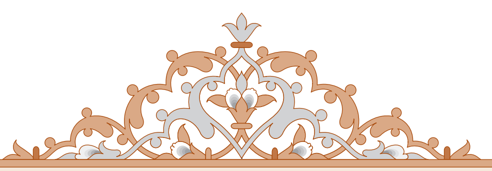
وقرأ محبوب أبو محمَّد بن محبوب عن أبي عمرو بن العلاء، وكان يدخل البصرة: ﴿نُوَرِّثُ﴾ بفتح الواو وشدِّ الراء مكسورة، والتعدية لهما بالشدِّ أو الهاء أوَّل، أي نجعلها باقية تنال التقيَّ.

[بلاغة] والإيراث أو التوريث مستعار لتمليك، لا يقبل الفسخ والاسترجاع بخلاف التمليك بالبيع أو الهبة، وحيث ذكرت بالشراء فالمراد الشراء الذي كالميراث في ذلك.

والآية نصَّت على أنَّ الجنَّة كلَّها مورَّثة، ولا يصحُّ تفسيرها بإيراث الله المسلمين أزواج الكفرة وولدانهم، ومنازلهم وأملاكهم التي لهم في الجنَّة لو كانوا سعداء، كما جاء الأثر بذلك، فإنَّ هذا بعض، فإن صحَّ الأثر قيل به لكن لا تفسَّر الآية به. ويحتمل أنَّ الآية تمثيل.

[سبب النزول] لَمَّا ذكر الله ﷻ إساءة الكفرة بالأنبياء والأولياء وتكذيبهم والإجابة عنهم وذكر الأَخلاف عقَّب ذلك بالتلويح إلى إساءتهم إلى رسول الله ﷺ وجوابه عنه إذ سألوه عن أصحاب الكهف وذي القرنين والروح، وقال: أخبركم غدا، ولم يقل: إن شاء الله، فطال عنه الوحي حتَّى قالوا: ودَّعه ربُّه، واشتدَّ حزنه واشتاق إلى الوحي، فنزل جبريل فقال له: «**احتبست عَنِّي حتَّى ساء ظنِّي**»[1] فأجابه بقوله:

(1) أورده **السيوطي** في الدر المنثور، وقال: أخرجه ابن أبي حاتم عن السدي. ج5، ص530.



﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿64﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿65﴾ ﴾

تنزل الوحي بأمر الله تعالى

﴿ **وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ** ﴾ وروي أنّهَ قال ﷺ: «**ما منعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا؟**» فقال: ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ... ﴾[1] والتنزُّل: النزول على مهل، وضمير «نَتَنَزَّلُ» لجبريل المعروف من المقام مع الملائكة.

﴿ **لَهُ** ﴾ لا لنا ﴿ **مَا بَيْنَ أَيْدِينَا** ﴾ ما قُدَّامنا من الزمان ﴿ **وَمَا خَلْفَنَا** ﴾ من الزمان ﴿ **وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ** ﴾ المذكور من الزمان، فلا ننزل إلَّا في زمان أراده للنزول، وإنَّما فسّرت «مَا» بالزمان لأنَّه ﷺ قال لجبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**لِمَ لَمْ تنزل إلى هذا الوقت ولم لا تنزل زمانا كثيرا**» وإنّما ذكر «مَا بَيْنَ ذَلِكَ» مع أنَّه حين بدأ ذكره مستقبل، وكلُّ جزء من أجزاء الذكر ماض بعد تمامه، كما تقول: الحال أجزاء من أواخر الماضي ومن أوائل المستقبل لأنَّه يتشخَّص بذلك.

أو ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا ﴾: قبل وجودنا ﴿ وَمَا خَلْفَنَا ﴾: بعد فنائنا و﴿ مَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾: مدّة الحياة؛ أو ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا ﴾: زمان الدنيا ﴿ وَمَا خَلْفَنَا ﴾: زمان البعث بلا تناه ﴿ وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ ﴾: ما بين نفخة الموت ونفخة البعث أربعون سنة، وقيل: أربعون يوما بين النفختين؛ أو ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا ﴾: الآخرة لأنَّها مستقبلة و﴿ مَا

(1) رواه **البخاري** في كتاب التفسير، سورة مريم، رقم: 4454. من حديث ابن عباس.

خَلْفَنَا﴾: الدنيا لأنَّها تمضي عنَّا ونخلِّفها شيئا فشيئا، و﴿مَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾: ما بين النفختين. وإنَّما يذكر الدنيا لأنَّه حين الخطاب مع رسول الله ﷺ.

وقد اختلف فيما ردَّت السماء فوق أهو من الدنيا لأنَّه يفنى؟ أو من الآخرة؟ أو واسطة وزمان ذلك تابع له؟ أو﴿مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾: السماء و﴿مَا خَلْفَنَا﴾: الأرض، أو بالعكس، و﴿مَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾: ما بينهما، أو ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾: ما ينتقلون إليه و﴿مَا خَلْفَنَا﴾: ما ينتقلون منه و﴿مَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾: ما هم فيه، ولا يخفى أنَّ التفسير بالمكان غير مناسب لأنَّ المقام للزمان، وقيل: المراد الزمان والمكان معا، والهواء من المكان لا ننتقل في زمان أو مكان أو إليه إلَّا بإذن مالكه تعالى، وقدَّر بعض: «له علم ما بين أيدينا»، واختار بعض تعميم الملك والعلم.

﴿**وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا**﴾ تاركا لك، كما قال الكفرة لَمَّا تأخَّر عنه الوحي: تركه ربُّه، بل تأخَّر لحكمة؛ أو تاركا لأنبيائه وأنت منهم، فيكون نفي تركه بطريق البرهان، وقيل: النسيان على ظاهره، ولا بأس بنفي ما لا يتوهَّم ثبوته، وقد ورد في القرآن لحكمة تذكير المخاطب إن غفل عن استحضاره، أو لكون الكُفَّار مثلا صدر منهم ما يناسب خلافه، ولا يبعد أن يكون بنسيان الله، أو لمناسبة المبالغة، فمبالغة «نَسِيًّا» راجعة إلى النفي، أي انتفى النسيان عنه انتفاء بليغا، فلعلَّه جواب لتوهُّم الكُفَّار أنَّه نسيه أو غفل عنه، فالنسيان بمعنى الغفلة.

وسلَّاه بذكر لفظ «ربّ» المشعر بالإنعام مع الإضافة، وقيل: أوَّل الآية إِلَى ﴿وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ من كلام المُتَّقِينَ في الجنَّة وتنزُّلهم في منازلهم من الجنَّة، وكلُّ ما مرَّ أو يأتي أو حضر من التوفيق والنعم ملك له، وقرَّره الله بقوله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ لا يغفل ولا يتركنا ولا ينسانا ولا تاركا لثواب أعمالنا.

ويبعد ما قيل: إنَّه خطاب منهم في الجنَّة لبعض منهم فيها وكذا ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ خطابهم لواحد، وذلك لا يوافق سبب النزول، فيرتكبون أنَّها لم تنزل جوابا، وهو خلاف المشهور.

﴿رَّبُّ السَّـــمَاوَاتِ وَالَارْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ هو ربُّ السماوات، أو بدل من «رَبُّ». و﴿السَّـــمَاوَات﴾: هنَّ الســـبع، و﴿الَارْض﴾: الأرضون السبع، و﴿مَا بَيْنَهُمَا﴾: ما بين الفريقين تفصيلا، ما بين كلِّ سماء وسماء، وما بين كلِّ أرض وأرض، وما بين السماء والأرض بمعنى: ما بين أبعاض الفريقين.

والبينيَّة شــاملة لمن ســكن فيهنَّ وما في الهواء، كما قيل: إنَّ في الهواء طيرا وبحرا من ماء وحوتا، وذلــك بعض ملكه ولا ينتهي ملكه لدوامه، كيف يليق بجلاله أن يغفل أو ينسى أو يلغي من أطاعه واصطفاه للنبوءة؟!.

﴿فَاعْبُــدْهُ وَاصْطَبِــرْ لِعِبَادَتِــهِ﴾ إذا كان الأمــر مــا ذكر من أنَّــه ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ...﴾إلخ، أو ﴿مَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾، أو ذلك كلُّه، فاعبده لأنَّه المثيب على الأعمال. ولا تحزن على إبطاء الوحي، ولا لقولهم: تركه ربُّه أو نسيه أو غفل عنه؛ أو عطف إنشاء على خبر هو قوله: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ﴾ أو على قوله: ﴿وَمَا كَانَ...﴾، أي اعبده لسبب كونه لا ينسى، أو لكونه ﴿رَبُّ...﴾ واصطبر على عبادته لســبب ذلك. والــلام بمعنى «علــى» كقوله تعالــى: ﴿واصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾، أو الــلام لتضمُّن اصطبر معنى اُثبت، وأجيــز أن يكون «رَبُّ» مبتدأ خبره «اعْبُدْهُ»، وهو ضعيف لاحتياجه إلى كون الفاء زائدة، وللإخبار بالأمر.

وأجيز أن يكون ﴿وَمَــا كَانَ رَبُّكَ...﴾ من كلام المتَّقيــن على أنَّ ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ﴾ خبر لمحذوف، أي هو ربُّ الســماوات، و«اصْطَبر» «افتعل» من الصبر، أبدلت تاؤه طاء لتجانس الصاد في الجهر.

[أصول الدين] ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَــمِيًّا﴾ مماثلا له في اســم، مشارك له في المعنى مثل: خالق وقــادر ورازق وعالم، بمعنى أنَّه يخلق كما يخلق الله ويرزق كما يرزق الله ويقدر على كلِّ شــيء بلا علاج كما قدر الله، ويعلم كلَّ شيء بلا تعلُّم وبلا بدء ولا انتهاء، ولا مع عدم نســيان، ومثل الرحمــن والرحيم على معنى أنَّه يرحم في الدنيا والآخرة، وتعمُّ رحمته كما أنَّ الله يرحم، ومثل إله والله

على أنَّه يعبد بحقٍّ. ولم يجترئ المشركون مع عتوِّهم أن يسمُّوا أحدا الله، ومثل أن يسمَّى أحد ربُّ السماوات والأرض، وذلك كلُّه منفيٌّ بأبلغ وجه حيث نفى المعلوم بالاستفهام الإنكاري، فإذا لم يكن له سميٌّ تعيَّن أن لا يعبد إلَّا هو.

كان رسول الله ﷺ إذا قرأ: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ قال: لا، وروى أبو داود عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: «**من قرأ منكم ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾ فانتهى إلى آخرها ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ فليقل: بلى وأنا على ذلك من الشاهدين، ومن قرأ: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ فانتهى إلى ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِقَادِرٍ عَلَىٰٓ أَنْ يُّحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ فليقل: بلى، ومن قرأ: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ﴾ فبلغ ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُومِنُونَ﴾ فليقل: آمنَّا بالله وحده**»(1).

وروى أبو داود عن موسى بن أبي عائشة أنَّه كان رجل يصلِّي فوق بيته فكان إذا قرأ: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰٓ أَنْ يُّحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ [سورة القيامة: 40] قال: «**سبحانك بلى**»، فسألوه عن ذلك، فقال: سمعته من رسول الله ﷺ. وكان رسول الله ﷺ إذا قرأ: ﴿فَمَنْ يَّاتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ [سورة الملك: 30] قال: «**يأتي به ربُّ العالمين**».

روى الترمذي عن جابر عن عبد الله خرج رسول الله ﷺ على أصحابه فقرأ عليهم سورة الرحمن من أوَّلها إلى آخرها فسكتوا، فقال: «**لقد قرأتها على الجنِّ ليلة الجنِّ، فكانوا أحسن منكم مردودا، كانوا كلَّما أتيت على قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قالوا: لا بشيء من نعمك ربَّنا نكذِّب ولك الحمد**»(2)، وفي رواية لغيره: «**لا بشيء من آلائك ربَّنا نكذِّب**» وفيها: «**أحسن منكم ردًّا**». ويجوز للقارئ أن يقوله إذا قرأ هؤلاء الآيات كما يقوله السامع، وكان رسول الله ﷺ إذا قرأ: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [سورة الزمر: 53] قال: «**ولا**

(1) رواه **أبو داود** في كتاب الصلاة، باب مقدار الركوع والسجود، رقم 887، من حديث أبي هريرة.
(2) رواه **الترمذي** في كتاب تفسير القرآن (56) باب: ومن سورة الرحمن، رقم 3291، من حديث جابر.

يبالي إنَّه هو الغفــور الرحيم» وكان إذا قرأ: ﴿**أَصْطَفَــى الْبَنَاتِ عَلى الْبَنِينَ**﴾؟ [ســورة الصافــات: 153] قال: لا، أو قال: «**لم يلد ولم يولــد**» وكان إذا قرأ: ﴿ءَآنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ [ســورة الواقعة: 59] أو قرأ ﴿ءَانتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ [سورة الواقعة: 64] قال: «**أنت يا رَبِّ**»، وإذا قرأ والضحى وختمها قال: «الله أكبر» وكذا كلّ سورة بعدها إلى آخر سورة الناس.

كان الفضيل بن عياض إذا قرأ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾ [سورة الانفطار: 10ـ11] قال: ما أشــدَّها آيــة على الغافلين. وفي تفســير البغوي عن ابن عبَّاس أنَّ النبيء ﷺ قرأ: ﴿سبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الَاعْلَى﴾ فقال: «سبحان ربِّي الأعلى الذي خلق فسوَّى» إلى آخر السورة، وكان عليٌّ إذا قرأه في الصلاة قال: سبحان ربِّي الأعلى، فقيل له: أتزيد في الصلاة؟ قال: أمرت بشيء ففعلته.

[فقه] وظاهر الإطلاق أنَّ ذلك في الفرض والنفل، وخصَّ بعضهم ذلك بالنفل، وكان رسول الله ﷺ إذا قرأ آية عذاب ســأل النجاة، وإذا قرأ آية رحمة سأل الرحمة وزاد ما بعد ذلك من القراءة.

وفي رواية: كان رسول الله ﷺ لا يمرُّ في صلاته بآية عذاب إلَّا استعاذ ولا بآية رحمة إلَّا سأل. وروى أبو داود والحاكم عن ابن عبَّاس عن رسول الله ﷺ: «**كان إذا قرأ: ﴿سبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الَاعْلَى﴾ قال: سبحان ربِّي الأعلى**».

وفي الترمذي عن حذيفة: كان رســول الله ﷺ يقول في ركوعه: «**ســبحان ربِّي العظيم**» وفي سجوده: «**ســبحان رَبِّي الأعلى**» وما أتى على آية رحمة إلَّا وقف وسأل، وما أتى على آية عذاب إلَّا وقف وتعوَّذ.

فنقول: إذا قرأ الإنسان اســم محمَّد أو أحمد في القرآن وقف وصلَّى عليه وســلَّم وعلى آله، بصوت دون صوت القراءة ثمَّ يزيد قــراءة ما بعد، وأمَّا في غير قراءة القرآن فينبغي رفع الصوت بالصلاة والسلام عليه ﷺ.

﴿وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿66﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿67﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿68﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿69﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿70﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿71﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿72﴾﴾

الردُّ على منكري البعث، ومصيرهم يوم القيامة

﴿**وَيَقُولُ الْإِنسَانُ**﴾ [قيل: هو] العاصي بن وائل كما أخرجه ابن المنذر عن ابن جرير، أو الوليد بن المغيرة كما روى عطاء عن ابن عبَّاس، وقيل: أبو جهل، وقال الكلبي: أبي بن خلف، أخذ عظما باليا يفتُّه بيده ويذريه في الريح، ويقول: زعم محمد أنا نبعث بعد أن نكون هكذا، هذا شيء لا يكون أبدا.

و«ال» في ذلك كلِّه للعهد، وكذا إذا قيل: المراد جماعة معيَّنون مثل هؤلاء منكرون للبعث، ويجوز أن يكون المراد الجنس بإطلاق اسم الجنس وإرادة البعض، كما يطلق الكلُّ على بعض أجزائه، أو يكون من المجاز في الإسناد بأن أسند ما للبعض إلى الكلِّ، كما يقال: بنو فلان قتلوا فلانا، والقاتل واحد، ولا نسلِّم في هذا اشتراط رضا الباقين، وإن سلَّمنا فمن المشركين من رضي ولم يقل، وأمَّا أن يقال: ذلك شَرْطٌ للحُسْنِ بنكتةٍ فلا، لِلُزوم أن يكون القرآن غير حسن العبارة، وأجيز أن يكون الباقون المؤمنين

باعتبـــار ما ركِّز في الطبـــع من منع ذلك مـــع قطع النظر عـــن الدليل، وفيه تكلُّف. والمضارع لاستحضار الصورة الماضية فهو للحال لتشاهد، والمعاينة أقوى من الإخبار، أو للاستمرار.

﴿أَ.ذَا مَـا مِتُّ لَسَـوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ الاسـتفهام للإنـكار، و«إذا» متعلِّق بـ«أُخْرَجُ» محذوفـا لا بالمذكور لأنَّ اللام مانعة من تقـدُّم معمول ما بعدها عليها، وأمَّا «سَـوْفَ» فلا صدر لها، وقد قدِّم معمول ما بعدها عليها في قوله ـ وفي غيره من كلام العرب ـ:

فلمَّـا رأتـه آمنا هـان وجدها   وقالت: أبونا هكذا سوف يفعل[1]

وزعم الرضيُّ أنَّها تعلَّقت بـ«أُخْرَجُ» بعد «سَوْفَ» وليس كما قال.

وفي الآية حذف هكـذا: أئذا ما متُّ وصرت مفتوتـا كهذا العظم. واللام للابتداء، كما تدخل على المبتدأ تدخل على «سـوف» والسين و«قد»، ويبعد أن يقال: لام القسـم، أي يقول: أئذا ما متُّ يقول الناس: والله لسـوف أخرج، لأنَّ المتبادر القول مطلقا لا القول بعد موته.

والمراد بالإخراج الإخراج من الأرض على الحقيقـة، أو من حال الفناء على المجاز، ووجهه أنَّ الخروج منه مشبَّه بالخروج من الأرض. والاستفهام مسلَّط على الإخراج لا على الوقت، كما زعم بعض أنَّه جائز، إذ لا يتوهَّم أن يخرج في غير ذلـك الوقت فضلا عن أن يعتني بتسـلُّطه عليـه. و«مَا» صلة للتأكيد، كأنَّه قيـل: إذا تحقَّق موتي، فقد لا يقدَّر المعطـوف الذي قدَّرته لأنَّ الاسـتبعاد يتحصَّل بالموت عند الكافر، إلَّا أنَّه يدلُّ على التقدير مثل: ﴿أَ.ذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا﴾ [سورة الإسراء: 49 و98].

---

(1) البيت للنمر بن تولب فـي ديوانه ص 371، وفي **جمهرة أشـعار العرب**، ج 1 ص 537، **إميل يعقوب**: المعجم المفصَّل في شواهد اللغة العربية، ج 6، ص 245.

﴿اَوَلَا يَذْكُرُ الِانسَانُ﴾ قيل: الهمزة مما بعد العاطف، والصحيح أنَّها دخلت على معطوف عليه محذوف، أي: أيقول الإنسان ذلك ولا يذكر؟، وهي للإنكار التوبيخيّ. ولم يضمر للإنسان وهو المذكور قبلُ لزيادة التقرير والإشارة إلى أنَّ الإِنسَانِيَّةَ من دواعي التفكُّر فيما من شأنه أن يتفكَّر فيه، كشؤون التكوين المصرّح بالقدرة على البعث.

﴿أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ﴾ من قبل حاله التي هو فيها أو من قبل البعث، فكما خلقناه نبعثه ﴿وَلَمْ يَكُ﴾ والحال أنَّه لم يكن ﴿شَيْئًا﴾ موجودا بل شيئا سيوجد، ولا يخفى لبادي العقل أنَّ ردَّ ما عدم أسهل من الإيجاد الأوَّل بما سبق من الجسم وأعراضه، وأمَّا في الحقيقة فمن أثبت أنَّه أسهل فقد أشرك لإثباته بعض الصعوبة لله ﷻ.

﴿فَوَرَبِّكَ﴾ أقسم بلفظ الربِّ مضافا إلى رسول الله ﷺ رفعا لشأنه وتحقيقا للأمر ﴿لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾ لنجمعنَّ القائلين ﴿أَ.ذَا مَا مِتُّ...﴾ إلى جهنَّم، واختار أبو حيَّان أنَّ الضمير للناس كافريهم ومؤمنيهم، و﴿وَإِن مِّنكُمُوٓ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [سورة مريم: 71] ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ [سورة الجاثية: 28] [قلت:] والأوَّل أولى، لكن يقال: الأوَّل مفرد ـ وهو الإنسان ـ فكيف يردُّ إليه ضمير الجمع؟ فأمَّا على أنَّ الإنسان جماعة بالأوجه السابقة فلا إشكال، وأمَّا على أنَّ المراد واحد فلأنَّه مشعر بأنَّ له أتباعا فرجع الضمير إليه معهم. وفي ذكر الحشر دون البعث ـ مع أنَّه بعد البعث ـ تلويح بأنَّ البعث أمر واضح لا يحتاج إلى التصريح به، وإنَّما يحتاج إلى ذكر ما بعده، ويجوز أن يراد بالحشر البعث.

﴿وَالشَّيَاطِينَ﴾ عطف على الهاء أو مفعول معه، والمراد أنَّهم يحشرون هم والشياطين الذين أغووهم فينتقم منهم جميعا ويزداد تحسُّرهم باتِّباعهم، أو المراد: يقرنون كلّ إنسان وشيطانه في سلسلة.

ويضعف التفسير بحشر الناس كلِّهم مؤمنيهم وكافريهم، والمؤمن مع شيطانه بلا قرن في سلسلة والكافر مع شيطانه مقرونا معه في سلسلة، وهذا وارد في الحديث لكن لا تفسَّر به الآية، روى البخاري ومسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: «**ما منكم من أحد إلَّا وكِّل به قرينه من الجنِّ**» قالوا: وإيَّاك يا رسول الله؟ قال: «**وإيَّاي، إلَّا أنَّ الله تعالى غلَّبني عليه** ـ ويروى: أعانني عليه ـ **فأسلم لا يأمرني إلَّا بخير**»(1).

﴿**ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ**﴾ وأمَّا عموم الجثوّ في قوله تعالى: ﴿كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ [سورة الجاثية: 28] فليس في خصوص حول جهنَّم ﴿**جُثِيًّا**﴾ باركين على الركب، جمع جاثٍ كشاهد وشهود.

[صرف] أصله جثُوٌّ بواو مشدَّدة قلبت ياء مشدَّدة، وكسر ما قبلها لثقل واوين بعد ضمَّتين، وثقل ياءين بعد كسر دون ذلك الثقل، ولو كان فيه الانتقال من ضمٍّ إلى كسر، وزعم بعض أنَّه كسرت الثاء فقلبت الواو الأولى ياء فاجتمعت ياء وواو وسكن السابق فقلبت ياء وأدغمت فيها الياء، وقيل: مصدر بوزن «قعود» فلحقه الإعلال فأوِّل بالوصف، أو بتقدير مضاف.

وقيل: الحساب حول جهنَّم فيجثون للخصام، ثمَّ يتبرَّأ بعض من بعض، وقيل: يجثون لضيق المقام بهم، وقيل: لما دهاهم حتَّى لا يطيقون القيام، من هول المطلع، وقيل: الجثوُّ للمجموع لا للجميع فمنهم من لا يجثو. وهو حال مقدَّرة، لأنَّ بروكهم حولها عقب الإحضار لا مقترن بالإحضار وبعد الحساب وبعد وجودهم في المقام ضيِّقا، **وفي إحضارهم كذلك إهانة لهم.**

---

(1) رواه **مسلم** في كتاب صفة القيامة والجنَّة والنار (16) باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه... رقم 2814، عن ابن مسعود.

ولكـــن إن ردَّ الضمير للناس كلِّهـــم فالمؤمن لا تلحقه إهانـــة، اللهمَّ إلَّا صورتها من شـــدَّة الهول، وفي جمعهم حول جهنَّم فـــوت الصراط الممدود الذي يرويه قومنا وما صراط الجحيم إلَّا طريقهم إلى ما حولها، وذلك حسن، وحكمة ذلك زيادة الحسرة على الكافر وزيادة الفرح للمؤمن إذا رأى ما نجَّاه الله منه وأهلك به عدوَّه.

وقيل: يجثـــون باختيارهم تذلُّلا لله، ولات حين عمـــل، وعن ابن عبَّاس: ﴿جُثِيًّا﴾: جماعات، على أنَّهُ جمع «جثوة» وهو المجموع من تراب أو حجارة أو تمر أو غير ذلك.

﴿**ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ**﴾ لنخرجنَّ كقوله تعالى: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ﴾ [سـورة الأعراف: 108] أو لننزعنَّ الأشـــدَّ فالأشدَّ كقولهم نزعت الســـهم عن القوس أي رميته ﴿**مِن كُلِّ شِيعَةٍ**﴾ جماعة تشـــايعت على الباطل أي تعاونت، أو شـــاعت في الباطل أو شـــاعت دِينا مطلقا المؤمن والكافر ﴿**اَيُّهُم**﴾ مبنيٌّ، وهو موصول ﴿**أَشَدُّ**﴾ أي هو أشدُّ ﴿**عَلَى الرَّحْمَنِ**﴾ أي على عباد الرحمن أو على دين الرحمن ﷻ على حذف مضاف، بأن يشـــبّه مخالفتهم لديـــن الله بمخالفة مبطـــل لمُحِقٍّ متعلِّق بـ«أَشَدُّ» أو بقوله: ﴿**عُتِيًّا**﴾ فسادا بتعاصيهم عن الحقِّ كما قال الجمهور، وعن ابن عباس: جرأة، وعن مجاهد: كفرا، وقيل: افتراء بلغة تميم، وكلٌّ من الجرأة والكفر والافتراء عصيان. وأصله «عتوًّا» وفيه ما مرَّ في ﴿جُثِيًّا﴾ إلَّا أنَّه مصدر، وهو تمييز؛ ولا حاجة إلى دعوى أنَّه جمع «عات» وأنَّ المعنى يظهر أيُّهم أشدُّ رجلا عاتيا، عتاتهم أشدُّ من عتاة غيرهم، فإذا جمع العتاة على قدر اختلافهم في شـــدَّة العتوِّ طرحوا في النار علـــى ترتيبهم، ولا يخلـــو الموحِّدون من أن يكون في بعضهم شدَّة العتوِّ وأشدِّيته.

﴿**ثُمَّ**﴾ للترتيب الذكـــري ﴿**لَنَحْنُ**﴾ اللام للابتداء ﴿**أَعْلَـــمُ بِالذِينَ هُمُۥ أَوْلَىٰ بِهَـــا صُلِيًّا**﴾ مقاســـاة لها ومن هـــو دون الأولى صليًّا علـــى ترتيبهم

السابق، ومن لا صليّ له البتَّة وهو السعيد، إذا حملنا الآيات ـ كما قال أبو حيَّان ـ على النـاس كلِّهم، وعلى ذلك الترتيب يدخلـون جهنَّم، كما روي عن ابن مسعود.

ويجوز أن يكون أشـدُّهم: أئمَّتهم، لأنَّهم ضالُّون مضلُّون، كقوله تعالى: ﴿الذِيـنَ كَفَـرُواْ وَصَدُّواْ عَـن سَـبِيلِ اللهِ زِدْنَاهُـمْ عَذَابًـا فَـوْقَ الْعَذَابِ﴾ [سورة النحل: 88] وقولـه: ﴿وَلَيَحْمِلُـنَّ أَثْقَالَهُـمْ وَأَثْقَـالاً مَّـعَ أَثْقَالِهِـمْ﴾ [سورة العنكبوت: 13] و﴿الذِينَ هُمُوَ أَوْلَىٰ بِهَا﴾ هم من هو أشدُّ على الرحمن، فهو من الظاهر المقام مقـام المضمر. و«بِهَا» متعلِّـق بـ«أَوْلَـى»، أو بـ«صُلِيًّا»، وتقديم معمـول المصدر عليـه جائز إذا لـم يقصد به معنـى الفعل وحرف المصدر، وأيضا يقدَّم للفاصلة وأيضا يتوسَّع في الظروف.

﴿**وَإِن مِّنكُم**﴾ ما واحد منكـم ﴿**إِلَّا وَارِدُهَا**﴾ التفـات من الغيبة إلى الخطاب للتأكيد، كما يـدلُّ له قراءة ابن عبَّاس: «وَإِن مِّنهُـم إِلَّا وَارِدُهَا»، ويحتمل أن يكون اسـتئنافا خطابا للناس كلِّهم وهـو واضح، لا لمن ذكر قبلُ خاصَّـةً فلا التفـات، **و«هَا» فـي «وَارِدُهَا» للقيامة عند ابن مسـعود**، والصحيح أنَّه لجهنَّم.

والورود هنـا: المرور عليها بـلا دخول، كما رواه عبد بـن حميد، وابن الأنباري والبيهقي عن الحسـن البصري، وكذا روي عن قتادة. والحضور عامٌّ للكافر والمؤمن.

أو نقول: الورود الدخول، ونقول: الخطاب لِلْكُفَّارِ، كما يدلُّ له قراءة ابن عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «وَإِن مِّنْهُمْ». وأخـرج عبد بن حميد عن عبيد بن عمير أنَّ الورود الحضور والقرب، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾ [سورة القصص: 23] وَكَمَا فَسَّره إدريس عَلَيْهِ السَّلَامُ لملك الموت في قصَّته المذكورة آنفا واختار بعضهم أنَّ الورود حضورهم جاثين حولها.

وأخرج الترمذي والطبراني عن يعلى بن أميَّة عن النبيء ﷺ: **أنَّه تقول النار للمؤمن يوم القيامة جُزْ يا مؤمن فقد أطفأ نورُك لهبي**[1]، فنقول: تقول ذلك عند مروره عليها. وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد والحكيم عن خالد بن معدان: «**إذا دخل أهل الجنَّة الجنَّة قالوا: ربَّنا ألم تعدنا أن نرد النار؟ قال: بلى، ولكنَّكم مررتم عليها وهي خامدة**»[2] فهذا مرور حولها إذ لم يقل: مررتم فيها.

[قلت:] ولم **تَصِحَّ عندنا أحاديث دخول المسلمين فيها**، وقولها: «جُزْ يا مؤمن...»إلخ، وأنَّها برد عليه وأنَّ لها ضجَّة من برده، ولا ينافي حضورهم حولها قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [سورة الأنبياء: 101] لأنَّ المراد إبعادهم عن عذابها، أو إبعادهم عنها بعد أن يكونوا قريبا منها.

وعن مجاهد: «إنَّ ورود المؤمن النار مسُّ الحمَّى جسده في الدنيا» لقوله ﷺ: «**الحمَّى من فيح جهنَّم**»[3]، ولا دليل في الحديث هذا على أنَّ مسَّ الحمَّى هو المراد في قوله ﷻ: ﴿وإن مِّنكُمْ إِلَّا وارِدُها﴾. وأخرج ابن جرير عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ دخل على رجل موعوك وأنا معه ﷺ فقال: «**إنَّ الله تعالى يقول: هي ناري أسلِّطها على عبدي المؤمن لتكون حظَّه من النار في الآخرة**» ولا دلالة فيه على عدم ورود المؤمن المحموم في الدنيا النار في الآخرة، وغايته أنَّ المؤمن يحفظ من نار الآخرة.

---

(1) أورده **السيوطي** في الدر: ج 4، ص 309، وقال: أخرجه الحكيم الترمذي والطبراني وابن مردويه والخطيب والبيهقي في الشعب عن يعلى بن أميَّة.

(2) أورده **السيوطي** في الدر: ج 4، ص 309، وقال: أخرجه ابن أبي شيبة وهناد وعبد بن حميد والحكيم وابن الأنباري عن خالد بن معدان.

(3) رواه **البخاري** في كتاب بدء الخلق (10) باب صفة النار وأنَّها مخلوقة، رقم 3088. و**مسلم** في كتاب السلام، باب لكلِّ داء دواء واستحباب التداوي، رقم 2210، من حديث ابن عبَّاس.

وكان عبد الله بن رواحة يبكي ويقول: أخبرني ربِّي أنِّي وارد ولم يخبرني أنِّي صادر، ويقول بعض الصحابة لبعض: هل أخبرك ربُّك أنَّك وارد؟ فيقول: نعم، فيقول: هل أخبرك أنَّك صادر؟ فيقول: لا، فيقول: ففيم الضحك.

﴿كَانَ﴾ ورودهم إيَّاهَا ﴿عَلَى رَبِّكَ﴾ متعلِّق بمحذوف خبر «كَانَ»، والمنصوبان بعدُ خبران آخران، أو متعلِّق بـ«كَان» أو بقوله: ﴿حَتْمًا﴾ واجبا فيكون الخبر «حَتْمًا» ﴿مَّقْضِيًّا﴾ قضي بوقوعه قطعا، خبر آخر أو نعت لـ«حَتْمًا» أو متعلِّق بـ«مَقْضِيًّا» ولو كان «مَقْضِيًّا» نعتا للفاصلة بأن قدِّم متعلَّقه على منعوته، أو يعلَّق بـ«مَقْضِيًّا» إذا لم يكن نعتا.

ولا واجب على الله، والمعنى أنَّ ذلك كأنَّه واجب بأن أوجبه الله على نفسه، أو كأنَّه أوجبه أحد على الله سبحانه عن كلِّ نقص، لَكِنَّ الكلام مجاز لا حقيق. والجملة في معنى القسم، أو قوله: ﴿وَإِن مِّنكُم...﴾ إلىَ: ﴿...مَقْضِيًّا﴾ في معنى القسم وليس قسما نحويًّا، ويدلُّ على أنَّه قسم في المعنى قوله ﷺ: «**لا يموت لمسلم ثلاث من الولد فيلج النار إلَّا تحلَّة القسم**»[(1)] رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة، يعني: ﴿وَإِن مِّنكُمُوَ إِلَّا وارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ وقوله ﷺ: «**من حرس من وراء المسلمين في سبيل الله متطوِّعا لا يأخذه سلطان لم ير النار بعينه إلَّا تحلَّة القسم**»[(2)] فإنَّ الله تعالى يقول: ﴿وإن مِّنكُمُوَ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ رواه أحمد والبخاري والطبراني عن معاذ بن أنس.

(1) رواه **البخاري** في كتاب الجنائز (6) باب فضل من مات له ولد، رقم 1193. ورواه **مسلم** في كتاب البر والصلة (47) باب فضل من يموت له ولد... رقم 2632. ورواه **النسائي** في كتاب الجنائز (24) باب ثواب من احتسب ثلاثا من صلبه، رقم 1879. رواه **ابن ماجه** في كتاب ما جاء في الجنائز (57) باب في ثواب من أصيب بولده، رقم 1626. من حديث أبي هريرة.

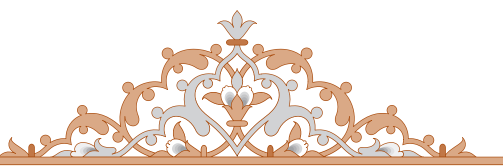
(2) رواه **أحمد** في مسند المكِّيِّين، رقم 15185، من حديث معاذ بن أنس.

وهذا الحديث يدلُّ على أنَّ المراد بورودها رؤيتها، وفيه بيان أنَّ القسم هو قوله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ فقط وهو قسم معنويٌّ لا اصطلاحيٌّ كما مرَّ، إلَّا إن عطف على جواب القسم الاصطلاحي وهو قوله: ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صُلِيًّا﴾ فإنَّه معطوف على الجواب والمعطوف على الجواب جواب.

﴿**ثُمَّ نُنَجِّي الذِينَ اتَّقَواْ**﴾ ننجِّي من دخولها المتَّقين بعد ورود ساحلها، أو المرور به، ومن زعم أنَّهم يدخلونها باردة يقول: ننجِّيهم من البقاء فيها بالإخراج **وقد علمت ضعفه ولو شُهِرَ**.

﴿**وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جُثِيًّا**﴾ لم يذكر الإدخال لأنَّه أمر معلوم بل ذكر ما بعده وهو تركهم فيها جثيًّا، أبدا، لا إلى مدَّة، قيل: كأنَّه قيل: ننجِّي المتَّقين من الجثوِّ حولها بعد ما جثوا، ونذر الظالمين على حالهم الذي أحضروا فيه جاثين، وهو خلاف الظاهر يكفي عنه ما ذكرت من أنَّه طوى ذكر الدخول وذكر ما بعده، كما مرَّ مثله في هذه السورة.

[أصول الدين] وأولى من ذلك أنَّ المعنى: نذر الظالمين فيها جثيًّا بعد إدخالها أي فيها. و﴿الذِينَ اتَّقَوْا﴾: من مات تائبا غير مصرٍّ على ذنب، و﴿الظَّالِمِينَ﴾: من مات مشركا أو مصرًّا على ذنب، أو من مات مشركا ويؤخذ المصرُّ من الآي الأخر والأحاديث، والعموم أولى.



﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿73﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿74﴾ قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿75﴾ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًى وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿76﴾﴾

اغترار المشركين بحسن الحال في الدنيا

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ ظاهرات المعاني والإعجاز، [قلت: وما تَشَابَه بيَّنته الآية الأخرى، أو رسول الله ﷺ، وما بقي على إبهامه كأوائل السور على وجه إبقائه لم يَضُرَّ السامع ولم يوقعه في لَبس. ﴿قَالَ الذِينَ كَفَرُواْ﴾ الآية مستأنفة فلا حاجة إلى أنَّها فيمن قبلها حتَّى يقال: وضع الظاهر موضع المضمر لينعى عليهم بذكر الكفر المتقدِّم منهم، وأنَّه الموجب لكفرهم، وهذا نقوله مع الاستئناف، كما شهر أنَّها نزلت في النضر بن الحارث وأتباعه الفجرة ﴿لِلذِينَ ءَامَنُواْ﴾ اللام للتبليغ، أي خاطبوا المؤمنين بما قال الله ﷻ عنهم: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ﴾ المؤمن والكافر ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ كقوله تعالى: ﴿قَالَتُ اولَاهُمْ لأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ [سورة الأعراف: 39] أو [اللام] بمعنى «في»، على معنى أنَّهم قالوا في شأن الذين آمنوا بلا خطاب لهم، أو بخطاب ولم يذكر الله الخطاب، كما قال الله ﷻ: ﴿قَالَتُ اخْرَاهُمْ لأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَآءِ اَضَلُّونَا﴾ [سورة الأعراف: 38] بلا خطاب، ويصحُّ التعليل، ولا يمنعه ـ كما

زعم بعض ـ أنَّ المقول ليس في حقِّ المؤمنين خَاصَّةً، والمعنى: قالوا لأجل المؤمنين معهم، إذ لولا المؤمنون لم يكن فريقان.

[لغة] والمقام في الأصل موضع القيام أو زمانه أو نفسه، والأنسب هنا الأوَّل لكن قصد به المكان بمعنى الشرف. والنديُّ: موضع الاجتماع، أو مخصوص بموضع يجتمع فيه لحادث أو مشورة، أو بموضع يجتمع فيه أهل الندى، أي الكرم.

ويروى أنَّهم كانوا يدهنون شعورهم ويرجِّلونها ويتطيَّبون ويلبسون اللباس الفاخر ويقولون لفقراء الذين آمنوا: لو كنَّا أعداء الله وكنتم أولياء الله لما فعل الله هذا بنا وأفقَرَكم، والحكيم لا يهين أولياءه، فكذلك إن كان البعث نكون خيرا منكم حالا، وهو **قياس عقيم من قلب سقيم** فإنَّهم رأوا كثيرا من المؤمنين أغنياء وكثيرا من الكُفَّار فقراء.

وردَّ الله عليهم بقوله ﷻ: ﴿**وَكَم**﴾ مفعول به لقوله: ﴿**اَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمُۥٓ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِءْيًا**﴾ «كَمْ» للتكثير كما هو الظاهر، ويجوز أن تكون للاستفهام التعجبي أو التقريري، إضرابا عن ذكر الكثرة لشهرتها والإذعان إليها، إلى حملهم على التعجُّب أو الإقرار.

وفي الآية على كلِّ حال الردُّ عليهم والتهديد بالإهلاك كما أهلك من قبلهم ممن هو أكثر مالا وأحسن حالا وزينة، وأحسنيَّة الأثاث تدلُّ على كثرة المال على الغالب وفي الجملة.

[نحو] و«مِن قَرْنٍ» نعت لـ«كَمْ» لا كما قيل إنَّها لا تنعت، وينبغي أن يكون الخلاف في نعتها بغير «مِنْ» ومجرورها اللذيْن لبيانها مثل قوله: ﴿هُمُۥٓ أَحْسَنُ﴾ فهذه الجملة نعت لـ«قَرْنٍ» كما هو واضح لا لـ«كَمْ». وضمير الجمع لاشتمال القرن على أفراد.

[لغة] والقرن: مائة عام، وقيــل غير ذلك، والأثاث: المتــاع جَدَّ أو بلي والخُرْثِيُّ: مــا بلي منــه. والرِّئْي: المنظر، نضــارة اللون وحســنه من الرؤية البصريَّة، وهو بشــدِّ الياء قلبت الهمزة ياء وأدغمت، أو من الرَّيِّ ضدُّ العطش مراد به النضارة والحسن، أو هو «رِئْيًا» بهمزة فياء وكلتاهما عن نافع.

﴿**قُلْ**﴾ يا محَمَّد للكفرة ﴿**مَــن كَانَ**﴾ بماله ودنياه ﴿**فِي الضَّلَالَةِ**﴾ منكم أو من غيركم ممن يبتهج بالمــال ﴿**فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَــدًّا**﴾ في ماله وعمره مع تمكُّنه في الضلال، أو لتمكُّنه فيه، إخبار بصورة الأمر إشارة إلى أنَّ المدَّ حكمة لقطع العذر، كقوله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ [سورة فاطر: 37] فيكون أبعد فــي العذر، كما أنه أطال لــه المدَّة، أو حكمة للاســتدراج كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُم لِيَزْدَادُواْ إِثْمًا﴾ [ســورة آل عمران: 178] أي من عادته أن يمدَّ له اســتدراجا، أو ذلك على طريق الدعاء لعدم بقاء عذر لهم مع البيان الكامل على طريقة ﴿لِيَضِلُواْ عَن سَبِيلِكَ﴾ [سورة يونس: 88] إذَا حُمِلَ على الدُّعاء.

﴿**حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْاْ مَــا يُوعَدُونَ**﴾ مِن «أَوْعَدَ» بالهمــزة المتعدِّية إلى مفعول آخر محذوف رابط، أي ما يوعدونه، والــواو أوَّل ناب عن الفاعل. ولا تجعل «ما» مصدريَّة لأنَّ هذا المصدر يحتاج إلى معنى «مَا» الِاسمِيَّة فليحمل الكلام عليه من أوَّل، والواو لمعنى «مَنْ»، كما أنَّ ضمير «كَانَ» والهاء للفظها.

﴿**إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ**﴾ بدل من «ما» أو من الرابط المقدَّر بواسطة العاطف في الثاني وهو الــواو، وذلك لمنــع الخلوِّ لأنَّ العــذاب عذاب الدنيا باســتيلاء المؤمنين بالقتل ونحوه أو غير ذلك، كأنَّه قيل: إمَّا عذاب الدنيا وإمَّا عذاب الساعة، فحذف المضاف إليه لا لمنع الجمع، لجواز أن يعذَّبوا دنيا وأخرى.

و«الســاعة»: يوم القيامة. ولم يذكر عــذاب القبر إيذانا بأنَّه بالنســبة إلى عذاب يوم القيامة كلا عذاب، أو لأنَّ الساعة بمعنى ذهابهم إلى الآخرة فذلك من حين الموت إلى ما لا نهاية لــه إلَّا البرزخ، أو لاعتبار القبر من الدنيا لأنَّه

في الدنيا، وقيل: قيام الساعة. وليست «حتَّى» للغاية بل للتفريع وإن جعلت للغاية جارَّة ـ كما قال ابن مالك، أو نزِّل التفريع منزلة الغاية ـ كان من اتِّصَال الغاية بالمغيَّا لوجود الفصل، إلَّاأنَّ الدنيا لسرعة انقضائها كلا فاصل فذلك كأحد أوجه في قوله تعالى: ﴿أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا﴾ [سورة نوح: 25].

[نحو] ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ جواب «إِذَا»، وعلى قول ابن مالك لا جواب لها لأنَّها خارجة عنده عن الشرط والظرفيَّة، فالجملة تفريع على مدخولها ﴿مَنْ﴾ مفعول «يَعْلَمُونَ» بمعنى يعرفون، وهو موصول، أو استفهامية مبتدأ لما بعده، أو خبر له عَلَّقت «يَعْلَمُ» عن مفعوله بمعنى يعرف، أو عن مفعوليه إن بقي على ظاهره.

﴿**هُوَ**﴾ من الفريقين ﴿**شَرٌّ مَّكَانًا**﴾ عبَّر هنا بالمكان لا بالمقام مبالغة في إظهار سوء حالهم ﴿**وَأَضْعَفُ جُندًا**﴾ أنصارا، يتبيَّن لهم عكس ما يزعمون، بل إنَّهم شرٌّ مكانا وأضعف جندا، والمؤمنين خيرٌ مكانا وأقوى جندا. والاسمان خارجان عن التفضيل لأنَّه لا شرَّ للمؤمنين ولا ضعف البتَّة، ولا جند البتَّة للكفرة يوم القيامة، قال الله ﷻ: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ ينصُرُونَهُ مِن دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ [سورة الكهف: 43] وذلك ردٌّ عليهم في دعواهم أنَّ لهم إعانة مما يعبدونه من الأوثان أو غيرها.

وقد يعتبر أنَّ للكفَّار يوم القيامة جندا ضعيفا يزعمونه في الدنيا أنَّه جند، ويطمعون أيضا في الآخرة أنَّه جند ينفع، وهو أذلُّ من ذلك، وهو ما يعبدون، ويكون «هو» ضمير فصل لأنَّه وقع بين معرفتين لأنَّ «شَرًّا» في معنى «ال»، أي من هو الأشرُّ.

وأجاز بعض أن يكون قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ...﴾ راجعا إلى قولهم: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ وما بينهما معترض للإنكار عليهم، أي يستمرُّون على قولهم: «أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ...» حتَّى إذا عاينوا العذاب أو الساعة، وهو **بعيد لكثرة الفصل في التلاوة** وللفصل بموتهم عن يوم القيامة في أحد الأوجه.

﴿وَيَزِيدُ اللهُ الذِينَ اهْتَدَوْاْ هُدًى﴾ عطف قصَّة على أخرى لبيان حال المهتدين إثر بيان حال الضالِّين، ولا يقال: عطف على قوله: ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾ المجعول في معنى الإخبار، أو المحمول على الطلب، لأنَّ الجملة المعطوفة على ما يستحقُّ الرابط لا بدَّ فيها من رابط، ولا رابط في هذه، كما أنَّ في قوله: ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ...﴾ رابطا عائدا إلى المبتدأ وهو «من».

[نحو] ولا ضعف في قولنا: عطف قصَّة على أخرى مثل أن تعطف على مجموع ﴿مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ...﴾ فيتمُّ التقابل لأنَّه أمر الله تعالى رسولَه ﷺ أن يجيبهم عن قولهم: «أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ»، كأنَّه قيل: قل من كان في الضلالة من الفريقين فليمدد له الله تعالى وينفِّس في حياته ليزيد في الغيِّ، ويجمع له عذاب الدارين، ومن كان في الهداية منهما يزد الله تعالى هدايته ويجمع له خير الدارين.

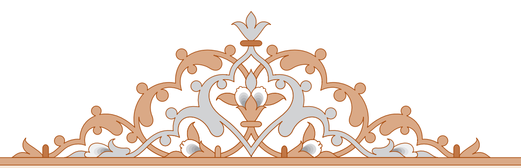
﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ الأعمال الباقيات الصالحات مطلقا، وقيل: [قولنا:] «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلَّا الله، والله أكبر» ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ من مال الكُفَّار وما يفتخرون به، أو مما يعدُّه الكُفَّار ثوابا لهم في الآخرة وهو أن ينفعهم ما يعبدون، أو سمَّى عقابهم ثوابا تهكُّما بهم، وجعل ثواب المسلمين خيرا منه على معنى أنَّ ثوابهم في حسنه أشدُّ من عقابهم في سوئه، ولا إشكال في ذلك فإنَّ في العذاب شدَّة كما في الثواب، فقال شدَّة الثواب أعظم من شدَّة العقاب، بناء على أنَّ رحمته سبقت غضبه، فتبنى على ذلك شدَّته، كقولك: الخلُّ أحمض من العسل، بمعنى أنَّه في حموضته أشدُّ من العسل في حلاوته، وكذلك الإسلام في حسنه أشدُّ من الكفر في قبحه، ويقرب من ذلك قوله تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ اَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ﴾ [سورة الفرقان: 15].

وجعل بعضهم الآية من باب يوسف أحسن الإخوة، بمعنى أنَّ لهم زيادة في الخير بقطع النظر عن الكفر وعدم اعتباره، وهذا في آية السورة هذه وليس

كذلك بل يوسف أحسن الإخوة يحتاج إلى ما قلنا في الآية أو تأويل أحسن بحسن؛ أو «خير» جاء على طريق المشاكلة لقولهم: «شَرٌّ مَّكَانًا».

﴿وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ فيه ما في الذي قبله، والمراد: المرجع والعاقبة وهو الخير الدائم، وعاقبة الكفر الشرُّ اللازم، والجملة ليست من مقول القول لقوله: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ وفيها تتميم لقوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللهُ الذِينَ اهْتَدَوْاْ هُدًى﴾ وتسلية عن مفاخرة الكُفَّار، كما أنَّ قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْاْ...﴾ إِلىَ قَوله: ﴿...جُندًا﴾ تتميم لوعيدهم، وكلاهما تتميم للأمر بالجواب عن قولهم: «أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ».

وقيل: الجملة من مقول القول، و﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ خطاب منه ﷺ لبعض الكُفَّار، وكلُّهم ذلك البعض على سبيل البدليَّة.



﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿77﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿78﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿79﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿80﴾ ﴾

مقالة المشركين في البعث والحشر استهزاء وطعنا

﴿**أَفَرَأَيْتَ الذِي كَفَرَ بِئَايَاتِنَا وَقَالَ لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا**﴾ كثيرا، لأنَّ الولد يطلق على ما فوق الواحد كما يطلق عليه.

[سبب النزول] قال خبَّاب بن الأرتِّ: كنت قينا ـ أي حدَّادا ـ وكان لي على العاصي بن وائل دين فأتيته أتقاضاه فقال: لا والله لا أقضيك حتَّى تكفر بمحمَّد، فقلت: لا والله لا أكفر بمحمَّد ﷺ حتَّى تموت ثمَّ تبعث، قال: فإنِّي إذا متُّ ثمَّ بعثت جئتني ولي ثَمَّ مال وولد فأعطيك، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ الذِي...﴾ وفي رواية: لا والله لا أكفر بمحمَّد ﷺ حيًّا ولا ميِّتا ولا إذا بعثت، فقال له العاصي: فإذا بعثت جئتني... إلخ.

وفي رواية: أنَّ رجالا من أصحاب النبيء ﷺ أتوا العاصي بن وائل يتقاضونه دينا لهم عليه، فقال: ألستم تزعمون أنَّ في الجنَّة ذهبا وفضَّة وحريرا ومن كلِّ الثمرات؟ قالوا: بلى، قال: موعدكم الآخرة، والله لأوتينَّ مالا وولدا ولأوتينَّ مثل كتابكم الذي جئتم به، فنزلت.

وقيل: نزلت في الوليد بن المغيرة وقد كانت له أقوال تشبه ذلك، **قلت**: نزلت فيهم وفي أمثالهم إلَّا أنَّ الأوَّل أولى لوروده في البخاري ومسلم والترمذي والطبراني وابن حبان.

والعطف على محــذوف، أي أنظرت فرأيت؟ والهمــزة تعجيب من كفرهم بالآيات الواضحة التي من حقِّها أن يؤمن بها كلُّ من بلغته، ومن جملتها البعث، والمراد: لأوتيــنَّ في الآخرة كما صرَّحت به الأحاديــث المذكورة، إلَّا الحديث المذكور الذي فيه: «ولأوتينَّ مثل كتابكم» ففي الدنيا ففسَّر به بعضهم الآية.

وقد يجمع بأنَّ المراد: لأوتينَّ إيتاء مســتمرًّا إلى الآخرة، والمعنى: انظرْ إليه بعينيك وتعجَّبْ من قبح اعتقاده وقوله.

[بلاغة] والرؤية مجاز عن الإخبار من إطلاق السبب على المسبَّب، أو الملزوم على اللازم لزوما بيانيًّا، والاستفهام في الأوجه كلِّها مجاز عن الأمر بذلك، لأنَّ قولك: ما فعلــت؟ بمعنى: أخبرني، فهو اســتفهام تُجُوِّز به عن الأمر، فذلك إنشاء عن إنشاء، ولا نسلِّم ما قيل: من أنَّ «أخبرني» المعبَّر عنه مجاز في الاســتفهام لا أمر. والآية متعلِّقة بقوله تعالــى: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ﴾ أو قوله: ﴿أَ.ذَا مَا مِتُّ﴾.

﴿اَطَّلَعَ الْغَيْبَ﴾ بقطع الهمزة مفتوحة للاستفهام التوبيخيِّ التعجيبيِّ، نقل فتحها للتنوين وهمزة الوصل المكســورة محذوفة، و«الْغَيْبَ» مفعول به على تضمين معنى «عرف»، أو «علم» الذي بمعنى عرف، أو على تقدير «على»، لا كما قيل: إنَّه يتعدَّى بلا تضمين ولا حرف، ولشعور لفظ الاطِّلَاع على الظهور والعلوِّ والتملُّك عبَّــر به لا بعرف أو علــم، والمعنى: أَبَلغ من شــأنه معرفة الغيب؟ أو النظر في اللوح أن يعطى مالا وولدا؟!.

﴿أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ وعدا منه تعالى أن يعطيه المال والولد فلا يخلفه، ويحتمل التعريض بكفره على معنى أنَّــه لم يتَّخذ عهدا عند الله بـ«لا إله إلَّا الله محمَّد رســول الله ﷺ»، أو بالعمل الصالح فيطمع أن يثاب بالولد والمال، ولو كان ذلك لم يَصِحَّ له الجزم والقسم فكيف وهو لم يكن؟!.

﴿كَلَّا﴾ ارتدع أيُّها الإنسان، أو ارتدعوا عن الكفر.

[مواضع كلّا في القرآن] وقعت «كلّا» في ثلاثة وثلاثين موضعا هذا أوّلها، وكلّها في النصف الأخير وكلّها لا يجوز الوقف فيها عليها، كما قال المبرّد، واستثنى بعضهم ﴿كَلَّا والْقَمِرِ﴾ [سورة المدثِّر: 32] لوصله باليمين كقولك: أي وربّي، وليست كذلك فإنّه لا يكون وصلها به موجبا لوصلها وترك الوقف، ولو كان المزجور عنه يأتي بعد فكيف وقد صحّ الزجر بها عمّا علم من المقام أو مما سبق؟.

وأقول: يجوز الوقف في كلّها، وقال الفرّاء: يحسن الوقف عليها ويحسن الابتداء بها في عشرة مواضع، هذه و﴿لِيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا كَلَّا﴾ [سورة مريم: 81ـ82] و﴿فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا﴾ [سورة المؤمنون: 100] ﴿شُرَكَآءَ كَلَّا﴾ [سورة سبأ: 27] و﴿جَنَّةَ نَعِيمٍ كَلَّا﴾ [سورة المعارج: 38ـ39] و﴿أَنْ أَزِيدَ كَلَّا﴾ [سورة المدثر: 15ـ16] و﴿مُنَشَّرَةً كَلَّا﴾ [سورة المدثر: 52ـ53] و﴿يَقُولُ رَبِّيَ أَهَانَنِي كَلَّا﴾ [سورة الفجر: 16ـ17] و﴿أَخْلَدَهُ كَلَّا﴾ [سورة الهمزة: 3ـ4] و﴿ثُمَّ يُنجِيهِ كَلَّا﴾ [سورة المعارج: 14ـ15] يوقف عليها باعتبارها ردًّا لما قبلها، ويبتدأ بها على معنى حقًّا، أو «أَلَا» التنبيهية، ويحسن الوقف عليها لا الابتداء في ﴿أَن يَّقْتُلُونِ قَالَ كَلَّا﴾ [سورة الشعراء: 14ـ15] و﴿لَمُدْرَكُونَ قَالَ كَلَّا﴾ [سورة الشعراء: 61ـ62].

ويحسن الابتداء لا الوقف في تسعة عشر موضعا: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ [سورة عبس: 11] و﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ﴾ [سورة المدثر: 32] و﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ﴾ [سورة الانفطار: 9] و﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ﴾ [سورة القيامة: 26] و﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ [سورة القيامة: 11] و﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ﴾ [سورة القيامة: 20] و﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ [سورة النبأ: 4] و﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ﴾ [سورة عبس: 23] و﴿كَلَّا بَل رَّانَ﴾ [سورة المطفِّفين: 14] و﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ﴾ [سورة الفجر: 17] و﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ﴾ [سورة المطفِّفين: 7] و﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَابَ الَابْرَارَ﴾ [سورة المطفِّفين: 18] و﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ﴾ [سورة المطفِّفين: 15] و﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ﴾ [سورة الفجر: 21] و﴿كَلَّآ إِنَّ الِانسَانَ﴾

[سورة العلق: 6] و﴿كَلَّا لَئِن﴾ [سورة العلق: 15] و﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ﴾ [سورة العلق: 19] و﴿كَلَّا سَوْفَ﴾ [سورة التكاثر: 3] وَ﴿كَلَّا لَوْ﴾ [سورة التكاثر: 5] إذ ليست للردِّ في ذلك. ولا يحسن الوقف ولا الابتداء في موضعين: ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [سورة التكاثر: 4] و﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ [سورة النبأ: 5] لا يوقف على «ثُمَّ» لأنَّه حرف عطف، ولا على «كَلَّا» لأنَّ الفائدة بعدُ، وذلك خطأ، والصواب جواز الوقف على كلَّا فيهما مع الحسن، إذ لا مانع من الوقف عليها مع نية الزجر عن مقدَّر معلوم مما قبل، غاية ذلك أنَّه كجملتين أكَّدت إحداهما الأخرى.

﴿**سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ**﴾ سنجازيه بما يقوله من اللفظ المخالف للشرع، بالكفر أو بقوله ذلك، فأطلق الكتابة على الجزاء لأنَّها سببه وملزومه في الجملة، لأنَّها للإنفاذ، فقوله كجريمة كتبت على الجاني لينقم منه.

[بلاغة] ويقرب من هذا أن يقال: الكتابة استعارة للوعيد، لكن لا يتبادر، ويجوز أن يكون «نَكْتُبُ» بمعنى نظهر الكتابة فيكون إظهار الشيء الموجود الخفيِّ منزَّلا منزلة إحداث الأمر المعدوم، بجامع مطلق الإخراج من الكمون إلى الظهور، على الاستعارة الأصلية واشتقَّ من الكتابة بذلك المعنى «نكتب» بمعنى نظهر على التبعية كقوله:

إذا ما انتسبنا لم تلدني لئيمة ولم تجدني من تقرِّي بها بدًّا[1]

أي ظهر أنِّي لم تلدني لئيمة. ولا يصحُّ ما قيل: إنَّ السين ليست للاستقبال بل للتأكيد، وإنَّ المضارع للحال لأنَّ الكتابة تقدَّمت على النزول، فالمضارع للاستقبال كما قال الله ﷻ: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ اِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [سورة ق: 18] وقال ﷻ: ﴿وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [سورة الزخرف: 80] ولأنَّ السين تكون للتوكيد في المستقبل القريب لا في الحال.

---

(1) البيت لزائد بن صعصعة الفقعسي حسب قول الأمير في حاشية المغني. المعجم المفصل، ج 2، ص 175.

﴿وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾ عطف على السين ومدخولها، أو على مدخولها فينسحب عليه معنى السين المذكورة، والمعنى: نطيل له العذاب بدل ما يفتخر به من أنَّه يؤتى يوم القيامة مالا وولدا كثيرين ممتدّين، أو سنزيده عذابا على عذاب. وأكَّد بـ«مدًّا» لمزيد كفره وعظم استحقاقه العذاب لذلك.

﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾ نسلبه مضمون قوله وهو نفس الولد والمال، لا باعتبارهما في الآخرة بل يفني في الدنيا ماله فيها منهما، وذلك استخدام لأنَّ الذي في كلامه ما يدَّعيه منهما أنَّه في الآخرة. و«مَا» بدل اشتمال من الهاء أو مفعول به آخر لـ«نَرِثُ» على أنَّه يتعدَّى لاثنين. و«يَقُولُ» للحال والماضي المستمرِّ في الموضعين.

﴿وَيَاتِينَا﴾ يوم القيامة ﴿فَرْدًا﴾ عن ماله وولده اللذين له في الدنيا فضلا عن أن يؤتى فيه بمثلهما زيادة أو بمثلهما فقط، بخلاف المسلم وأطفاله أو بُلَّغِهِ المطيعين فتقرُّ عين المسلم بهم ويزاد غلمانا في الجنَّة.

أو يأتينا فردا ويبقى فردا بعدُ؛ أو حال مقدَّرة، أي يأتينا ناويا أن ينفرد لعلمه بالموت وما بعده أن لا يؤتى مالا ولا ولدا.

وأمَّا أن يلد المسلم في الجنَّة فلا يكون كما جاء من حديث لقيط الصحيح الطويل، قلت: يا رسول الله أو لنا فيها أزواج؟ أو منهنَّ مصلحات؟ قال ﷺ: «**المصلحات للمصلحين تلذِّونهنَّ ويلذِّذنكم مثل لذَّاتكم في الدنيا غير أن لا توالد**»[1].

وعن أبي ذر العقيلي عن النبيء ﷺ: «**إنَّ أهل الجنَّة لا يكون لهم ولد**»[2]

(1) أورده **الآلوسي** في تفسيره، ج 6، ص 132. وقال: أخرجه جماعة من أئِمَّة السنَّة. وعزاه **الهندي** في كنز العمال إلى أبي يعلى، والطبراني والحاكم. رقم: 39802، ج14، ص675. من حديث لقيط بن عامر.

(2) رواه **الترمذي** في كتاب صفة الجنَّة (23) باب ما جاء لأدنى أهل الجنَّة من كرامة، رقم 2563، من حديث أبي سعيد.

وقيل: تكون الولادة في الجنَّة لحديث الترمذي وقال: حسن غريب: «**المؤمن إذا اشتهى الولد في الجنَّة كان حمله ووضعه وسنه في ساعة واحدة كما يشتهي**» ولحديث أبي نعيم عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ، قيل: يا رسول الله أيولد لأهل الجنَّة؟ فإنَّ الولد من تمام السرور، فقال: «**نعم والذي نفسي بيده، وما هو إلَّا كقدر ما يتمنَّى أحدكم فيكون حمله ورضاعه وشبابه**»[1].

قلت: الجواب إنَّ المراد أنَّه يكون الولد فيها شاذًّا ولا يعتبر الشاذُّ، وإنَّما يعتبر لو شاع كما في الدنيا.

وأيضا هو مشروط بالاشتهاء والتمنِّي فلا يلقي الله في قلوبهم الاشتهاء والتمنِّي، فلا يولد لهم، أو يلقي قليلا شاذًّا. و«إذا» هنا لمجرد التعليق، كأنَّه قال: إذا اشتهى إن كان يشتهي، وأيضا حديث أبي نعيم عن أبي سعيد ضعيف، كما قال البيهقي، وحديث الترمذي عنه غريب لا يعرف إلَّا من رواية أبي الصديق الناجي، وقد اضطرب لفظه تارة يقول: «إذا اشتهى الولد» وتارة «إنَّه يشتهي الولد» وتارة «إنَّ الرجل من أهل الجنَّة ليولد له».

وقيل: «يأتينا فردا» عن ذلك القول بناء على أنَّ المراد به في الموضعين نفس القول لا مضمونه، فهو يبقى على التلفُّظ بقوله: «لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا» وعلى اعتقاده حتَّى يأتينا بأن يموت فينفرد عنه وعن اعتقاده، وهو قول ضعيف لأنَّه يقول ذلك استهزاء وإنكارا للبعث، وقد يقال: يستمرُّ على قوله واستهزائه إلى أن يموت فردا عن ذلك الاستهزاء، وقد يقال ذلك مجاراة ومساوقة لكلام ذلك القائل.

وقيل: الإرث بمعنى الحفظ يحفظ قوله لنضرب به وجهه في الموقف، ويأتينا ولا ينال المال والولد، كما يقال: «**العلماء ورثة الأنبياء**» بمعنى

---

(1) رواه **الترمذي** في كتاب صفة الجَنَّة (23) باب ما جاء لأدنى أهل الجنَّة من كرامة، رقم 2563، من حديث أبي رزين العقيلي.

يحفظون شـــرائعهم، ومن شـــأن ما ورث أن يحفظ لَكِنَّ هذا الحفظ يغني عنه قوله ﷻ: ﴿سَنَكْتُبُ﴾، ويحتمل أنَّه تمنَّى أن يعطى في الدنيا مالا وولدا حتَّى أقسم أن يعطاهما، فقال الله ﷻ: إنَّه يأتينا فردا عنهما ولو آتيناه، وهذا مع بعده ينافي ما تقرَّر أنَّ سبب النزول أنَّه أقسم أن يؤتاهما في الآخرة.

﴿ وَاتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿81﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿82﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿83﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿84﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿85﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿86﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿87﴾ ﴾

عاقبة من اتخذ الشياطين أولياء وغير الله إلها

﴿ **وَاتَّخَذُواْ مِن دُونِ اللهِ ءَالِهَةً** ﴾ من الجنِّ والملائكة والجماد، وهذا ذكر لكفر عامَّتهم بعد ذكر كفر خاصَّتهم ﴿ **لِيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا** ﴾ واسطة عزٍّ بأن يشفعوا لهم عند الله ﴿ **كَلَّا** ﴾ نهيٌ لهم عن الطمع في العزِّ بعبادة غير الله ﷻ، وذلك من نهي الغائب ﴿ **سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ** ﴾ تقول الملائكة: لم نأمركم بعبادتنا، أو لم نعلم بها، وكذا ينكر من لم يعلم منهم، ويكذب من أمرهم بها فيقول: لم نعلم بها ولم نأمركم، ويُنطق الله الجماد فتقول: لا علم لنا بها، كما قال الله ﷻ: ﴿ فَأَلْقَوا اِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُم لَكَاذِبُونَ ﴾ [سورة النحل: 86] والواو للآلهة المعبودين بتغليب العقلاء، وعلى أنَّها الجماد فلتنزيلها منزلة العقلاء على زعمهم، ويجوز أن تكون للكفرة العابدين كقوله تعالى: ﴿ وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [سورة الأنعام: 23] ﴿ **وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا** ﴾ إذا فسَّرنا ﴿ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ ﴾ بكفر المعبودين بعبادة العابدين لهم يكون المعنى: إنَّ العابدين يكونون ضدًّا للمعبودين أعداء للمعبودين بعد أن أحبُّوا المعبودين حتَّى عبدوهم.

وإذا فسَّرناه بكفر العابدين يكون المعنى: إنَّ الآلهة تكون ضدًّا للعزِّ الذي يرجى منها، وهو أن تكون هونا، كما روي عن ابن عبَّاس فهي تلعن العابدين وهي سبب للعنهم وآلة لعذابهم لأنَّهم وقود النار وحصب جهنَّم، لكن هذا في الأصنام خاصَّة، والمعنى: يظهر كونهم ضدًّا، ولا مانع من كون المعنى واحدا على التفسيرين بمعنى نفس التنافر ينفر المعبودون من العابدين والعابدون من المعبودين.

و«عَلَيْهِمْ» خبرٌ و«ضِدًّا» خبر ثان، أو حال من المستتر في «عَلَيْهِمْ» مؤكِّدة، يقال: الناس عليكم، وفي الحديث: «**اللهمَّ كن لنا ولا تكن علينا**»[1] ومعناه العداوة والقصد بالسوء، أو الخبر «ضِدًّا» و«عَلَيْهِمْ» حال منه. وأُفرد «ضِدًّا» مع أنَّ المراد أضداد لوحدة المعنى الذي يدور عليه، كما جاء في حديث النسائي عنه ﷺ: «**المسلمون يد على من سواهم**»[2]. وتفسير الضحَّاك «ضِدًّا» بأعداء لا يوجب أن يكون جمعا لأنَّه نقول إنَّه تفسير بالمعنى، كما فسَّرنا «يَدًا» في الحديث بمعنى الجمع مع أنَّه مفرد، واختير لفظ الإفراد للفاصلة وليوافق مقابله وهو «عِزًّا» إذ كان العزُّ ضدُّ الذلِّ المراد بالضدِّ.

[صرف] وعن الأخفش: الضدُّ للواحد والجمع كالعدوِّ، فيحمل في الآية على الجمع، وقد قيل: إنَّه مصدر في الأصل يحمل على الواحد وغيره.

﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ**﴾ مكَّنَّاهم من إضلالهم وقرنَّاهم بهم متسلِّطين ﴿**تَؤُزُّهُمْ أَزًّا**﴾ تهزُّهم إلى المعاصي تهييجا لهم عليها شديدا بالوساويس، حال من «الشَّيَاطِين» ويجوز من «الْكَافِرِينَ» مقدَّرة، لأنَّ

---

(1) لم نقف على تخريجه فيما بين أيدينا من المصادر.

(2) رواه **ابن ماجه** في كتاب الديات (13) باب المسلمون تتكافأ دماؤهم، رقم 2734، من حديث معقل بن يسار. ورواه **أحمد** في مسند المكثرين من الصحابة، رقم 6653، من حديث عبد الله بن عمرو.

الأزَّ بعد الإرسال لا معه، أو مستأنفة جواب لقول: ماذا تفعل بهم؟ بأنَّها تهزُّهم بأنواع الكفر: من الشرك وتقبيح الحقِّ وتحسين الباطل والعناد المفرط. وفي هذا تسلية لرسول الله ﷺ بأنَّك قد بلَّغت، وإنَّ كفرهم لخذلاننا لهم بالشياطين، وتقرير له بالهمزة [الاستفهامية]، وتنبيه أو تعجيب مما ذكره قبل من قوله: ﴿وَيَقُولُ الِانسَانُ﴾ إلى هنا، ومضمون هذه الآية وتذييل.

﴿**فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِم**﴾ بطلب إهلاكهم والدعاء به، أو بانتظاره لتطهُر الأرض من خبائثهم كما يقتضيه عتوُّهم، وتأثير الأزِّ فيهم يقتضي العجل بهم، فنهاه الله عنه كقوله ﷻ: ﴿إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ﴾ [سورة طه: 117] وعلَّل النهي بقوله: ﴿**إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا**﴾ لا يليق أن ننقص مما عددناه لهم، ولو يطول، وما بالعدد ينتهي، وكأنَّه انتهى، وهذا يدلُّ على التقليل من عرض.

قيل: وإذا قرأ ذلك ابن عبَّاس رضي الله عنه بكى وقال: «آخر العدد خروج نفسك، وآخر العدد فراق أهلك، آخر العدد دخول قبرك»، وقرأها ابن السماك للمأمون فقال: «إذا كانت الأنفاس بالعدد، ولم يكن لها مدد فما أسرع ما تنفد؟!»، ولله درُّ من قال:

إنَّ الحبيب من الأحباب مختلس ... لا يمنع الموت بوَّاب ولا حرس

وكيف يفرح بالدنيا ولذَّتها ... فتى يُعدُّ عليه اللفظ والنفس[1]

أو الآية من باب ذكر العدد تقليلا كقوله تعالى: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ [سورة البقرة: 184] و﴿دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ [سورة يوسف: 20] فيكون التقليل باللفظ لا من عرض، أو المعنى: إنَّما نعدُّ لهم أعمالهم عدًّا للجزاء عليها.

﴿**يَوْمَ**﴾ اذكر لهم بطريق الترغيب والترهيب يوم، أو متعلِّق بـ«نَعُدُّ» باعتبار معنى المجازاة، أو بـ«سَيَكْفُرُونَ»، أو بـ«يَكُونُونَ»، أو بـ«يَمْلِكُونَ»

(1) لم نقف على قائل هذين البيتين، وقد ذكرهما بعض المفسرين ولم ينسبوهما. منهم **الآلوسي** في روح المعاني، ج16، ص135. وقال **الغزالي** في إحياء علوم الدين: إنهما من أبيات وجدت مكتوبة على قبر. ينظر: ج4، ص488.

بعدُ، أو يقدَّر: «يَوْمَ...» نفعل بالفريقين ما لا يحيط ببيانه كلام ﴿**نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا**﴾ نجمعهم إلى كرامة الرحمن، أو إلى ثواب الرحمن، أو إلى جنَّة الرحمن أو نحو ذلك، فذلك بتقدير مضاف أو كناية عن ذلك بلا تقدير.

ومقتضى الظاهر: «إلينا» ولكن ذكر ﴿إِلَى الرَّحْمَنِ﴾ إشارة إلى أنَّه يجمعهم من حيث كانوا إلى مَن شأنه الرحمة قبلُ وبعدُ ليرحمهم.

وكثر ذكر الرحمن في هذه السورة تعديدا للنعم الجسام ودعاء للشكر عليها، وزجرا عن الكفر بها تبشيرا بها. والوفد: جمع وافد كصَاحب وصَحب بفتح الصاد، وراكب ورَكب. وفي ذكره تبشير لأنَّ الوافد من يأتي الملك لجلب نفع، أو دفع ضرٍّ أو لهما، ومن شأنه أن يكون راكبا لا لزوما، فتفسَّر الآية بالركب لأنَّها في مقام الإكرام.

وعن عليٍّ سألت رسول الله ﷺ عن الآية فقلت: هل الوفد إلَّا الركب؟ فقال ﷺ: «**والذي نفسي بيده إنَّهم إذا خرجوا من قبورهم استقبلوا بنوق بيض لها أجنحة، وعليها رحال الذهب، شراك نعالهم نور يتلألأ، كلُّ خطوة منها مدُّ البصر ينتهون إلى باب الجنَّة**»[1] رواه ابن أبي حاتم وابن مردويه وابن أبي الدنيا، وعن عليٍّ: «**على نوق رحالها من ذهب ونجائب سروجها يواقيت إن همُّوا بها سارت، وإن همُّوا بها طارت**» أي إن همُّوا بسيرها سارت وإن همُّوا بطيرانها طارت.

وكذلك فسَّر ابن عبَّاس الوفد بالركبان والنوق من الجنَّة كما رواه عبد الله ابن أحمد بن حنبل في ذلك الحديث لكن رواه موقوفا عن عليٍّ. وعن عمرو بن قيس: «يركبون على تماثيل تصوَّر من أعمالهم الصالحات في غاية الحسن». ويروى: «يركبون على ما أحبُّوا من إبل أو خيل أو سفن».

(1) أورده ابن كثير في تفسيره، ج 3، ص 137.

[قلت:] والحديث والآية في طائفة من المؤمنين لا يحاسبون، وإلَّا فمن يكون من المؤمنين في المحشر والحساب من هذه الأمَّة؟ فهم: السبعون ألفا، ومع كلِّ واحد سبعون ألفا لا يكتوون ولا يسرقون ولا يتطيَّرون، وعلى ربِّهم يتوكَّلون، يدخلون الجنَّة بغير حساب وثلاث حثيات من حثيات الربِّ(1)، ولعلَّ هؤلاء الحثيات ما ورد من أنَّه زاده هكذا: فبسط باعه فحثا، والحامدون الله في السرَّاء والضرَّاء، والذِينَ ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ...﴾ [سورة السجدة: 16]، و﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ...﴾ [سورة النور: 37] ومن مات في طريق مَكَّة ذاهبا أو راجعا والمتعلِّم والمطيعة لزوجها، والبارُّ بوالديه، والرحيم الصبور.

أو المراد: ينتهون إلى الجنَّة بعد الموقف، وفي البخاري ومسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: «**يحشر الناس يوم القيامة على ثلاث طرائق راغبين وراهبين، واثنان على بعير، وثلاثة على بعير، وعشرة على بعير، وتحشر معهم النار تقيل معهم حيث قالوا، وتبيت معهم حيث باتوا، وتصبح معهم حيث أصبحوا، وتمسي معهم حيث أمسوا**» وفي الترمذي عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: «**الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف: صنف مشاة، صنف ركبان، وصنف على وجوههم**» قيل: يا رسول الله، كيف يمشون على وجوههم، قال: «**الذي أمشاهم على أقدامهم قادر أن يمشيهم على وجوههم، أما إنَّهم يتقون بوجوههم كلَّ حدب وشوك**»(2)، ويحتمل أنَّ الآية في غير هؤلاء من المؤمنين، يحشرون على الدوابِّ إلى الموقف.

---

(1) يشير الشيخ إلى الحديث الذي رواه **الترمذي** في كتاب صفة القيامة والرقائق والورع باب ما جاء في الشفاعة، رقم 2437، عن أبي أمامة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «وعدني رَبِّي أن يدخل الجَنَّة من أُمَّتِي سبعين ألفا لا حساب عليهم ولا عذاب مع كُلِّ ألف سبعون ألفا وثلاث حثيات من حثياته».

(2) رواه **الترمذي** في كتاب تفسير القرآن (18) باب: ومن سورة بني إسرائيل، رقم 3142، من حديث أبي هريرة.

والوفادة تمثيل للإكرام لا تحقيق من كلِّ وجـه، لأنَّ المتَّقين يذهبون إلى الرحمن بِجَزْمٍ أن لهم الخير وأنَّهم لا يفارقون المحلَّ، بخلاف وفد الدنيا فإنَّه يفارق المحلَّ.

وعكس ذلك في المجرمين فقال: ﴿**وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا**﴾ عطاشا وأصله مصدر، وذلك مجاز لعلاقة اللزوم لأنَّه من يرد الماء يرده لعطش في الجملة، أو لا يطلق الورود في الماء إلَّا للعطش. ويجوز أن يكون معنى ﴿وِرْدًا﴾ دوابّ ترد الماء، على التشبيه البليغ، وقوَّى التشبيه بحذف أداته وبذكر ما يناسبها، إذ قال: ﴿وَنَسُوقُ﴾، وذلك تحقير لهم، ولا سيما أنَّ المورود النار لا الماء، فانظر كم بين الآيتين؟! جعلنا الله من أهل الأولى [آمين]. وكلٌّ من الحشر والسوق بعد الحساب ووقوف المحشر.

﴿**لَّا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ**﴾ الواو للناس كلِّهم وكذا الجنِّ أو للمتَّقين، والمعنى: لا يملكون أن يشفعوا لأحد، أو الواو للمجرمين من أهل التوحيد والشرك، والمعنى: لا يملكون أن يشفع لهم أحد ﴿**إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا**﴾ استثناء متَّصل من الواو العائدة إلى العباد مطلقا. والعهد: ما وعد الله لهم من أن يشفعوا لغيرهم، ويقال: عهد الأمير إلى فلان بكذا إذا أمر له به.

وعن ابن عبَّاس: العهد **لا إله إلَّا الله متبعا بالأعمال الصالحات**، وروي: قرأ ابن مسعود الآية وقال: «يقول الله تبارك وتعالى يوم القيامة: من كان له عندي عهد فليقم، ولا يقوم إلَّا من قال في الدنيا: اللهمَّ فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة إنِّي أعهد إليك في هذه الحياة الدنيا إنَّك إن تكلني إلى نفسي تقرِّبني من الشرِّ وتبعدني من الخير، وإنِّي لا أثق إلَّا برحمتك فاجعل لِّي عندك عهدا تؤدِّيه إليَّ يوم القيامة إنَّك لا تخلف الميعاد» رواه ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه والحاكم وصحَّحه موقوفا.

وعن ابن مسعود أنَّه قال رسول الله ﷺ لأصحابه ذات يوم: «**أيعجز أحدكم أن يتَّخذ كلَّ صباح ومساء عهدا عند الله؟**» قالوا: فكيف ذلك؟ قال: «**يقول كلَّ صباح وكلَّ مساء: اللهمَّ فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة إنِّي أعهد إليك بأنِّي أشهد أن لا إله إلَّا أنت وحدك لا شريك لك، وأنَّ محَمَّدًا عبدك ورسولك، وأنَّك إن تكلني إلى نفسي تقرِّبني من الشرِّ وتباعدني من الخير، وإنِّي لا أثق إلَّا برحمتك، فاجعل لِّي عهدا توفِّينيه يوم القيامة إنَّك لا تخلف الميعاد، فإذا قال ذلك طبع عليه بطابع، ووضع تحت العرش، فإذا كان يوم القيامة نادى مناد: أين الذين كان لهم عهد عند الله فيدخلوا الجنَّة؟**»[1] وأخرج ابن أبي شيبة والسُّدِّي وابن جريج عن مقاتل: إنَّ العهد الصلاح، وقال الليث: حفظ كتاب الله.

أو العهد: الأمر والإذن، يقال: عهد الأمير إلى فلان بكذا وهذا نفس العهد وما قبله من الأوجه تشبيه به، قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الرجل من أمَّتي ليشفع في الفئام من الناس، فيدخلون الجنَّة بشفاعته وإنَّ الرجل ليشفع للرجل وأهل بيته فيدخلون الجنَّة بشفاعته**»[2] والفئام الجماعة، أي يدخلون على يده وهم من أهل الصلاح استحقُّوا التأخير لأمر مَّا فيعجَّل لهم على يده، أو يزاد لهم على يده درجات، أو تفخيم.

أو المراد بـ﴿مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ هو النبيء ﷺ، والعهد: قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَنْ يَّبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [سورة الإسراء: 79] والشفاعة هي العَامَّة بأن يأذن لهم بإذن الله في الشروع في الحساب، أو أن يأذن لهم في دخول الجنَّة بعد الفراغ منه، [قلت:] وهذا بعيد، وعليه فالاستثناء متَّصل إذا

---

(1) أورده **الآلوسي** في تفسيره، ج 6، ص 138 وقال: أخرجه ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه والحاكم وصحَّحه من حديث ابن مسعود.

(2) أورده **الآلوسي** في تفسيره، ج 6، ص 138، ولم يخرِّجه من حديث أبي سعيد.

كان الواو للعبـاد أو للمتَّقيـن ومنقطـع إذا كانت للمجرمين والمشـركين، والأوجه السـابقة أولى، والمعنى: لا يملكون إلَّا شـفاعة من اتَّخذ، والمراد بالعهد الإيمان، من إضافة المصدر إلى المفعول، أو لا يملك المتَّقون الشفاعة لأحد إلَّا من اتَّخذ، وأجيز كون «مَنْ» فاعل «يَمْلِـكُ»، والواو علامة، وفيه أنَّ هذا خلاف الأصل وإنَّ هذه الواو تشير للجمع وهو تفصيل، وفي «مَنْ» عموم فيكون إجمال بعد تفصيل والمعروف عكسه.

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ٨٨ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ٨٩ يَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ٩٠ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ٩١ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ٩٢ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ٩٣ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ٩٤ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا ٩٥﴾

الردُّ على من نسب الولد إلى الله تعالى والتشنيع عليهم

﴿**وَقَالُوا**﴾ أي المشركون ﴿**اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا**﴾ قالت اليهود: عزير ابن الله، وقالت النصارى: عيسى ابن الله، وقالت العرب: الملائكة بنات الله، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرا.

أفرطت النصارى في حبِّ المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ حتَّى اتَّخَذوه إلها، وأفرطت اليهود في حبِّ عزير حتَّى اتَّخذوه إلها، وأفرطت الشيعة في حبِّ عليٍّ حتَّى ٱدَّعى له أوائلهم الأُلُوهِيَّة، وتالوهم النبوءة، ومَن بعدهم الإمامة قبل غيره وأنكروا غيره.

[قلت:] فهم الآن في الطواف يقولون: الحمد لله الذي جعل الإمام عليًّا، وإنَّما هو إمام تحقيقا لكنَّه بعد الإمام عثمان، وقبَّح الله عَزَّوَجَلَّ من يطوف بهم مع تلك الكلمة و**كلُّ من الإفراط والتفريط تخليط.**

وروي عن الإمام عليٍّ موقوفا ومرفوعا: «أحبب حبيبك هونا مَّا عسى أن يكون بغيضك يوما مَّا، وأبغض بغيضك هونا مَّا عسى أن يكون حبيبك يوما مَّا» وأحسن الأمور ـ كما شهر ـ أوسطها، كما روي: إنَّ الصدِّيق فسح لعليٍّ إذ لم يجد له موضعا في مجلس النبيء صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال: «هنا أبا الحسن» فسرَّ

النبيء ﷺ بالفسح وبالتكنية، فقال: «**أهل الفضل أولى بالفضل، ولا يعرف أهل الفضل إلَّا أهل الفضل**»(1) وعنه ﷺ: «**إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه**»(2) وعن سفيان ابن عيينة: «من تهاون بالإخوان ذهبت مروءته، ومن تهاون بالسلطان ذهبت دنياه، ومن تهاون بالصالحين ذهبت آخرته».

ردَّ الواو إلى هؤلاء لظهور أمرهم وذكره هنا في القرآن، وقيل: الواو للمجرمين وقيل: للكافرين، وقيل: للظالمين، لتقدُّم ذكر هذه الأسماء، ولو أريد بهم هنا من ذكرت من اليهود والنصارى والعرب، وقيل: للعباد عموما المدلول عليهم بالفريقين، حكما على المجموع بحكم البعض، ذكر جناية هؤلاء عقب جناية من عبد غير الله لتناسبهما.

﴿**لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا**﴾ عجبا، وصف به مبالغة كأنَّه نفس العجب، وقيل: منكر، وقيل: شدَّة. وهذا التفات إلى الخطاب عن الغيبة تغليظا كما تتكلَّم في شأن إنسان ثمَّ تواجهه، وإن قدِّر: «قل لهم لقد...» إلخ فلا التفات.

﴿**يَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ**﴾ نعت ثان لشيء، أو نعت لـ«إدًّا» أو مستأنف. و﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾: يتشقَّقن مطلقا، وقيل: التفطُّر الانشقاق طولا، والصحيح الأوَّل، والتفطُّر على ظاهره وكذا الانشقاق والخرُّ بأن يخلق الله لهنَّ التمييز فيكرهن الكفر، وهو قول ابن عبَّاس، قال: وكذا كلُّ شيء غير الثقلين، وقيل: ذلك **استعظام للكلمة وتهويل لأمرها**، وقيل: المعنى: كدت أفطر السماوات وأشقُّ الأرض، وأخرُّ الجبال لتلك الكلمة، ويختصُّ بالتفطُّر الجسم الصلب، فلا يقال: ثوب مفطَّر بل مشقوق، والأرض دون السماء في الصلابة، فعبَّر لذلك به في السماء وبالانشقاق في الأرض.

---

(1) رواه **أحمد** في فضائل الصحابة، باب فضائل علي، رقم: 1133، ج2، ص665. من حديث الحسن.

(2) رواه **ابن ماجه** في كتاب الأدب (19) باب: إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه، رقم 3779، من حديث ابن عمر.

وقال: ﴿وَتَنشَقُّ الۡأَرۡضُ﴾ وعبَّر هنا في السماء بالتفعيل وفي الأرض بالانفعال لأنَّه أبلغ من الانفعال، ودالٌّ على الكثرة، والسماوات كثيرة لأنَّهنَّ سبع، وهذه الأرض واحدة، أو كثَّر الشقَّ أيضا في كلِّ سماء بمزيد طوله، أو كثرة مواضعه منهنَّ، وأيضا لم تألف السماء المعصية فيتأثَّر فيها أثرا عظيما ما وقع من المعصية، ولو قليلا أكثر مما يؤثِّر ما كثر منها في الأرض لأنَّها اعتادتها من الإنس والجنِّ.

﴿وَتَخِرُّ الۡجِبَالُ هَدًّا﴾ مفعول مطلق أي خرًّا، وهو من الهدِّ اللازم، أو مفعول من أجله على أنَّه من المتعدِّي كقوله: «قد هدَّ قِدْمًا عرش بلقيس هدهد»[1] على قول من لم يشترط فيه اتحاد الفاعل، وقد يتَّحد على اللزوم، أي تخرُّ لقبولها الانهدام.

وزعم بعض أنَّ الهدَّ المتعدِّي ولو لم يكن من فعل الجبال لكن إذا هدَّها أحد يحصل لها الهدُّ فصحَّ أن يكون مفعولا له متَّحد الفاعل وهو ضعيف، لأنَّ حصول الهدِّ لها ليس فعلا لها، نعم مطاوعتها وانفعالها كفعل. ومعنى «تكاد»: تقرب تحقيقا بأن خلق فيهنَّ تمييزا ولكن أمسكهنَّ عن التفطُّر والانشقاق، كما روي: «إنَّهنَّ يستأذنَّ الله في إهلاك العاصي»، ومثل ما روي عن ابن عبَّاس: «إنَّهنَّ يكدن يزلن تعظيما لله»، وما روي عن ابن مسعود من أنَّ الجبل ينادي الجبل باسمه: يا فلان هل مرَّ بك اليوم من ذكر الله؟ فإن قال: نعم استبشر، أو ذلك كناية عن غضب الله على القائل لذلك.

﴿أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدًا﴾ تعليل لقوله «يَكَادُ» فينسحب التعليل على ما بعد بمرَّة ولو جعل تعليلا لـ«يَتَفَطَّرْنَ» أو لـ«تَخِرُّ» لقدِّر لغيره فيكثر التقدير، وذلك أنَّ كلًّا من «تَنشَقُّ» و«تَخِرُّ» و«يَتَفَطَّرْنَ» مستحقٌّ للتعليل، وتقديره: لأن

---

(1) هذا صدر بيت للكامل بن شاور، وعجزه: «وخرَّبَ قبلَ ذَا سَدَّ مأْربِ». ينظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج3، ص434.

دَعَوا، ولا يتكرَّر هذا التعليل مع التعليل بقوله: «مِنْهُ» لأنَّ هاء «مِنْهُ» عائدة إلى القول، لأنَّ هذا التعليل متسلِّط على «يَكَادُ» وعلى تعليله بـ«مِنْ»، أي يتفطَّرن لقولهم لتضمُّنه دعوى الولد للرحمن ولا إشـــكال، أو مصدر «أَنْ دَعَوْاْ» بدل من الهاء فلا تقدَّر اللام، وإن قدِّرت كانت هي ومدخولها بدلا من جملة قوله: «منه» واستبعد للفصل.

[نحو] وقيل: خبر لمحذوف أي الموجـــب لذلك دعواهم للرحمن ولدا، وفيه أنَّ إيجاب ذلك حاصل بقوله: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَـــيْئًا إِدًّا﴾. ومعنى ﴿دَعَوْا﴾: ســـمُّوا، وله مفعولان حذف الأوَّل أي سمُّوا عيســـى وعزيرا والملائكة ولدا، فلعلَّ الحذف للعموم، أو نزِّل منزلة المتعدِّي لعدم تعلُّق العهد بالأوَّل، وإنَّما القصد الردُّ عليهم في إثبات الولادة لله ﷻ، وقد يتعدَّى للثاني بالحرف، نحو: سمَّيت ابني بعبد الله، أو معناه: نسبوا، فله [مفعول] واحد، و«لِلرَّحْمَنِ» متعلِّق بـ«دَعَوْا» أو حال من «وَلَدًا».﴿وَمَـــا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَّتَّخِذَ وَلَدًا﴾ الجملة حال من واو «دَعَوْا» أو من واو «قَالُوا».

[صرف] وسُـــمِعَ انبغَى وهو مطاوع «بغى» أي طلب، وهو لا يتصرَّف إذ لم يســـمع إلَّا ماضيه مع القلَّة وهو «انبغى». وضع «الرحمن» موضع الضمير لأنَّ المعنى: لا يليق لمن النعـــم كلُّها منه الولادة لاقتضائهـــا الفناء والجزئيَّة والجنسيَّة والحلول والتحيُّز، و«أَنْ يَّتَّخِذَ» في تأويل مصدر فاعل.

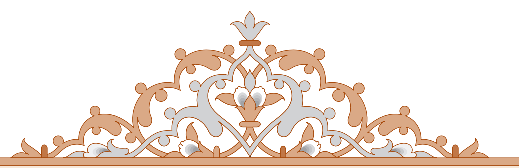
﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّـــمَاوَاتِ وَالَارْضِ﴾ من الإنس والجنِّ والملائكة، ما واحد منهم ﴿إِلَّآ ءَاتِي الرَّحْمَـــنِ عَبْدًا﴾ مملوكا إتيان انقيـــاد لقضائه وقدره، وهذا أولى من أن يجعل إتيـــان حسٍّ بمعنى آتي المحشـــر منقادا، لا يدَّعي لنفســـه ما ليس له كالأُلُوهيَّة والبنوَّة لله ســـبحانه ﴿لَقَدَ اَحْصَاهُمْ﴾ أحاط بهم ﴿وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ عدَّ أشـــخاصهم وأفعالهم وأقوالهم واعتقاداتهم ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [سورة الرعد: 8].

﴿وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ﴾ أبلغ من يأتيه ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَامَةِ فَرۡدًا﴾ لا يقصد اثنان المصاحبة في الذهاب إلى الموقف، ولا المعبودون بعبَّادهم، والعباد بمعبوديهم، ولا ناصر بمنتصر ومنتصر بناصر، كلٌّ واحد منقطع عن غير الله، ولا ينتفع عابد بمعبود.

وأفرد «آت» للفظ «كلٌّ»، ولو قيل: آتوه مراعاة لمعناه لجاز، وقد ورد في بعض كلام العرب، بل قد روعي المعنى في قوله تعالى: ﴿أَحۡصَاهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدًّا وَكُلُّهُم﴾ ومنه قوله ﷺ: «**كلُّ أُمَّتي يدخلون الجنَّة إلَّا من أبى**»[1] كما في البخاري.

---

(1) رواه **البخاري** في كتاب الاعتصام بالكتاب وَالسُّنَّة (2) باب الاقتداء بسنن رسول الله... رقم 6851، من حديث أبي هريرة.



﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ٩٦ فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا ٩٧ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزَۢا ٩٨﴾

محبَّة الله للمؤمنين وتيسير القرآن للذكر

﴿إنَّ الذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ حبًّا في القلوب دنيا وأخرى لإيمانهم وصالح أعمالهم، أمَّا في الدنيا فلقوله ﷺ: «**إذا أحبَّ الله عبدا ـ** أي بلغ درجة الحبِّ ـ **أمر الله جبريل أن ينادي في الملائكة: إنَّ الله أحبَّ فلانا فأحبُّوه فيحبُّونه، فيوضع له القبول في الأرض**» وفي البخاري ومسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: «**إذا أحبَّ الله** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى **عبدا دعا جبريل** عَلَيْهِ السَّلَامُ **فيقول له: إنَّ الله يحبُّ فلانا فأحبَّه، فيحبُّه جبريل، فينادي جبريل في أهل السماء: إنَّ الله يحبُّ فلانا فأحبُّوه فيحبُّه أهل السماء، ثمَّ يوضع له القبول في الأرض**»[1] وفي رواية لمسلم زيادة: «**وإذا أبغض الله عبدا دعا جبريل** عَلَيْهِ السَّلَامُ **فيقول: إنِّي أبغضت فلانا فأبغضه، فيبغضه جبريل، ثمَّ ينادي في أهل السماء: إنَّ الله يبغض فلانا فأبغضوه، ثمَّ يوضع له البغضاء في الأرض**»[2]، وذلك [الودُّ] تسلية لهم عن بغض المشركين لهم. والسين للاستقبال.

---

(1) رواه **البخاري** في كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، رقم 2970.

(2) رواه **مسلم** في كتاب البر والصلة (48) باب إذا أحبَّ الله عبدا حببه إلىَ عباده، رقم 2637، من حديث أبي هريرة.

[سيرة] لَمَّا هاجر جعفر رضي الله عنه ومن معه إلى الحبشة أحبَّهم النجاشي ومن على طريقته، وآمنوا، ولَمَّا هاجر النبيء ﷺ منهـا إلى المدينة أحبَّهم الأنصار ومن آمن من أهل الكتاب، وظهر حبُّهم وزاد، وقد أحبَّهم الأنصار قبل الهجرة وشاع فيهم، ولَمَّا هاجر عبد الرحمٰن بن عوف توحَّش من فراق شيبة بن ربيعة وعقبة بن ربيعة وأمية بن خلف فعوَّضه الله حبَّ المؤمنين.

وانظر أبيات زيني بن إسحاق النصراني الرعيني:

«عديٌّ وتيم لا أحـاول ذكرهم   بسوء ولكنِّي محبٌّ لهاشم»... إلخ

وكنـت مولعا بها، وذكرتها في ردِّ الشـرود، ثمَّ رأيت بعـض المتأخِّرين البغداديِّين يقول: أظنُّها موضوعة من الشيعة، وليس كذلك بل صحيح لورود أمثال ذلك من النصارى.

وأمَّا في الآخـرة فحين يكونون فـي الجنَّة على سـرر متقابلين، وحين تعرض قبل ذلك حسـناتهم على رؤوس الأشـهاد. وقد جاء: يا رحمن الدنيا والاخرة ورحيمهما. آنس الله المؤمنين بـأن يعوَّضوا حبًّا ونصرا دنيا وأخرى، ويُخْزِيَ الكافرين ويُبْغَضُون ويُذَلُّون.

﴿**فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ**﴾ يسَّـرنا القرآن بلغتك، أطلق اللسان على اللغة لأنَّ اللسـان آلة النطق بها، والباء بمعنى على، أو للإلصاق لتضمُّن «يَسَّرْنَا» معنى أنزلنا. والفاء تعليل لمحذوف هكذا: بلِّغ القرآن لأنَّا يسَّـرناه بلسـانك ﴿**لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ**﴾ السابق لهم التقوى المتَّصفين بها، فهو حقيقة، أو الذين يؤول أمرهم إليها فهو من مجاز الأوْل، أو اسـتعمل اسـم الفاعل للاستقبال ﴿**وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا**﴾ معاندين شـديدي الخصام بالباطل لا يؤمنون به، وهم أهل مكَّة، والمفرد «ألدُّ» والأصل: شـديد صفحة العنق يبعد صرفه عمَّا أراد، أو الآخِذُ فـي كلِّ لديد أي جانب بالخصام. وتفسـير ابن عبَّـاس بالظَّلَمة،

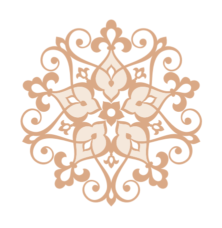


ومجاهد بالفجَّار، والحسن بالصمِّ، وأبي صالح بالعوج، تفسير بالمعنى واللازم، لا بالمعنى اللغوي.

﴿وَكَمَ اهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ وعدٌ لرسول الله ﷺ ووعيد لكفَّار مَكَّة، وحثٌّ على الإنذار والتخويف بالقرون المهلكين الكثيرين قبلهم لكفرهم ﴿هَلْ﴾ الاستفهام للنفي أي ما ﴿تُحِسُّ﴾ ببصرك أو يدك ﴿مِنْهُم﴾ حال من قوله «أحد» في قوله: ﴿مِّن اَحَدٍ﴾ مفعول به، و«مِن» صلة ﴿اوْ تَسْمَعُ لَهُمْ﴾ متعلِّق بـ«تَسْمَعُ» واللام بمعنى «مِن»، أو على ظاهرها متعلِّق بمحذوف حال من قوله: ﴿رِكْزًا﴾ صوتا خفيًّا.

[لغة] وأصل الركز: الخفاء بصوت أو غيره، كما يقال: ركَّزت الرمح أي أخفيت طرفه، وكما أنَّ الرِّكاز المال المدفون، وخصَّ بعضهم الرِّكْز بالصوت الخفيِّ بلا لسان ولا فم، والجمهور على الإطلاق، وخصَّ الصوت الخفيَّ لأنَّه الأصل والأكثر، ولأنَّه إذا لم يبق الأثر الخفيُّ فأولى أن لا يبقى غيره، أو لا تسمع من غيرهم عنهم ذكرا خفيًّا، فكيف جهيرا، فاللام بمعنى «عَن».

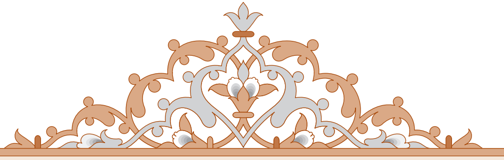
ولا حول ولا قُوَّة إِلَّا بالله العليِّ العظيم
وصلَّى الله على سَيِّدنَا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.



20

تفسير سورة طه

مكِّيَّة إلَّا الآيتين 130 ـ 131 فمدنيَّتان، وآياتها 135 ـ نزلت بعد سورة مريم



﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ طه ۝١ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى ۝٤ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ۝٥ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ۝٦ وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۝٨﴾

نزول القرآن تذكرة من خالق السماوات والأرض

﴿**طه**﴾ قيل: لا يقرأ أهــل الجنَّة من القرآن إلَّا طه ويــس، رواه أبو أمامة مرفوعا، قــال الدارمي وابــن خزيمة في التوحيــد والطبراني في الأوســط والبيهقي والشعبي وغيرهم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: «**خلق طه ويس** ـ وحرَّفوه إلى «قرأ» بــدل «خلق» ـ **قبل أن يخلق الســماوات والأرض بألفي عام، وقالــت الملائكة: طوبى لأمَّة ينزل عليها هــذا، وطوبى لأجواف تحمل هذا، وطوبى لألسنة تتكلَّم بهذا**»[1].

(1) رواه **الدارمي** في كتاب فضائل القرآن (20) باب في فضل ســورة يس وطه، من حديث أبي هريرة، مع اختلاف في اللفظ. وأوَّل الحديث عنــده: «إنَّ الله تبارك وتعالى قرأ طه ويس...».

ومعنى «طه»: يا رجل أو يا إنسان عند مجاهد والحسن والضحَّاك وعطاء وغيرهم، وذلك بالسريانيَّة، وقيل: بالقبطيَّة، ويقال: اتَّفَقَت معها لغة العرب، وحذف حرف النداء؛ أو يا محمَّد؛ أو هذه سورة تسمَّى طه؛ أو اسم الله بمعنى: أقسم بنفسي؛ أو الطاء أمر من وطي بالياء بدلا من الهمزة، أمره بأن يطأ الأرض بقدميه، وكان يقوم في الصلاة على واحدة، و«هاء» ضمير الأرض.

﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ لتتعب بالشدَّة في مقابلة الكُفَّار والتأسُّف على كفرهم، ونهك البدن بالعبادة بقيام الليل، وكان يصلِّي حتَّى تورَّمت قدماه فقال له جبريل عليه السلام: «أبق على نفسك إنَّ لنفسك عليك حقًّا». ومن التعب بالقلب قول الشاعر المتنبِّي:

وذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

لَمَّا رأوا ذلك التعب منه قال أبو جهل والنضر بن الحارث والمطعم: «في تركك ديننا شقاء». أو الشقاء: ضدُّ السعادة. ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَنْ يَّخْشَىٰ﴾ استثناء منقطع، أي لكن تذكيرا لمن شأنه أن يخشى الله، أو هو في الحال خاش، أو كتب له الله الخشية، وخُصَّ الخاشي مع أنَّ القرآن للكلِّ لأنَّه المنتفع به، وغيره كالعدم.

[نحو] ويجوز أن يكون مفعولا من أجله بمحذوف، أي أنزلناه تذكيرا، أو إبدالا على المعنى كما لم يتَّحد الأَوَّل مع العامل فاعلا جرَّ باللام، وَلَمَّا اتَّحَدَ الثاني نصب، أو نصب تعليلا لمجموع الأوَّل وعامله، نحو: أكرمته لكونه غريبا رجاء للثواب، أي قصدت غربته في الإكرام لرجاء الثواب. أي انتفى الإشقاء بإنزاله ليتمحَّض للتذكرة. ولا يصحُّ ما قيل: إنَّه تعليل لـ«تَشْقَى» لأنَّ الشقاء للنفي والتذكرة مثبتة، واللام للتقوية، أو متعلِّقة بمحذوف نعت لـ«تَذْكِرَةً».

ولقارئ القرآن ثواب ما قرأه وقلبه حاضر بلا إشكال، وأمَّا ما لم يحضر معه قلبه فله ثوابه بلا إشكال، [قلت:] إن كان غيوبة قلبه عن عجز وضعف

قلبه لا تهاونا، وعلى هذا يحمل حديث: «**إذا اختلفتم فقوموا فإنَّه لا أجر لكم**»[1]، أي اختلفتم بألسنتكم مع قلوبكم وذلك قصد الثواب، فلا يبطله عدم حضور قلبه مع حرص على أن يحضر.

وذكر ابن أبي الصيف[2]: «إنَّه يكفى من العبادة قراءة القرآن وقول «حسبي الله لا إله إلَّا هو...» سبعا في الصباح والمساء» لأنَّ العبادات غير هذين يشترط فيها حضور القلب.

وتلاوة القرآن قد جاء أنَّها أعظم القرب بفهم وبغير فهم، وقائل: «حسبي الله...» قد جاء أنَّ الله يكفيه ما يهمُّه صادقا كان به أو كاذبا، أي قاله مع تقصير، ورأى بعض العلماء النبيء ﷺ في النوم فسأله عن ثواب قارئ القرآن؟ فعدَّ له شيئا كثيرا في الدنيا والآخرة، وقال: بحضور قلب وبغير حضور قلب؟ قال: بفهم وبغير فهم، [قلت:] **والرؤيا لا تكون حجَّة.**

﴿**تَنزِيلاً**﴾ مفعول مطلق لـ«أَنزَلْنَا» المذكور، ولو اختلف وزن التفعيل والإفعال، والمعنى واحد هنا، أو لمحذوف، أي نزَّلنا تنزيلا، أو مفعول به لـ«يَخْشَى» ولو اختلفا بأنَّ أحدهما آخر آية والآخر أوَّل آية.

[قلت:] وليس المعنى يتمُّ به في كلِّ آية على حدة، وكم آية تمَّ المعنى بآية بعدها، ولا يضرُّنا أنَّ تعليق الخشية بمطلق التنزيل غير معهود، ولا يخفى حسن أن يقال: إلَّا تذكرة لمن يخشى المنزَّل من قادر قاهر، كما قال: ﴿مِّمَّنْ

---

(1) رواه **البخاري** في كتاب فضائل القرآن (37) باب: اقرءوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم، رقم 5060 و5061. و**مسلم** في كتاب العلم باب النهي عن اتِّبَاع متشابه القرآن، رقم 2667. و**الدارمي** في كتاب فضائل القرآن (7) باب: إذا اختلفتم بالقرآن فقوموا، رقم 3360 و3361 من حديث جندب، وأوَّل الحديث عنده هو: «اقرءوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم...».

(2) محمَّد بن إسماعيل بن علي ابن أبي الصيف، فقيه شافعي يمني، له علم بالحديث أصله من زبيد، أقام بمكة وتوفي بها سنة 609.

خَلَقَ الَارْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَىٰ﴾ فإنَّ هذا متعلِّق بـ«تَنزِيلاً»، ويجوز جعله نعتا لـ«تَنزِيلاً» المنكَّر للتعظيم، أي تنزيلا عظيما من عظيم قادر على السماوات والأرض، وهو على طريق الالتفات من التكلُّم إلى الظاهر، ليصف نفسه بخلق الأشياء العظيمة، ولم يذكر ما فيهما لتبعيَّة ما فيهما لهما، كما قال: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الَارْضِ﴾، وقيل: المراد وما في جهة السفل والعلوِّ، فشمل ما فيهما والعرش والكرسيَّ.

و«الأرض» أرضون، وقدَّم الأرض لتقدُّمها في الخلق لقوله تعالى: ﴿قُلَ اينَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالذِي خَلَقَ الَارْضَ﴾ [سورة فصلت: 9] وقوله عَجَلَّ: ﴿الذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الَارْضِ﴾ [سورة البقرة: 29] والأظهر لكون السماء أشرف أن تخلق أوَّلا، كما خلق روحه ﷺ ونوره أوَّلا لشرفهما فنقول: «ثُمَّ» للترتيب الذكري فنتحصَّل على قوله تعالى: ﴿وَالَارْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا﴾ [سورة النازعات: 30] لكن لا يبعد جعل «بَعْدَ» للترتيب الذكري، كما تقول: زوجتك وأنعمت عليك، وبعد ذلك ولدتك وربَّيتك، إلَّا أنَّه أبعد من جعل «ثمَّ» للترتيب الذكري.

أو يقال: ذكر تقديم السماء باعتبار تقديم مادَّتها خلقا، وأخِّرت باعتبار تصويرها، وكذا الأرض بحسب المقامات، فيجمع بذلك بين الآيات، أو قدِّمت الأرض هنا **لأنَّ الأرض أظهر في الإنعام للخلق لظهور الرحمة فيها،** ولأنَّا خلقنا منها، ولا سيما إذا جعلنا لفظ قوله «ها» من قوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ﴾ [سورة طه: 55] ضمير الأرض، ويجوز أن يكون الأرض شاملا لسبع أرضين، ومع هذا ينتفع بالعليا منهنَّ وهي هذه. و«العُلَا» نعت للسماوات وحدها، جمع العليا، وعظم المنزِّل بما ذكر وبما بعد ذلك إلى قوله تعالى: ﴿لَهُ الَاسْمَآءُ الْحُسْنَىٰ﴾.

[نحو] ﴿**الرَّحْمَنُ**﴾ مبتدأ خبره قوله: ﴿**عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ**﴾ أو يقدَّر هو الرحمن، أو بدل من المستتر في «خَلَقَ»، على وضع الظاهر موضع المضمر،

كأنَّه قيل: تنزيلا ممن خلق الرحمنُ السماوات، برفع «الرحمن» تنزيلا منزلة رابط الصلة، كقوله: «وأنت الذي في رحمة الله أطمع» أي في رحمته، **وما تقدَّم أولى**. و«استوى» خبر ثان لـ«الرَّحْمَنُ» إذا قدِّر: هو الرحمن، وعلى الإبدال يقدَّر: هو استوى.

والعرش في اللغة: سرير الملك، وفي الشرع [قيل:] سرير ذو قوائم تحمله الملائكة عَلَيْهِمْ السَّلَامُ فوق السماوات كالقبَّة، كما خلق الله الغار في الجبل، وليس الله حالًّا فيه ولا فوقه.

[أصول الدين] ومعنى استوائه على العرش أنَّه ملكه. روي أنَّ الحسن يعظ الناس فوقف عليهم أعرابيٌّ فقال: يا أبا سعيد، أجلس ربُّنا على العرش؟ فغضب، فقال يزيد الرقاشي: يا أبا سعيد لقد رأينا صدر هذه الأُمَّة يبغض أحدهم السؤال عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ثمَّ يجيب فأجب إن كان عندك جواب» فعرف الحسن أنَّه أساء، فقال الأعرابي: إِيَّاكَ أسأل يا يزيد رحمك الله، فقال: «يا لكع إنَّما يقوم من يملُّ القعود ويعقد من يملُّ القيام» قال: فمتَّكئ هو؟ قال: إنَّما يتَّكئ من يملُّ القعود والقيام، قال: أمتَّصل هو بعرشه؟ قال: سبحان الله تبًّا لكم إنَّما يتَّصل بالمخلوق من هو مخلوق، وأمَّا الربُّ سبحانه فلا مثل له، ولا يتَّصل بشيء ولا يمسُّه شيء، ولا يناله شيء، وهو أعزُّ وأمنع أن يتنزَّل بحالة الاتِّصَال، قال: أمنفصل هو؟ قال: ويحك إنَّما ينفصل ما يحدُّ بحدود ولا حدَّ لله تعالى ولا غاية، قال: سبحان الله هو لا قائم ولا قاعد ولا متَّكئ ولا مضطجع ولا متَّصل ولا منفصل فكيف هو؟ قال: لا كيف له، ويحك أتدري ما الكيف؟ قال: لا قال: إنَّما الكيف في الغائب إذا استوصف فيوجد له في الحاضر فيقول الواصف: هو كذا أو مثل كذا، وأمَّا الربُّ عَزَّ وَجَلَّ فلا مثل له فيما غاب، ولا فيما بقي، ولا يقال له كيف؟ ولا يطلب بالكيف، إنَّما يراد بالكيف الشِّبه والعِدْل والله تعالى **ليس كمثله شيء**.

وفي الصحيحين عن أبي سعيد: جاء يهوديٌّ إلى النبيء ﷺ يشكو صحابيًّا لطم وجهه فقال ﷺ: لم لطمت وجهه؟ فقال: سمعته يقول: والذي اصطفى موسى على البشر فغضبت وقلت: يا خبيث أصطفاه على محمَّد؟! فلطمته غيرة، فقال ﷺ: «**لا تُخيِّروا بين الأنبياء فإنَّ الناس يصعقون وأكون أوَّل من يفيق فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أفاق قبلي، أم جوزي بصعقة الطور**»[1] فذكر للعرش قوائم، وإنَّما نهى عن التخيير قبل أن ينزل عليه أنَّه سيِّد ولد آدم، وأنَّه إمام الأنبياء ونبيئهم، ونحو ذلك في أحاديث.

[قلت:] وانظر أيّ تخيير في الحديث فكأنَّه فهم أنَّ اليهودي أثبت الرسالة لسيِّدنا محمَّد إلى غير اليهود، وفضَّل موسى عليه، والصحابيُّ أراد تخييره ﷺ على موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وهو على قدر سعة السماء السابعة فيكون ما رواه أبو ذرٍّ وغيره أنَّ الكرسيَّ فيه كحلقة في فلاة، والسماوات والأرض في الكرسيِّ كحلقة، باعتبار علوِّ قبَّته، وزعمت طائفة من المتكلِّمين أنَّ العرش محيط بالعالم كلِّه من كلِّ جهة وأنَّه الفلك الأطلس والفلك التاسع، ويردُّه ما صحَّ بالقرآن أنَّ الملائكة تحمله، وما جاء عن جابر بن عبد الله أنَّ العرش اهتزَّ لموت سعد بن معاذ، والفلك التاسع عند هؤلاء متحرِّك دائما حركة متشابهة، وقد يجاب بِأَنَّهُ تحرَّك يوم مات حركة زائدة، وحمل حركته له على الاستبشار يحتاج إلى دليل، وأيُّ دليل على أنَّ الأفلاك تسعة وأنَّ التاسع أطلس؟.

[قلت:] وتفسير العرش بالملك ينافيه حمل الملائكة له، وحديث أخذ موسى بقائمة منه، وحديث اهتزاز العرش لموت سعد، وحديث: «**خلق الله**

---

(1) رواه **البخاري** في كتاب الخصومات (1) باب ما يذكر في الأشخاص والملازمة... رقم 2412. **ومسلم** في كتاب الفضائل (42) باب من فضائل موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، رقم 163، من حديث أبي سعيد.

الخلق، وكتب في كتاب: إنَّ رحمتي سبقت غضبي ووضعه فوق العرش»[1]، وإنَّه خارج عن خطاب العرب في الظاهر، ولو كانت تعرف أيضا العرش بمعنى الملك، فنصير تارة إلى تفسيره بالسرير المذكور الشرعي، وتارة إلى تفسيره بالملك، وهذا خلاف الظاهر.

[أصول الدين] واستواء الله على هذا الجسم العظيم ملكه إيَّاهُ تعالى الله عن الحلول، ونحمل آيات القرآن على ظاهرها إلَّا ما يوجب التشبيه فنؤوِّله. وروي عن عليٍّ بن أبي طالب: «الاستواء غير مجهول، والتكييف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، لأنَّه تعالى كان ولا مكان، فهو على ما كان قبل خلق المكان لم يتغيَّر عما كان»، وهو كلام حقٌّ إلَّا قوله: «والسؤال عنه بدعة» فلعلَّه موضوع، وشهر قوله: «السؤال بدعة» عن الإمام مالك في الرؤية[2].

[قلت:] وحسن جدًّا قول عليٍّ: «هو على ما كان قبل خلق المكان» وقد نفى به وبقوله: «التكييف غير معقول» إمكان الاستواء المعقول، ورجع إلى معنى الملك.

[قلت:] ومذهبنا ومذهب أبي الحسن الأشعري تأويل المتشابه، وكانت مالكية المغرب ينزِّهون الله عن ظاهر المتشابه ويعرضون عن تأويله، إلى أن ظهر مهدي الموحِّدين في صدر المائة السادسة، خرج إلى المشرق فأخذ التأويل عن علماء مذهب أبي الحسن الأشعري، ثمَّ عاد إلى المغرب فنشر به تأويل المتشابه بما في كلام العرب من التفنُّن والمجاز، فسمِّي أتباعه موحِّدين تعريضا بأنَّ مخالفيهم بعدم التأويل بالوقف إيمانهم كلا إيمان، وهلك من أبقاها على ظاهرها وزاد بلا كيف. وقدَّم «عَلَى الْعَرْشِ» على متعلّقه للفاصلة.

---

(1) تقدَّم تخريج ما يشبهه لفظا في ج 4، ص 208.

(2) راجع القرطبي: الجامع لأحكام القرآن: ج 7، ص 219 ـ 220. وقد تقدَّم الحديث في الموضوع في ج 5، ص 75، تفسير آية رقم 54 من سورة الأعراف.

[نحو] ويبعد أن يكون فاعل «اسْتَوَى» هو «مَا» من قوله تعالى: ﴿**لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الَارْضِ**﴾ فيتعلّق «لَهُ» بـ«اسْتَوَى»، ويكون «عَلَى الْعَرْشِ» خبرا لـ«الرَّحْمَن»، فيكون كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَآءِ﴾ [سورة البقرة: 29 وسورة فصلت: 11] أي استقام له ما في السماوات.

وكذا يبعد أنَّ المعنى: استوى إليه ما في السماوات... إلخ لا يكون شيء أقرب إليه من آخر، وإن أراد قائل ذلك الخروج عن التشبيه فقد كفاه التأويل بالاستيلاء، وإلَّا فما يقول في دعواه أنَّ الرحمن على العرش؟ ولا بدَّ له من التأويل فيه، لأنَّه لم يجعل الخبر «اسْتَوَى»، والصواب أنَّ «لَهُ» خبر لـ«مَا»، وقُدِّم للحصر، أي له لا لغيره ـ استقلالا ولا شركة ـ ما فيهما ملكا وتصرُّفا وخلقا.

﴿**وَمَا بَيْنَهُمَا**﴾ كالسحاب والهواء والريح ﴿**وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ**﴾ التراب كلُّه ومنقطعه، وذلك ما تحت الأرض السابعة.

[قصص] وهو صخرة خضراء كما رواه ابن عبَّاس ومحمَّد بن كعب، وقال جابر بن عبد الله: سئل رسول ﷺ: ما تحت الثرى؟ فقال: الماء، فقيل: وما تحت الماء؟ قال: ظلمة، قيل: فما تحت الظلمة؟ قال: الهواء قيل: فما تحت الهواء؟ قال: الثرى، قيل: فما تحت الثرى؟ قال: انقطع علم المخلوقين عند علم الخالق؟[1]. وعن ابن عبَّاس: الأرضون على ظهر الثور، والثور على بحر، ورأسه وذنبه يلتقيان تحت العرش، والبحر على صخرة خضراء، خضرة السماء منها، وهي الصخرة التي ذكرها الله تعالى في سورة لقمان، وذكر بعض أنَّ الصخرة على قرن ثور، والثور على الثرى، ولا يعلم ما تحت الثرى إلَّا الله تعالى.

وقيل: ﴿الثَّرَى﴾: التراب النديُّ دون أن يكون طينا، ويجوز أن يكون المراد مطلق التراب بمعنى ما ستره التراب فيكون قد ذكر ما على ظهر

(1) هذا من خيال القصاصين، ويبعد أن يكون من صاحب الوحي عليه السلام وكذا ما بعد مما نسب لابن عبَّاس.

الأرض وما في باطنها، والمراد أنَّ **ما ذكر في الآية كلُّه ملك له تعالى**، ويجوز أن يكون المراد أنَّ له علم ذلك، والأوَّل هو المتبادر، فيكون العلم في قوله ﷻ: ﴿**وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ**﴾ فهو محيط بذلك ملكا وعلما، والخطاب لسيِّدنا محمَّد ﷺ، أو اللفظ له والمراد هو وأمَّته، أو للإنسان، والمتبادر أنَّه ﷺ المراد لموافقته قوله تعالى: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾.

﴿**فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ**﴾ ما لم ترفع به صوتك أو ما تكلَّمت به بتحريك لسانك دون أن تسمع أذنك، كما قال أبو هريرة: «إنَّه كلام ونطق» ﴿**وَأَخْفَىٰ**﴾ اسم تفضيل منكَّر تعظيما، أي وشيئا أخفى من ذلك، وهو ما في قلبك دون تحريك لسانك، وزاد سعيد بن جبير على ذلك: ما سيكون في قلبك ولا تنطق به؛ وقيل: السرُّ ما أخفيته في نفسك والأخفى ما خطر ببالك ونسيته.

وعن ابن عبَّاس: ﴿السِّرَّ﴾: ما تسرُّ في نفسك ﴿وَأَخْفَى﴾: ما يحدث بعد فيها، وعنه: السرُّ: ما في نفسك والأخفى: ما ستفعله، وقيل: ﴿السِّرَّ﴾: ما أسرَّه إلى غيره ﴿وَأَخْفَى﴾: ما في نفسه، وقيل: السرُّ: ما يفعل في خفاء عن الناس والأخفى: الوسوسة، وذلك كلُّه في الطاعة والمعصية والمباح، وقيل: ذلك ترغيب في الطاعة وزجر عن المعصية ظاهرة أو باطنة.

وعن زيد بن أسلم: «أخفى» فعل ماض معطوف على «يَعْلَمُ» بمعنى أنَّه يعلم الخلق وما عند الخلق، وأخفى عن الخلق ما عنده، كقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [سورة طه: 110] وهو معنى صحيح بعيد عن لفظ الآية.

والقول: مطلق الكلام، فدخل ذكر الله ﷻ ودعاؤه بالأولى وبالذات، لأنَّه ﷺ يجهر بالدعاء وبتبليغ القرآن، حتَّى إنَّ بعضا خصَّ القول بذكره ﷺ لله ﷻ ودعائه إيَّاهُ، على أنَّ «ال» للعهد، والله يعلم السرَّ وأخفى بالدعاء، **جهر**

الناطق أو أســرَّ ولا يتوقَّف علمــه على الجهر، فالجواب محــذوف، وقوله: ﴿فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ تعليل.

والتقدير: وإن تجهر بالقــول فاعلم أنَّ الله يعلم الســرَّ وأخفى، فكيف لا يعلم الجهر والثلاثة عنده سواء؟ أو إن تجهر فاعلم أنَّ الله غنيٌّ عن جهرك لأنَّه يعلم السرَّ وأخفى.

[فضل الجهر بالذكر] وخــصَّ الجهــر بالذكر لأنَّه الأكثــر في الناس، وللإرشاد إلى أنَّ الجهر بالذكر أفضل لأنَّ فيه تصوير النفس ـ بالذكر والسماع من نفســه ـ كأنَّه يســمع من غيره أيضا، وتثبيته فيها، ومنعها عن الاشــتغال بغيره، وقطع الوسوســة، وتنبيه الغافل، وإشــهار التوحيد والشرع والتعليم، وذلك بالإخلاص وانتفاء المحذور.

وقد روي أنَّه ﷺ إذا ســلَّم من صلاته يقول بصوته الأعلى: «**لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كلِّ شيء قدير لا حول ولا قُوَّة إلَّا بالله، ولا نعبد إلَّا إِيَّاهُ، له النعمة وله الفضل، وله الثناء الحســن، لا إله إلَّا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون**»[1] وحُمل [جهره] على التعليم.

وإذا لم يكن مقام داع للجهر أو لم يقصد ذلك المقام فلا جهر، وهو قوله تعالى: ﴿واذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ﴾ [سورة الأعراف: 205] وجاء الحديث: «**إنَّ دعاء السرِّ يعدل ســبعين من الجهر**»[2] ويجهر حيث ورد الجهر كتكبير العيدين والتلبية، ويسرُّ حيث يســمع القرآن، لأنَّه لا يحسن أن يعلو صوت على القرآن، ولا أن يشــغل عنه، وجاء أكثر من عشرين حديثا في

(1) أورده **الآلوسي** في تفسيره: ج 6، ص 163 أثرا عن عبد الله بن الزبير يقول: كان رسول الله ﷺ إذا سلَّم من صلاته يقول بصوته الأعلى: «لا إله إلَّا الله...».

(2) لم نقف على تخريجه.

جهره ﷺ بالذكر، مـــع أنَّ قوله ﷻ: ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ﴾ [ســورة الأعراف: 205] نقول معناه: ودون الجهر المفرط.

وقد قيل: الإخفاء في مَكَّة، وحين هاجر أمر بالجهر لدليل أنَّه يجهر، وقيل: السرُّ له ﷺ والجهر لغيره دفعا للوســاويس عنهم. ﴿**اللهُ لَآ إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الَاسْمَآءُ الْحُسْنَىٰ**﴾ مطابقة لِمَا ذكر من الملك وغيره، كخالق ورازق وعالم وقادر، و﴿لَآ إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ خبر لفظ الجلالة، والجملة بعده خبر ثان، أو مســتأنفة، وأجيز أن يكون ﴿لَهُ الَاسْمَآءُ الْحُسْنَىٰ﴾ خبرا و﴿لَآ إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ معترض.

﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝١٠ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٢ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝١٣ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ۝١٤ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ۝١٥ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ۝١٦﴾

قصَّة موسى عليه السلام

ـ 1 ـ

مناجاة موسى وابتداء الوحي إليه

﴿**وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ**﴾ تسلية لرسول الله ﷺ بما أوذي به موسى عليه السلام كغيره، أنَّهم عراهم من أقوامهم ما عراك، وإعلان بأَنَّ شأن الأنبياء القيام بالتوحيد وأموره، وتحمُّل المشاق بعد ما سلَّاه عن تكذيب قومه بقوله سبحانه: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰ﴾. والاستفهام للتقرير. وأجاز بعض أن يكون للنفي أي ما أتاك حديث موسى قبل بل نخبرك به الآن، وقيل: هو بمعنى قد.

وحديث بمعنى اسم مفعول أو المصدر، ولذلك علَّق به قوله: ﴿**إِذْ رَءَا نَارًا**﴾ أي ما تحدِّث به إذ رأى نارا أو تحدَّثه إذ رأى نارا.

[نحو] ويجوز تعليقه به مع بقائه على معنى الكلام أو الخبر بلا تأويل، لأنَّ الظرف يكفي فيه رائحة الفعل، أو يعلَّق بمحذوف أي «إذ رأى نارا كان كيت وكيت» أو كان كيت وكيت إذ رأى نارا، أو يُجعل مفعولا لمحذوف أي اذكر إذ رأى نارا.

[قصص] استأذن موسى عليه السلام شـعيبا عليه السلام أن يخرج من مدين إلى مصر لزيارة أمه وأخيه وقد طالت المدَّة من حين قتل القبطي بمصر، ورجا خفاء أمره، فأذن له وكان غيورا فخرج بلا رفقة لِئَلَّا تُرى زوجه، وقيل: برفقة يصحبهم ليلا ويفارقهم نهارا، وكانت على أتان وعلى ظهرها جوالق فيها أثاث البيت ومعه غنمه، وأخذ على غير طريق فيما قيل خوفا من ملوك مصر، ولمَّا وافى طوى بالجانب الغربي من الطور ولد له ابن في ليلة مظلمة شاتية مثلجة ليلة الجمعة، وقد ضلَّ عن الطريق وتفرَّقت ماشيته ولا ماء عنده، وقدح زنده ولم يور نارا فبينما هو كذلك إذ رأى نارا بيضاء على شجرة خضراء تتَّقد من أسفلها إلى أعلاها، كلَّما قرب منها بعدت وكلَّما ذهب عنها قربت، وهي نور على صورة النار، وقيل: نار لا تحرق يدنو منها ليقبس في حطب بيده فتبعد، ويذهب فتقرب، وهي على يسار الطريق من جانب الطور.

﴿**فَقَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُواْ**﴾ هنا لا تتَّبعوني في مسيري إلى هذه النار، خطاب لزوجه وخادمه، وما ولد له، ولو كان لا يعقل لأنَّه توسط، أو خاطبهما دونه بلفظ الجمع أو لزوجه للتعبير بلفظ الأهل أو لتعظيمها كقول الشاعر لزوجه:

وإن شئتِ حرَّمت النساء سواكمُ[1] ....

﴿**إِنِّيَ ءَانَسْتُ نَارًا**﴾ أبصرتها إبصارا لا شبهة فيه، أو أبصرت ما يؤنس به وهو النار، أو وجدت نارا ﴿**لَّعَلِّيَ ءَاتِيكُم مِّنْهَا**﴾ أي من النار، و«مِنْ» للابتداء ﴿**بِقَبَسٍ**﴾ بشعلة مقتبسة على رأس جزلة من الحطب. والجارَّان متعلِّقان بـ«آتيكم» وهو مضارع لا اسم فاعل لأنَّه أنسب بالمضارع في قوله: ﴿**اَوَ اَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى**﴾ هاديا أو ذا هداية إلى الماء، ويجوز إبقاؤه على ظاهره من المصدرية بلا تأويل، كأنَّه قال: أو أجد هداية إليه من هاد، والمقام لذلك.

---

(1) هذا صدر بيت لعبد الله بن عمرو العرجي، وعجزه: «وإن شئتِ لم أطعم نُقَاخاً ولا بَرْدَا». ينظر: اللسان، ج3، ص64. (نقخ).



لا كما قال مجاهد وقتادة: المراد الهداية إلى أبــواب الدين من حيث إنَّ قلوب الأبرار مغمورة بالدين، لا يشــتغلون عنها، ألا يريان إلى قوله: ﴿لَعَلِّيَ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَــرٍ اَوْ جِذْوَةٍ﴾ [ســورة القصص: 29] و«أو» لمنــع الخُلوِّ لا لمنع الجمع، إذ لا يكره أن يجد قبسا ودلالة على الماء جميعا بل يحبُّ ذلك. ولا مانع من أن تكون «أو» في الآية بمعنى الواو فيكون قد طلبهما جميعا، ولكن الأصل أن تكون بمعنى أو إلَّا لدليل.

والاســتعلاء على مكان يقرب من النار كما قال سيبويه: الإلصاق بمكان يقرب من زيد في: مــررت بزيد. وقد يعتبر في الاســتعلاء أنَّ الطابخ مثلا أو المصطلي يعلو جسده على النار، ولا سيما إن كان لهما شغل بالانحناء فوقها، كالاصطلاء وإصلاح شواء، ولا مانع من جعل «على» بمعنى عند، أو مع، وما تقدَّم هو المشهور، ويجوز تعليقه بمحذوف حال من «هُدًى».

ومقتضى الظاهر: أو أجد عليها ولكن أظهر ليصــرِّح بالعلَّة، فإنَّ النار لا تخلو من وجود نافع معها ولو واحدا، ولا سيما جماعة.

[رسم] والمقصور المنوَّن إن كان عن ياء كتب يــاء، وإن كان عن واو كتب ألفا، فقيل: ألفه لام الكلمة، ففي حال النصب يوقف بألف الأصل كالجرِّ والرفع، على أنَّه يحــذف التنوين للوقف، فيرجع ألف الأصل، ومن قــال يقلب ألفا كتبه ألفا، ومن يقف على المنصوب المنون بالإسكان كتبه ياء، إذا كان عن ياء.

﴿**فَلَمَّآ أَتَاهَا**﴾ أي النار، قيل: في شــجرة عناب خضراء يانعة، أو سمرة أو عوسجة أو عليقة، تزداد النار شدَّة فتزداد الشجرة خضرة وحسنا.

[قصص] وروي أنَّه ينتظر سقوط شيء منها ليأخذه، فإذا قرب منها مالت إليه كأنَّها تريده، ويقال إذا قرب منهــا بعدت وإذا أدبر تبعته ثمَّ خمدت بمرَّة، وبقي متعجِّبا وهي نار لا تأكل ولا تشــرب، وصنف يأكل ويشــرب وهي نار الدنيا تأكل نحو الفتيل وتشرب نحو الزيت، وصنف يشرب ولا يأكل وهي نار

الشجر الأخضر، وصنف يأكل ولا يشرب وهي نار جهنَّم، وهؤلاء أربع. ونار موسى لها نور بلا إحراق.

وعن ابن عبَّاس: هي نور، سمِّي نارا لأنَّها قصد موسى وللشبه، وصنف له نور وإحراق وهي نار الدنيا، ونوع لا نور له ولا إحراق وهي نار الأشجار ما لم تخرج، ونوع له إحراق بلا نور وهي نار جهنَّم.

﴿**نُودِيَ يَا مُوسَىٰٓ**﴾ ولا يضرُّ الفصل بوقوف موسى وتعجُّبه مدَّة، ومعالجته الأخذ منها، تقول: لَمَّا جاء زيد أطعمته ولو بقي بعد المجيء مقدار الطبخ أو المجيء بالطعام، ونائب فاعل ضمير النداء موسى، ودع عنك قول: ضمير النداء أي نودي النداء، وقول: إنَّ موسى نائب... إلخ اللهمَّ إلَّا أن يعتبر «نُودِيَ» بقيل أي قيل يا موسى.

﴿**إِنِّيَ أَنَاْ رَبُّكَ**﴾ مستأنف أو مجموع إلى قوله: ﴿يَا مُوسَىٰٓ﴾ أي قيل له ذلك. ويقال: لَمَّا نودي قال: من المتكلِّم؟ فإنِّي أسمع صوتك ولا أدري أين أنت، قال: أنا فوقك وأمامك وخلفك وأقرب إليك منك، فعلم أنَّ الكلام من الله تعالى، وكان يسمعه بأذنيه وبطنه ويديه ولسانه وعينيه وبدنه وداخله.

[أصول الدين] والمتكلِّم بذلك ملك يقول عن الله بأمره تعالى، كما ينزل جبريل بألفاظ التوحيد وغيرها عن الله ﷻ، أو خلق الله الكلام في الشجرة، أو في الهواء، أو في بدن موسى، كما روي أنَّه سمعه بجميع جسده ومن جميع الجهات.

[أصول الدين] أخطأ من قال: إنَّه سمع ألفاظا تلفَّظها الله لأنَّ ذلك من صفات المخلوق المحدود الحالِّ، ومن قال أيضا: إنَّه أسمعه الكلام النفسي الذي ليس بحروف ولا أصوات لأنَّ الحقَّ أنَّ الكلام النفسي غير ثابت، نؤمن بالله وبما أنزل وننكر التشبيه، ولو ثبت الكلام النفسي فكيف يسمع ما ليس

بصوت؟ ولو قالوا إنَّ الله ﷻ ألقى في موســى معاني تلك الألفاظ بلا تلفُّظ من لافظ كســائر الإلهام لكفى خروجا عن وصف الله بما ليس له، ويكفي ما ذكرت من الأوجه في أنَّه سمِّي «كليما» إذ تلك الكَيفِيَّة لم تقع لغيره[1].

﴿**فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ**﴾ لأنَّهما من جلد حمار ميِّت غير مدبوغ، وهما طاهرتان بإزالــة الودك، قال الترمذي عن رســول الله ﷺ: «**كان على موســى** ؈ **يوم كلَّمه ربُّه كساء وجبَّة وقلنسوة وسراويل من صوف، ونعلاه من جلد حمار**»[2]. وعن الحســن وغيره: «من جلد بقرة ذكِّيــت». وللتواضــع والأدب كما كان الســلف يطوفون بلا خفٍّ، وأمره ﷺ بالصلاة في النعال لمخالفة اليهود، فإذا علموا بالمخالفة وشــهرت فالصلاة بدونهما أفضل، ولتنال قدما موسى بركة تلك الأرض.

ويبعد ما قيل: إنَّ المراد بنعليه المال والولد وكلُّ ما سوى الله تعالى كناية عن إفراغ القلب. والفاء سَــبَبِيَّة فالأنسب الخلع للإعظام والأدب، تفريعا على قوله: ﴿إِنِّــيَ أَنَاْ رَبُّكَ﴾ كما أنَّ قولــه ﷻ: ﴿**إِنَّكَ بِالْــوَادِي الْمُقَدَّسِ**﴾ تعليل للخلع، أي لأنَّك بالــوادي المقدَّس، وهذا تعليل بشــرف الوادي، وهذا كما تقول إنِّي أبوك فلا ترفع صوتك عليَّ إنِّــي ربَّيتك، ولَمَّا أمر بخلعهما ألقاهما وراء الوادي.

[نحو] ﴿**طُوىٰ**﴾ عَلَم للوادي، ممنوع الصرف للعَلَميَّة والعدل كعمر، كما قيل: إنَّه واد عميق مستدير كأنَّه شــيء مطوي، فهو من الطيِّ فهو عربي، كأنَّه طوى نفسه لالتوائه، وقيل: للعلميَّة والعجمة بدل من الوادي، أو بيان.

---

(1) انظر زيادة بحث في موضوع الكلام النفســي في كتاب الحق الدامغ للشيخ أحمد بن حمد الخليلي مفتي سلطنة عُمان.

(2) رواه **الترمذي** في كتاب اللباس (10) بــاب ما جاء في لبس الصوف، رقم 1734، من حديث ابن مسعود.

وقيل: رجل، بالعبرانية، منادى أي يا طوى أي يا رجل، وليس ألفه للتأنيث لأنَّ ألف التأنيث زائدة رابعة فصاعدا، وهذه لام الكلمة.

﴿**وَأَنَا اخْتَرْتُكَ**﴾ من ناس زمانك للرسالة ﴿**فَاسْتَمِعْ**﴾ هذا مسبَّب للاختيار ومترتِّب عليه، فإنَّ الاختيار من موجبات الاستماع ﴿**لِمَا يُوحَىٰٓ**﴾ للذي يوحى، أو للوحي، متعلِّق بـ«اسْتَمِعْ».

[نحو] ويقدَّر ضمير لـ«اخْتَرْتُكَ» على التنازع، ولم يثبت لأنَّه فضلة. الأصل: أنا اخترتك له، أي لِمَا يوحى، ولو علِّق به على التنازع لذكر ضميره لـ«اسْتَمِعْ» هكذا: فاستمع له لِمَا يوحى، فلما لم يذكر له علم إعماله، والتقدير للأوَّل إلَّا أن يعلَّق بالأوَّل، ويقدَّر مثله للثاني من باب مجرَّد الحذف لدليل.

وإن قلت: كيف يجوز تعليقه بـ«اخْتَرْتُكَ» مع قوله: ﴿**إِنَّنِيَ أَنَا اللهُ لَآ إِلَهَ إِلَّآ أَنَاْ**﴾ فإنَّ تعليقه بـ«اخْتَرْتُكَ» يفهم أنَّ اختياره لكون الله لا إله إلَّا هو مع أنَّه لم يختره لهذا فقط، قلت: لا حصر للاختيار في ذلك بل تنصيص على الأهم، أو لم يسق «إِنَّنِيَ أَنَا اللهُ لَآ إِلَهَ إِلَّآ أَنَاْ» للدخول تحت «اخْتَرْتُكَ».

والأمر بالاستماع أمر بالتأهُّب. لَمَّا قيل له: ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ وقف على حجر واستند إلى آخر، ووضع يمينه على شماله، وألقى ذقنه على صدره، وأصغى بشراشره، وأدب الاستماع سكون الجوارح وغضُّ البصر والإصغاء للسمع، وحضور العقل والعزم على الامتثال.

وبُني الوحي للمفعول للفاصلة، فلم يقل: «لِمَا يوحِي» بكسر الحاء.

ورتَّب على وَحْدَانِيَّة الله تعالى العبادة بالفاء في قوله: ﴿**فَاعْبُدْنِي**﴾ تذلَّل لي بكلِّ ما أمكن وقدرت عليه مما أمرت به، خصوصا وعموما، ولا يترجَّح أنَّ المراد هنا التوحيد بل العموم، ويدلُّ للعموم حذف المعمول.

ولمزية الصلاة على ما بعد التوحيد خصَّهـا بالذكر في قوله ﷻ: ﴿**وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيَ**﴾ تخصيصا بعد تعميم العبادة لاشتمالها على ذكر المعبود وشغل القلب واللسان، وقد سمَّاها الله إيمانا في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [سورة البقرة: 143]. واللام متعلِّق بـ«أَقِم» أو بـ«اعْبُدْ» على التنازع وإعمال الثاني، أو من مجرد الحذف لدليل، أي: إيت بها مستقيمة لتذكرني فيها، بمعنى أنَّها مشتملة على الأذكار، فإذا أقمتها فقد أتيت بهذه الأذكار، أو لِئَلَّا تنساني، أو لتذكرني خاصَّة لا تشوبها برياء أو ذكر غيري، أو لتستغرق أوقاتك بالذكر.

ويجوز أن تكون الياء فاعلا في المعنى، أي لأن أذكرك بالثناء، أو لذكري إيَّاهَا وإيَّاك في الكتب، وما قبل هذا من الإضافة للفظ «الذي» يقال له في الاصطلاح مفعول به، وكذا إذا جعلنا اللام للتوقيت أي لأوقات ذكري، وهي أوقات الصلاة ﴿إِنَّ الصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى الْمُومِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ [سورة النساء: 103] وذلك دليل على أن لا فرض بعد التوحيد كالصلاة.

ويجوز أن يكون لذكر صلاتي بعد نسيانها على حذف مضاف، فتكون اللام للتعليل أو للتوقيت، أي اِقضها عند تذكُّرها، أو يعتبر أنَّ ذكر الصلاة سبب لذكر الله فأطلق المسبَّب على السبب، أو أوقع ضمير الله موقع ضمير الصلاة لشرفها.

أو المراد الذكر الحاصل منِّي فأضيف الذكر بمعنى التذكُّر لله ﷻ لأحد هذه الملابسات، وقد قال ﷺ: «**من نام عن صلاة أو نسيها فليصلِّها إذا استيقظ أو تذكَّر فذلك وقتها**»[1] ويدلُّ لهذا قراءة قتادة: «لِذِكْرَى» بفتح الراء وبألف بعد، أي للتذكُّر بعد نوم أو نسيان، ويدلُّ له أيضا قوله ﷺ: «**إذا رقد أحدكم**

(1) أورده **ابن عبد البر** في كتاب الاستذكار: ج 1، ص 115.

عن الصلاة أو غفل عنها فليصلِّها إذا ذكرها، فإنَّ الله ﷻ يقول: ﴿وأقم الصلاة لذكرَى﴾»[1] بفتح الراء بعدها ألف.

وعلَّل وجــوب العبادة وإقامة الصــلاة بقوله: ﴿**إِنَّ السَّــاعَةَ**﴾ يوم القيامة ﴿**ءَاتِيَةٌ**﴾ لا محالة حتَّى إنَّها كشيء متوجِّه إليك تراه مقبلا ﴿**أَكَادُ أُخْفِيهَا**﴾ لا أذكرها ولكن ذكرتها قطعا للأعذار، والمقاربة مجاز، وعن ابن عبَّاس وجعفر الصادق: «أكادُ أخفيها من نفســي» كما هو في مصحــف أُبي، وزاد في بعض القراءات: «فكيــف أظهرها لكم» وكذلــك في مصحف ابن مســعود بزيادة «فكيف يعلمها مخلوق» وفي لفظ ابن خالويه زيادة: «فكيف أظهركم عليها»؟.

[أصول الدين] وحقيقة ذلك محالة عن الله ﷻ لكن جاز ذلك مبالغة في الإخفاء، كما جاء في الحديث: «**من السبعة الذين يظلُّهم الله تحت ظلِّه: رجل تصدَّق بصدقة فأخفاها حتَّى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه**»[2]، وقول الشاعر:

أَيَّــام تصحبني هنــد وأخبرها ... ما كدت أكتمه عَنِّي من الخبر[3]

أو «أُخْفِي»: أزيل الخفاء، ويدلُّ له قراءة فتح الهمزة فإنَّه لا يقال خفاه إلَّا بمعنى أزال خفاءه، أو «أَكَادُ» بمعنى أريد، أي أريد إخفاء تفصيلها ببيان وقتها كقوله:

كادت وكدت وتلك خير إرادة ... لو عاد من لهو الصبابة ما مضى[4]

وقيل: «أَكَادُ» زائد، أي: آتية أخفي تفصيلها، وقيل: «أُخْفِيهَا»: أُظهِرها، من الأضداد، كغبر بمعنى مضى، وغبر بمعنى بقي. واللام في قوله: ﴿**لِتُجْزَىٰ كُلُّ**

---

(1) رواه **مسلم** في كتاب الصلاة (55) باب قضاء الصلاة الفائتة... رقم 684، من حديث أنس.

(2) رواه **البخاري** في كتاب الأذان (36) باب من جلس في المسجد، رقم 660. ورواه **مسلم** في كتاب الزكاة (30) باب فضل إخفاء الصدقة، رقم 1031، من حديث أبي هريرة.

(3) لم نقف على قائل هذا البيت. وقد أورده عدَّة مفســرين، منهم **الآلوســي** في روح المعاني، ج16، ص172.

(4) أنشده الأخفش مستشهدًا به. ينظر: اللسان، ج3، ص382. (كود).

نَفْسِۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴾ متعلّق بـ«آتية» أي آتية بإذني للجزاء، أو بـ«أخفي» على معنى أزيلُ خفاءَها، والمعنى بما تسعاه أو بسعيها خيرا أو شرًّا، أو المراد الخير تنبيها على أنَّ المراد بها في الذات إثابة المطيع، وأمَّا العقاب فعارض بسوء اختيار صاحبه، والعموم أولى.

﴿ **فَلَا يَصُدَّنَّكَ** ﴾ يا موسى، ويضعف أنَّه خطاب لرسول الله ﷺ على إرادة أمَّته، معترض في قصَّة موسى عليه السلام ﴿ **عَنْهَا** ﴾ أي عن تصديقها وهو التصديق بها، أو عن ذكرها ومراعاتها وهو أليق بشأن موسى عليه السلام، ولو جاز الأوَّل في شأنه بطريق التهييج.

[نحو] و«ها» في «عنها» وفي قوله عز وجل: ﴿ **مَن لَّا يُومِنُ بِهَا** ﴾ للساعة، وهو أولى وقيل: للصلاة، وقيل: الأوَّل لها والثاني للساعة، وقيل: الأوَّل للعبادة والثاني للساعة، وقيل: للخصال المذكورة، وقيل: لقوله: ﴿ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَاْ ﴾ **والصحيح الأوَّل.**

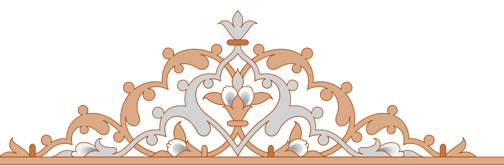
[بلاغة] وقدَّم ﴿ عَنْهَا ﴾ على ﴿ مَن لَّا يُومِنُ بِهَا ﴾ لثقل قولك: «بها عنها»، ولقصد طريق الاهتمام بالمقدَّم والتشويق إلى المؤخَّر، ولطول المؤخَّر فيخلُّ بالنظم لو قدِّم.

والنهي عن الصدِّ نهي للكافر نهي الغائب، والمراد نهي موسى نهي خطاب عن أن يؤثِّر فيه صدُّ الكافر، والصدُّ سبب، والنهي عن سبب الشيء أأكد في النهي عن الشيء وقطع للسبب عن أصله، أو ذلك نهي عن اللين المطمع للكافر، لا تلن للكافر فيطمع في تكفيرك، كقولك لا أراك هنا أي لا تكن هنا فضلا عن أن أراك.

﴿ **وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ** ﴾ ما يهواه من لذَّات الدنيا المهلكة له ﴿ **فَتَرْدَىٰ** ﴾ تهلك كما هلك، وهو منصوب في جواب النهي ولا داعي ولا دليل إلى تقدير: فأنت

تردى، والإغفال عن الســاعة إغفال عمَّا ينجِّي عن الهــلاك فيها، ويجوز أن يكون معنى ﴿لَا يُومِنَ بِهَا﴾ يعرض عن عبادة الله ويســتغرق في الشــهوات، ومعنى ﴿لَا يَصُدَّنَّكَ﴾ لا تنظر إلى زهرته وتمتُّعه، فما أنت فيه هو الخير لا ما هو فيــه من الإخلاد إلــى الأرض، كقولــه تعالــى: ﴿لَا تَمُــدَّنَّ عَيْنَيْكَ...﴾ [سورة الحجر: 88] فتفرَّغ للعبادة.





﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿17﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿18﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿19﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿20﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿21﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿22﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿23﴾﴾

ـ 2 ـ

معجزة العصا واليد البيضاء

﴿**وَمَا تِلْكَ**﴾ أنَّث الإشارة لأنَّها إلى العصا فهي معلومة، فالسؤال التقريري عن حالها لا عنها، وأشار بالبعد مع أنَّها في يمينه إعظاما لعلوِّ قدرها، أو لدهشه عنها حتَّى كأنَّها بعيدة عنه، ينبِّهه على أنَّها من نعم الإيمان وترك الصدِّ، وعلى أنَّها مشتملة على معجزات ومنافع، مع أنَّها ليست إلَّا عصا نشاهدها ﴿**بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ**﴾ في يمينك.

[نحو] [«بِيَمِينِكَ»] حال من «تِلْكَ»، أو صلة له على قول الكوفيين من جواز استعمال أسماء الإشارات مطلقا موصولات، وخصَّ البصريُّون «ذا» مع تقدُّم «ما» أو «مَنْ» الاستفهامية.

﴿**قَالَ هِيَ عَصَايَ**﴾ مقتضى الظاهر: هي عصا، ولكن أضافها لنفسه ليعقبها بالأفاعيل، كأنَّه قال: هي عصاي المعهودة في أفاعيل.

[قصص] [قيل:] واسمها نبعة، أخذها من عصي الأنبياء التي عند شعيب حين استأجره للرعي من آس الجنَّة، هبط بها آدم، أو من العوسج طولها عشرة

أذرع على قدر قامة موسى بذراعه أو اثنتا عشــرة بذراعه، **وهذا عجيب كيف يصحُّ** أن تكون بذلك العدد مع مســاواتها لقامته؟ خلقت في الجنَّة من جنس شجر الدنيا حطبا كالشجرة التي أكل منها آدم.

وذكر هي على الأصل لرغبتــه في المناجاة، والعصــا مؤنَّث بلا علامة، وأوَّل تحريف سمع بالعراق، كما قال الفرَّاء: هذه عصاتي، بالتاء.

﴿**أَتَوَكَّــؤُاْ عَلَيْهَا**﴾ في الوقوف على الغنم وفي المشــي، والجملة خبر ثان أو مستأنفة ﴿**وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي**﴾ أضرب بها الورق ليسقط فتأكله، أو أميل بها على غنمي في صلاحها من السَّوْق وإسقاط الورق، يقال: هشَّ إليه أي مال.

ذكر مصلحته أوَّلا وهو التوكُّؤ عليها ومصلحة غنمه ثانيا، على أنَّ الأصل في بدء الخير لنفس الإنسان، ولأنَّ توكُّؤه ترجع مصلحته عليها أيضا، أو لأنَّه كان قريب العهد بالتوكُّؤ.

[صرف] ﴿**وَلِيَ فِيهَا مَئَارِبُ أُخْرَىٰ**﴾ حاجات، والمفرد مأربة مثلث الراء. ولم يقل: «أُخَر» (بضمِّ الهمزة وفتح الخاء وإسقاط الألف بعد الراء) للفاصلة، فإنَّ الجمع يجوز نعته، ومجيء الحال منــه والإخبار عنه بمفرد مؤنَّث بتأويل الجماعة، غير جمع المذكَّر السالم.

[قصص] قيل: ومن المآرب الأخرى أنَّ لها شعبتين ومحجنا تحتهما يجني به الغصن إن طال، ويكسره بالشعبتين، وأنَّه يضعها على عاتقه، ويعلِّق بها قوسه وكنانته ومخلاته وثوبه وزاده، ويســتظلُّ بثوب يلقيه على شــعبتيها تتسعان كما شــاء، ويصل بها الماء في البئر الطويلة، وتصير شــعبتاها دلوا وتقاتل الســباع والهوام والعدو، وتماشيه وتحدِّثه وتكونان شــمعتين في الليل، ويركِّزها وينبع الماء، وإذا قلعها نضب، وإذا اشتهى ثمرة ركَّزها فتورق فتثمرها وتحدِّثه وتؤنسه.

وزاد موسى في الجواب على السؤال استطابة للكلام مع الله ﷻ كما قيل:

وأملي حديثا يستطاب فليتني أطلت ذنوبا كي يطول عتاب[1]

ولذلك ذكر لفظ «هي»، والآية دليل على جواز الزيادة على ما بوّب له بحسب ظاهر اللفظ من السؤال عن نفس العصا فقط تقريرا إذ زاد ياء المتكلِّم وما بعدها، وأمَّا على أنَّ المراد حال العصا فالجواب طبق السؤال بلا زيادة.

وقيل: لا زيادة بل ﴿أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا﴾ جواب سؤال الله ﷻ: ما تصنع بها؟ وقيل: سأله عن العصا بقوله: ﴿وَمَا تِلْكَ﴾ فأجاب بـ﴿هِيَ عَصَايَ﴾، وعمَّا يملكه منها بقوله: ﴿بِيَمِينِكَ﴾ فأجاب بـ﴿أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا﴾، وهذان القولان ولا سيما الثاني ليسا مما يتوكَّأ عليه إذ لا سؤال في ﴿بِيَمِينِكَ﴾.

[منافع العصا] ويستحبُّ لهذه الآية المشي بالعكَّاز، وعن ميمون بن مهران عن ابن عبَّاس: «إمساك العصا سنَّة الأنبياء، وعلامة المؤمن» وعن الحسن البصري: «للعكاز ستُّ خصال: سنَّة الأنبياء، وعلامة المؤمن، وزينة الصلحاء، وسلاح على الأعداء ـ يعني ما يضرُّه من كلب وحيَّة وغيرهما ـ وعون الضعفاء، ورغم المنافقين، وزيادة في الطاعات». ويقال: إذا كان مع المؤمن العصا يهرب منه الشيطان ويخضع له المنافق والفاجر، وتكون قبلته إذا صلَّى وقوَّته إذا عيي، وفيها منافع كثيرة كما قال: ﴿وَلِيَ فِيهَا مَئَارِبُ أُخْرَى﴾ وقيل: فيها ألف من المنافع. وخبط الورق دون قطع الغصن للرعي استبقاء لمنافع الشجر.

وكأنَّه قيل: فما قال الله تعالى؟ فقال:

﴿**قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ**﴾ لترى ما هو أعجب وأعظم، وأعاد النداء لزيادة التأنيس والتنبيه على شأن العصا ﴿**فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ**﴾ ثعبان، ذكر

---

(1) لم نقف على قائله، وقد أورده **الآلوسي** في روح المعاني، ج16، ص176.

الحيات، كما قال: ﴿فَإِذَا هِـيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ [سـورة الأعراف: 107] أو كثعبان في عظم الجسـد، وكأنَّها جانٌّ ضدُّ الآدمي في سـرعة الحركـة، أو كأنَّها الحيَّة الصغيرة الصفراء الدقيقة في السـرعة كما قال: ﴿تَسْعَىٰ﴾ نعت لـ«حَيَّة» فهي في خفَّة الجانِّ وعظـم الثعبان، أو كانت أوَّلا حيَّة صغيـرة خفيفة ونمت في الحال وصارت ثعبانا عظيما.

[قصص] ويروى أنَّـه رآها أعظم ثعبـان تبلع الصخـرة كالناقة، وتقلع الشـجرة العظيمة بنابها، وعيناها توقدان نارا، والشـعبتان كفم البئر الواسعة، ولأنيابها وأضراسها صريف، ويروى بين لحييها أربعون ذراعًا.

فولَّى مدبرا ولم يعقِّب حتَّى لـم تدركه، فوقف حياء ونودي: ارجع حيث كنت وخذها، كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿**قَالَ**﴾ الله ﴿**خُذْهَا**﴾ أي خذ الحيَّة أو العصـا التي انقلبت حيَّة بيمينك، كما كانت في يمينك ﴿**وَلَا تَخَفْ**﴾ منها ذلك الخوف الطبعي البشـري، ولا مؤاخذة على الطبعي الضروري، ولا ينقص قدره.

وزعم بعض أنَّـه خاف أن تكون مكـرا له كما خرج أبـوه آدم من الجنَّة بالحيَّة، إذ وسـوس إبليس من فمها لآدم، وقيل: خـاف الابتلاء من الله إذ لم يجر ذلك على يد مخلوق، وكما لم يخف إبراهيم من النار إذ كانت من عمل مخلوق، **والحقُّ ما ذكرت أوَّلا**.

﴿**سَنُعِيدُهَا**﴾ بعد أخذها ﴿**سِـيرَتَهَا الْأُولَىٰ**﴾ فأخذها بيمينه على هولها، فرجعت بإذن الله عصا كحالها قبل الانقلاب حيَّة.

[قصص] أدخل يده في شـدقها وأخذها ولأنيابها وضروسـها صريف، وذلك من شدَّة ثقته بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَخَفْ﴾ ويروى أنَّه لفَّ يده بكمِّه من قميصه ليأخذها فقال له ملك: أيُغني عنك هـذا فيما تحاذر؟ قال: لا، ولكنِّي

ضعيف خلقت من ضعيف، فأخرجها عن الكمِّ وأدخلها بين لحييها، فإذا يده على موضع الذي يمسكها به قبل الانقلاب، وهو ما بين شعبتيها، وروي أنَّه لفَّ يده فأوحى الله تعالى إليه: أكشفها فكشفها فأخذ العصا بها.

ولا يصحُّ ما روي أنَّه نودي: «خذها» فلم يأخذها، ثمَّ نودي: «خذها ولا تخف» فلم يأخذها حتَّى نودي: «إِنَّكَ مِنَ الَامِنِينَ»، وقيل: حتَّى قيل: «سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا»، فإن صحَّ فقد بلغ من ذهاب العقل لهولها بحيث يرفع عنه التكليف.

[لغة] والسيرة: نوع من السير، كضِربة بكسر الضاد لنوع من الضرب، ثمَّ استعمل في مطلق الحال الذي عليه الشيء، ويبعد أن تفسَّر برجوعها حيَّة يهزم به فرعون وتبلع ما سحر به بعد أن ترجع في يده عصا، بشارة من الله تعالى له.

[نحو] وهو مفعول ثان لـ«نُعِيدُ» مضمَّنا معنى نعطي، أو بدل اشتمال أو يقدَّر الجارُّ أي سنعيد إليها، أو سنعيد لها، أو سنعيدها إلى سيرتها الأولى.

[أصول الدين] وفي الآية قلب الأعيان، والصحيح عندي جوازه في قدرة الله سبحانه كمسخ الإنسان حيوانا آخر أو جمادا، وفي السؤالات حكاية المنع، قلت: إنَّما نمنع قلب الحسنات والسيِّئات أجسادا لأنَّها أعراض، وكم من ثقل أو خفَّة للعَرَض حتَّى يكون جسد على قدره، وليس ذلك لعجزٍ تعالى الله عنه بل لاستحالته، وعبارة بعض قومنا في الآية انقلاب الشيء عن حقيقته كانقلاب النحاس ذهبا، وبه قال جمع ولا مانع في العقدة[1] من توجه الأمر التكويني إلى ذلك، وتخصيص الإرادة له؛ وقيل: لا يجوز لأنَّ قلب الحقائق محال والقدرة لا تتعلَّق به، والحقُّ الأوَّل، بمعنى أنَّه تعالى يخلق بدل النحاس مثلا ذهبا على ما هو رأي المحقِّقين، أو بأن يسلب عن أجزاء النحاس الوصف الذي صار به نحاسا، ويخلق فيه الوصف الذي يصير به

(1) كذا في النسخ ولعلَّ الصواب: ولا مانع في القدرة أو لا مانع في العقل. تأمل.

ذهبا، على ما هو رأي بعض المتكلِّمين من تجانس الجواهر واستوائها في قبول الصفات، والمحال إنَّما هو انقلابه ذهبا مع كونه نحاسا لامتناع كون الشيء في الزمان الواحد نحاسا وذهبا، وانقلاب العصا كان بأحد الاعتبارين هذين، والله تعالى أعلم بأيِّهما كان، انتهى كلام ذلك البعض.

ولا يخفى أنَّ انقلاب العصا حيَّة إنَّما هو بالمعنى الثاني، لأنَّ في كون خلق البدل انقلابا خفاء ثمَّ رأيت ذلك البعض صرَّح بهذا.

﴿**وَاضْمُمْ يَدَكَ**﴾ ألصق يدك اليمنى من تحت الثوب من مخرج العنق كما قال: ﴿فِي جَيْبِكَ﴾ [سورة النمل: 12] ﴿**إِلَىٰ جَنَاحِكَ**﴾ جانبك تحت الإبط الأيسر، أو تحت عضده ﴿**تَخْرُجْ**﴾ مجزوم في جواب «اضْمُمْ»، لأنَّ من شأن الإدخالِ والإلصاقِ الإخراجَ بعدُ، أو حذف من كلٍّ واحد ما يناسبه على الاحتباك، أي اضمم يدك تنضمَّ وأخرجها تخرج ﴿**بَيْضَآءَ**﴾ لها شعاع كشعاع الشمس، يغشي البصر.

ولونه عليه السلام أدمة، قال ابن عبَّاس: ليده نور ساطع يضيء بالليل والنهار كضوء الشمس والقمر.

﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ متعلِّق بـ«بَيْضَاءَ» أي ابيضَّت بلا سوء، أو متعلِّق بمحذوف تقديره: ابيضَّت، أو حال من المستتر فيه، ويضعف أنَّه نعت لِـ«بَيْضَآءَ» لأنَّ «بَيْضَآءَ» وصف وحال، وأنَّه متعلِّق بـ«تَخْرُجْ» لأنَّه لا يتوهَّم السامع أنَّها تخرج بسوء حتَّى يراها بيضاء فيتوهَّم أنَّ بياضها سوء، أي عيب وهو برص، فقال الله عز وجل: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾.

[نحو] ﴿**ـ ايَةً**﴾ حال من ضمير «تَخْرُجْ» أو ضمير «بَيْضَاءَ» أو بدل من «بَيْضَاءَ»، أو قدِّر: خذ آية، أو دونك آية، كما أجاز سيبويه عمل اسم الفعل محذوفا، ومنعه أبو حيَّان لأنَّه نائب عن غيره، ولا يعارض بحذف حرف

النداء مـع نيابته عن «أدعو» للفـرق بأنَّ العمل باق لـ«أدعو»، بخلاف اسـم الفعل فإنَّ العمل له، أو قدِّر: جعلناها آيـة، أو آتيناك آية ﴿اخْرَىٰ﴾ غير العصا ﴿لِنُرِيَكَ﴾ متعلِّق بـ«تَخْـرُجْ» أو بـ«اضْمُم» أو بما قدِّر من خذ، أو دونك، أو جعلناهـا، أو آتيناك، أو بـ«ألـق»، أو فعلنا ما فعلنا، قيـل: أو بـ«آية» لمعنى الدلالة ﴿مِنَ ـ ايَاتِنَا﴾ «مِنْ» للتبعيض أو للابتـداء، متعلِّق بمحذوف مفعول ثان، أو متعلِّق بـ«نُرِي»، أو حال من قوله: ﴿الْكُبْرَى﴾ إذا لم نجعل «الْكُبْرَى» نعتا لـ«آيَاتِنَا» بل مفعولا لـ«نُرِيَكَ».

وعن الحسـن كابن عبَّاس: إنَّ العصا أعظم وأكبر مـن اليد في الإعجاز، لأنَّ فيها تغيير اللون وفي العصا تغيير اللون وخلق الزيادة في الجسم، وخلق الحياة والقدرة، والأعضاء المختلفة كالشدقين والأسنان مع عودها عصا.

﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ۝٢٤ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ۝٢٥ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ۝٢٦ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ۝٢٧ يَفْقَهُوا قَوْلِي ۝٢٨ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۝٢٩ هَارُونَ أَخِي ۝٣٠ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ۝٣١ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ۝٣٢ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۝٣٣ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ۝٣٤ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ۝٣٥ ﴾

ـ 3 ـ
الاستعانة بالله ليقوم بالرسالة

﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ ﴾ بما رأيت من الآيات واستعملهنَّ بحضرته، وادعه بهنَّ إلى التوحيد والعبادة لي، وحذِّره نقمتي التي يستحقُّها من طغى.

﴿ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴾ تعليل جملي لـ«اذْهَبْ» بمعنى: إنَّه جاوز الحدَّ في التكبُّر فادَّعى أنَّه إله، واشتدَّ الأمر على موسى لعظم سلطان فرعون، فأوحى الله إليه: «إنِّي ناصرك فلا تهبه، وقد ألبستك هيبة وأنت وحدك جند عظيم من جنودي، وإنَّه ضعيف أَمِنَ مكري وإنَّه لا ينطق ولا يطرف ولا يتنفَّس إلَّا بأمري، ومعك عيني ويدي وسمعي، وذكِّره نعمتي عليه، في أربعمائة سنة أمطر عليه سمائي وأنبت له أرضي، ولم تصبه آفة ولم يسقم ولم يهرم، وأمهلته وإن تاب قبلته»[(1)]. فذهب عليه السلام في حينه إليه.

وهلك من قال: مكث موسى سبعة أيَّام، ومن قال: أكثر حتَّى قال له ملك: أنفذ ما أمرك به ربُّك، وإن صحَّ فمكثه بإذن الله، وقول الملك بإذن الله، بل استعدَّ من حينه مستعينا بالله عز وجل، كما قال:

---

(1) لا يخفى عليك ما في هذا الكلام من مبالغات القصاصين وفرعون ما هو إلَّا بشر كسائر البشر.

﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِيَ أَمْرِي﴾ وكأنَّه قيل: فما قال موسى بعد الأمر بالذهاب إليه؟ فقال: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ...﴾ طالبا من الله جَلَّ جَلَالُهُ ما يتحمَّل به الشدائد في التبليغ من سعة الصدر بالنور الإلهي، وغير ذلك، فإنَّ شرح الصدر جعله بحيث لا يقلق، والمراد بالصدر القلب سمِّي باسم محلِّه.

[بلاغة] وذكرنا في فنِّ البيان أنَّ في ذكر «لي» مع صحَّة الاستغناء عنها زيادة ربط، وتأكيدا بالتلويح إجمالا، حتَّى إنَّه لو لم يذكر «صَدْرِي» و«أَمْرِي» لكفى، ولو اقتصر عليها بدون «لي» لم يفد الكلام تلك الفائدة. والمراد بـ«أَمْرِي»: ما يجري فيه من التبليغ وشأنه.

﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي﴾ رتَّة خلقها الله في لسانه بلا توسط.

[قصص] وقيل: بجعله جمرة في لسانه إذ أخذ خصلة من لحية فرعون لما فيها من الجواهر، أو لطمه أو ضربه بقضيب على رأسه، أو أخذ خصلة منها وضربه، فتطيَّر فدعا بقتله فقالت آسية: إنَّه صبيٌّ لا يفرِّق بين الجمر والياقوت، وكانت تحبُّه فأحضرا فأخذ الجمرة ووضعها على لسانه، بعد أن مدَّ يده إلى الياقوت فردَّها جبريل إلى الجمرة، ولا تأثير لشيء إلَّا بالله فخلق الله تأثيرها في لسانه دون يده، وفي ذلك حكمة أنَّها آلة لإهلاك فرعون، ولعلَّها بُيِّضَت خصوصا لهذا أيضا، وقيل: احترقت يده أيضا وعالجها فرعون ولم تبرأ لئلَّا يدخلها مع فرعون في قصعة واحدة، ولَمَّا دعاه قال: إلى من تدعوني؟ قال: إلى الذي أبرأ يدي وقد عجزت عنها، ومع إحراقها على هذا لم يلقها في الأرض بل في لسانه بإرادة الله، أو قضى الله أن لا يحسَّ يده بالإحراق البتَّة، أو حتَّى تحرق لسانه، وقيل: حدثت العقدة بعد المناجاة لهول المناجاة وفيه بُعْدٌ.

[بلاغة] وشبَّه إزالة الرتَّة من لسانه بحلِّ عقدة عقدت في خيط أو نحوه، واشتقَّ منه «احْلُلْ» على طريق التبعيَّة التمثيليَّة، لأنَّ ذلك مركَّب من الحلِّ بمعنى الإزالة، ومن العقدة بمعنى الرتَّة، تجوُّزا فيها.

ثمَّ المراد إمَّا طلبُ حلِّ العقدة كلِّها ـ ونكَّرها لعظمها تضرُّعا إلى الله عَزَّوَجَلَّ ـ وإمَّا طلبُ حلِّ بعضها، وهو قول الجبَّائي، أي عقدة من عقد لساني، وهي التي تمنع الإفهام ولو بقي أصلها، ولذلك لم يقل واحلل عقدة لساني ولا ينافيه: ﴿قَدْ اوتِيتَ سَؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ﴾ فإنَّه يجوز كون سؤله إزالة بعضها، ألا ترى قوله: ﴿هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي﴾ [سورة القصص: 34]؟ وقول فرعون: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [سورة الزخرف: 52].

و [قيل:] إنَّه كان في لسان الحسن بن علي حبسة فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ورثها من عمِّه موسى** عَلَيْهِ السَّلَامُ»[1] واحتمال أنَّ هذا والآيتين قبل الدعاء بزوالها كلِّها يحتاج إلى دليل.

﴿**يَفْقَهُوا قَوْلِي**﴾ لزوال اللكنة، لأنَّ بقاءها يمنع من أن يسمَّى فصيحا، وقد سمِّي به إذ قال: ﴿أَفْصَحُ مِنِّي﴾ [سورة القصص: 34] وهو فصيح إلَّا أنَّ أخاه أفصح منه، ويحتمل أن يكون معنى ﴿يُبِينُ﴾: يأتي بحجَّة، وعلى كلِّ حال نقول: ثقل اللسان لا ينقص قدر الإنسان:

لسان فصيح معرب في كلامه	فيا ليته في موقف الحشر يسلم
وما ينفع الإعراب إن لم يكن تقى	وما ضرَّ ذا التقوى لسان معجَّم[2]

وعلى أنَّه طلب إزالة بعض فقط لم يرَ في إزالة الكلِّ كثير فضل، واختار بقاء بعض ما قضى الله من الرتَّة رِضًا به فهو باق على الرضا بالقضاء، ولولا الداعي إلى زوال البعض لم يسأله، مع أنَّ الفصاحة المذكورة في المعاني لا تحلُّ بها اللكنة.

وفسَّر بعضهم اللسان بالقوة النطقية القائمة بالجارحة، وليس كذلك، بل

---

(1) لم نقف على تخريجه.

(2) لم نقف على قائل البيتين، وقد أوردهما **الآلوسي** في روح المعاني، ج16، ص183.

آلة النطق، وفسَّـــر بعضهم الفقه مطلقا بالتوصُّل إلى علم غائب بعلم شـــاهد، فهو أخصُّ من العلم، وليس كذلك بل المراد الفهم مطلقا.

﴿**وَاجْعَل لِّـــي وَزِيرًا مِّنَ اهْلِي هَارُونَ أَخِي**﴾ الوزير حامل الوِزْر ـ بكسـر الواو وإسكان الزاي ـ أي الثقل، والمراد المعين في تحمُّل مشاق التبليغ إلى فرعون، وســـمِّي من قام بأمر الملك وزيرا لأنَّه يحمل معه ما يشقُّ من الأمور برأيه وغيره، أو الوزير الملجأ يلتجأ إلـــى رأيه ومنافعه، كجبل يتحصَّن به من الوَزَر ـ بفتح الواو والزاي ــ. ويضعف أنَّه من الأزر بمعنى القُوَّة قلبت همزته واوا، «فعيـــل» بمعنى «مفاعل» كجليـــس بمعنى مجالـــس، لأنَّ الأصل عدم القلب، وأيضا يغني عن هذا قوله ﷻ: ﴿اشْدُدْ...﴾ بعدُ.

﴿**اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي**﴾ دعا الله أن يكون له هارون معينا، أو كحصن، ولا شكَّ أنَّه يزداد به قُوَّة كما دعا أن يشدَّ به أزره.

[نحو] و«لـــي» مفعول ثان و«وزيـــرا» أوَّل منعـــوت بقوله: ﴿مِـــنَ اهْلِي﴾. و«هَارُونَ» بدل من «وَزِيرًا» أو بيان له على جواز تخالف عطف البيان والمعطوف عليه تعريفـــا وتنكيرا. واعترضـــت البدليَّة بـــأنَّ المقصود بالـــذات البدل، وهنا المقصود بالـــذات الوزارة، وأجيب بأنَّ قصد البدل بالـــذات بل يجوز غير ذلك، وبأنَّه تقوَّى بالأخوَّة؛ أو «هَـــارُونَ» أوَّل و«وَزِيرًا» ثان. و«لي» متعلِّق بـ«اجْعَلْ» أو حال من «وَزِيرًا». و«أَخِي» بدل من «هَارُونَ» أو بيان له أو لـ«وَزِيرًا».

[بلاغة] ولا يضرُّ تعدُّد البيان ولا كونه أشـــهر مـــن المعطوف عليه، كما شـــهر، بل يجوز ولو دونه مراعاة لحصـــول التمييز بِأَيِّ شـــيء كان، كما قاله السعد ومحشُّوه، فلا نحتاج إلى التوسُّل بكون المضاف إلى الضمير أظهر من العلم، إذ لا نسلِّمه، ولا إلى ما قيل إنَّ «أَخِي» هنا أظهر من «هَارُونَ»، وإذا قلنا في كلام مخلـــوق لله بعطف البيان فالمراد أنَّه جاء علـــى طريقة عطف البيان، لأنَّ الله ﷻ لا يخفى عنه شيء فيبيَّن له.

[نحو] ويبعد أن يكون «أَخِي» مبتدأ خبره ﴿اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي﴾، أو منصوب بمحذوف على الاشتغال، لأنَّ الأصل أن لا يكون الخبر طلبا، والأصل عدم الحذف، بل ﴿اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي﴾ مستأنف، ومرَّ أنَّ الأزر القُوَّة، وقيَّدها بعض بالشديدة، وقال الخليل وأبو عبيدة: الظهر.

﴿وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ هو الإرشاد والدعوة إلى الحقّ، ولا يريد بالأمر الإشراك في الرسالة مع أنَّه من الجائز، لأنَّ الرسالة ولو لم تكن في يد موسى لكن الدعاء بها ليس حراما، وكلامه دعاء لا إنفاذ، والممنوع أن يكونا نبيئا واحدا يوحى إليهما معا وَحْيَ واحد مجتمعين عليه. وكان أطول من موسى، وأكثر لحما، وأعظم ألواحا، وأكبر سنًّا بثلاث سنين، وتوفي قبله بها، وقيل: أكبر بأربع وهو أبيض وموسى آدم، وأحلم من موسى.

﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا﴾ عن صفات النقص ﴿وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ بصفات الجلال، وذلك تعليل لطلب الوزير وشدِّ الأزر، والإشراك في الأمر، على معنى: طلبت ذلك كي... إلخ، أو على التنازع في المصدر.

وكلٌّ من التسبيح والذكر يكثِّر الآخر بانضمامه إليه، يقوى كلٌّ مع الآخر ما لا يقوى وحده، وذلك حال تحمُّل الوحي، وحال الدعاء إليه، والمراد: تسبيحا كثيرا وذكرا كثيرا وزمانا كثيرا، والأَوْلى المصدريَّة، لأنَّه لم يعهد زمان كثير بل طويل. وتقديم التسبيح على الذكر من تقديم التخلية على التحلية، وقيل: لأنَّ التسبيح تنزيه عمَّا لا يليق، وهو بالقلب والذكر باللسان، والقلب مقدَّم، وفيه أنَّ التسبيح لا يختصُّ بالقلب والذكر لا يختصُّ باللسان. ويبعد أن يفسَّر التسبيح بالصلاة والذكر بالحمد على الوحي وسائر النعم.

﴿انَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ عالما بما يصلحنا ويفيدنا في التبليغ، وإنَّ هارون رِدْءٌ كريم. وقدَّم «بنا» للفاصلة، والجملة تعليل للطلبات الثلاث، وتعليلها بالتسبيح والذكر.

قال رسول الله ﷺ : «**أشرق تبير، أشرق تبير، اللهمَّ إنِّي أسألك مما سألك أخي موسى أن تشرح لي صدري، وأن تيسِّر لي أمري، وتحلَّ عقدة من لساني يُفقهْ قولي، واجعل لي وزيرا من أهلي عليا أخي، اشدد به أزري، وأشركه في أمري، كي نسبِّحك كثيرا ونذكرك كثيرا إنَّك كنت بنا بصيرا**»[1].

وهو حديث روته أسـماء بنت عميس فيما ذكره ابـن مردويه، والخطيب وابن عساكر، وأظنُّه موضوعا وضعته الشيعة ليسـتدلُّوا به على أنَّ عليًّا أولى بالإمامة من الصدِّيق وعمر وعثمان، ويضمُّـوه إلى ما يروون من قوله ﷺ له: «**أنت منِّي بمنزلة هارون من موسـى**». والمراد بحلِّ عقدته عليه السلام دوام فصاحته وإلَّا فلا رتَّة له إلَّا إن أراد رتَّة ولده الحسن كما مرَّ.

(1) أورده **السـيوطي** في الدر: ج 4، ص 324، وقال: أخرجه ابن مردويه والخطيب وابن عساكر عن أسماء بنت عميس.

﴿قَالَ قَدْ اوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ۝36 وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً اخْرَىٰٓ ۝37 إِذَ اَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ۝38 أَنِ اِقْذِفِيهِ فِے اِلتَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِے اِلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ اِلْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَاخُذْهُ عَدُوٌّ لِّے وَعَدُوٌّ لَّهُۥۖ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّے وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيَ ۝39 إِذْ تَمْشِے أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلَ اَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَنْ يَّكْفُلُهُۥۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَے تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَۖ وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ اَلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُوناًۖ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِے أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ۝40 وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِيَۖ ۝41﴾

ـ 4 ـ

تذكير موسى بنعم الله عليه قبل النبوءة

﴿قَالَ قَدُ اوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ﴾ أَجَبْتُ دعوتك، و«السُّؤل» بمعنى المسؤول كالأُكل بضمِّ الهمزة بمعنى المأكول، فحلَّ عقدة لسانه على ما مرَّ كلِّها أو بعضها، وشدَّ عضده بأخيه هارون، وأرسل هارون كما أرسله، ولو لم يدع موسى له بالرسالة، وقد مرَّ أنَّه لا مانع من أن يدعو له بها، وروي عن ابن عبَّاس رضي الله عنه في قوله: ﴿وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ أنَّه نُبِّئ هارون حين قال هذا كما نُبِّئ موسى عليه السلام. وفي ندائه ﴿يَا مُوسَىٰ﴾ تشريف بالخطاب بعد تشريف.

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً اخْرَىٰ﴾ غير هذه المرَّة قبل أن تدعوني، وكيف لا أجيبك في هذه المرَّة وقد دعوتني؟ وذكر المرَّة الأخرى في قوله: ﴿إِذَ اَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ...﴾ إلخ وأصل المرَّة المرور الواحد، ثمَّ أطلق على كلِّ

فعلة واحدة، ثمَّ شاع في كلِّ فرد مما له أفراد، واستعمل في الزمان والمراد هنا الزمان الممتدُّ قدر ما يقع فيه خارجا ما ذكر الله ﷻ من الإيحاء إلى أمِّ موسى... إلخ، و«أخرى» مؤنَّث آخَر بفتح الخاء بمعنى مغاير، و«إِذْ» متعلِّق بـ«مَنَنَّا» بلا واسطة إبدال من مرَّة أو بواسطة.

والإيحاء إلى أمِّ موسى إلهام عند الجمهور، كقوله ﷻ: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ [سورة النحل: 68] ولا يردُّه قوله تعالى: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ...﴾ [سورة القصص: 7] إذ لا نسلِّم أنَّ الإخبار بالردِّ وبجعله من المرسلين مختصٌّ بالوحي، لجواز أن يكون إلهاما مع مشاهدتها منه ما يدلُّ على الردِّ والجعل، كما سمَّى عبد المطَّلب ابن ابنه محَمَّدًا ﷺ وقال: رجوت له أن يحمد في السماء والأرض لما رأيت فيه من تعاطي خصال الشرف.

ويمكن أن يكون بعث الله إليها ملكا كما أرسله إلى مريم عليها السلام لا على طريق الوحي بالشرع إلى الأنبياء بلا إشكال، لأنَّ الوحي تارة وحي شرع إلى الأنبياء، وتارة غيره.

وقيل: الوحي في الآية الإراءة في النوم، وقيل: وحي على لسان نبيء في زمانها وهو شعيب، ولو كان في مدين لا في الشام كقوله تعالى: ﴿وَإِذَ اوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ﴾ [سورة المائدة: 111] فإنَّه وحي إلى عيسى عليه السلام، واسمها يوحانذ، أو محيانة بنت يصهر بن لاوي، أو بارخا أو بازخت، المراد بما يوحى القذف في اليمِّ.

أو ما ينبغي أن يوحى ولا يهمل، كما يقال: هذا مما يكتب، أو أوحينا ما لا يعلم إلَّا بالوحي، والأوَّل أولى لكن لو كان كذلك لقال ما أوحينا، كما قال: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [سورة النجم: 10] وكما قال: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [سورة طه: 78] وعلى هذا يكون المعنى الثاني أولى ولو كان الأوَّل أنسب بالمعاني السابقة المرادة بالإيحاء.

أخبر بالوحي إليها إجمالا فتتهيَّأ نفســه إلى الاســتعداد لفهمه، ثمَّ فَصَّلَهُ تَفْصِيلاً يجد النفس متهيِّئة فيقرُّ فيها.

وفسَّــر الوحي بقوله: ﴿أَنِ اقْذِفِيهِ﴾ ضعيه بلين ﴿فِي التَّابُوتِ﴾ مفرَّشــا. فرشته بقطن محلوج أو نطع، وكان من خشب أو برد، صنعه مؤمن آل فرعون، وجصصته وقيرته.

﴿فَاقْذِفِيهِ﴾ أي ضعي التابوت وفيه موســى بلين ﴿فِي الْيَمِّ﴾ البحر، ولا داعي إلى جعل هذا القذف الثاني قذفا بعنف، ويجوز أن يكون القذفان بعنف على معنى العجلة فيهما، واليــمُّ: البحر مطلقا، وقيل: العــذب، وقيل: النيل خَاصَّةً، وهو مردود. ولا يجمع لفظ اليمِّ.

﴿فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّــاحِلِ﴾ جانب البحر، أو ما يقابل الوســط وهو ما يلي الجانب من البحر، حيث يجري الماء إلى نهــر فرعون، وعلى كلٍّ هو بمعنى الذي يسحله الماء أي يقشِّره.

[صرف] فهو «فاعل» بمعنى «مفعول»، أو للنسب أي ذي سحل لكن هذا الســحل واقع عليه لا صادر منه، فهو راجع إلى معنــى «مفعول»، ويجوز أن يكون بمعنى «فاعل» علــى معنى يفرِّق المــاء، أو على معنى ينهق تشــبيها لصوت الماء عليه بسحيل الحمار أي نهيقه. واختير صيغة الأمر مع أنَّ المراد الإخبار للمبالغة، كقوله ﷺ: «**قوموا فلأصلِّ بكم**»[1].

وقد اعتبر معنى الأمر حتَّى جزم في جوابــه وهو قوله ﷻ: ﴿**يَاخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ**﴾ أو لَمَّا قضى الله ﷻ أن يلقيه فــي اليمِّ كان قضاؤه كأمر للبحر،

(1) رواه **البخاري** في كتــاب الأذان (161) باب وضوء الصبيان، ومتى يجب عليهم الغســل... رقم 860، مع زيادة في آخره. ورواه **مسلم** في كتاب المســاجد ومواضع الصلاة (48) باب جواز الجماعة في النافلة، رقم 660. ورواه **النسائي** في كتاب الإمامة، باب إذا كانوا رجلين وامرأتين، رقم 801. من حديث أنس.

جعل البحر كالمميِّز الممتثِل للأمر تشبيها مضمرًا مرموزا إليه باللازم، وهو الأمر، فإنَّ غير المميِّز لا يؤمر، فإثبات الأمر تخييل.

وهاءات ﴿اقْذِفِيهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَعَدُوٌّ لَهُ﴾ لموسى ولو صلح ما قبل ﴿عَدُوٌّ لَّهُ﴾ للتابوت لأنَّ المقصود بالذات موسى، وعليه الكلام، وفي ذلك عدم تفكيك الضمائر، وهو أولى.

وقيل: عائدات للتابوت إلَّا هاء ﴿عَدُوٌّ لَّهُ﴾، وقال بعض: إنَّ هاء ﴿يَاخُذْهُ﴾ لموسى أيضا، وفيه أنَّه لا فرق بينها وبين سائر الهاءات سوى قرنه بعداوة كالذي قبله، ولا يتعيَّن عود الضمير للأقرب إذا ترجَّح عوده لغيره لحكمة، ككون المراد بالذات موسى.

[بلاغة] وأعاد العدوَّ للمبالغة بذكر عداوتين إذ لم يقل: «عدو لي وله»، ولو قاله لصحَّ، وليس فيه الجمع بين الحقيقة والمجاز فضلا عن أن يخرج على عموم المجاز، لأنَّ فرعون عدوٌّ لله حين الأخذ وعدوٌّ لموسى أيضا، إذ كان يبغض الأولاد لَمَّا علم أنَّ ملكه يزول على يد ولد، فلا حاجة إلى ما قيل: إنَّه عدوٌّ لله في الحين ولموسى فيما بعدُ.

﴿**وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي**﴾ نعت «مَحَبَّةً» أو متعلِّق بـ«أَلْقَيْتُ»، ولا يمنعه عمل عامل في ضميرين لواحد لأنَّ أحدهما بجارٍّ، والمراد: محبَّة عظيمة، ما بالك بشيء هو من الله بإخباره أنَّه من الله ﷻ؟! كلُّ من رآه أحبَّه ولا يصبر عنه لجمال عينيه ومسحة جمال عليه في جميع أعضائه.

وقيل: ذلك الحبُّ حبُّ الله إيَّاهُ ألقاه في القلوب إنعاما عليه لا على طريق الثواب، لأنَّه وليد لا عمل له [وجاء في الحديث]: «**إذا أحبَّ الله عبدا ألقى حبَّه في القلوب**»[1] ولعلَّه لِمَا سيعمل.

(1) تَقَدَّمَ تخريجه في ج 2، ص 262.

[قصص] رأى التابـوت هو وزوجه من موضع مشـرف على النيل على رأس بركة في بستان في الساحل فأمر به ففتح فإذا صبيٌّ أصبح الناس وجها، وقيل: إنَّ التابوت جاء إلى المشرعة التي تستقي منها جواري فرعون، فحطن به يحسـبنه مالا. وطلبت زوجه منه أن يتَّخذه ولدا وقـد أخذ جماله بمجامع قلبها وقلبه، وقالت: إنَّه قرَّة عين لي ولك، فقال لهـا: لك ولا حاجة لي فيه، وقد أخذ حبُّه بقلبه إذ رآه إلَّا أنَّه كتم ذلك، قال ﷺ: «**لو قال مثلها لهداه الله به كما هداها به**» كما روي عن ابن عبَّاس. [قيل:] وفي حضرته حين رآه أربعمائة غلام وجارية وقال: من أخذه فهو حرٌّ فأخذه واحد وأعتق الكلَّ.

﴿**وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِـي**﴾ عطف على المحذوف المتعلِّـق بـ«أَلْقَيْتُ» أي وألقيت عليك المحبَّة لتكون محبوبا عند كلِّ من رآك ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾، أو ليتعطَّف عليك ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِـي﴾، أو متعلِّق بالمحذوف المعطوف على «أَلْقَيْتُ» أي وفعلت ذلك الإلقاء لتصنع.

ومعنى «تُصْنَع» تكـرم أو تُفعل بك الصنيعة، وهي الإحسـان، وهو أن يربَّى بالحنوِّ والشـفقة والإرضاع الحسـن، و﴿عَلَىٰ عَيْنِيَ﴾ حال من ضمير «تُصْنَـعَ»، ومعناه بمرأى منِّـي، وذلك علـى الاسـتعارة التمثيليَّة للحفظ والصون، فـإنَّ المصون يراعى ويراقب، كما يراقب الشـيء بالعين ويحضر عنده إذا اعتني به، وهـذا إكرام وتخصيص وليس المـراد مطلق كونه بالله، فضلا عن أن يُـرَدَّ أنَّ كلَّ أحد كذلك، بل لو أريد هـذا لقيل إنَّه خصَّت هذه العبارة بموسى، ولو كان معناها لغيره أيضا تشـريفا كما خصَّ الكعبة ببيت الله، وكلُّ بيت لله تعالى.

﴿**إِذْ تَمْشِـي أُخْتُكَ**﴾ في الطريق لطلبك وتحقيق أمرك، وتقول لمن أنت في يده: ﴿هَلَ ادُلُّكُمْ﴾ واسـمها مريـم أو كلثوم، متعلِّـق بـ«تُصْنَعَ»، و[«إذ» ظرف زمان] وهو وقت واسـع ممتدٌّ قدر ما وقع فيه ما ذكر في الآية، مفصول

بأزمنة، أو متعلِّـق بـ«أَلْقَيْتُ» أو بدل من «إِذَ اَوْحَيْنَا» وذلك وقت واسـع منه وقت وقع فيه كذا ووقت وقع فيه كذا، فيصحُّ الإبـدال ولا ضيق في الوقت. والمضارع لحكاية الحال الماضية من موسـى كأنَّهـا حضرت حين يخاطب موسى عليه السلام بذلك، وكذا في قوله: ﴿فَتَقُولُ﴾ لفرعون أو آسية.

﴿هَلَ اَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَنْ يَّكْفُلُهُ﴾ يضمُّه إلى نفسـه ويربِّيه فقالوا: دلِّينا عليه، ﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ﴾ فجاءت بأمِّـك فقالت: هذه تكفله، فرجعناك إليها ولا تربية أحسن من تربية الأمِّ.

﴿كَـيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ بسـلامتك من البحـر، ومن فرعـون وبلقائك ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ بالفراق، والمراد لا يدوم عليها الحزن إذ حزنت حين ألقته في البحر فما زال الحزن حتَّى رجع إليهـا، وقيل: المعنى لا يحدث عليها الحزن، أو لا تحزن يا موسـى بفقد إشـفاقها، وفيه أنَّ حزن الوليد مثله غير ظاهر إلَّا على معنى أنَّه ألفها في مدَّة قصيرة فلا يطمئنُّ إلى غيرها بل يبكي، وما تقدَّم أولى، وما في سورة القصص أنسب به، والقرآن يفسِّر بعضه بعضا.

[قصص] ولم يقبل من امرأة ثديا بعد أن عرضوه على النسـاء ودلَّتهم على أمِّه، وقالوا لها: مـا يدريك أنَّها تنصحه؟ وهل لها قرابة به؟ وشـكُّوا وقالت: إنَّها تحبُّ القرب من الملك، فجاءت إلى بيت امرأة فرعون آسـية، فطلبت أن تمكث عندها، فقالت: لا أضيِّـع داري وأولادي، فإن لم ترضوا بأخذه إلى بيتي تركته، وقد رأت أنَّه لم يقبل إلَّا ثديها فرضوا أن تذهب به، ولَمَّا ترعرع قالت امـرأة فرعون: أرينـي ابني، فوعدتها يومـا تزورها به، فجعلت على كلِّ خازن من خُزَّان مالها ومن تحت يدها أن يستقبلوه بالهدايا من حين يخرج من بيت مرضعته وهي أمُّه، إلـى أن يدخل عليها، وقالت: إنِّي باعثة من يحصي عليكم هداياكم، وفعلوا فمضت به إلى فرعون ليهدي له فجذب لحيته.

﴿وَقَتَلْتَ﴾ بالوكز وأنت صاحب اثنتي عشرة سنة، أو رجل ﴿نَفْسًا﴾ قبطيًّا، اسمه قانون الذي استغاثه عليه الإسرائيلي موسى بن ظفر السامري فأصابك به غمٌّ ﴿فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ﴾ ابتليناك ﴿فُتُونًا﴾ ابتلاء.

[صرف] وهو مصدر كالشُّكور بضمِّ الكاف مفرد، أو جمع فَتْن بفتح الفاء وإسكان التاء كالظنون جمع ظنٍّ، أو جمع فتنة على إلغاء التاء كإلغائها في بدرة إذ جمع على بدور، وهي عشرة آلاف درهم، وفي حَجزة إذ جمعوه على حُجُوز وهي تكَّة السراويل.

أو ﴿فَتَنَّاكَ﴾: خلَّصناك من الغشِّ، كما يقال: فتنت الذهب بالنار إذا خلَّصته من الغشِّ، والمراد بالفتن تكراره على أنَّ الفتون جمع كما هو ظاهر، وأمَّا على أنَّه مفرد فالتكرار يعلم من السياق، والمعنى خلَّصناك أو ابتليناك مرَّة بعد أخرى، ووجه عدِّ الابتلاء في المنن أنَّه نجَّاه، وقيل: إنَّه يثاب، والثواب نعمة، وهو ضعيف في مقام التفسير.

وعن ابن عبَّاس رضي الله عنه وغيره: الفتون بهجرة الوطن، وكونه لا يقبل إلَّا ثدي أمِّه، ومفارقة الإيلاف، والمشي راجلا، وفقد الزاد، وقتله القبطي، والإلقاء في اليمِّ والتقاطه، وامتناعه من الرضاع، وأخذه لحية فرعون، وغضب فرعون وإرادة قتله، وأخذه الجمرة وترك الجوهرة، والهرب إلى مدين، وكونه أجيرا لشعيب، ورجوعه إلى مصر، وإخطاؤه الطريق في الليلة المظلمة والبرد، وتفرُّق الغنم.

ومرَّ أنَّه أركب زوجه على أتان حين رجع إلى مصر بأن كان قد يركب معها، أو ينفرد، والجواب أنَّ المشي بلا ركوب حين هرب، ولا يحسن عدُّ كونه أجيرا وإخطاء الطريق والبرد والظلمة وتفرُّق الغنم ونحو ذلك، لأنَّ المراد ما وقع قبل وصول مدين بدليل الفاء في قوله:

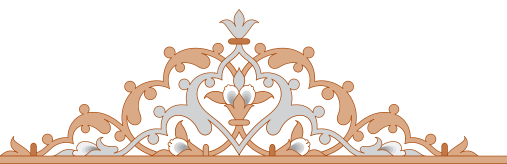
﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ﴾ عشرا، وقيل: ثمانيا وعشرين، عشرا في الرعي لشعيب صداقا لبنته، والباقي مع زوجه وولده، وقد خرج من مصر وله من العمر اثنتا

عشرة ســنة فذلك أربعون، نُبِّئ على رأســها ﴿فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ بلدة شعيب، على ثماني مراحل من مصر، هرب إليها مــن فرعون، إذ قتل القبطي، وعمره يومئذ اثنا عشــر، ولبث فيها ثمانية وعشرين عاما عشــرة في رعي الغنم مهر زوجته، وثمانية عشر أقام فيها مع شعيب.

﴿ثُمَّ جِئْتَ﴾ إلى المكان الذي ناديتك فيه، ولا دلالة لـ«ثمَّ» على مشــاق الطريق من ضلال الطريق وتفــرُّق الغنم وغير ذلك، كمــا زعم بعض ﴿عَلَىٰ قَدَرٍ﴾ تقدير من الله وقضائه أو على الوقت المقدَّر لاســتنبائك، قيل: أو على مقدار من الزمان يكون فيه الاستنباء غالبا وهو رأس أربعين، وفيه أنَّ هذا يقال فيه «قدْر» بإســكان الدال، أو على موعد وعدتكه، وعليه مجاهد، فإن أراد أنَّه وعد بلا إخبار فلا إشكال وقد مرَّ معناه، وإن أراد بإخبار ـ ولعلَّ الإخبار على لسان نبيء ـ فهو غير متبادر ﴿يَا مُوسَىٰ﴾ تشريف له بنداء، وتنبيه على انتهاء الحكاية التي هي تفصيل المرَّة الأخرى.

﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِــي﴾ تذكير لقوله: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ﴾ وتمهيد لإرســاله إلى فرعون، بمعنى جعلتك محلَّ صنيعتي أي إحساني لأرسلك إلى عدوِّي، يقال: زيد صنيع فلان بمعنى أنَّه يخصُّه بالنعم، ومعنى ﴿لِنَفْسِي﴾: لي وحدي على المبالغة بالاصطفاء، ولذلك لم يقل: واصطنعنــاك، كما قال: ﴿وَفَتَنَّاكَ﴾ و﴿نَجَّيْنَاكَ﴾ و﴿رَجَعْنَــاكَ﴾، ويرجع في الحقيقة إلى معنى رســالتي، وقيل: لمحبَّتي عبَّر عنها بالنفس لأنَّها أخصُّ شــيء بها، وقيــل: لإقامة حجَّتي حتَّى كأنَّك أنا لو خاطبتهم، تعالى عن الشبه.

أو ذلك اســتعارة تمثيلية في التقريب المعنوي بالتنبئة والإرسال، وجلائل النعم كمن هو من خواصِّ الملك، بحيث يفيض عليه من كلِّ ما يليق من الخير.



﴿ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكۡرِي ﴿42﴾ ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿43﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴿44﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ﴿45﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴿46﴾ فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ ﴿47﴾ إِنَّا قَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡنَآ أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿48﴾﴾

ـ 5 ـ

التوجيهات لموسى وهارون في دعوة فرعون

﴿اذْهَبْ اَنتَ وَأَخُوكَ﴾ هارون على مقتضى اصطناعي لك ﴿بِئَايَاتِي﴾ أي اليد والعصا وحلِّ العقدة، أو اليد والعصا، أو الآيات التسع، أو العصا ونزع اليد بيضاء لأنَّه لَمَّا قال: ﴿فَاتِ بِئَايَةٍ﴾ [سورة الشعراء: 154] ألقى العصا ونزع اليد، ﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ﴾ [سورة القصص: 32] وإطلاق الجمع على اثنين جائز مع اشتمالهما على آيات، كسرعة الحيَّة وعظمها، وبلعها الصخرة، ورجوعها عصا وشدَّة شعاع اليد ورجوعها كما كانت، وأكثر التسع لم يتحقَّق عند الآية بل كمُلَ بعدُ فالأولى أن لا تفسَّر بها الآية.

﴿وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ وَنَى يَنِي كوعدَ يَعِدُ بمعنى فتر، واختار ابن مالك أنَّه من باب «مازال» و«ما فتئ» و«ما برح» و«ما انفكَّ» وفي الصحاح: فلان لا يَني يفعل كذا أي لا يزال، وهو من معنى الفتور، ومعنى ﴿فِي ذِكْرِي﴾: ذكره بالصفات والأفعال الجميلة، وكلُّ صفاته وأفعاله جميلة.

أي دُومَا على الذكر في جميع أحوالكما وعند التبليغ والدعاء إلى العبادة، أو الذكرُ: نفس التبليغ، وهو أجلُّ العبادات، وهارون غائب عن موسى لا يسمع الخطاب، لكن غلَّب الحاضر في مقام الكلام على الغائب عنه، وكذا في قوله ﷻ: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ وقيل: لا تغليب بل حضرا معا بأن أوحي إلى هارون عليه السلام بمصر أن يتلقَّى موسى عليه السلام، أو ألهم تلقِّيه أو سمع بإقباله فتلقَّاه في الطور، أو دونه مما يلي مصر، أو تلقَّاه على مرحلة، أو اجتمعا بمصر.

وكرَّر الأمر بالذهاب تأكيدا، وزاد في الثاني أنَّ الذهاب إلى فرعون للبيان، أو الأوَّل ذهاب إلى من يؤمر وينهى عموما والثاني إلى فرعون، أو الأوَّل لم يبلغ هارون ولَمَّا اجتمعا أبلغه بخطاب مجدَّد، وفيه أنَّه بقي قوله: ﴿وَلَا تَنِيَا﴾ فمن قبل أو بعد فأشكل الأمر.

ويبعد ما قيل: إنَّ الأوَّل على الانفراد في الذهاب، والثاني على الاجتماع نصًّا أو احتمالا، وفيه أنَّ الأوَّل ظاهر في الانفراد والثاني لا نصَّ فيه على الاجتماع، والاحتمال في مثل هذا غير توجيه، فقد يكون ذلك كلُّه قبل الاجتماع وقد يكون بعده، إلَّا الأوَّل فقبله لا بعده.

والقول الليِّن شأن الدعاء إلى الحقِّ ليذعن إليه، ولا سيما الطغاة والقول الليِّن [مِثْل قوله:] ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ و﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ [سورة النازعات: 18ـ19] وهذا في صورة العرض، يقولان ذلك بلا انتهار ولا مواجهة بسوء، وهذا هو الصحيح.

وعن عليٍّ وابن عبَّاس وسفيان الثوري القول الليِّن: التكنية قبل الدعاء أو في خلاله، وبقول الثلاثة هؤلاء يستدلُّ على جواز تكنية المشرك ويناسبه لفظ أبي لهب في قول. أو القول الليِّن: إن آمنت بقيت شابًّا ملكا لذيذ المطعم والمشرب والمنكح إلى الموت، أو إنَّ لك ربًّا ومعادا إلى جنَّة إن آمنت.

وكاد يؤمن وأعجبه ذلك، وانتظر هامان وكان غائبا ولا يقطع أمرا دونه، فقال له: كنت أظنُّ أنَّ لك عقلا ورأيا أنت ربٌّ تريد أن تكون مربوبا! وأنت تُعبد تريد أن تكون تَعبد! فقال: صواب ما قلت فغلبه على عقله، وقيل: لم يعيِّن ما يقولان.

ويبعد أنَّ القول الليِّن: لا إله إلَّا الله، ووجه لينه خفَّته على اللسان. والتذكُّر: التأمُّل الموصل إلى الإذعان للحقِّ. والخشية: أن يخشى أن يكون الأمر كما تقولان فيتبعكما، لِئَلَّا يهلك أو يبطش به.

[قصص] أو التذكُّر أن يتذكَّر أنه احتبس النيل، فأَبعَد في شاطئه وخرَّ ساجدًا وقال: يا رب اسر النيل ولا تُخجلني، أو أجب لي في الدعاء، وعاقبني في الآخرة، فتبع الماء حافر فرسه[1].

و«أو» لمنع الخلو، و«لعلَّ» للترجية لا للترجِّي. أمرهما الله أن يباشرا الأمر برجاء وطمع أن لا يخيب سعيهما، والترجية بـ«لعلَّ» إنشاء فلا تكون مع ما بعدها حالا كما توهم، وقيل: للاستفهام وهو إنشاء فلا يكون جملته حالا، وقيل: للتعليل بمنزلة التذكُّر أو الخشية، فلا حالية.

[لغة] قيل: كلُّ «لَعَلَّ» في القرآن للتعليل إلَّا ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [سورة الشعراء: 129] فللتشبيه، والتعليل هنا أولى من التشبيه، والاستفهام بعيد لأنَّ الآية ليست لمقام هل يتذكَّر أو يخشى؟ ولا لأن يقولا له: هل تتذكَّر أو تخشى؟.

وقال: ﴿لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ مع علمه أنَّه لا يتذكَّر ولا يخشى لأنَّ الترجِّي لموسى وهارون، أي اذهبا على رجائكما وباشرا الأمر مباشرة من يطمع أن يثمر عمله، ولإلزام الحجَّة وقطع المعذرة.

وقيل: لعلَّه يتذكَّر متذكِّر أو يخشى خاش، بردِّ الضمير إلى اسم الفاعل من الفعل، وقد تذكَّر كثير من الناس وخشوا، وقيل: لعلَّ من الله واجب، وقد

(1) يبدو في هذه القصة آثار خيال القصَّاص.



تذكَّر وخشي حين الغرق حين لا يقبل عنه، وقيل: خشي وتذَّكر وأراد الإيمان فمنعه هامان، وكان لا يقطع أمرا دونه وقد مرَّ.

وقرئت الآية عند يحيى بن معاذ[1] فبكى وقال: «إلهي هذا رفقك بمن يقول: أنا الإله، فكيف بمن يقول أنت الله؟ وهذا رفقك بمن يقول: «أنا ربُّكم الأعلى»، فكيف بمن يقول «سبحان ربِّي الأعلى»؟» وكان الفضل بن عيسى الرقاشي[2] إذا تلاها قال: يا من يتحبَّب إلى من يعاديه فكيف بمن يتولَّاه ويناديه؟.

قال بعض تلاميذ الخليل: ينبغي للرجل أن يكون قوله للناس ليِّنا، ووجهه مستبشرا منبسطا مع البارِّ والفاجر والسنِّي والمبتدع، من غير مداهنة ومن غير أن يتكلَّم معه بكلام يظنُّ أنَّه يرضى سيرته، لأنَّ الله تعالى قال لموسى وهارون عليهما السلام: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ وأنت لست بأفضل من موسى وهارون عليهما السلام، والفاجر ليس بأخبث من فرعون وقد أمرهما الله تعالى بلين القول مع فرعون، لأنَّ في إِلَانَةِ القول كسرا لشوكة السوء وجلبا.

وكأنَّه قيل: فماذا قالا؟ فقال: ﴿**قَالَا**﴾ موسى وهارون على أنَّهما اجتمعا في الطور، أو قال هارون في مصر أو في طريق التلقِّي فجمع الله قولهما كما جمع خطاب كلِّ رسول في أزمنتهم، في قوله عز وجل: ﴿كُلُواْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ [سورة المؤمنون: 51] ﴿**رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَّفْرُطَ عَلَيْنَآ**﴾ يتقدَّم فرعون ويعجل قبل دعوتنا، والفارط من يتقدَّم ليهيِّئَ الماء، وفرس فارط: يسبق الخيل، والميِّت الطفل فرط لأبويه كما في الحديث، فخوفهما للقطع عن التبليغ لا لعقابهما، وإن كان للعقاب فلعلَّه قبل أن يوحي إليه: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ...﴾ [سورة القصص: 35].

(1) يحيى بن معاذ بن جعفر الرازي. أبو زكرياء، واعظ، زاهد لم يكن له نظير في وقته من أهل الرأي، أقام ببلخ ومات في نيسابور سنة 258هـ /872م. الزركلي: الأعلام، ج 8، ص 172.

(2) الفضل بن عيسى الرقاشي بن أبان أبو عيسى، واعظ من أهل البصرة كان من أخطب الناس، متكلِّما قاصًّا مجيدا، وهو رئيس طائفة من المعتزلة تنسب إليه، كان قدريًّا ضعيف الحديث، سجَّاعا في قصصه، توفي حوالي سنة 140هـ/757م. الزركلي: الأعلام، ج 5، ص 151.

وتقديم الحكاية لا تفيد الترتيب لأنَّها بالــواو، وأيضا لعلَّ: ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ [سورة القصص: 35] بمعنى لا حجَّة لهم عليكما، أو أرادا بالخوف طلب زيادة دليل حسِّيٍّ على أنَّهما غالبان له، كقول إبراهيم: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ﴾ [سورة البقرة: 260].

ولا ينافي خوفهما ما تقدَّم من شــرح الصدر، وإيتاء السؤل، لأنَّ الخوف بالطبع وشــرح الصدر وإيتاء الســؤل في شــأن حفظ ما يوحى والعزم على التبليغ، وأيضا يخاف الإنسان من شيء ويصبر عليه إذا وقع، وإيتاؤُه التيسير المطلوب لا يمنع الخوف من قطع التبليغ، لأنَّ طلب التيسير إنَّما هو باعتبار أن لا يقصِّر، لا بمعنى لا مانــع من قطع عدوه له، أو خــاف هارون قبل أن يبلغه ما أنزل الله من التقوية فغلب على موســى، ونســب إليــه الخوف معه حُكمًا على المجموع.

﴿أَوَ اَنْ يَّطْغَىٰ﴾ يزداد طغيانا بالجرأة على حقِّك وكرَّر «أن» ليستحضر بها معنى نخاف المسلَّط على ﴿أَنْ يَّفْرُطَ﴾ اســتحضارا قَوِيًّا. وكأنَّه قيل: فما قال لهما عند قولهما: ﴿رَبَّنَآ إِنَّنا...﴾؟ فأجاب مسلِّيا لهما بقوله:

﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ...﴾إلخ لا تخافا من فرطه وطغيانه لأنَّني معكما بالحفظ والنصر، أعلم ما يجري بينكما من قول وفعل، وسمعه ورؤيته تعالى عبارة عــن علمه وهو غير الحفظ والنصــر، لأنَّهما فعله، ولفظ السمع أنسب بالقول والرؤية أنسب بالفعل، وذلك مقابلة لقوله: ﴿أَنْ يَّفْرُطَ﴾ أي بأن لا يســمع مِنَّا وقوله: ﴿أَنْ يَّطْغَىٰ﴾ بفعل كقتــل، فقال الله ﷻ: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْــمَعُ وَأَرَىٰ﴾ أفعل ما يليق لكما أو أســخِّره لكما فيستمع حتَّى يتمَّ كلامكما، وأمنعه أن يفعل ما تكرهــان، ولا تعلُّق للفعلين بمفعول بل المعنى من شأني السمع والرؤية. وقدَّر بعض: أسمع كلامكما له فأسخِّره للاستماع، وأرى فعله إن شرع في فعل أو أراد الشروع فأمنعه.

﴿فَاتِيَاهُ﴾ ادخلا عليه، عطف على ﴿لَا تَخَافَآ﴾ ﴿فَقُولَآ﴾ له ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ أرسلنا الذي هو ربُّك وأنت عبده، ولست بربٍّ، بل هو الربُّ فاعرف كيف تجيبنا.

وليس هذا تغليظا إذ لا يجوز النقص من ذلك لأنَّهما أرسلا إليه بقول ذلك، وبقوله: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ...﴾إلخ فلا يجوز النقص، والإلانة التي أمرا بها هي أنَّهما لم ينهراه ولم يقولا له: يا خبيث، ونحو ذلك.

والأوجه المتقدِّمة في الإلانة على تقدير صحَّتها قد يقولانها بعد هذا أو قبله، لأنَّ الفاء في «فَقُولَا» ولو كانت للترتيب لَكِنَّ الترتيب في كلِّ شيء بحسبه، تقول: تزوَّج فلان فولد له إذا لم يكن بينهما إلَّا مدَّة الحمل، أو هي لمطلق الجمع هنا، ألا ترى أنَّه لا بدَّ أن يأمراه أوَّلا بالتوحيد: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَّكَّىٰ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ [سورة النازعات: 18 ـ 19] لأنَّا نقول ما في هذه السورة هو الإرسال الأوَّل.

أو أمراه به بعد هذا الكلام للتدريج، فإنَّ طلب إطلاق بني إسرائيل أيسر عليه من تبديل الاعتقاد، مع أنَّ في قولهما: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ أمرًا بتبديله، وأيضا تخليص المؤمنين من الكفرة أهمُّ من دعوتهم إلى الإيمان، على أنَّ بني إسرائيل مؤمنون بموسى في الباطن أو بغيره من الأنبياء قبل، لكن لا دليل على شيء من ذلك، فقد يؤمر بطلب إرسالهم ولو مشركين للرحم، وأنَّهم أولاد الأنبياء، ولعلم الله أنَّهم يؤمنون بعدُ وأنَّهم جنده. ومعنى إرسالهم إطلاقهم عن الاستعباد والأسر، فإن شاءوا ذهبوا مع موسى وهارون إلى الشام، وإن شاءوا قعدوا في مصر، فالإطلاق مفروض والمعية غير مفروضة، وكأنَّه قيل: أطلقهم في حضرتنا وذلك هو المقصود بالذات، ألا ترى إلى قوله:

﴿وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ فإنَّه ينبئ أنَّ المراد ترك ما فيه إهانتهم، كانوا عبيدا للقبط يستعملونهم في نحو الحفر والبناء ونقل الأحجار من المشاق، ويستخدمون نساءهم ويقتلون أبناءهم على ما دون عام.

وأقول: الأظهر أنَّــه طلب إرســالهم جميعا إلى الشــام، وفرَّع طلب الإرسال على ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ بالفاء السَّبَبِيَّة للتأكيد ﴿**قَدْ جِئْنَاكَ بِئَايَةٍ مِّن رَّبِّكَ**﴾ تقرير لدعوى الرســالة وتعليل لوجوب الإرسال، لأنَّه من الله. وقالا: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ لا منــه لتأكيد التقرير والتعليل ونفــي الرُّبُوبِيَّة عنه، وأكَّد بـ«قد»، وأفــرد الآية ولو تعدَّدت آياته لأنَّ المــراد بها الأولى التي بدآه بها، أو لَمَّا ترادفت آياته كلُّها على معنــى واحد وهو التوحيد عدَّت واحدة، كأنَّه قيل: قد جئناك بما يثبــت دعوانا، وقيل: اليد، وقيل: العصا، فإن أريد لأنَّ إحداهما أوَّل فهو ما ذكرت، ولعلَّ تخصيصهما لذكرهما في هذه الســورة، واعتبار تقدُّم واحدة، أو اعتبار تأخُّر أخرى وقربها إلى هذه الآية المتلوَّة.

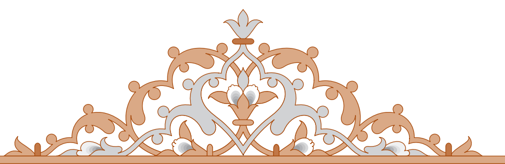
﴿**وَالسَّلَامُ**﴾ الســلامة من عذاب الدنيا والآخرة ﴿**عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰٓ**﴾ بتصديق آيات الله أي لمن اتَّبَــعَ الهدى، كما عكس في قولــه تعالى: ﴿وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ [ســورة غافر: 52] باللام بدل على، ولا بدَّ مــن حكمة في ذلك كالغمرة للسلام والاستحقاق للعنة، وفي ذكر «على» هنا مشاكلة لقوله تعالى: ﴿**إِنَّا قَدُ اوحِيَ إِلَيْنَآ أَنَّ الْعَذَابَ**﴾ دنيا وأخــرى ﴿**عَلَىٰ مَن كَذَّبَ**﴾ بآيات الله ﴿**وَتَوَلَّىٰ**﴾ أعرض عن قبولها.

وقد يقال: السلام ســلام الملائكة خزنة الجنَّة على المهتدين، وقد يقال: هذا السلام سلام موادعة وذهاب، مع أنَّه أيضا ترغيب وترهيب على العموم، ولو قال: السلام عليك لخصَّه.

والمشــرك لا يقصد بالســلام بل يقال عند خطابه: «السلام على من اتَّبَعَ الهدى» كما كتب رســول الله ﷺ: «من محَمَّد رســول الله إلى هرقل عظيم الروم، ســلام على من اتَّبَعَ الهدى» ولا يشكل على الموادعة قوله بعدها: ﴿إِنَّا قَدُ اوحِيَ إِلَيْنَآ أَنَّ الْعَذَابَ عَلَــىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ لقلَّته مع

المناسبة للمقام، وذلك كلُّه مما أمرا أن يقولاه إذ قال: ﴿فَقُولَا﴾ وقيل: تمَّ في قوله: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾.

[أصول الدين] ولا حصر في الآية للعذاب في المشــركين، إذ لم يقل لا عذاب إلَّا على المشركين أو نحو هذا، فلا دليل في الآية للمرجئة القائلين إنَّ الموحِّد الفاسق لا يدخل النار.



﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝٤٩ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ ۝٥١ قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ۝٥٢ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ ۝٥٣ كُلُواْ وَٱرۡعَوۡاْ أَنۡعَٰمَكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ۝٥٤ ۞ مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ ۝٥٥ ﴾

ـ 6 ـ
الحوار بين فرعون وموسى حول الربوبيَّة

[قصص] ﴿قَالَ﴾ بعد لبث موسى وهارون ببابه حينا وحين ذهابهما إليه، [قيل:] مرَّا بأسود في غيضة له فعوت كالثعالب خضوعا وفرعون يراه من عال فقرع الباب بعصاه وعليه جبَّة صوف وسراويل، فقال له البواب: هل تعرف باب من تقرع؟ هو باب سيِّدك، قال: أنت وأنا وفرعون عبيد لربِّي، فأنا ناصره فأخبر كلُّ حاجب حاجبا وكانوا سبعين كلٌّ تحت يده جند عظيم، ولَمَّا أمره بالتوحيد وتمَّ الكلام قال: خذوه، فألقى العصا فصارت ثعبانا فهرب، ودخل البيت، وقال: اجعل بيننا أجلا، فقال: لم يأمرني ربِّي بذلك، فإن لم تؤمن دخلت عليك البيت، فأوحى الله إليه أن يقبل أجل فرعون، فطلب فرعون أربعين يوما وتخلَّى في ذلك اليوم أربعين مرَّة لإسهال بطنه، وقد كان يتخلَّى مرَّة في أربعين يوما، وكيف يكون هذا؟ فقيل: إنَّه كان يأكل الموز وفضلته قليلة، قلنا: لا لذَّة له في الدنيا إن اقتصر عليه، ومن يعدُّ عليه الأربعين ويخبر بها؟ ولعلَّه عدَّت عليه آسية وقد

شاورها فقالت: لا ينبغي لعاقل أن يترك ما أمرك به، وشاور هامان فقال: بينا أنت ربٌّ صرت مربوبا، فأخذ بكلامه، فاستمرَّ على كفره.

﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ﴾ لم يذكر هارون لأنَّه تبع لموسى، والفاء في جواب شرط تقديره: إذا كنتما رسولين فمن ربُّكما؟ فإنَّ الرسول لا يكون إلَّا عن ربٍّ له ﴿قَالَ رَبُّنَا﴾ أي هو ربُّنا، و«نا» لهما وقيل: للعالمين، كما قال: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة الشعراء: 16] تحقيقا للحقِّ وردًّا على اللعين القائل: أنا ربُّ العالمين، مع أنَّ ملكه في القبط فقط لم يبلغ الشام أو غيرها، كما قال شعيب في مدين: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [سورة القصص: 25] ﴿الذِي﴾ نعت، أو «ربُّ» مبتدأ و«الذِي» خبر. ومعنى قوله: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ أي إيجاده الذي وعد به إجمالا لذات كلِّ شيء، وتفصيلا لأجزائها كعينين وعين واحدة، وصحَّة ومرض، ولون وطول وعرض، وغير ذلك ومن ذلك الذكورة والأنوثة.

وأولى من هذا أنَّ الخلق بمعنى المخلوق، أي أعطى كلَّ شيء ما وعد له من تلك الصفات، والأحسن في حكمة الله هو ما قضى لكلِّ أحد، كعور الأعور ومرض المريض، وكمال الأعضاء وصحَّتها، ونحو ذلك، فلا حاجة إلى دعوى أنَّ المراد الأنواع تحرُّزا عن نحو العور والمرض، مع أنَّه ليس في الآية هذه ذكر الأحسنية حتَّى يحتاج إلى تأويل ما لا حسن فيه كالعور.

وإن أراد القائل بالأنواع أنَّ الأفراد لم توجد بكلِّها بل منها ما يأتي بخلاف الأنواع فإنَّها تمَّت بحسب الظاهر، قلنا: المعنى أثبت لكلِّ شيء ما سبق به القضاء ودلَّه على صلاحه.

وقيل: يسَّر لكلِّ شيء عضو مصالحه: الرِّجْل للمشي، واللسان للنطق، والعين للنظر، والأذن للسمع، وقيل: جعل زوجة البعير الناقة، والفرس الرمكة، والحمار الأتان. و«كلَّ» مفعول أوَّل و«خَلْقَ» مفعول ثان، والهاء

لـ«شَيْءٍ»، ويجوز أن يكون «خَلْق» مفعولا أوَّلا بمعنى الشيء المخلوق والهاء لله، و«كلَّ» مفعولا ثانيا، أي أعطى مخلوقاته كلَّ شيء يحتاجون إليه.

﴿**ثُمَّ هَدَىٰ**﴾ دلَّ بإعطاء كلِّ شــيء خلقه على وُجوده وَجوده بالنعم التي لا تحصى، وقيل: ألهم الذكر كيف يأتي الأنثــى. و«ثُمَّ» لتراخي الرتبة إن لم يكن هنا تراخ في الزمان، ويجوز تفسير الهدى بالإرشاد إلى المصالح والإلهام إليها.

وكلُّ عاقل يعلم أنَّه لم يوجد نفسه ولا جســما من الأجسام، و«مَنْ» هنا ســؤال عَمَّا يعين، و«مَا» في موضع آخر[1] ســؤال عن الماهيــة، وقد مرَّ أنَّ فرعون عــارف بالله تعالى إذ ســجد له وســأله جريــان النيل فهــو من باب ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا واسْــتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُــهُمْ﴾ [ســورة النمل: 14] فيبقى قوله ﷻ: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَؤُلَآءِ اِلَّا رَبُّ السَّــمَاوَاتِ وَالَارْضِ بَصَآئِرَ﴾ [سورة الإســراء: 102] عَلَى ظاهره.

﴿**قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَىٰ**﴾ إن كنت رســولا فأخبرني ما حال القرون الماضية من الحوادث المفصَّلات؟ صرف موســى عَمَّا يدعوه إليه ليتركه، أو يضعف فيه، أو يجد زلَّة في كلامــه أو يختبره لعلَّه من القُصَّاص الدارســين لأخبار الأوائل. وأصل البــال: الفكر، ويطلق على القلــب وعلى الحال التي يُعتنى به كما هنا، ولم يجئ مثنَّى ولا مجموعا وشــذَّ قولهم: «بالات» والذي عندي أنَّ ما لم يجئ مثنًّى ولا مجموعا جاز جمعه وتثنيته على القياس.

﴿**قَالَ عِلْمُهَــا عِندَ رَبِّي**﴾ إنَّمــا علَّمني ربِّي التوحيد والدعــاء إليه وإلى عبادته، ولا علم له بأحوال الماضيــن، لأنَّ ذلك قبل نزول التوراة فإنَّما نزلت بعد هلاك فرعون، وإن كان موسى قد علم منها شيئا كما قال مؤمن آل فرعون: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الَاحْزَابِ...﴾ [ســورة غافر: 30] فمراد موسى

---

(1) في قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، سورة الشعراء:23.

لا علم لي بها كلِّهـا أو بأكثرها أو كثير منها، أو لا علم لـي بتفصيلها، أو ما علمه مؤمن آل فرعون لم يعلمه من موسى.

وقيل: ﴿فَمَا بَالُ...﴾ متعلِّق بقوله: ﴿وَالسَّلَامُ...﴾ أي فهل عذِّبت القرون الأولى المكذِّبة؟ وقيل: السـؤال عن البعث و«ها» فـي «عِلْمُهَا» للقيامة وهو قول لا يلتفت إليه، وقيل: متعلِّق بقوله: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ فإنَّه يتضمَّن أنَّه تعالى عالم بأحوال الخلق، استبعد أن يكون الله عالما بأحوال الخلق كلِّهم مع كثرة القرون الأولى وانتشارهم.

ولعلَّه خـصَّ القرون الأولى مـن بين الكائنات لعلمـه ببعض أخبارهم، وقيل: متعلِّق بقوله: ﴿هَدَى﴾، أي ما بال القرون الأولى لم يهتدوا لهذا الهدى وكفروا؟ وجواب موسى بأنَّ العلم عند الله ﷻ يأتي على كلِّ سؤال.

﴿**فِي كِتَابٍ**﴾ هو اللوح المحفوظ، أو الدفتـر كناية عن أنَّه محفوظ، كما يحفظ الشيء المعتنى به لئلَّا ينسـى، ويلوح إليه بقوله: ﴿**لَّا يَضِلُّ رَبِّي**﴾ لا يخطَأُ وقيل: لا يضلُّ عمَّا أراد ﴿**وَلَا يَنسَى**﴾ فيجازيكم على أعمالكم كلِّها.

والمكتوب حروف لا علمه تعالى، لكن الحروف تتضمَّن كلاما والكلام يتضمَّن أنَّه عالم ﷻ، والجملتـان دفع لأن يحتاج الله إلى كتابة أو عجز وإنَّما كتب لحكمة تعليم الملائكة ومقابلة الفاعل بما فعل.

والضلال: الخطأ بإثبات ما لا يكون أو نفي ما يكون، وإذا فسِّـر الكناية بالكتابة المذكورة فالجملتان تذييل لتأكيد الجملة السابقة، وهما على العموم لا يخطأ في شيء مَّا ولا ينسى شيئا مَّا.

فدخل فيهما أحوال القرون الماضية والبعـث ووقته، والمطيع والعاصي وجزاؤهما في الدنيا والآخرة، وما كسـبا، وسـعادة السـعيد وشقاوة الشقي، فيقدَّر معمولاهما عامَّيـن، وللعموم حُذِفَ، أو لا يقدَّر لهمـا بل المراد قطع الضلال والنسيان هكذا البتَّة من أصلهما.

[التأكيد على كتابة العلم] وكتابة العلم وما يحتاج إليه أمر مجمع عليه بعد الصدر الأوَّل، قال أبــو هريرة: ما من أحد من أصحــاب النبيء ﷺ أكثر حديثا منِّي إلَّا عبد الله بن عمــر فإنَّه كان يكتب ولا أكتــب، قال عبد الله بن عمر: يا رسول الله، إنَّا نســمع منك الحديث أفنكتبه عنك؟ قال: «**نعم**» قلت: في الرضا والسخط؟ قال: «**نعم، فإنِّي لا أقول فيهما إلَّا حقًّا**»[1] قال معاوية بن قرة[2]: من لم يكتب علما لم يعد علمه علما أي لخوف النسيان والشكِّ، وقد قال تعالى عن موســى: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَىٰ﴾ فسنَّ الله تعالى لنا الكتابة.

قال الحسن بن علي: لا يعجز أحدكم أن يكون له كتاب من هذا العلم، فلو لم يكتب لذهب وإذا كتب رجع إليه إذا نسي أوشكَّ، وعاب أبو يوسف محَمَّدًا في كتبه العلم فقال: خفت ذهاب العلم، ولا تلد النساء مثل أبي يوسف[3].

وأجمعت الأمَّة على كتابته، ففي رواية عنه ﷺ: «**ما رآه المســلمون حسنا فهو عند الله حسن وما رآه المســلمون شينا فهو عند الله شين**»[4] وقال ﷺ: «**لا تجتمع أمَّتي على ضلالة**»[5] وعن نافع عن ابن عمر قال رسول الله ﷺ: «**اكتبوا هذا العلم مــن كلِّ غنيٍّ وفقير، ومــن كلِّ صغير وكبير، ومن تــرك العلم من**

---

(1) رواه **أحمد** في مسند المكثرين من الصحابة، رقم 6981، من حديث ابن عمرو.

(2) معاوية بن قرَّة بن إياس، أبو إياس المزني البصري، محدِّث ثقة حدَّث عن ابن عبَّاس وابن عمر وأبي هريرة وأبي أيُّوب الأنصاري...، وحدَّث عنه ابنه القاضي إياس وقتادة وشــعبة، وثَّقه ابن معين وأبو حاتم والنسائي. توفي سنة 113هـ. الذهبي: تهذيب سير أعلام النبلاء، ج1، ص181.

(3) يشير إلى صاحبي أبي حنيفة وهما أبو يوسف ومحمَّد بن الحسن الشيباني.

(4) رواه **ابن ماجه** في كتاب الفتن، باب السواد الأعظم، رقم 3950. ورواه **أحمد** في مسنده، رقم 3600. و**الحاكم** في كتاب معرفة الصحابة، ج3، رقم 4465(63). من حديث عبد الله بن عمر.

(5) رواه **الترمذي** في كتاب الفتــن (7) باب ما جاء في لزوم الجماعــة، رقم 2167. من حديث عبد الله بن عمر.

صغير لصغره أو من فقير لفقره فليتبوَّأ مقعده من النــار»[1] وإنَّما نهى ﷺ عن الكتابة عن اليهود والنصارى.

واستأذن أبو سعيد الخدري رســول الله ﷺ في كتابة العلم فلم يأذن له، وهذا قبل أن يفتح باب الكتابــة كما فتحه لابن عمر، ونهى ابن عبَّاس الناس عن الكتابة خوفا من الإفســاد وعدم الضبط، فهو قد أجــازه لمن يضبط كما كان هو يكتب.

وأمَّا محو ابن مســعود ما كتبوا عنه فلخوف أن يكون قد أخطأ في شيء، أو لرؤيته فسادا في عبارتهم أو خطهم، أو خوف أن يتَّكلوا على الكتب.

[فقه] وأمَّا الإفتاء فلا يمنعه عاقل ولو وجد من هو أعلم من المفتي إذا كان عالما بما يفتي، ويجــوز للمجتهد أن يفتي بما لغيــره، فيقول هذا قول فلان أو هو فــي كتاب كذا، أو في الأثــر، ولو لم يتأمَّل فيــه إذا لم يظهر له فساده، وفي قوله تعالى: ﴿فَاسْئَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ [سـورة النحل: 43] إيجاب على أهل الذكر أن يفتوا.

وقوله تعالى: ﴿فِي كِتَابٍ﴾ خبر ثان أو حال من المستتر في «عند». وهنا تــمَّ كلام موســى، واســتأنف الله ﷻ قولــه: ﴿**الــذِي جَعَــلَ لَكُــمُ الَارْضَ مِهَادًا...**﴾ إلــخ أي أنا الــذي جعل... إلخ، وهو تقرير لكلام موســى، وكان الكلام بطريــق الغيبــة لأنَّ «الذي» ظاهــر والظاهر من قبيــل الغيبة، فيكون «أَخْرَجْنَا» علــى طريق الالتفات مــن الغيبة إلى التكلُّم. وعلــى أنَّه من كلام موسى إلى ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّــمَآءِ مَآءً﴾ يكون نعتا لربِّ، أو خبرا لمحذوف أي هو الذي، وما أكثر مــا يقولون: منصوب أو مرفوع علــى المدح أو الذمِّ، بلا دليل على الحذف، [قلت:] فلا تقلِّدهم وإلَّا كنت قلادة كقلادة الصبي.

(1) لم نقف على تخريجه.

والمُخرِج به أزواجا من نبات هو الله تعالى. أو من كلام موسى إلى ﴿شَتَّى﴾، والمخرج الله، ولكن أسند إلى موسى الإخراج كما يسند خواصُّ الملِك إلى أنفسهم ما للمَلِك، أو أسنده إلى نفسه وغيره على معنى أخرجنا بالحرث، أو قال موسى: «فأخرج» بلفظ الإفراد والغيبة، ولَمَّا ذكره الله ردَّه لنفسه لأنَّه المراد فكان بالجمع والتكلُّم وليس هذا أولى من الوجهين قبل كما قيل.

و«مِهَادًا» مصدر ثمَّ جعل اسما لما يمهد للصبي وهو على التشبيه، أي كالمهاد، أو باق على المصدريَّة أي ذات مهد كالبسط، أو مبالغة كأنَّها نفس البسط، أو جمع مهد ككعب وكعاب بمعنى أنَّ كلَّ موضع منها كمهد.

﴿**وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً**﴾ معنى ﴿سَلَكَ﴾: أثبت، أو حصَّل بشدِّ الصاد، والسبل: الطرق بين الجبال والأودية، من موضع إلى موضع لمنافعكم، ويجوز أن يكون اللام بمعنى باء التعدية كأنَّه قيل: أسلَكَكم سبلا. ذكر «لَكُمْ» قبلُ للدلالة على أنَّ المقصود بالذات الإنسان، وهنا للدلالة على أنَّ الانتفاع لهم.

﴿**وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ**﴾ من جهتها لا منها لأنَّه من السحاب والسحاب خلقه الله في الجو ﴿مَآءً﴾ مطرا ﴿**فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ**﴾.

[أصول الدين] زعمت الأَشعَرِيَّة في جميع الأسباب أنَّ المعنى: وقع كذا عند كذا، أي وقع الإخراج مِنَّا عند الماء، وأحرق بالنار أَوْقَعَ الإحراق عندها، وبالغوا حتَّى قالوا: إنَّ من قال إنَّ في شيء من الأسباب قُوَّة تأثير أودعها الله تعالى فيه فهو إلى الكفر أقرب منه إلى الإيمان، ووجهه أنَّه قال: إنَّ القُوَّة المودوعة مستغنية عن الله سبحانه، ولا بدَّ أنَّه كفر، وأمَّا أن يقال: أودع الله في السبب تأثيرا لكن لا يؤثِّر إلَّا بإذن الله تعالى والله مؤثِّر به فلا

بأس، وبه قالت الماتريدية[1] والأوائل، فشيء يخلقه الله بلا واسطة وبعض بها وذلك هو المتبادر.

والأَشْعَرِيَّة تقول: إذًا لا بدَّ من تقدير أنَّه يؤثِّر بالله ﷻ، فقل: المؤثِّر هو الله بلا خلق توسُّط، فما التوسُّط إلَّا بمعنى العنديَّة، وعلى كلِّ حال إذا لم يرد أن يؤثِّر لم يؤثِّر بأن لا يخلق فيه تأثيرا كما لم تحرق النار إبراهيم ولم تحرق يد موسى على ما مرَّ.

وقال: ﴿أَخْرَجْنَا﴾ لا أخرجْتُ ولا أُخْرِجُ تفخيما لشأن الإخراج، وله نظائر في ترك الغيبة والإفراد إلى التكلُّم والجمع، في مقام النبات والماء [لأنَّ ذلك معجزة عظيمة انفرد الله بها] كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا اَلْوَانُهَا﴾ [سورة فاطر: 27] وقوله ﷻ: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالَارْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ [سورة النمل: 60] وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [سورة الأنعام: 66].

والأزواج: الأصناف سمِّيت لازدواج بعض ببعض أي اقترانها، و﴿مِن نَّبَاتٍ﴾ نعت «أَزْوَاجًا» و«شَتَّى» نعت ثان، أي متفرقة لونا وطعما ورائحة وشكلا، وبعض للناس وبعض لبهائم وبعض لبهائم أخرى، والمفرد شتيت كمريض ومرضى، وألفه للتأنيث.

﴿**كُلُواْ وَارْعَوْاْ اَنْعَامَكُمْ**﴾ مفعول لقول مستأنف أي قلنا، أو مفعول لحال من الضمير في «أَخْرَجْنَا»، أي قائلين: كلوا، أو معمول لنعت «أَزْوَاجًا» أي مقولا فيها: كُلُوا. ورعى يتعدَّى كما في الآية ويلزم كما تقول رعت الدَّابَّةُ.

---

(1) الماتريديَّة فرقة كلامية تنسب إلى أبي منصور محمَّد بن محمَّد الماتريدي السمرقندي (ت: 333هـ) قامت على استخدام البراهين والدلائل العَقلِيَّة والكلاميَّة في محاجحة خصومها من المعتزلة والجهميَّة وغيرهم. الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة. إشراف: د.مانع بن حماد الجهني، ج 1، ص 99.

[فقه] ولا شيء من النبات يحرم إلا جوزة الطيب وجوزة الشرك وجوزة هند، فقيل: تحرم لأنَّها تسكر وإلَّا الأفيون والشيكران والخشخاش كذلك، وإلَّا النبات الذي يشرب دخانه فإنَّه سواء ما يسكر بمجرَّده، أو يغيِّر العقل وما يفعل ذلك باعتياده إذا انقطع، وأمَّا الثوم والبصل والكراث فحلال لآل النبيء ﷺ على كراهة خوف مضرَّة الناس [برائحته]، وحرام عليه ﷺ لأنَّه يلقى جبريل، ولم يكرههنَّ بعض إلَّا أنَّه يجب علينا أن نحذر مضرَّة الناس. ولا نطعم الدَّابَّة نجسا أو مسكرا وعنه ﷺ: «البطاطيخ أربعة حلو ينبت اللحم، وطيِّب ينبت الشحم، وحامض يقتل الدود، ومرٌّ يقطع الباسور»[1].

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ ءَلَايَاتٍ لِأُوْلِي النُّهَىٰ﴾ أشار إلى أقوال موسى وأفعاله وشؤونه، بإشارة البعد لعلوِّ مرتبته في الكمال، ولتنزيل عدم ذكر المشار إليه باسمه منزلة البعد الحسِّي، والمعنى: آيات كثيرة عظام ولذلك نكِّر، ولوضوح دلالتها على عظم أفعال الله وصفاته.

[لغة] و«النهى» جمع نهية بضمِّ النون وهي العقل، سمِّي لأنَّه ينهى عن الباطل، كما سمِّي حجرا لأنَّه يحجر عنه أي يمنع، وعقلا لأنَّه يكفُّ عنه، قيل: وقد يجيء مفردا، قيل: ويجوز أن يكون مصدرا.

﴿مِنْهَا﴾ من الأرض لا من غيرها ﴿خَلَقْنَاكُمْ﴾ بخلق أبيكم منها، أو خلقناكم من النطفة المتولِّدة من الأغذية المتولِّدة من الأرض، وقيل: من التراب الذي يدفن فيه كلُّ أحد يؤخذ منه فيُذَرُّ على نطفته[2] فهو مخلوق من التراب.

---

(1) لم نقف على تخريجه، ويبدو عليه آثار الوضع.

(2) الله أعلم بصحة هذا الكلام!. وكذا ما في الفقرة التالية، إلَّا ما ثبت منه بالوحي أو الحسِّ والعلم اليقيني. (المراجع)

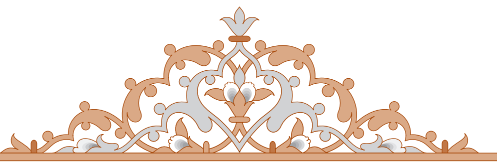
وقيل: النطفة جزء من التراب الذي أخذ من موضع دفنه، وجزء من نطفة أبيه وجزء من نطفة أمِّــه، وقيل: تراب نبيئنا محمَّد ﷺ مــن الكعبة ونقل في الطوفان إلى محلِّ قبره الشريف.

﴿**وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ**﴾ بالإماتة وتفريق الأجــزاء غالبا، إذ من الناس من تأكله السـباع ومن يلقى في البحر، وأجســاد الأنبياء ومن يلتحق بهــم لا تفترق. واختار «في» علــى «إلى» للدلالة على طــول المكث فــي الأرض، ﴿**وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً**﴾ مرَّة ﴿**اخْرَىٰ**﴾ بردِّ أرواحكم وما فني من أجســادكم بنفسه، المعنى: إنَّ لكم مرَّتين من فعلين، مرَّة إدخال ومرَّة إخراج، أو اعتبر أنَّ خلقهم من الأرض إخراج منها فهو إخراج أوَّل، والثاني بعثهم.

[قلت:] وما أصعب تقلُّب الأزمان بالإنسان:

سـقى الله أَيَّامــا لنــا ولياليــا ... فجــرت مــن ذكرهــنَّ دموع
فيا هل لها يوما من الدهر أوبة؟ ... وهل لي إلى أرض الحبيب رجوع؟[1]

(1) لم نقف على قائل هذين البيتين، وقد أوردهما **الآلوســي** في روح المعاني ولم ينســبهما. ج13، ص80. وج16، ص208.



﴿وَلَقَدۡ أَرَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿56﴾ قَالَ أَجِئۡتَنَا لِتُخۡرِجَنَا مِنۡ أَرۡضِنَا بِسِحۡرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿57﴾ فَلَنَأۡتِيَنَّكَ بِسِحۡرٖ مِّثۡلِهِۦ فَٱجۡعَلۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكَ مَوۡعِدٗا لَّا نُخۡلِفُهُۥ نَحۡنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانٗا سُوٗى ﴿58﴾ قَالَ مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحٗى ﴿59﴾﴾

ـ 7 ـ
اتهام موسى بالسحر ومباراته

﴿**وَلَقَدۡ أَرَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا**﴾ صيَّرناه رائيهنَّ ببصره، أو صيَّرناه عارفهنَّ بقلبه، اليد والعصا، أطلق الجمع على الاثنين وهو جائز مجاز مشهور، وقيل: حقيقة، بل إنَّهما تضمَّنتا آيات، كما سمِّي مقام إبراهيم آيات.

[قصص] عصاه رجعت ثعبانا أشعر فارغا فاه بين لحييه ثمانون ذراعا وضع فكَّه الأسفل على سور القصر والآخر في الهواء، أو الأسفل في الأرض والآخر على السور فتوجَّه نحو فرعون فهرب، وانهزم الناس مزدحمين فمات منهم خمسة عشر ألفا فأنشده فرعون بالذي أرسلك أن تأخذه فأخذه [كذا قيل]، وروي أنَّها انقلبت حية وارتفعت إلى جهة السماء نحو ميل، فانحطَّت نحو فرعون، قائلة: يا موسى مرني بما شئت، وأنشده فرعون بما ذكر، ونزع يده بيضاء يغلب شعاعها شعاع الشمس فاجتمعوا ينظرون إليها.

﴿**كُلَّهَا**﴾ أي آياتنا المعهودة التي ذكرناها كلَّها لا كلَّ آية. وعدَّ بعضٌ منها حلَّ العقدة [عن لسانه]، وليس المراد الآيات التسع لأنَّها لم تجتمع كلُّها على عهد فرعون، بل جلُّها بعد هلاكه، وقيل: المراد **أنواع الآيات كلِّها** وهنَّ إيجاد معدوم وإعدام موجود، وتغيير مع بقاء، وقيل: آيات الأنبياء حكاها له موسى.

[قلت:] وإذا صرنا إلى هذا لم يبعد أن يحكى له ما يكون له عليه السلام بعد من فرق البحر ونتق الجبل وغير ذلك، أو قد رأى صدقه فهو كأنَّه يراهنَّ، ولعلَّ المراد أريناه ما أريناه من الآيات، كلُّ آية فيما رآه الكفاية وزوال الشبهة بالكلِّية.

﴿**فَكَذَّبَ**﴾ هنَّ أو كذَّب بموسى دون تردُّد أو تأخير ﴿**وَأَبَى**﴾ امتنع من قبولهنَّ، أو من الحقِّ، أو من الإيمان والطاعة جحودا بلسانه عارفا في قلبه أنَّهنَّ حقٌّ ﴿**قَالَ**﴾ منكرا مستقبحا لحال موسى عليه السلام ﴿**أَجِئْتَنَا**﴾ أتيتنا من حيث كنت، أو توجَّهت إلينا بالكلام، فالمجيء مجيء الأقدام، أو الإقبال بالقلب والخطاب ﴿**لِتُخْرِجَنَا مِنَ اَرْضِنَا**﴾ مصر ﴿**بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ**﴾ لا قدرة لك، على إخراجنا فإنَّه محال، وذلك استفهام إنكار بناه على كذب ليغري قومه على بغضه ومعاداته، لعزَّة أخذ أموالهم وخروجهم من أرضهم عندهم، وهو لم يجئ لإخراجهم منها ولأخذ أموالهم، والمال شقيق الروح والإخراج أخ القتل كما قرنهما الله عز وجل في قوله: ﴿وَلَوَ انَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِم...﴾ [سورة النساء: 66] بل [جاء] ليأمرهم بالتوحيد وليخلي عن بني إسرائيل.

﴿**فَلَنَاتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ**﴾ أي فوالله لنأتينَّك، أقسم بالله لأنَّه عارف بوجوده لكن لم يذكره ولا يذكره لأنَّه يدَّعي الرُّبُوبِيَّة لنفسه، وقيل: كان دهريًّا نافيا للصانع، وقيل: عابدا للنجوم، وقيل: للأصنام فيحلف بنفسه أو النجم أو الصنم.

﴿**فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا**﴾ زمان وعد لقوله: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ فإنَّه كما يقال: لا تخلف الوعد يقال: لا تخلف زمان الوعد أو مكانه، أي لا تتعدَّ ذلك المكان أو ذلك الزمان، ذكر يوم الزينة والضحى، وذكر مكانا سوى، فاحتمل المكان، نعم يجوز كونه بمعنى الوعد ولا يتعيَّن كما زعم بعض، وقوله: ﴿مَوْعِدُكُمْ...﴾ مشتمل على الوعد وزمانه.

[بلاغة] ﴿**لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ**﴾ نعت لـ«مَوْعِدًا» فوَّض تعيين الموعد إلى موسى عليه السلام إظهارا لقوَّته، وتهييء الآلات وأسباب المعارضة،

وأنَّ طول الموعد وقصره سواء عنده، وكذلك أظهر قوته بتقديم «نحن» على «أنت» وإعادة «لا» وأظهر القُوَّة أيضا بقوله: ﴿**مَكَانًا سِوًى**﴾ موضعا منصفا بيننا، سواء قربه مِنَّا ومنك، أو محلَّ نصف أي عدل، أو مكانا مستويا ليس فيه ساتر من جبل وأكمة أو شجر أو غير ذلك، حتَّى يظهر سحرك وسحري لكلِّ من يريد، أو مكانا يستوي فيه الرئيس والمرؤوس، فلا يضمر فيه حقٌّ.

وذلك وثوق منه بالغلبة إذ لو عجز لذكر ما يأبى عنه موسى، أو يجد فيه شبهة، و«سِوًى» نعت «مَكَانًا»، ومكانا مفعول لمحذوف أي: عِدْ مكانا سوى، أو بدل من «موعدا» على أنَّه اسم مكان، ولا يتعلَّق بـ«مَوْعِدًا» ولو جعلناه مصدرا لأنَّه لم يوقعا الوعد في المكان السَّوي، لأنَّهما في غيره حين طلب الوعد، بل لَمَّا يوقعاه، ويجوز كونه مفعولا أوَّلا و«مَوْعِدًا» ثانيا، وقوله: ﴿مَكَانًا سِوًى﴾ مما يرجِّج كون «مَوْعِدًا» اسم مكان بل يعيِّنه، ولو أجابه موسى بالزمان لأنَّ ذاكر الموعد هو فرعون، فيحمل لفظه على ما ذكره هو من المكان السوي.

﴿**قَالَ**﴾ موسى، وأبعد من قال: الضمير لفرعون وأغرب، وهو خلاف الظاهر ولا دليل له ولا التفات إليه، ولو كان له لقال: «فتولَّى فجمع كيده» ﴿**مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ**﴾ يوم عيد لهم في كلِّ عام، يتزيَّنون فيه ويزيِّنون أسواقهم، وقيل: أوَّل سنتهم.

وقيل: يوم عاشوراء كما قيل عنه ﷺ: «**من صام يوم الزينة أدرك ما فاته من صيام تلك السنة، ومن تصدَّق فيه بصدقة أدرك ما فاته من صدقة تلك السنة**»[1] ويوجه ذلك بأنَّه يوم عيد صادف يوم عاشوراء، وكان يوم سبت كما قال أبو حيان واختاره، وقيل: يوم كسر الخليج[2].

(1) أورده **السيوطي** في الدر: ج 4، ص 332. وقال: أخرجه ابن عبد المنذر عن عبد الله بن عمرو.

(2) كذا في النسخ ولعلَّه يعني يوم فيضان النيل.

وإذا فسَّــرنا ﴿مَوْعِدًا﴾ في قوله: ﴿فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا﴾ بالمصدر فإنَّما لم يذكره موســى اكتفاء بذكر الزمان بقوله: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ﴾ فإنَّ فيه ذكر الوعد، أو يقدَّر: موعدكم وعد يوم الزينة على أنَّ الموعد هنا مصدر، وفي ذكر موسى يوم الزينة إظهار وثوقه بالغلبة، لأنَّه يوم مشهود، وفيه إثبات المكان السوي لأنَّ المعتاد في الأعياد الخروج إلى بسيط من الأرض.

﴿**وَأَنْ يُّحْشَرَ**﴾ يجمع ﴿**النَّاسُ ضُحًّى**﴾ عطف على الزينة، وأجاز بعضهم عطفه على «يَوْمُ». و«ضُحًّى» ظرف لـ«يُحْشَرَ»، أو بدل من «يَوْمُ» بدل بعض، أي ضحى منه.

﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿60﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿61﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿62﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿63﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿64﴾﴾

ـ 8 ـ

جمع فرعون السحرة وتحذير موسى إياهم

﴿**فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ**﴾ ذهب عن مجلسـه، ويضعف تفسـيره بأنَّه تولَّى الأمر بنفسـه لأنَّه على حاله المعهودة، وتقليده السحرة، وتفسيره بالتولِّي عن الحقِّ لأنَّ تولِّيه عنه قد سبق مشبعا، وليس هذا محلَّ ذكره، إذ لا يشكُّ أحد أنَّه بعد طلبه الموعد أنَّه لم يتولَّ عن الحقِّ.

﴿**فَجَمَعَ كَيْدَهُ**﴾ أي لم يبق شـيئا من نفـس الكيد، لم يتدبَّره بواسـطة سـحرته، أو يقدَّر: فجمع ذوي كيده ﴿**ثُمَّ أَتَىٰ**﴾ ما عهد من المكان البارز في الزمان المعهود، مع ما جمع، وفي «ثُمَّ» إشارة إلى بطئه للمبالغة في الجمع.

وكأنَّه قيل: فما شـأن موسـى في ذلك؟ فقال: ﴿**قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ**﴾ بعد مجيئه بطريق النصـح ﴿**وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُواْ عَلَى اللهِ كَذِبًـا**﴾ بأن تدَّعوا أنَّ ما تأتون به من السـحر حقٌّ، وأنَّ آياتي التي مضت والتـي إنِّي الآن بصددها كذب كما زعم. ولا يتمُّ لعاقل ينظر بعقله أن يطلـب هذا الاجتماع بعد ما

رأوا من شــأن العصا، **لكن الرغبة في الرفعة والدفع عن النفس، يري الحقَّ باطلا، وينسي النظر في العواقب.**

﴿**فَيَسْحَتَكُم**﴾ يســتأصلكم ﴿**بِعَذَابٍ**﴾ عظيم لا يعلم قدره إلَّا الله ﴿**وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ**﴾ على الله كائنا من كان، فيدخــل فرعون أوَّلا، أو قد خاب فرعون المفتري فلا تكونوا مثله.

﴿**فَتَنَازَعُــوٓاْ أَمْرَهُــم بَيْنَهُمْ**﴾ هو ما أراده منهم موســى بــأن يغلبهم، تشــاوروا في ذلك الأمر، كأنَّه ينزع كلُّ واحد عن الآخر ما يقول في شأنه من الرأي، ويريد رأيه، أو ينــزع كلُّ واحد من الآخر الكلام فيه قبل تمامه، أو يعجِّل بعد تمامه ويتكلَّم هو ما يريد، وإذا تمَّ كلامك فتكلم غيرك، وقد احتمل أن تزيد فقد نازعك.

﴿**وَأَسَــرُّواْ النَّجْوَىٰ**﴾ زادوا في الكلام الذي لم يجهر به خفاء، وذكر ما تناجوا به في قوله: ﴿**قَالُواْ**﴾ أي الســحرة المعلومون من المقام، أو لفرعون وقومه مطلقا ﴿**إِنَّ هَذَانِ لَسَــاحِرَانِ**﴾ فالإســرار عن موســى لمروءتهم، أو تناجوا حين ســمعوا كلامه بأنَّه ليس كلام ســاحر، أو بأن قالــوا: إن غلبنا اتَّبعناه، أو قالوا: إن كان ساحرا غلبناه، وإن كان أمر من السماء فله أمره.

وهذا أمر لموســى ونســبه الله ﷻ إليهم لأنَّهم ذكروه فيمــا بينهم، فالإســرار عن فرعون لِئَلَّا يعاقبهم، فاختلفوا فيمــا بينهم، قال بعض: إنَّ ذلك حقٌّ من الله، وقال بعض: هو سحر، ثمَّ اتَّفَقُوا أنَّهما ساحران، ويجوز أن يكون واو «قَالُوا» لفرعون وملئه، خاطبوا به السحرة، لا تخافوهما أَيُّهَا السحرة ولا تختلفوا، فما هما إلَّا ساحران، وأنتم أعلم بالسحر، وفيه بعد لأنَّ واو «تَنَازَعُوا» وما بعده ليســت لفرعون وملئــه، وإن جعلت لهم لم يكن فيه بعد.

وهذان بالألف مع أنَّه اسم إنَّ واللام للتأكيد في خبرها وذلك على لغة كنانة وبني الحارث وخثعم وزبيد، وأهل تلك الناحية، وبني العنبر وبني الهيجم ومراد وعذرة يلزمون المثنَّى الألف كقوله:

واهًا لريا ثمَّ واهًا واهًا يا ليت عيناها لنا وفاها
وموضع الخلخال من رجلاها بثمن نرضي به أباها
هي المنا لو أَنَّنَا نلناها[1]

وقوله:

وأطرق إطراق الشجاع ولو رأى مساغا لناباه الشجاع لصمَّما[2]

وقالوا: ضربته بين أذناه، ومن يشتري الخفان.

[نحو] أو جاء بالألف للتنبيه على الأصل من أنَّ هذين في الجرِّ والنصب ليست ياؤه إعرابا بل هو مبني، وألفه بقيت لم تقلب ياء وهي ألف المفرد وهي مناسبة لألف «سَاحِرَانِ». وذكر البخاري ومسلم عن عائشة وعروة بن الزبير أنَّ هذا و﴿الْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ﴾ [سورة النساء: 162] و﴿الصَّابُونَ﴾ [سورة المائدة: 69] لحن من الكتَّاب وخطأ، ومعناه أنَّه عدول عن القراءة المشهورة في اللغة، وفي الأخذ عنه ﷺ، [قلت:] ولا يصحُّ عن عثمان ما قيل عنه: إنَّ ذلك لحن ستقيمه العرب.

ولم يتقدَّم ما تجعل له «إِنَّ» جوابا بمعنى نعم، فيكون «هذان» مبتدأ، واللام زائدة في خبر «هذان»، أو داخلة على مبتدأ، أي لهما ساحران لعدم صحَّة إنَّ بمعنى نعم، أو ندوره كقول ابن الزبير: «إن وراكبها»، والأصل عدم الحذف والزيادة.

(1) الرجز للمفضل الضبي، وقيل: لرؤبة وعزاه الجوهري لأبي النجم. **شواهد المغني**.
(2) البيت للمتلمس. ينظر: **الجاحظ**: الحيوان، دار الجيل، ج3، ص136.

﴿يُرِيدَانِ أَنْ يُّخْرِجَاكُم مِّنَ اَرْضِكُم﴾ من مصر ﴿بِسِحْرِهِمَا﴾ نسبوا ما لموسى إليه وإلى هارون لأنَّهم رأوه يجري معه ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ﴾ الباء للتعدية كالهمزة، أي يُذهبان طريقَتَكم بضمِّ الياء، والطريقة المذهب، و«الْمُثْلَى»: العظمى العليا، وهي ما عليه فرعون وقومه من شرك، وما استحسنوه من القبائح، وليس المراد السحر لأنَّهم لم يتَّخذوا السحر دينا، أو يقدَّر مضاف هكذا: أهل طريقتكم المثلى، وهم بنو إسرائيل، لقوله: ﴿أَنَ اَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾.

وبنو إسرائيل أرباب طريقة عظيمة في صنعة الأشياء، وذلك من كلام فرعون وقومه قالوه إغراء على عداوة موسى، فلا يعتبر إمكانه أو عدمه، فلا يقال: كيف يقولون وإخراج بني إسرائيل لا يتمكَّن لموسى مع بقاء فرعون على قوته؟ أو الطريقة: أصحاب المناصب والتصرُّف من قوم فرعون، أو من بني إسرائيل، فإنَّهم أشرف نسبا وأكثر نشبا، وفيه أنَّ فرعون وقومه لا يسمُّونهم باسم المناصب والتصرُّف، ولو كانوا في قلوبهم كذلك، بل استعبدوهم ويقتلون أولادهم، وقد يجاب بأنَّهم نطقوا بذلك شذوذا فالإضافة لأنَّهم في أيديهم.

﴿فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ﴾ إذا كان الأمر كذلك من إرادتهما الاستعلاء عليكم بدينهما، والذهاب بطريقتكم فلا تتركوا شيئا مما تكيدونهما به، والأكثر في «أجمع» أن يكون في المعاني وقد يستعمل في الأجسام، و«جمع» في الأجسام وقد يستعمل في المعاني.

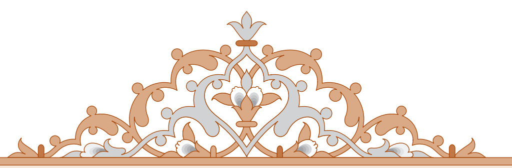
﴿ثُمَّ ايتُواْ صَفًّا﴾ صيروا صفًّا من باب صار، كما يقال: ما جاءت حاجتك أي كيف صارت، والمراد صفٌّ واحد من السحرة.

[قصص] وهم سبعون رجلا ساحرا، اثنان من القبط والباقون من بني إسرائيل، وقيل: اثنان وسبعون، مع كلِّ واحد حبل وعصا، قيل: قهر بني

إســرائيل على تعلُّــم الســحر. أو أريد كلُّهم فهــم صفوف فيكــون المعنى: مصطفِّين، وقيل: السحرة تســع مائة ثلاثمائة من الفرس، ثلاثمائة من القبط، وثلاثمائة من الإســكندرية، وقيل: اثني عشــر ألفا، وقيل: خمسة عشر ألفا، وقيل: ثلاثة وثلاثون ألفا.

وإذا جعلنا الإتيان على ظاهره كان «صفًّــا» حالا مقدَّرة، ويجوز أن يكون صفًّا اســم موضع من ذلك المكان الســوي، أو هو ذلك المكان كلُّه فيكون مفعولا به، والمكان واســع خاطبهم موســى في موضع منــه، وتنازعوا في موضع منه، ثمَّ أمروا أن يأتوا وســطه، ويجوز إبقاء الإتيــان على ظاهره وأن يكون «صفًّا» حالا مقدَّرة بمعنى ذوي صفٍّ، بمعنى اصطفاف فيحتمل صفوفا أو مصطفِّين كذلك.

﴿وَقَـدَ اَفْلَحَ الْيَـوْمَ مَنِ اسْـتَعْلَىٰ﴾ من بالــغ واجتهد في أســباب العلوِّ باســتعمال كلِّ ما قدر عليه من المكائد، فيحصل له العلوُّ بالغلبة وما وعد له فرعون من الأجر والتقريب، أو أريد قوم فرعون جميعا كقولهم: ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ [سورة الشعراء: 44] أو ذلك من كلام الله ﷻ ومن استعلى هو موسى وهارون، وهذا لا يتمُّ إلَّا بتقدير القول أي: قال الله: وقد أفلح اليوم من اســتعلى، على أنَّ «ال» في «الْيَوْم» للعهد الحضــوري، أو بجعل «اليوم» يوم الزينة و«ال» للعهــد الذكري، ذكر الله لنا ﷻ أنَّ الاســتعلاء فــي ذلك اليوم لموســى وهارون، وعلى الأوجه كلِّها يجوز كون «اسْــتَعْلَى» بمعنى علا، أو بمعنى علا علوًّا عظيما وهو أولى.



﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ ۝٦٥ قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ ۝٦٦ فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ ۝٦٧ قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٦٨ وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ ۝٦٩ فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ۝٧٠ قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ ۝٧١ قَالُواْ لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ ۝٧٢ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ۝٧٣ إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ۝٧٤ وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ ۝٧٥ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ۝٧٦﴾

ـ 9 ـ

المبارزة بين موسى والسحرة وإعلان إيمانهم بالله تعالى

﴿**قَالُواْ**﴾ كأنَّه قيل فماذا كان بعد ذلك؟ فأجاب بقوله: ﴿قَالُواْ﴾ وقس على هذا كل ما يقبله من القرآن فلا أحتاج إلى التكرار لك ﴿**يَا مُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ**﴾ خبر لمحذوف، أي الواجب، أو الأمر، أو اللائق إمَّا إلقاؤك أوَّلا، أو مفعول لمحذوف، أي: اختر إمَّا أن تلقي أوَّلا. وإنَّما قدرت «أوَّلا» لأنَّه في

مقابله بعد، والأنسب للمعنى أن يكون مبتدأ أي إلقاؤك إمَّا أوَّل كما قال: ﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنَ اَلْقَىٰ﴾ من الفريقين أحدهما موسى وهارون والآخر نحن، خيَّروه ثقة بنجاح عملهم وغلبتهم لهما، أو مراعاة للأدب.

والمراد بالإلقاء العمل في السحر مطلقا إذ لا يدرون أنَّ عمل موسى إلقاء ولا غيره ولو شاهدوا إلقاء عصاه وانهزام فرعون والقوم بها، على أنَّهم ظنُّوا أنَّه يجدِّد عملا آخر غير مهلك، كما أنَّ عملهم كذلك. ولا مفعول للإلقاء على أنَّ المعنى تستعمل الإلقاء، وإمَّا أن نكون أوَّل من استعمله، أو يقدَّر: تلقي ما تلقي وإمَّا أن نكون أوَّل من ألقى ما ألقى. و«ألقى» ماض بمعنى المضارع، استعمله للفاصلة، أو اعتبروا وقوع الإلقاء ومضيّه بعد حتَّى إذا أخبر عنه مخبر قال لهم: أوَّل من ألقى.

﴿قَالَ بَلَ اَلْقُواْ﴾ أنتم أوَّلا ما تلقون، لأنِّي لا أعبأ بعملكم وأنا الغالب بإذن الله ﷻ، وأيضا ساعفهم فيما ظنَّ فيهم أنَّهم يحبُّون البدء ولو غيَّروا ذلك في عبارتهم، وأيضا قابل أدبهم بأدب، وأمره لهم بالإلقاء ليس إعانة على معصية السحر، ولا إباحة له، بل طاعة لله ﷻ لأنَّه ﷻ رضي أن يقول لهم ذلك ليفعلوا فيظهر عجزهم. وقد روي أَنَّهُم لَمَّا قالوا: «إِمَّا أن تلقي...» إلخ قال الملائكة، أو ملك، أو جبريل: ألقوا يا أولياء الله.

فلا حاجة إلى ما قيل من أنَّه قال: «ألقوا» تهديدا كما يقال للعاصي: افعل ما شئت، ولا إلى ما قيل: المراد ألقوا إن كنتم محقِّين، إذ لا يخفى عنه أنَّهم غير محقِّين، ولا إلقاء يكون منهم حقًّا مع أنَّه معارضة للتوحيد.

﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمُۥٓ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ أي: فألقوا فإذا حبالهم... إلخ كقوله ﷻ: ﴿فَانفَلَقَ﴾ [سورة الشعراء: 63] أي فضرب فانفلق، أشعر هذا أن ملقاهم حبال وعصيٌّ، ولم يذكر ذلك في السورة إلَّا هنا.

[قصص] قيل: كانوا سبعين ألفا، كلٌّ واحد معه عصا وحبل، أقبلوا على موسى إقبالة واحدة صفًّا، والصفُّ أشدُّ إرهابا من غيره، كما أمروا أن يكونوا صفًّا، وفي نفسي من إكثار العدد في القصص بعض إنكار(1).

ذكر الإخباريُّون أنَّهم جعلوا في العصيِّ والحبال زئبقا فاهتزَّت لحرارة الشمس واضطربت كأنَّها تمشي، ومن غرائب أهل القصص [قالوا:] إنَّهم حفروا تحت الأرض وجعلوا النار تحتها، فلم لا تحرق الحبال؟! وإن قويت النار فلم لا تحرق العصي الضعاف؟! وإن كانت الحبال والعصيُّ قليلا أمكن ذلك بإعماق النار بحيث توجد حرارتها في الزئبق ولا تحرق، وكيف ذلك وقد قيل: أخذت ميلا في ميل إن صحَّ؟!.

و«مِن» للابتداء أو للتعليل و﴿أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ نائب الفاعل، وقوله: ﴿يُخَيَّلُ...﴾ خبر «حِبَالُ» و«عِصِيُّ»، والرابط في ﴿أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾.

﴿فَأَوْجَسَ﴾ أخفى ﴿فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾ نوعا من الخوف عظيما أو حقيرا، على طبيعة البشر عند رؤية الأمر المهول. وياؤه عن واو كما رأيت، قلبت ياء لَمَّا كسر ما قبلها للدلالة على الهيئة. وقيل: إن كان خوفه للهول فالتنكير للتحقير، وإن كان من ترقُّب عدم اتِّباع الناس له لما رأوا من هول سحرهم فللتعظيم، ويناسبه قوله تعالى: ﴿وَجَآءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [سورة الأعراف: 116]. وأظهر موسى وأخَّره للفاصلة.

وما قيل: من أنَّه سمع لَمَّا قالوا: ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِيَ...﴾ «ألقوا يا أولياء الله لأنَّ أولياء الله غالبون» [قلت:] ولا يصحُّ هذا مع ما علمه من الله من أنَّه على الحقِّ وأنَّهم على الباطل، اللهمَّ باعتبار الطبع البشري ـ ولو كان لا يصحُّ ـ فإنَّ موسى موقن أنَّهم على الباطل ما داموا كذلك ولا يدري أهم أولياء عند الله.

---

(1) الأمر كذلك، بل كلُّ إنكار، واضرب بأخبار هؤلاء عرض الحائط فكيف يقبل العقل وجود سبعين ألف ساحر ثمَّ حشرهم في مكان واحد مع إمكانيات أولئك الأقدمين.

﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ﴾ لا تستمر على الخوف الذي أوجست فتشجَّع وتقوَّ ﴿إِنَّكَ أَنتَ الاعْلَىٰ﴾ تعليل جملي مؤكَّد بالجملة الِاسمِيَّة، و«إِنَّ» و«أنت» والحصر بتعريف الطرفين وخروجهم عن العلوِّ لأنَّ الأعلى خارج عن التفضيل، فالمعنى: أنت العليُّ دونهم، وهم في السفل، وهذا أولى من إبقائه على التفضيل اعتبارا لظاهر علوِّ سحرهم بأن يكون المعنى: لهم علوٌّ ظاهر للناظرين وأنت أعلى منهم.

﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾ أي العصا كما قال في آية أخرى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ [سورة الأعراف: 117] وعبَّر هنا بـ﴿مَا فِي يَمِينِكَ﴾ تهويلا لأمرها كقوله ﷻ: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ إذ كان لها أفعال ليست لسائر العصيِّ، والحاصل نفس العصا، واللفظ يختلف مراعاة لمعان موجودة فيها. وقد أوحى إلى موسى بلغته لا بِالعَرَبِيَّةِ، فلا يقال: عبَّر باليمين تلويحا لليمن والبركة. ويناسب التهويل جعل «ما» نكرة موصوفة، ويناسب التذكير بأفعالها المعتادة من قبل جعلها اسما موصولا.

﴿تَلَقَّفْ﴾ تأخذ أخذ حذق بفمها. وأنَّث ضمير «ما» لأنَّها العصا ﴿مَا﴾ أي الذي ﴿صَنَعُواْ﴾ من الحبال والعصيِّ وتبتلعه، ولفظ «مَا صَنَعُوا» تحقير، وزعم بعض أنَّه لو كان خوفه الموجس خوفا من عدم إيمان الناس بالعصا لتغلُّب سحرهم على قلوبهم، لقال: وألق ما في يمينك يظهر بطلان أمرهم وحقِّية أمرك، وفيه أنَّ هذا موجود مع الزيادة في ﴿تَلَقَّفْ مَا صَنَعُواْ﴾ بلا تلويح إلى تعليل.

﴿إِنَّمَا صَنَعُواْ﴾ صنعهم، أو الذي صنعوه، وهما أولى من أن يقال شيئا صنعوه ﴿كَيْدُ سَاحِرٍ﴾ ترجيح للمصدريَّة في ما هو الوجه الأوَّل، لأنَّ الكيد مصدر فإبقاؤه على أصله أولى من إطلاقه على الحبال والعصيِّ الذي في الثاني والثالث، والمراد: كيد ككيد ساحر، من جملة السحرة مطلقا، وهو سحر حقير في نفسه باطل بالعصا، ووصفه بالعظم في آية أخرى إنَّما هو بحسب ظاهره.

﴿**وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ**﴾ جنس الساحر ﴿**حَيْثُ أَتَىٰ**﴾ حيث كان وأين أقبل، بل يفتضح ويخيب. وعن جندب بن عبد الله البجلي عن رسول الله ﷺ: «**إذا أخذتم الساحر فاقتلوه**»[1]، ثمَّ قرأ: ﴿وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ قال: لا يُؤمن حيث وجد.

والسحر: علم يستفاد منه حصول ملكة نفسانية، يقتدر بها على أفعال غريبة بأسباب خفيَّة، والسحر منه حقيقيٌّ وغير حقيقيٍّ، ويقال له: الأخذ بالعيون، وسحرة فرعون أتوا بمجموع الأمرين، ومرَّ أنَّهم لطَّخوا الحبال والعصي بالزئبق وذلك من باب السِّيماء، وهي علم يقتدر به على إراءة الصور الذهنية، لكن يشترط أن يكون لها مَادَّة في الخارج بواسطة أسماء وغيرها.

وحاصل علم السيماء إحداث مثالات خيالية لا وجود لها في الحسِّ ويطلق على إيجاد تلك المثالات بصورها في الحسِّ وتكون صورا في جوهر الهواء، وهي سريعة الزوال بسبب سرعة تغيُّر جوهره، ولفظ «سيماء» معرب «شيم به»، ومعناه: اسم الله تعالى، وما ذكر من سرعة الزوال غالب لا كلِّيٌّ.

﴿**فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا**﴾ كأنَّهم طرحوا من شدَّة السرعة على وجوههم تائبين مؤمنين بالله وموسى وهارون، ولم يرفعوا رؤوسهم من السجود حتَّى رأوا منازلهم في الجنَّة، ورأوا الثواب والعقاب والنار.

[قلت:] وليس هذا إلجاء إلى الإيمان لأنَّهم آمنوا باختيارهم وسجدوا قبل أن يروا ذلك، مع أنَّا لا نسلِّم أنَّ إراءة ذلك [إن صحَّت] إلجاء. قال بعض العلماء: وقبل السجود قالوا: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا...﴾ فمنازلهم لهذا القول، وإن قالوا بعد إراءة المنازل فقولهم شكر كما يستغفر النبيء ﷺ مع علمه بالغفران له، أو قالوه لعلمهم بأنَّ شرط المنازل البقاء على الخضوع لله،

(1) أورده **السيوطي** في الدر: ج4، ص333. وقال: أخرجه ابن أبي حاتم وابن مردويه عن جندب بن عبد الله البجلي. مع زيادة: «ولا يأمن حيث وجد» في آخره.

وعدم الخروج عن شرعه، قال رئيسهم: كُنَّا نغلب الناس والآلات تبقى لنا فأين هي الآن؟ وعصا موسى لم يزد فيها شيء، فما هذا إلَّا من الإله الذي يدعونا إليه موسى.

﴿**قَالُواْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ**﴾ أخَّر موسى مع أنَّه أشرف من هارون ـ والرسالة والدعوة والمعجزة له أوَّلا وبالذات ـ للفاصلة، وقدِّم في غير هذه الآية لذلك الشرف والفاصلة، أو هذا نصُّ كلامهم لكن بالعجميَّة، وفيه تقديم هارون لسنِّه، وسها من قال: إنَّ موسى أسنُّ منه ولأنَّ فرعون ربَّى موسى فيقولون: إنَّه ربُّه، فلو قدَّموا موسى لتوهَّم فرعون أنَّه المراد بالربِّ، وإنَّ هارون ملحق به، وذكره في الآية الأخرى على غير نصِّهم، أو بعض قال: ربِّ موسى وهارون وبعض قال: ربِّ هارون وموسى ونسب القولين لهم جميعا حكما على المجموع.

﴿**قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُ**﴾ أأذعنتم لموسى باتِّباعه؟ أو صدَّقتم به أي برسالته، أو اللام للتعليل أي آمنتم بالله لأجل موسى فحذف «بالله»، أو الهاء لربِّ موسى وهارون، وفيه تفكيك الضمائر لأنَّ الضمير في «إِنَّهُ لَكَبِيرُكُم» لموسى، لا للربِّ، وما تقدَّم أولى، لأنَّ الإيمان يكون بالباء مع الله وباللام مع غيره، كقوله ﷻ: ﴿يُومِنُ بِاللهِ وَيُومِنُ لِلْمُومِنِينَ﴾ [سورة التوبة: 61]، ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰ﴾ [سورة يونس: 83] ﴿لَن نُّومِنَ لَكَ﴾ [سورة البقرة: 55] ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُومِنٍ لَّنَا﴾ [سورة يوسف: 17] ﴿فَـَٔامَنَ لَهُ لُوطٌ﴾ [سورة العنكبوت: 26].

﴿**قَبْلَ أَنَ ـ اذَنَ لَكُمُ**﴾ أي من غير إذني، لأنَّه لم يقل لهم من قبل: لا تؤمنوا حتَّى آذن لكم، ولا عرفوا ولا اعتقدوا أنَّه يأذن لهم في الإيمان كائنا ما كان، فذلك كقوله تعالى: ﴿قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾ [سورة الكهف: 109] مع أنَّه لا نفاد لها البتَّة، ولا مانع أن يكون لَمَّا رأى معجزة موسى الغالبة لسحرهم فقال: لو تربَّصتم بالإيمان حتَّى آذن لكم فيه، وذكر بعض أنَّ الأمر يدلُّ على إرادة الآمر الفعل المأمور به وليس في الإذن ذلك.

﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ﴾ في السحر ﴿الذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ فأنتم وهو على غير هدى، والهدى ما أنا عليه، وقد ضللتم عنه وَاتَّفَقتم أنتم وموسى في ذلك عليَّ فليس إيمانكم لحجَّة قامت عليكم، أو خذلكم في التعليم ولم ينصح لكم فغلبكم ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ﴾ شدَّد مبالغة ﴿أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ﴾ الجانب المخالف، أو الجهة المخالفة.

[نحو] وهو مصدر، كأنَّه قيل: من جانب ذي خلاف للآخر، أو من جهة ذات مخالفة للأخرى، أو مصدر بمعنى الوصف. و«من» للابتداء. وإن أبقيناه على المصدريَّة بلا تقدير مضاف ولا تأويل للوصف فـ«من» بمعنى «عن» أو «على»، ولا إشكال كما زعم بعض، وهي متعلِّقة بـ«أُقَطِّعَنَّ» ولا حاجة إلى تقدير: تقطيعا مبتدأ من جانب مخالف أو من جهة مخالفة، أو لأقطِّعنَّها متخالفات. وذلك قطع اليد اليمنى والرجل اليسرى، أو الرجل اليمنى واليد اليسرى.

وفي بيان هذه الهيئة لهم ﷻ إخبار بأنَّ القطع لا بدَّ منه ولم يقطع وفاقا إبقاء عليهم للرحمة أو لألفة سبقت لهم معه، أو لأنَّه دون القطع من خلاف في الفظاعة.

﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾ شدَّد مبالغة ﴿فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ أي عليها من ظاهرها بلا حفر فيها.

[بلاغة] شبَّه إعلاءهم فيها مدَّة طويلة بجعلهم في داخلها لجامع التمكُّن استعارة أصلية، واستعارَ «في» مِن جانب المشبَّه به لمعنى «على» من جانب المشبه تبعية. وقيل: حفر لهم في الجذوع، أو أراد الحفر فلا استعارة، وهو بعيد بل لا ندري أوقع الصلب؟ ولعلَّه أخبرهم فرعون به ولم يفعل، والظاهر أنَّه فعل فقيل هو أوَّل صالب وشهر، واستظهر بعض البقاء على الأصل وهو عدم الفعل.

﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ﴾ أنا أو موسى ﴿أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ أدوم، ولم يعرف من موسى تعذيبا ولا شدَّة ولا طولا لكن استهزأ به ونسب إليه أنَّه يعذِّب بشدَّة

وطول، أو اتَّهمهم أنَّهم خافوا من أن يعذِّبهم بعصاه التي بلعت سـحرهم. أو «أَيُّنَا» أنا وربُّ موسى الذي وعدكم موسـى أنَّه يعذِّبكم إن لم تؤمنوا به، وقد قالوا: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ﴾.

أو ﴿أَبْقَـى﴾ بمعنى أعظم عطـاء، والبقاء بمعنى العطـاء، وكان يعطي لمن يرضاه كقول نمروذ: ﴿أَنَآ أُحْيِـي وَأُمِيتُ﴾ [سـورة البقرة: 258] وذلك بعيد لأنَّ البقاء بمعنى العطاء غير مشـهور، وإذا ثبت فنادر، ولأنَّه لا وجه لذكره العطاء لهم بعد قنوطهم من فرعون وإقناطه لهم، وقد يقال الشـاهد في ﴿أَشَدُّ عَذَابًا﴾ فيكون ذكر لهم العطاء السـابق والعذاب الحاضر، ولا يسـتبعد عنه قبيحة مَّا من القبائح، ألا تراه لم يؤمن وتمادى حتَّى طلب الموعد؟ بعد ما رأى من العصا وقد قصدت بلع قبته معه فاستغاث بموسى، فهو يفحش ويبرق ويرعد ولو رأى إقبال ما أُوعد.

﴿**قَالُوا لَن نُّوثِرَكَ**﴾ نختارك باتباعك ﴿**عَلَىٰ مَا جَآءَنَا**﴾ على يد موسى من الله ﷻ ﴿**مِنَ الْبَيِّنَـاتِ**﴾ المعجزات، وكمـا جاءهم البَيِّنَات على يد موسـى وبعث إليهم بُعث إلى غيرهم، وذكروا أنفسـهم لأنَّ المقام لذكرهم أنفسـهم وذكر ما شـاهدوا، وأيضا لعلَّهم لا يـدرون أنَّه بعث إلـى غيرهم أيضا. وفي «جَاءَ» ضمير «مـا» الواقعة على «البيِّنات»، وأجيز عوده على موسـى، ويقدَّر الرابط، أي على ما جاءنا به، والمشـهور أنَّه لا يحذف الرابط المجرور إلا إن جرَّ الموصول بمثل جارِّه، وعلِّق بمثل متعلّقه.

﴿**وَالذِي فَطَرَنَـا**﴾ خلقنا وهو الله، والعطف على «مـا»، ويجوز أن يكون قسما أغنى عن جوابه معنى قوله: ﴿لَن نُّوثِرَكَ﴾ لا لفظه، لأنَّ القسم لا يجاب بلن، وأمَّا قول أبي طالب والله لن يصلوا إليك البيت[1] فنادر جدًّا.

---

(1) ونصه:

والله لـن يصلوا إليـك بجمعهم حتَّى أوسـدَّ فـي التـراب دفينا

إميل يعقوب: المعجم المفصَّل في شواهد العَرَبِيَّة، ج 8، ص 81.

﴿فَاقْضِ مَآ أَنـتَ قَاضٍ﴾ جواب لقول فرعون: ﴿لأُقَطِّعَنَّ...﴾ احكم بما شئت أو افعل ما شئت كقوله تعالى: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ [سورة فصّلت: 12] أي فعلهنَّ، وأمرُهم إيَّاه بالقضاء تسليم لأمر الله، بمعنى أنَّه لا طاقة لنا على دفعك، وإقناط عن الكفر، ولو أحرقتنا أو أقرضتنا بالمقاريض أو نحو ذلك مما هو أعظم من القطع من خلاف، ولا يبعد عن قُوَّة قلوبهم بالله ﷻ أن يكون تهديدا له بما في الآخرة، والرابط محذوف أي ما أنت قاضيه بالإضافة، أو ما أنت إيَّاهُ قاض، وليست مَصدَرِيَّة لضعف وصلها بالجملة الِاسمِيَّة.

﴿انَّمَا تَقْضِي﴾ تفعل أو تحكم ما تريد ﴿هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَآ﴾ نصب محلّ «هَذِهِ» على الظرفيَّة، و«ما» كافَّة حاضرة، مع أنَّ ما لك إلَّا ما تفعل أو تحكم في هذا الزمان الفاني القصير الذي لا نرغب في عذابه ولا نرهب من عذابه، ولنا في الآخرة الدائمة رغبة نرجو إتمامها من خالقنا.

ويجوز كون «ما» مَصدَرِيَّة، والمصدر اسم «إنَّ» و«هَذِهِ» ظرف خبر، أي إنَّ قضاءك ثابت في هذه الحياة الدنيا، ويجوز أن لا يقدَّر لـ«تَقْضِي» مفعولا تنزيلا له منزلة اللازم.

﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا﴾ من الشرك وما دونه من المعاصي، لا يؤاخذنا بها في الآخرة ﴿وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾ عطف على «خَطَايَانَا» عطف خاصٍّ على عامٍّ، لقرب عهد هذا الخاصّ، ومشاهدته، وشدَّة نفرتهم، ولتضمُّنه الإشراك أيضا.

والمعنى: وليغفر لنا السحر الذي فعلناه بإكراهك، ولا يجوز أن نطاوعك في إيقاعه ولو تقتلنا، وليس إكراهك عذرا لنا إلى ربِّنا.

[قصص] [ويقال:] كان فرعون أكرههم على تعلُّم السحر وعلى استعماله، وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عبَّاس: «إنَّ فرعون أخذ من بني إسرائيل أربعين غلاما وأمر أن يتعلَّموا السحر، وقال: علِّموهم تعليما لا

يغلبهم معه أحد من الناس، وهــم القائلون: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّـا...﴾. وروي أنَّه كان يجبر أولاد الناس على تعلُّمه مطلقا، وأكره السحرة على معارضة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقالوا: أرنا موسى نائما ففعل فوجدوه تحرســه عصاه، فقالوا: ليس ساحرا إنَّ الساحر إذا نام بطل سحره، فأكرههم على معارضته.

وإنَّما قالوا مع ذلك: ﴿بِعِــزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ [سورة الشعراء: 44] قبل ذلك، أو قالوه تجلُّدا كما أنَّ قولهم: ﴿أَينَّ لَنَا لأَجْرًا﴾ [سورة الشعراء: 41] قبل ذلك، أو قالــوه لغلبة طمع النفــس، والغلبة بالحجَّة وقد غلبهم بها موســى وهارون فلا ينافي ذلك صلبهم.

ويقال: أمرهم بتعلُّم الســحر حفظا عن ذهابه ثمَّ قهرهــم على عمله مع موســى، ومع ذلك قالوا: ﴿أَينَّ لَنَا لأَجْرًا﴾. وزعم أبو عبيــد[1] والحنفيَّة أنَّ مجرَّد أمر الســلطان أو نهيه إكراه ولو لم يتوعَّد على ذلك ولا ســيما إن كان جبَّارا طاغيــا. ﴿وَاللهُ خَيْرٌ﴾ ثوابــا وعفوا ﴿وَأَبْقَــىٰٓ﴾ أدوم عقابا، أو الله خير وصفا وفعلا وأبقى ثوابا وعقابا.

﴿إِنَّهُ...﴾إلخ تقريــر لقولهم ﴿اللهُ خَيْرٌ وَأَبْقَـىٰ﴾ وردٌّ على فرعون بأنَّ الذي يشــتدُّ عذابه وثوابه مع دوام هو الله عَزَّوَجَلَّ، وأكَّد بضمير الشــأن ﴿مَنْ يَّاتِ﴾ بالمــوت أو بالبعث ﴿رَبَّهُ مُجْرِمًا﴾ بالشــرك أو غيــره من الكبائر ﴿فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ فيســتريح ﴿وَلَا يَحْيَـىٰ﴾ فيها حياة نافعة ﴿وَمَنْ يَّاتِهِ﴾ بذلك ﴿مُومِنًا﴾ بها وبما قال رســله ﴿قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ﴾ الأعمال الصالحات ولم يصرَّ على معصية، ومن أصرَّ دخل في «مُجْرِمًا». الجملة حال ثانية.

---

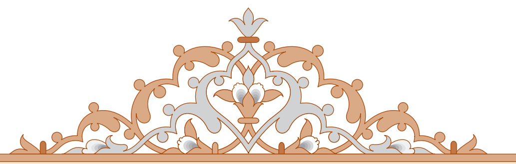
(1) هو أبو عبيد القاسم بن سلام كان أبوه روميا عبدا لرجل من هراة، أمَّا هو فقد كان إماما في اللغة والفقه والحديث من تصانيفه: كتاب الأموال، والغريب المصنف، والناسخ والمنسوخ، والأمثال. ولد سنة 157 وتوفي سنة 224. الموسوعة الفِقهِيَّة، ج 1، ص 337.

﴿فَأُوْلَئِكَ﴾ الجمع مراعـاة لمعنى «من» والإفراد في التسـعة قبله للفظ «من». وإشـارة البعد لعلوِّ الدرجة ﴿لَهُـمُ﴾ لإيمانهم وعملهـم ﴿الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ﴾ المنازل في الجنَّة مع مراتب الشـرف، ولا يفسَّر بمراتب الشرف لأنَّ جنَّات عدن ليسـت معنىً بل ذاتًا ﴿جَنَّـاتُ عَدْنٍ﴾ بدل أو بيـان ولو نكرة، والعدن: الإقامة، وإن كان عَلَمًا لموضع فجنَّات عدن معرفة ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الاَنْهَارُ﴾ حال من «جَنَّاتُ عَـدْنٍ» إن كان معرفة، ونعت أو حال إن كان نكرة. «خَالِدِينَ فِيهَا» حال من هاء «لهم» مقدَّرة.

﴿وَذَلِكَ﴾ أي ما ذكر من ثبـوت الجَنَّات المذكورة ﴿جَـزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ تطهَّر من الشرك والمعاصي.

[أصول الدين] ومن وحَّد الله ومات مصرًّا علـى معصية فهو مجرم وغير متزكٍّ، ومعنى قول ابن عبَّاس: «﴿تَزَكَّى﴾ قال: لا إله إلَّا الله»: أنَّه تَبعَ ما يقتضيه التوحيد من الأعمال والتروك، كما يدلُّ سائر أحاديثه الدَّالَّة على عقاب الموحِّد الفاسـق، وإلَّا دخل الجنَّة وكان متزكِّيا ولو آمن بالله دون نبيئه، لأنَّه لم يتلفظ ابن عبَّاس في هذا الحديث بنبيء. وإن قيل: لا إله إلَّا الله عَلَمٌ على ذكر النبيء والإيمان به قلنا: «لا إله إلَّا الله» علم أيضا على ذلك والأعمال والتروك.

وفي الآية إطلاق مؤمن على مطلق الموحِّد مثـل: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّومِنَةٍ﴾ [سورة النسـاء: 92] وكما يسـتعمل في الكلام كثيرا مع أنَّ حقيقتـه في الموفِّي، فيكون ﴿قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ﴾ قَيْدًا وإن حملناه على هذه الحقيقة فـ﴿قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ﴾ حال مؤكِّد، وقيـل قوله: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَّاتِ...﴾ إلـى: ﴿...تَزَكَّىٰ﴾ كلام من الله ﷻ، والأولى أنَّه من كلام السحرة.



﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿77﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿78﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ﴿79﴾ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ﴿80﴾ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿81﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴿82﴾﴾

ـ 10 ـ

إغراق فرعون وجنوده في البحر، ونعم الله على بني إسرائيل

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا﴾ في مصر ﴿إِلَى مُوسَى﴾ بعد نحو عشرين سنة في معالجة موسى لفرعون، كلَّما أتاه بآية وعده أن يرسل له بني إسرائيل فينكث، ولَمَّا كملت الآيات أوحى الله إليه بالإسراء بهم ﴿أَنِ اسْرِ﴾ «أَنْ» تفسيريَّة لا مَصدَريَّة مع باء مقدَّرة، لأنَّ «اِسْرِ» أمر ولا خارج للأمر يؤخذ منه المصدر، وكذا سائر الإنشاءات ﴿بِعِبَادِي﴾ بني إسرائيل.

[بلاغة] وعبَّر عنهم بالعبوديَّة مضافة له رحمة لهم، وردًّا على فرعون إذ استعبدهم وهم عبيد الله لا له، وتقبيحا لصنيعه إذ أهانهم وهم عبيد الله، ولم يراقبه فيهم ﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ﴾ بعصاك، والبحر اسم لأرضه لا لمائه، أي أوضح أو اجعل أو اتَّخذ لهم طريقا فيها بضرب البحر.



[بلاغة] واســتعمال الضرب بمعنى الإيضاح مجاز لغويٌّ، أو الجعل أو الاتخاذ، وعلى أنَّــه الماء فذلك مجــاز عقليٌّ، فإنَّه يقع فــي الفضلة كما في العمدة، والأصل: اضرب لهم البحر يصير طريقا و«فِي الْبَحْرِ» نعت «طَرِيقًا»، أو متعلِّق بـ«اضْرِبْ».

﴿يَبَسًــا﴾ نعت «طَرِيقًــا»، وهو مصدر وصــف به مبالغــة كأنَّه نفس اليبوســة، أو يقدَّر مضاف، أي ذا يبس، أو يؤوَّل بالوصف، أي يابسا، كما قرأ به أبو حيوة. [قيل:] ويبوســته خلقة من الله، ويقال: أرســل عليه ريح الصبا فجفَّفتــه. ولَمَّا كان مصدرا صلح للكثير، وهو اثنا عشــر طريقا لكلِّ ســبط طريق لا كما قيل: طريق واحد، بل تبع لفظ «طَرِيقًا» المستعمل في الكثير، أو لَمَّا كان المعنى الواحد وهو الســلوك سُمِّيَ طريقا واحدا، وذكر بعض أنَّ اليَبَسَ ما ابتلَّ ثمَّ يبس.

﴿لَّا تَخَافُ...﴾إلخ مســتأنف على طريق تعديد النعم، أو حال من ضمير «اضْرِبْ» قيل أو نعت ثان لـ«طَرِيقًا» أو حال، أي لا تخاف فيه ﴿دَرَكًا﴾ اسم مصدر أي إدراكا، لا تخاف أن يدركك وقومَك فرعونُ وقومُه، وزعم بعض أنَّ الدرك: ما يلزم الإنسان من تباعة ﴿وَلَا تَخْشَىٰ﴾ أن يغرقكم البحر من خلفكم أو قدَّامكم، أو جوانبكم أو من فوقكم، لأنَّ أرضه ولو قابلت الســماء ولا ماء حائل بينهما لكن قد يخشــى الإنســان أن يميع إليه الماء العالي كالجبال من جوانب. والخشــية أعظم من الخوف، وأخَّرها للفاصلــة، واختيرت لأنَّ درك فرعون قد يقابل بالقتال وبالسبق بالفرار، وترجى النجاة بخلاف ماء البحر.

﴿فَأَتْبَعَهُمْ﴾ تبعهــم ﴿فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ﴾ مع جنــوده، متعلِّق بـ«أَتْبَعَ» أو حال من «فِرْعَوْنُ»، أو الباء للتعدية، أي صيَّر جنوده تابعين، وســاقهم حاثًّا لهم، طالبا للحوق، ومقدِّمته قيل: ســبعمائة ألف فــارس، وقيل: ألف ألف وخمســمائة ألف، وخلَّفوا النســاء والصبيــان والعاجزين فــي مصر، وبنو

إسرائيل مع موسى ســتمائة ألف وثلاثة آلاف، وقيل: ستمائة ألف وسبعون ألفا، وما فيهم ابن سِتِّينَ ولا ابن عشرين، وهم ذكور وإناث **والله أعلم بصحَّة تلك الكثرة في الفريقين.**

[قصص] وقد عهد إليهم يوســف أن يخرجوا به ميِّتــا فدلَّتهم على قبره عجوز، فقال لها موســى: احتكمي، فقالت له: أكون زوجــك في الجَنَّة فأنعم وحملوه، خرج بهم موسى يريد القلزم وقد اســتعاروا من قوم فرعون الحليَّ والدوابَّ لعيد يخرجون إليه غدا أو بعد غد.

[قصص] والإيحاء بالضرب قبل إتبــاع فرعون بجنوده فيما قيل واختير، وقيل: بعده وهو الصحيح، لَمَّا تراءى الجمعان اســتغاث موســى الله، فأوحى إليه بالضرب، فضرب فانفلق البحر اثني عشر فرقا مقوسة راجعة إلى الأرض التي دخلوا من جهتها، فيرجعون إلى مصر، أو إلى الشام، وقال فرعون: انفلق البحر من هيبتي، ونادى ثلاثة وثلاثون ملــكا بأمر الله فرعونَ وقومَه: ادخلوا، فدخلوا فدخل على فرس ذكــر، وجبريل على فرس أنثــى قدامه ليتبعه، وقد سبقهم بنو إسرائيل بالدخول، ولَمَّا خرج آخر بني إسرائيل ودخل آخر فرعون أغرقهم البحر ولم ينج منهم أحد، ولم يغرق من بني إسرائيل أحد.

﴿**فَغَشِــيَهُم مِّنَ الْيَمِّ**﴾ البحر، فاليمُّ اســم البحر ولــو مالحا، لا كما زعم بعض أنَّه العذب، وأنَّ الغرق في النيل ﴿**مَا غَشِيَهُمْ**﴾ ما لا يعلم غاية هوله إلَّا الله ﷻ، وهــذا أولى من أن يقال المعنى: غشــيهم ما ســمعت قصَّته، والهاء لفرعون وجنوده، وقيل: لجنوده فقط، لأنَّه أنجــى الله فرعون ببدنه ولم يغرق ومات بلا غرق، وليس كذلك بل أغرق ومات بالغرق، وشكَّ بنو إسرائيل في هلاكه فأظهره الله ميِّتا.

وقيل: الهاء الأولــى لفرعون وجنــوده، والثانية لموســى وقومه، وعليه فالتقدير: فنجا موســى وقومه وغرق فرعون وقومه، وعليــه: إنَّما جعل الثانية

لموسى وقومه لأنَّهم تقدَّموا فقال: غشي فرعون وقومه ما غشي قبلهم موسى وقومه، وعليه فالهول شأن دخول البحر، والصحيح ما مرَّ.

﴿**وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ**﴾ فـي دينهم ودنياهم، أغرقـوا فأدخلوا نارا ﴿**وَمَا هَدَىٰ**﴾ ما أرشـدهم إلى دين ولا دنيـا، وذلك ردٌّ لقوله: ﴿وَمَـآ أَهْدِيكُمُۥٓ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [سـورة غافر: 29] واسـتهزاء به فهو تلميح، أو صوَّر شأن فرعون بشـأن مدَّعي العلم والإرشـاد فتهكَّم عليه بأنَّ علمه هذا لم ينفع قومه به، أو المعنى: ما هداهم قطُّ مطلقا في شأن القصَّة وغيرها.

وزاد ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾ لأنَّ من لا يهدي غيره قد لا يضلُّه، ويبعد أنَّ ﴿هَدَى﴾ بمعنى اهتـدى، أي أضلَّهم وما اهتدى في نفسـه، ويبعد أن يفسَّـر الإضلال والهدى بالدينين لأنَّ الآية نصَّت أيضـا على الهلاك الدنيوي، أو إنَّ الإضلال في البحر، والهدى التنجية إلى البرِّ.

[أصول الدين] وزعم القاضي [عبد الجبَّار][1] أنَّه لو خلق الله الكفر لم يذمَّ عليه فرعون، إذ قال: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ﴾. قلنا: خلق الله الكفر ونهى عنه، كما خلق الخنزير ونهـى عن أكله، وليس إضـلال الله الضَّالين إجبارا على الضلال، وإنَّمـا كلَّفهم على اختيارهـم للكفر، وهـذا الاختيار أيضا مخلوق له ولا إجبار.

﴿**يَا بَنِي إِسْـرَآئِيلَ**﴾ خطاب لهم بعـد مضيِّ مدَّة من إغـراق فرعون، وأسـبغ عليهم فيها نعمه الدِّينِيَّة وَالدُّنيويَّة، والجملة محكيَّة بقول محذوف مستأنف، أي قلنا: يا بني إسرائيل، أو بقول محذوف معطوف على «أَوْحَيْنَا»

(1) القاضـي عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجَبَّار الهمذاني الأسـد أبادي أبو الحسـن، قاضي القضاة، أصوليٌّ، كان شـيخ المعتزلة في عصره، ولي القضاء بالري، ومات بها سنة451هـ. ترك تآليف معتبرة منهـا كتاب تنزيه القرآن عن المطاعن، وكتاب متشـابه القرآن. الزركلي: الأعلام، ج 3، ص 273.

أي وقلنا: يــا بني إســرائيل، ولا يجوز أن يكــون خطابا للذيــن في زمان رســول الله ﷺ، وامتنانا عليهم بما منَّ على آبائهم وعليهــم أيضا تبعا لأنَّه يمنع من ذلك قولــه ﷻ: ﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ﴾ إلَّا إن قيــل: بانتهاء خطابهم في قوله: ﴿ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾.

﴿**قَدَ اَنجَيْنَاكُم مِّــنْ عَدُوِّكُمْ**﴾ فرعون وقومه إذ اســتعبدوهم ذكورا وإناثا وذبحوا أبناءهم ﴿**وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الَايْمَــنَ**﴾ واعدنا نبيئكم الجانب الأيمن من الطور، أو لَمَّا كانت مواعدة نبيئهم منفعة لهم وراجعة إليهم جعلت مواعدة لهم. و«جَانِبَ» مفعول بــه، جعل موعودا به توسُّــعا، أو يقدَّر: إتيانَ جانب الطور الأيمــن، ولا يصحُّ نصبه على الظرفيَّة والتعلُّــق بـ«وَاعَدْنَا» لأنَّ المواعدة لــم تقع فيه بل إليــه، بل واعدناكــم إتيان جانب الطــور بأن يأتيه موسى ﵇ للمناجاة وإنزال التوراة.

﴿**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ**﴾ الترجبين طعاما حلوا مثل الثلج صاعا لكلِّ واحد ﴿**وَالسَّــلْوَىٰ**﴾ طيرا مخصوصة تجيء بهــا ريح الجنوب فيأخــذ كلُّ أحد ما يحِبُّ، ينزلان عليهم في التيه من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس.

﴿**كُلُواْ**﴾ قائلين: كلوا، وقيل: مســتأنف ﴿**مِــن طَيِّبَاتِ**﴾ حلو وحلال ﴿**مَا رَزَقْنَاكُمْ**﴾ قدَّم الإنجاء من العــدوِّ لأنَّه من دفع المضارِّ وهو أهم من جلب المنافــع، والتخلِّي قبل التحلِّــي، وعنى بالنعمــة الدِّينيَّة لأنَّها من المنافع، كالأنف في الوجه ما وجه بلا أنــف! وأخَّر النعمة الدنيويَّة لأنَّها دونها، ـ نجانا الله من كيد الأعــداء وجعله في نحورهم، ولا جعل لعدوِّنا سبيلا إلينا ـ آمين.

﴿**وَلَا تَطْغَوْاْ فِيهِ**﴾ في ما رزقناكم بالإسراف والبطر، [قلت: ومن الطغيان] الاســتعانة به على معاصي الله ومنع الحقوق الواجبة، ومنعه عن مســتحقِّه، وإعطائه من ليس له أهلا، والفخر به وسرقة وغصب ونحو ذلك من أنواع كفر

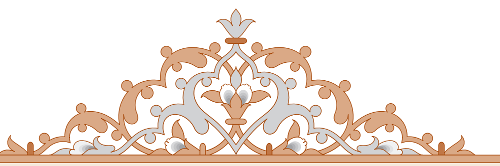
النعمة، وذلك في سائر أحوالهم لا في خصوص المنِّ والسلوى، وقيل: الكلام فيهما، والمعنى: لا تدَّخروا ﴿فَيَحِلَّ﴾ ينزل ﴿عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ أو يلزمكم، مِنْ حَلَّ الدَّيْنُ: إذا وجب أداؤه لحضور أجله.

﴿وَمَن يَّحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي﴾ أظهر في مقام الإضمار تغليظا بذكر الغضب باسمه مضافا لاسمه تعالى، ولأنَّ الثاني أعمُّ، والمراد بالغضب العقاب فهو فعل له ﷻ هنا لا وصف، وإن جعلناه وصفا قدِّر مضاف، أي مقتضى غضبي وهو العقاب ﴿فَقَدْ هَوَىٰ﴾ هلك، فإنَّ الهلاك مسبَّب ولازم للسقوط من عال، أو هوى وقع في الهاوية، ويقال: في جهنَّم قصر يرمى الكافر من أعلاه فيهوي أربعين خريفا.

﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾ كثير المغفرة وعظيمها، لجواز استعمال لفظ المبالغة في الكمِّ والكيف معا لمن تاب من الشرك والمعاصي، ومنها الطغيان في الرزق ﴿وَءَامَنَ﴾ بالله وصفاته وأنبيائه، وكتبه وسائر ما يجب الإيمان به فورا أو عند الأخذ ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ عمل عملا واجبا هو أداء الفرائض كلِّها، ودخل فيه ترك المعاصي لأنَّ تركها عمل وكسب إذ جبد نفسه عنها ﴿ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ استقام إلى الممات على ذلك.

[أصول الدين] [قلت:] ومن الاهتداء أن يتوب كلَّما عصى ولو عصى بشرك وتاب مرَّة بعد أخرى حتَّى ختم بخير، و«ثمَّ» لبعد ما بين الانتهاء عن آخره أو لعلوِّ مرتبة الانتهاء، وقيل: اهتدى عمل بِالسُّنَّةِ، وعن ابن عبَّاس: علم أنَّ لعمله ثوابا، وقيل: طهَّر قلبه من نحو العجب والحسد والكبر.

ولا مغفرة للمصرِّ كما دلَّت عليه الآيات والأحاديث، وفي لفظ الآية تقديم التوبة عن الشرك والمعاصي، وتعقيب التوحيد والطاعة، وهكذا يفعل. والإيمان تارة يطلق على التوحيد كما هنا وتارة على العمل الصالح.



﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ٨٣ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ٨٤ قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ٨٥ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي ٨٦ قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ٨٧ فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ٨٨ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا ٨٩﴾

ـ 11 ـ

تكليم الله موسى في الميقات وفتنة السامري

﴿**وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَا مُوسَىٰ**﴾ قلنا لموسى عند الإتيان للمناجاة في جانب الطور الأيمن، أيُّ شيء عجَّل بك عن قومك الذين جئت بهم؟ وهم النقباء السبعون، والاستفهام إنكار للياقة العجلة، ويجوز أن تكون ما تعجيبيَّة بمعنى: إنَّ عجلتك مما يتعجَّب بها الناظر فيها، وعلى كلِّ حال كانت عجلته عن القوم الذين أمر بصحبتهم مما لا يحسن، لأنَّ فيها إهمالهم وعدم الاعتداد بهم، مع أنَّه لم يقصد ذلك وهو من أهل العزم، حتَّى إنَّ مفارقته أدَّت إلى تصوير العجل وعبادته، ودعاه إلى تلك العجلة الزيادة في الرغبة كما قال اعتذارا:

﴿**قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ**﴾ لم يبعدوا عنِّي وما تقدَّمت عليهم إلَّا بقليل، وظننت أنَّ مثل ذلك لا تنكره عليَّ، ولا يعدُّونه

إهانة مع أنِّي أريد استدامة رضاك، أو حصول زيادة خير، والله ﷻ نبَّهه بهذا على أنَّ اللائق بك أن تكون في وسطهم، أو متأخِّرا عنهم لتكون رقيبا عليهم.

[قلت:] وكذا كلُّ رئيس قوم ولا سيما في السفر ولو أنَّ مأموما أسرع ليدرك فضل الركعة الأولى مع الإمام لكان خطأ لنقص خشوعه بالسرعة، وكذا مع الإمام المتقدِّم على القوم، بل موسى في قصَّته هذه أيضا ملوم لأنَّه أسرع إلى المناجاة مع الله كإسراع المأموم إلى الإمام للصلاة.

[نحو] و«هُم» مبتدأ و«أُولَاءِ» خبره و«عَلَى أَثَرِي» خبر ثان أو حال، أو «أُولَاءِ» بدل و«عَلَى أَثَرِي» خبر، والكوفيُّون يجيزون في أسماء الإشارة كلِّها أن تكون موصولة فـ«أُولَاءِ» خبر و«عَلَى أَثَرِي» صلة لـ«أُولَاءِ»، أي هم الذين على أثري، والله عالم بذلك كلِّه، إلَّا أنَّه عليه السلام اعتذر بقربهم على أثره وقيل: ﴿عَلَىٰٓ أَثَرِي﴾: على ديني.

﴿**قَالَ**﴾ الله ﷻ: ﴿**فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ**﴾ الفاء سَببَيَّة، أي أنت فعلت ذلك وفتنَّا بسبب فعلك قومَك، أو أوقعناهم في فتنة، وهي ميلهم إلى الشهوات ووقوع الاختلاف، أو اختبرناهم بفعل السامري، وليست للتعقيب فإنَّ بين الفتن وذلك عشرين يوما، وقيل: سِتَّة وثلاثين، فالماضي لتحقُّق الوقوع أو للقرب، أو لعزم السامريِّ عقب ذهاب موسى وشروعه في الأسباب، أو للترتيب الذكري ﴿**مِنۢ بَعْدِكَ**﴾ بعد تقدُّمك عليهم مفارقا لهم.

﴿**وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ**﴾ إلى عبادة غير الله ﷻ إذ دعاهم إلى عبادة العجل، قيل: غاب موسى عليه السلام عنهم عشرين ليلة فقال لهم: قد تمَّت الأربعون ـ عدَّ الليالي أَيَّامًا ـ ولم نر موسى، وليس إخلافه عنكم إلَّا لما معكم من حليِّ القبط وهو حرام عليكم فجمعوه فجعله عجلا.

فالمراد بالقوم مَن خلَّفهم مع هارون، وهم ـ قيل ـ ستُّمائة ألف نجا من عبادة العجل منهم اثنا عشر ألفا. فالمراد بـ«قَوْمَكَ» هنا غير المراد بهم في

قوله: ﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ﴾ ولذا لم يقل: فَإِنَّا قد فتناهم من بعدك، وقيل: المراد واحد على الأصل في تكرير المعرفة أنَّها عين الأولى، ولا يبعد أنَّ المتخلِّفين قريبا من الطور إلَّا أنَّ النقباء أقرب منهم إليه، بل ذلك متبادر، ولا شكَّ أنَّ النقباء لم يعبدوا العجل.

ولجعل المعرفة عين الأولى وجه آخر هو أنَّ المراد بالقوم في الموضعين الجنس، إلَّا أنَّه أريد بالأوَّل النقباء، وبالثاني المتخلِّفون، ومثل ذلك في القرآن وارد.

[قصص] والسامريُّ: من عظماء بني إسرائيل منسوب إلى قبيلة عظيمة تسمَّى سامرة بالشام إلى الآن، إذا أراد أحدهم المصافحة لوى الثوب على يده لِئَلَّا تصيبه الحمَّى، يسمَّون السامريِّين، قيل: هو ابن عمِّ موسى، وقيل: ابن خالته، وقيل: علج من كرمان نقل إلى مصر، وقيل: كان من أهل بَاجَرْمَا قرية بمصر أو بالموصل، وقيل: من القبط جارا لموسى يُظهر له الإيمان، وقيل: من عبَّاد البقر أظهر الإيمان لبني إسرائيل، واسمه على المشهور موسى بن ظفر، وقيل: مُنجًّى أدخلته أمه في غار مخافة الذبح وأطبقت عليه، فكان جبريل يغدوه بلبن في إصبع وعسل في أخرى وسمن في أخرى، قال بعض:

إذا المرء لم يخلق سعيدا تحيَّرت ... قلوب مربِّيه وخاب المؤمل

فموسى الذي ربَّاه جبريل كافر ... وموسى الذي ربَّاه فرعون مرسل[1]

﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾ وصلهم وقابلهم بعد تمام الأربعين، ذي القعدة وعشر من ذي الحجَّة، وبعد أخذ التوراة لا عقب الإخبار بـ﴿إِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ﴾ الفاء للسببيَّة أو للترتيب الذكري، أو العرفي، وهو أنَّه في كلِّ شيء بحسبه كما قال ابن هشام، مثل: تزوَّج فولد له، وشايعت الحجَّاج ودعوت

(1) لم نقف على قائل البيتين. وقد أوردهما بعض المفسرين، منهم **الآلوسي** في روح المعاني، ج16، ص244. وفي بعض الكتب اختلاف في البيت الأول.

لهم بالسلامة فرجعوا سالمين، ولا يتوهَّم أنَّ الولادة متَّصلة بالتزوُّج ولا الرجوع متَّصل بالدعاء.

﴿**غَضْبَانَ**﴾ الغضب في البشر: ثوران دم القلب لإرادة الانتقام، قال رسول الله ﷺ: «**اتَّقوا الغضب فإنَّه جمرة توقد في قلب ابن آدم، ألم تر إلى انتفاخ أوداجه وحمرة عينيه**»[1] ﴿**أَسِفًا**﴾ حازنا أو نادما على ما فرط منه من مفارقتهم، حتَّى وقعت فيهم عبادة العجل، أو متلهِّفا على ما فاته متحيِّرا في أمر قومه يخشى أن لا يمكنه تداركه، وفي هذا زيادة من خارج عن لفظ «أسف».

﴿**قَالَ**﴾ لهم بعد هذا الرجوع المفسَّر بالوصول، وإن فسَّرنا الرجوع بالذهاب إليهم فالمراد قال بعد رجوعه ووصوله: ﴿**يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا**﴾ أنكر انتفاء الوعد بحيث لا سبيل لهم إلى نفيه، وعدهم إنزال التوراة هدى ونورا، أو الوصول إلى جانب الطور الأيمن، والفتح في الأرض والمغفرة للتائب ونحو ذلك، أو الجنَّة كما قال الحسن، أو أن يسمعوا كلام الله أو كلَّ ذلك، والأنسب المتبادر الأوَّل. و«وَعْدًا» بمعنى موعود مفعول به، أو باق على معنى المصدريَّة مفعول مطلق، ويقدَّر المفعول على هذا، أي: وعدكم وعدا حسنا أن ينزِّل عليكم التوراة.

﴿**أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ**﴾ الفاء عاطفة على ﴿أَلَمْ يَعِدْكُمْ﴾ لأنَّه بمعنى قد وعدكم، والهمزة مما بعد الفاء لتمام صدارتها، والأولى دخولها على محذوف عطف عليه بالفاء، مثل أوَعدكم؟ ـ بفتح الواو ـ أو أعهد لكم فطال عليكم زمان الإنجاز؟ أو زمان المفارقة للإتيان بالموعود. وأطلق العهد على الزمان، أو يقدَّر مضاف، أي زمان المعهود، أي زمان ما عهد لكم، ويقدَّر بعد لفظ العهد: فنسيتم، أو يقدَّر: فظننتم بطلان العهد، و«الـ» للعهد الذي في أذهانهم.

---

(1) رواه **أحمد** في مسند باقي المكثرين من الصحابة، رقم 1059، من حديث أبي سعيد الخدري بلفظ: «ألا إنَّ الغضب..» في حديث طويل، أوَّله قوله: «خطبنا رسول الله خطبة بعد العصر...».

﴿أَمَ اَرَدتُّمُۥٓ أَنْ يَّحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ نعت لـ«غَضَبٌ»، أو متعلِّق بـ«يَحِلَّ» ويجوز أن تكون «أَمْ» بمعنى بل، وتنكير «غَضَبٌ» للتعظيم، لا يشكُّ شاكٌّ أنَّهم لا يحِبُّون الغضب، فمعنى الإرادة فعل ما يكون مقتضيا للغضب ومسبِّبا له وملزوما له.

﴿فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي﴾ وعدكم إيَّاي بالثبات على الإسلام، إلى أن أرجع من الميقات، قيل: أو باللحاق إلى الطور، وهو مصدر مضاف للمفعول، ويبعد أن يكون مضافا للفاعل، على أنَّ معنى ﴿أَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي﴾ وجدتم الخلف في وعدي لكم بعد الأربعين، كقولك: أحمدت زيدا بمعنى وجدت فيه الحمد، أو تركتم وعدي لكم، وفعلتم ما لا تستحقُّون الإتيان بالموعود به كمن وعد بخير على فعل حسن فلم يفعله، وهذان الوجهان لا يناسبان ما قبل ولا ما بعد.

﴿قَالُواْ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾ باختيارنا الذي ملكناه، بل بوسوسة السامري، وقرأ عمر: «بِمَلَكِنَا» بفتح الميم واللام.

[لغة] قال أبو حيَّان: [بِملكِنَا] سُلطاننا، واستظهر هو أنَّ المُلك بضم الميم وفتحها وكسرها وإسكان اللام فيهنَّ بمعنى. وقال أبو عليٍّ: معنى المضموم أنَّه لم يكن لنا مُلك فنخلف موعدك بسلطانه، وهو قراءة حمزة والكسائي والحسن والأعمش وطلحة وابن أبي ليلى وقعنب، والمفتوح مصدر مَلَكَ، والمعنى: ما فعلنا ذلك بأن مَلَكْنا الصواب ووفِّقنا له، وكثر استعمال المكسور فيما تملك اليد وتحوزه، لكن يستعمل في الأمور التي يبرمها الإنسان، والمعنى عليه كالمفتوح، والمصدر في هذين مضاف إلى الفاعل، ويقدَّر المفعول أي بملكنا الصواب.

وبيَّنوا منشأ خطئهم بقوله: ﴿وَلَكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ﴾ القبط، والأوزار: الأحمال، وهي ما استعاروه منهم لزينة العيد، أو العرس، أو ما ألقاه البحر على الساحل، وهو بعيد لكن الله قادر على إلقائه، وسمِّيت أوزارا لأنَّها

تلبس فخرا وخيلاء وترفُّعا على الفقراء، أو لأنَّها سبب عبادة العجل، إذ صوِّر به، أو لأنَّه في حكم الغنيمة فتجمع فينزل عليها نار أو شبهها فتفنيه، وهذا من إضلال السامري، ويبحث في ذلك بقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ﴾ [سورة الشعراء: 59] وأمَّا قوله تعالى: ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾ [سورة الأعراف: 148] فلا نصَّ فيه على أنَّها حلَّت لهم، لجواز أن تضاف إليهم لأنَّها في أيديهم، وقد أمرهم موسى باستعارة الحليِّ والدوابِّ من القبط، وَلَعَلَّ موسى أبقى الحليَّ في أيديهم لينظر ما يؤمر به فيه فصيغ به عجل، أو حلَّ لهم تملُّكه لأنَّه لا يوجد مالكه، ولا وارثه، وإن وجد في النساء والضعفاء والصبيان، ففي ردِّه بعدٌ إذ يبعد الوصول إليهم، كلُّ واحد بماله وأنَّ ذلك ليس بحكم الغنيمة.

﴿**فَقَذَفْنَاهَا**﴾ طرحناها في النار لتذوب وتصاغ عجلا، وذلك في حفرة على قالب عجل، وقيل: ألقيناها عن أنفسنا وأولادنا، وهو ضعيف، ﴿**فَكَذَلِكَ**﴾ أي مثل إلقائنا في النار ما معنا من ذلك ﴿**أَلْقَى السَّامِرِيُّ**﴾ ما معه من ذلك فيها، وفي داخلها قالب عجل يريهم أنَّه ليس يَخُصُّ نفسه عنهم، وزاد ما معه من أثر الرسول، قيل: أو أرادوا ألقى التربة من أثر الرسول ولذلك غيَّروا الأسلوب ولم يقولوا: فقذفناها وقذف السامريُّ ما معه منها، وأمَّا تغيير الأسلوب بأن قالوا: «ألقى» ولم يقولوا: فقذف من حيث إنَّ القذف يناسب الجرم المجتمع لا التراب، فقد قيل به إلَّا أنَّه ضعيف أيضا.

[قصص] ويقال: قال لهم: تأخَّر موسى للحليِّ الحرام الذي معكم فاحفروا في الأرض حفرة وأسجروها نارا وألقوه فيه، ففعلوا وقد ألقى فيها قالب عجل، ويقال: ألقى هارون أيضا وما يدري ما أراد السامريُّ، وروي أنَّه وجده هارون يعمل فقال: ما تعمل؟ فقال: أعمل ما ينفع ولا يضرُّ، فادع الله أن يتمَّه فدعا هارون ولم يدر ما هو، وروي أنَّ هارون قال: اجمعوا هذا الحليَّ حتَّى يجيء موسى فجمع وأذيب فألقى السامريُّ عليه القبضة وقال: كن عجلا بإذن الله.

﴿فَأَخْرَجَ﴾ السامريُّ ﴿لَهُمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ﴾ العجل: ولد البقرة، أخرج لهم حيوانا حقيقا على صورة العجل، بأن خلقه الله وأحياه حقيقة من تلك الأوزار التي قذفوها، وقيل: هو هنا صورته بلا روح، والخوار: صوت البقرة والمراد حقيقته على الأَوّل، وصوت ريح يخرج منه على الثاني، ومعنى «جَسَد»: لحم ودم على الأوّل، أو أحمر كالجسد بلا روح على الثاني.

[قصص] وعن ابن عبّاس: تحرَّج بنو إسرائيل عَمَّا في أيديهم من حليِّ القبط، فجمعوه لتأكله النار من السماء كما تأكل ما غنموا غير الحيوان، فَلَمَّا جمعوه لذلك أوقد السامريُّ نارا فصاغه عجلا بأن ألقى القبضة، وقال: كوني عجلا، فكان الريح يدخل من دبره ويخرج من فيه بصوت.

[نقد بعض هذه الأخبار] وهنا حديث تفوح منه رائحة اليهود، ورائحة المُجبرة كذبوه على النبيء ﷺ لولا أنِّي رأيته في بعض التفاسير فخفت أن يكفر الناس بسببه لم أذكره، ذكره ابن مردويه وغيره بسنده إلى كعب بن مالك، وراشد بن سعد، عن النبيء ﷺ: «**وعد الله موسى المناجاة فبينما يناجيه سمع صوتا خلفه، قال: ما هو؟ قال الله ﷻ: أضلَّ السامري قومك، قال: فبم أضلَّهم وقد نجَّيتهم وأنعمت عليهم؟ قال: صاغ لهم عجلا فعبدوه، قال: فمن نفخ فيه الروح؟ قال: أنا رأيت في قلوبهم حبَّ ذلك فيسَّرته لهم، قال: فوعزَّتك ما أضلَّهم غيرك؟ فقال: صدقت يا حكم الحكماء، ويا رأس الأنبياء لا ينبغي لحكيم أن يكون مثلك**»[1].

[نقد الحديث والشك فيه] كيف يقول: رأس الأنبياء ورأسهم سيِّدنا محمَّد ﷺ؟! وكيف يقول: رأيته في قلوبهم فيسَّرته لهم؟! وكيف يقول: أنت أضللتهم مجيبا به كجواب من يقول أجبرتهم على الضلال؟! وتحقيقا إنَّ الله

(1) أورده **الآلوسي** في تفسيره: ج 4، ص 334 وقال: أخرجه ابن مردويه عن وهب بن مالك.

خلق الضلال لكن النطق به في هذا المقام صورة شنيعة، وكيف يقرُّه الله عليها ويزيد له مدحا عليها؟!.

وقدَّم «لَهُمْ» مع أنَّ المفعول فيه بواسطة الحرف وأخَّر «عِجْلاً» مع أنَّه مفعول بلا واسطة على طريق الاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخَّر، مع ما فيه من طول لو قدِّم لم يتناسب نظم القرآن، وهكذا قل في غير الآية.

﴿**فَقَالُواْ**﴾ أي السامريُّ ومن ضلَّ معه، وقيل: قوم موسى حكمًا على المجموع، وهو خلاف الظاهر، وقيل: السامريُّ وجمع تعظيما لجرمه، وهو بعيد. ﴿**هَذَآ إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ**﴾ أي نسي موسى أنَّه ربُّه فذهب إلى جانب الطور يطلبه فيه، وذلك من عطف الفِعلِيَّة على الِاسمِيَّة، بمعنى أنَّه تقرَّرت أُلُوهِيَّة هذا لموسى، فنسي، وقيل: نسي السامري بمعنى ترك النفاق بإضمار الشرك فأظهره، وعلى هذا ليس «نَسِيَ» من المقول بل عطف على «قَالُوا» لا على مدخوله، وقيل: تمَّ كلامهم عند قولهم «فَقَذَفْنَاهَا» وما بعده من كلام الله، وذكر فيه صنيع السامريِّ وهو ضعيف، كما قيل: **المعنى ترك السامريُّ ما كان عليه من الإيمان، وما قيل: من أنَّه ترك الاستدلال على وحدة الله** عَزَّوَجَلَّ.

﴿**أَفَلَا يَرَوْنَ أَنْ**﴾ أنَّه ﴿**لَا يَرْجِعُ**﴾ العجل ﴿**إِلَيْهِمْ قَوْلاً**﴾ كلاما إذا عبدوه، أو تكلَّموا له، والمعنى: كيف يقولون إنَّه إله مع حدوثه وعجزه؟ وإذا كان إلها فمن إله من مضى؟ وهل له صفة الأُلُوهِيَّة؟ ألا يتفكَّرون فيعلمون أنَّه لا يرجع إليهم قولا؟ ﴿**وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا**﴾ مطلقا، أو ضرًّا على عدم عبادتهم، ولا نفعا عليها.

﴿وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي ﴿90﴾ قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ ﴿91﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ﴿92﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي ﴿93﴾ قَالَ يَبۡنَؤُمَّ لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي وَلَا بِرَأۡسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَمۡ تَرۡقُبۡ قَوۡلِي ﴿94﴾ قَالَ فَمَا خَطۡبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿95﴾ قَالَ بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضۡتُ قَبۡضَةٗ مِّنۡ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذۡتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي ﴿96﴾ قَالَ فَٱذۡهَبۡ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ وَإِنَّ لَكَ مَوۡعِدٗا لَّن تُخۡلَفَهُۥۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفٗاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا ﴿97﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمٗا ﴿98﴾﴾

ـ 12 ـ

معاتبة موسى لهارون، وإحراق العجل الذي اتخذوه إلها

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ﴾ قبل رجوع موسى من الطور إليهم، أو من قبل قول السامري: ﴿هَذَآ إِلَهُكُمْ وإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ سارع إلى تحذيرهم قبل أن يفتنهم السامريُّ، لأنَّه تفرس فيهم الفتنة، والعطف على ما قبلُ، عطف قِصَّة على أخرى، أو على ﴿أَن لَّا يَرْجِعَ﴾ فتتسلط عليه الرؤية، أي أفلا يرون عدم الرجع والضرِّ والنفع، وقول هارون وعظا لهم، ولا تصحُّ أن تكون حالا لكونها إنشائيَّة.

[بلاغة] ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ﴾ محطُّ الحصر قوله: ﴿بِهِ﴾ أي ما فُتنتم إلَّا به، تدَّعون أنَّه هدى لكم وما هو إلَّا ضلال، بِشِبْه قصر القلب كأنَّهم قالوا: ما هدينا إلَّا به، فأجيبوا ما فتنتم إلَّا بـه، لا كما زعم بعض أنَّ الحصر متوجّه إلى«فُتِنتُم بِهِ»، بمعنى ما وقع إلَّا فتنكم به، وهو غلط لأنَّ الحصر بـ«إِنَّمَا» يتوجَّه إلى آخر الكلام، وإن لم يكن له آخر متحيِّز كان متوجِّها إلى الجملة، كما إذا ختمت بالضمير المتَّصل غير المفصول بحرف جرٍّ، نحو: إنَّما قمتم أو إنَّمَا أكرمتكم، ولو كان مفصولا بحرف أو منفصلا كان الحصر عليه كالآية، وكقولك: «إنَّما أعطيتك إيَّاهُ»، أي ما أعطيتك إلَّا إيَّاهُ.

﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُواْ أَمْرِي﴾ حصر الربوبيَّة لله حصر قلب بتعريف الطريفين، وكان بذكر الربوبيَّة والرحمة استجلابا لهم إلى التوبة، وتلويحا بأن تقبل. والفاء لعطف فِعلِيَّة إنشائيَّة على اسمِيَّة إخباريَّة، أو في جواب «إذا» أي إذا كان ذلك فاتَّبعوني على الثبات في توحيد الله ﷻ وطاعته، وأطيعوا أمري فيهما.

وقيل: اتَّبعوني إلى الطور وأطيعوني في ترك العجل، ويبحث فيه بأنَّ هارون لم يؤمر بالذهاب إلى الطور وإلَّا لم يتخلَّف، ولا هم وُعِدوا بالذهاب إليه فيذهب بهم إليه.

﴿قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ﴾ لن نزال مقيمين على العجل أي على عبادته ﴿حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ فإذا رجع رأينا ما يقول، فإن قال: اتركوه تركناه، وقيل: التصق حبُّه في أذهانهم حتَّى إنَّه أمكنهم أن يخالفوا موسى إذا رجع ونهاهم وخالفوه، وحتَّى توهَّموا أنَّ موسى يوافقهم عليه حاشاه، وهم بلَّه قساة القلب وهم أشدُّ جهلا من البقر إذ عبدوه، وروي أنَّهم لَمَّا قالوا ذلك اعتزلهم هارون في اثني عشر ألفا لم يعبدوه.

وكأنَّه قال قائل: ما قال موسى إذ رجع؟ فقال: ﴿**قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّواْ**﴾ علمتهم ضلُّوا، أو رأيتهم ببصرك يفعلون ما هو ضلال ﴿**أَلَّا تَتَّبِعَنِي**﴾ معمول «مَنَعَ» بلا تقدير جارٍّ، أي ما منعك اتِّبَاعي، أو به [أي بالجارِّ] أي من اتِّباعي. و«لا» صلة، ويجوز أن تكون نافية بمعنى: ما حملك على عدم اتِّباعي، والمنع من الشيء مستلزم للحمل على مقابله. و«إذ» متعلِّق بـ«مَنَعَ» لا بـ«تَتَّبِعَ» لأنَّ معمول الصلة لا يتقدَّم على الموصول، ولو كان ظرفا لأنَّه يعمل بالتوسُّع في الظرف إذا لم يوجد مندوحة عنه.

والمراد بالاتِّباع أنَّ تسير بسيري في الغضب لله وتقاتلهم على كفرهم، أو أن تلحقني إلى الطور بمن معك ممن لم يكفر، كما روي عن ابن عبَّاس، وكان هارون أحبَّ إليهم من موسى رئيسا فيهم، فلو خرج عنهم بعدما نهاهم ولم ينتهوا لانتهوا لشدَّة مفارقته لهم عليهم، ولا يخافون من رجوع موسى إليهم بذهابه إلى موسى وإخباره له، لأنَّهم قالوا: ﴿حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾.

﴿**أَفَعَصَيْتَ**﴾ أخالفتني فعصيت ﴿**أَمْرِي**﴾ لك بسياستهم على أمر دينهم ودنياهم، إذ قلت لك: ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [سورة الأعراف: 142] أو «أَمْرِي»: أمور الديانة، وعصيانها: مضادَّتها.

﴿**قَالَ يَبْنَؤُمَّ**﴾ قلبت ياء المتكلِّم ألفا بعد فتح ما قبلها وحذفت الألف تخفيفا، وهو شقيقه على الصحيح، ولكن ذكر الأمَّ فقط استعطافا، والقول بعد أخذ موسى بشعر رأسه بيمينه، وبلحيته بشماله غضبا عليه، إذ خطر على قلبه أنَّه قصَّر وكان شديد الغضب.

﴿**لَا تَاخُذْ بِلِحْيَتِي**﴾ شعر الوجه والذقن وهو المشهور المتعاهد في هذا اللفظ، لا موضعه من الوجه والذقن كما قيل، لأنَّ الأخذ بالشعر أنسب ولو كان اللِّحى اسما للموضع ﴿**وَلَا بِرَأْسِيَ**﴾ شعر رأسي لأنَّه أنسب بالأخذ من نفس الرأس ﴿**إِنِّي خَشِيتُ**﴾ لم أعص أمرك ولكن خشيت بقتالهم، أو

اللحوق بــك إلى الطور بمن معــي ﴿أَن تَقُــولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْــرَآئِيلَ﴾ بقتالك إِيَّاهُــم، أو اللحوق وَرُبَّمَــا جرَّ اللحوق وحده إلــى القتال الموجب للافتراق المستمر، وهم كإنســان واحد إذ كانوا لأب واحد: «إسرائيل»، حتَّى إنَّهم ســمُّوا «بني إســرائيل» بدل التســمية بالقوم ﴿وَلَمْ تَرْقُــبْ﴾ لم تراع ﴿قَوْلِي﴾ وصيَّتي لك فيهم، إذ اســتخلفتك فيهم وقلت: ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ...﴾. والعطف على «فَرَّقْتَ».

وحاصل اعتــذار هارون أنَّــه رأى البقــاء فيهم مــع النهــي ومداراتهم والمحافظة على اجتماعهم إلى أن يأتي موســى فيرى رأيه أصلح، ولا سيما أنَّهــم اســتضعفوه وكادوا يقتلونه، ويجوز أن يــراد بالقول في ﴿وَلَــمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ قول هــارون فيكــون الخطاب فــي «تَرْقُبْ» لموســى أي لم ترقب يا موســى ما أقول لو قاتلتهم، أو لحقت بك من أنَّ ذلك صلاح، أي أن تقول غير مراقب قولي: فرقت بينهم. وفي ذلك دليل على جواز الاجتهاد.

﴿قَالَ﴾ بعد الفراغ من عتاب هارون وبدأ به لأنَّه أعظم شــأنا في الدين، ولقرابته وكونه ركنا في مدافعة السامريِّ وقومه.

﴿فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ﴾ ما شأنك أو ما سببك أو ما مطلوبك؟ وهو لفظ يستعمل في الأمر العظيم الذي من شأنه التخاطب ومراجعة الكلام.

﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِ﴾ علمت ما لم يعلموا به.

[لغة] يقال: بَصُر بالشــيء إذا علمــه وتفطَّن له، وأبصر الشــيء إذا نظر بعينيه، وقيل: بصره وأبصر به بمعنى واحد، ويقــال: البصر للجارحة الناظرة وللقوَّة التي فيها، ويقال للقوَّة التي في القلب المدركة: بصيرة وبصر، ويقال: من الأَوَّل: أبصرت، ومن الثاني: أبصرته وبصرت به، وقلَّما يقال في الحاسَّة: بصرت إذا لم تجمع معها رؤية القلب.

والأنسب بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ تفسير «بصر» بـ«رأى» وهذا الإبصار في البحر حين السلوك، وقيل: في مقامهم بعد الخروج منه وذهاب موسى إلى الطور.

[قصص] فعن ابن عبَّاس رضي الله عنه: رأى جبريل يوم فلق البحر على فرس، وهو على صورته التي كان يغذوه عليها حين ألقته أمُّه في الغار فعرفه، كما يعرف الوليد أمَّه، ولو كان صغيرا، فأخذ قبضة من أثر حافر فرسه، فألقي في قلبه أنَّه لا يلقى على شيء إلَّا كان حَيًّا كما رآه يغذوه من أصابعه بلبن وسمن وعسل. وعن عليٍّ: رآه على فرس حين جاء ليذهب بموسى إلى الطور ولم يره غيره، فقبض من أثر حافر فرسه قبضة، أي لما رأى منه من العجب حين يغذوه، وقيل: لأنَّه رأى كلَّ موضع وقع عليه يدا الفرس أو رجلاه ينبت، فقبض قبضة منه وذلك قوله تعالى:

﴿**فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنَ اَثَرِ الرَّسُولِ**﴾ أي من أثر فرس الرسول، كما قرأ به عبد الله بن مسعود، وأثره: التراب الذي تحت حافره، ولا حاجة إلى تكلُّف أنَّ أثره أثر للرسول بلا تقدير مضاف، ذكره بالرسالة لأنَّه لم يعرفه إلَّا بالرسالة من الله بالمشي في البحر لشأن موسى، وبإطعامه من أصابعه في الغار، ولو عرفه باسم جبريل لذكر لفظ جبريل، أو ذكره باسم الرسول للإشعار بوقوفه على ما لم يقفوا عليه من الأسرار الإلهِيَّة، وللتنبيه على أنَّ الأخذ وقت الإرسال.

والقبضة «مفعول» لأنَّه بمعنى المقبوض، وأصله مصدر، والمراد: تراب قدر ما تقبضه اليد، وهذا أولى من أن يبقى على المصدريَّة مفعولا مطلقا، ويقدَّر المفعول، أي ترابا ثابتا من أثر الرسول، وعلى الأوَّل يتعلَّق «مِنْ» بـ«قَبَضْتُ» والقبض بالضاد المعجمة: الأخذ بجميع الكفِّ، وبالصاد المهملة الأخذ بأطراف الأصابع ﴿**فَنَبَذْتُهَا**﴾ في الحليِّ المذاب، أو في جوف صورة العجل، فكانت حيوانا.

﴿**وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي**﴾ زيَّنت لي نفسي الأمَّارة بالسوء واتَّبعتها لا بإلهام من الله، ولا حجَّة عَقلِيَّة ولا نَقلِيَّة.

﴿**قَالَ**﴾ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ تنحَّ عنِّي! ﴿**فَاذْهَبْ**﴾ عن الناس كلِّهم أو عن بني إسرائيل إذ كنت مغويًا ﴿**فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ**﴾ لأنَّ لك في الحياة. و«فِي» متعلِّق بـ«لَكَ» لنيابته عن ثابت أو بثابت هذا، أو بثابت حالا من الكاف، وأخطأ من يعلِّقه بـ«تَقُولُ» متمسِّكا بالتوسُّع في الظروف لأنَّه إنَّما يصار إلى التوسُّع حيث لا مندوحة.

﴿**أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ**﴾ المصدر اسم «إنَّ». ولم يذكر المقول له للعموم، يقول بأقصى صوته لكلِّ أحد عند خوف المسِّ: لا مساس لك عندي أو بيننا!. وهو مصدر «ماسَّ» بفتح السين مشدَّدة فعل ماض للمفاعلة بين الاثنين.

لا يمسُّه أحد أو يمسُّ أحدا إلَّا حمَّ من حينه حمًّى شديدة، ولا يتكلَّم الناس له ولا يتبايعون معه، ولا يؤاكلونه ولا يشاربونه، ولا يعاملونه معاملة مَّا ولا يلاقي، **وذلك عقاب له قاس وكان كالوحش**، وذلك في الماسِّ الأجنبي.

وأنكر الجبَّائي الحمَّى وقال: إنَّه لَمَّا هوجر هام في البريَّة كالوحش كأنَّه يقول لا مساس، والصحيح الأوَّل.

وعوقب بذلك لأنَّه صوَّر العجل وعبده ليجتمع له الناس فعوقب بالضدِّ، وهو تفرُّقهم عنه. أو لَمَّا تسبَّب لحياة الجماد لمعصية عوقب بالحمَّى التي هي من أسباب موت الحيِّ، أو لَمَّا نبذ في النار القبضة للمعصية نبذ عن الناس وذلك بدعاء موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

[فقه] ومن ذلك في شرعنا إبعاد الناشزة والآبق والطاعن في الدين ونحوهم، والجاني في غير الحرم الداخل فيه امتناعا لا يطعمون ولا يسقون ولا ينفعون حتَّى ينزعوا عن ذلك. وقصَّة الذين خلِّفوا حتَّى تاب الله عنهم [سورة التوبة: 118]. يروى أنَّ موسى أراد قتله فمنعه الله عَزَّ وَجَلَّ لسخائه.

﴿**وَإِنَّ لَكَ**﴾ مع ذلك ﴿**مَوْعِدًا**﴾ وعدا أو زمانه أو مكانه وعده لجهنَّم لوقتها ﴿**لَّن تُخْلَفَهُ**﴾ لا يتركه الله لك ﴿**وَانظُرِ الَىٰٓ إِلَهِكَ**﴾ معبودك ﴿**الذِي ظَلْتَ**﴾ ظللت، كما قرأ الأعمش وأُبي، حذفت اللام الأولى تخفيفا، وقيل: الثانية لتطرُّفها، ولحصول التكرار بها.

[صرف] ذكر أبو حيَّان عن سيبويه أنَّ الحذف شاذٌّ قياسا، وهو مختصٌّ بما إذا سكِّن آخر الفعل، وقال ابن مالك وابن هشام: إنَّه يقاس في كلِّ مضاعف العين واللام في لغة سليم، وقيل: مقيس في المضاعف إذا كسرت عينه أو ضمَّت.

﴿**عَلَيْهِ**﴾ متعلِّق بقوله: ﴿**عَاكِفًا**﴾ مقيما، خصَّه من بين عابديه لأنَّه رأسهم في الضلال.

﴿**لَنُحَرِّقَنَّهُ**﴾ بالنار حرقا شديدا كما قال ابن عبَّاس، وكما يدلُّ له قراءة إسكان الحاء فإنَّ الإحراق شائع بالنار فهو لحم ودم، كما في مصحف أُبي وابن مسعود: «لنذبِّحنَّه ثمَّ لنحرِّقنَّه».

ويجوز أن يكون التشديد مبالغة في حَرَقْت الحديد بالتخفيف أَحْرُقه بضمِّ الراء إذا برده بالمبرد، وهذا ظاهر في أنَّه غير لحم ودم، بل هو جماد، ولا مانع من أنَّه بقي ذهبا خلق الله فيه الحياة، ويبعد ما قيل: إنَّ التحريق بالمبرد كان للعظام، ويقال: يمكن أنَّه حرقه بالنار ثمَّ بالمبرد وأجيز العكس، وبحث بأنَّ النار تذيبه وتجمعه ولا تحرقه وتجعله رمادا اللهمَّ إلَّا بالحيل الصنعيَّة.

﴿**ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ**﴾ لنذرينَّه ﴿**فِي الْيَمِّ**﴾ في البحر، وعن عليٍّ: في النهر ﴿**نَسْفًا**﴾ مصدر مؤكَّد، بحيث لا يبقى منه شيء يرى أو يؤخذ، وشرب بعضهم من ذلك الماء حبًّا للعجل فظهرت صفرة الذهب على شفاههم. وخصَّ البحر أو العين لأنَّ الماء أشدُّ استهلاكا، ولأنَّه بأثر من تراب البحر،

وفي ذلـك زيادة عقوبة للسـامري وإظهار لغبـاوة المفتونين بـه. والتحريق والنسف له طاعة لله ﷻ، فنقول: قد وفّى بها عليه السلام.

﴿**انَّمَا إِلَهُكُمُ اللهُ الذِي لَآ إِلَهَ**﴾ لكم ولا لغيركم ﴿**إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا**﴾ هنا تمَّ كلام موسى مخاطبا به لهم كلّهم: السامريّ ومن تبعه، ويمكن أن يكون خصَّهم دونه زجرا لهـم عن اتِّباعه، كأنَّه قال: احـذروه ولا تتَّبعوه. و«عِلْمًا» تمييز محوَّل عن الفاعل، بمعنى وسـع علمه كلَّ شـيء من أحوال العجل، وغباوة عابديه وغير ذلك.

﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنَ انۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدَ ـ اتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْراً ۝99 مَّنَ اعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ اَلْقِيَٰمَةِ وِزْراً ۝100 خَٰلِدِينَ فِيهِ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ اَلْقِيَٰمَةِ حِمْلاً ۝101 يَوْمَ يُنفَخُ فِي اِلصُّورِ وَنَحْشُرُ اُلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً ۝102 يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمُۥ إِن لَّبِثْتُمُۥ إِلَّا عَشْراً ۝103 نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً اِن لَّبِثْتُمُۥ إِلَّا يَوْماً ۝104﴾

العبرة من القصص القرآني، وجزاء المعرض عن القرآن

وخاطب الله عز وجل سيِّدنا محمَّدًا ﷺ بقوله: ﴿**كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنَ انبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ**﴾ توفيرا لعلمه وتكثيرا لمعجزاته وتسلية له وتذكرة للمستبصرين من أمَّته نقصُّ عليك يا محمَّد غير هذه القصَّة قصًّا ثابتا كقصِّ هذا، أو الكاف اسم، أي قصًّا مثل هذا القصِّ، وإنَّما قدَّرت لفظ «غير» لئلَّا يلزم تشبيه الشيء بنفسه. و«من» للابتداء كالتي بعدُ، فإنَّ الوقائع مجموعة عند الله عز وجل، فهو يأخذ إلينا منها، أو «مِن» التبعيضية اسم مضاف مفعول به، أو يقدَّر [قولنا:] شيئا ثابتا بعض ما قد سبق في الأمم قبلك.

﴿**وَقَدَ ـ اتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا**﴾ قدِّم على طريق الاهتمام، وأخَّر قوله: ﴿**ذِكْرًا**﴾ للتشويق وهو للقرآن، والتنكير للتعظيم لاشتماله على القصص والشريعة وكونه حقيقا أن يتذكَّر فيه.

[نحو] و«مِن» متعلِّق بـ«آتَيْنَا»، ويجوز تعليقها بمحذوف حال من «ذِكْرًا» قدِّم للحصر، أي ذكرا من عندنا لا من غيرنا، ردًّا على المنكرين، وهو بهذا الاعتبار وجه حسن كالأوَّل أو أفضل، ولو كان الأصل عدم التقديم ولا يلائمه قوله:

﴿مَّنَ اَعْرَضَ عَنْهُ...﴾ إلخ والهاء للذكــر والجملة نعت «ذِكْرًا» لأنَّ الأهمَّ للناس أن لا يعرضوا عن القرآن ولو كان ذكره بالشرف في الناس أمرا مأمورا به لكن دون ذلك، ولا يقدم للمنكر بل يقدم له التوحيد والشريعة، ويبعد جِدًّا جعل الهاء لله ﷻ على طريق الالتفــات ﴿فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَــوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا﴾ أي عقابا، شبَّهه بالحمل الثقيل المسمَّى وزرا على طريق الاستعارة والقرينة: «يوم القيامة»، أو أطلق عليه لفظ ســببه أو ملزومه وهو الوزر الموضوع للإثم، لأنَّ الإثم ســببه أو ملزومه على المجاز الإرســاليِّ، وقوله: ﴿وَسَــآءَ...﴾ ترشيح للاســتعارة و[المجاز] الإرســاليِّ، ويؤيِّد الأوَّل قولــه تعالــى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ﴾ [ســورة العنكبوت: 13] والوزر: الإثم على تقديــر: جزاء الإثم، أو عقاب الإثم، وما تقدَّم أولى.

﴿خَالِدِينَ فِيهِ﴾ في الــوزر بمعنى العقاب، وهو حــال مقدَّرة من ضمير «يَحْمِلُ» أي ناويــن الخلود، لأنَّ الخلود ليس نفــس وقوعهم في العقاب بل دوامهم فيه، والجمع باعتبار معنى «من»، ويجوز أن يكون نعتا لـ«وِزْرًا».

[نحو] فعندي لا يلزم إبراز الضمير من الحال أو النعت أو الخبر إذا جرى ذلك على غير ما هو له إن ظهــر المعنى، ولو جعل نعتا وبرز لقيل: خالدا هم فيه، وهم فاعل خالدا.

﴿وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلاً﴾ فاعل «سَــاءَ» ضمير عائد إلى مبهم مفسَّر بالتمييز، على قاعدة باب نِعْم وبئس، والمخصوص محذوف بعدَ «حِمْلاً»، أي وزرهم، ويجوز تفسيره بـ«قَبُحَ»، وهو أيضا من باب نعم وبئس، لأنَّ بابه غير مختصٍّ باللفظين، بل مطَّرد في الثلاثي بشروطه فلا تهم. ولام «لَهُمْ» للبيان.

وأعاد ذكر يوم القيامة لزيادة التقرير والتهويل، وأجاز بعض أن يكون «سَاءَ» بمعنى «أَحْــزَنْ» والهاء مفعول به، واللام صلة مثل ما شــهر فــي ﴿رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [سورة النمل: 72].

[نحو] و«حِمْلاً» حــال، أي محمولا، ويجوز أن يقدَّر: ســاءهم، و«لَهُمْ» حال من «وِزْرًا» مع الفصل، والوجهان ضعيفان. ﴿**يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ**﴾ بدل من «يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، أو بيان، أو مفعول به لمحــذوف، أي اذكر، قيل: أو ظرف لـ«يَتَخَافَتُــونَ» وهو ضعيف للبعد، مع التقديم ولــزوم تقديم ما بعد العاطف عليه، إذا جعــل «يَتَخَافَتُونَ» حــالا مــن «الْمُجْرِمِينَ»، والعاطــف واو قوله: «وَنَحْشُرُ» أو متعلِّق بمحذوف حذف لضيق الكلام عن الحصر، أي يكون كذا وكذا يوم ينفخ في الصور.

والمراد: نفخة البعث. و«الصُّور»: القرن الذي ينفخ فيه إســرافيل، لا نفخة الفزع ولا نفخة الموت لقوله ﷻ: ﴿**وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ**﴾ أي يوم إذ نفخ، وأعاد ذكر اليوم مع أنَّ الحشر لا يكون إلَّا بعد النفخ لزيادة التقرير والتهويل.

[لغة] وأجيز أن يكون الصور جمع صُورة بإســكان الواو، أو اسم جمع على الخلاف فيما واحده بالتاء، ويدلُّ له قراءة في الصُوَر (بضمِّ الصاد وفتح الواو) كغُرْفة وغُرَف.

﴿**زُرْقًا**﴾ جمع أزرق، والمراد: زرقة البــدن لا خصوص العين، ولا يزرقُّ إلَّا للشــدِّ وزوال الرطوبة، وعن ابن عبَّاس: زرق العيون، والزرقة تطلق على الإنســان ولو كانت في عينه فقط كما يقال: أعمى، وأكحل، وأحول، ولو كان ذلك في عين فقط، وذلك مجاز مشهور، أو حقيقة عرفيَّة.

وجعلوا زرقا لقبح الزرقة، والعرب تبغضها وأشــدُّ عــداوة للعرب الروم ولذلك قالت العرب في وصف العدوِّ: أســود الكبد، أصهب الســبال، أزرق العين، قال شاعر:

وما كنت أخشى أن تكون وفاته   بكفي سبنتي أزرق العين مطرق[1]

---

(1) البيت **للشماخ** في ديوانه، ص 449. المعجم المفصَّل في شواهد اللغة العَرَبِيَّة، ج 5، ص 222.

وقال:

لقد زرقت عيناك يا ابن مكعبر ألا كلُّ ضَبِّيٍّ من اللؤم أزرق[1]

ويوم القيامة حالات، وفيه أنـواع، ففيه قوم عمي وقوم زرق، وتارة يكون الواحد أزرق وتارة أعمـى، وبذلك يجمع بين قوله تعالـى: ﴿زُرْقًا﴾ وقوله: ﴿عُمْيًا﴾، أو يفسَّر ﴿زُرْقًا﴾ بعميا، لأنَّ العين إذا ذهب نورها زرق ناظرها، أو يحشـرون عطاشـا، والعطش الشـديد يغيِّر العين إلى الزرقة قال الله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [سورة مريم: 86].

﴿**يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُم**﴾ يخفون أصواتهم لهـول المطلع، والجملة حال ثانية ﴿**إِن لَّبِثْتُم**﴾ في قبوركـم، أو في الدنيا أو فيهما، أو مـا غبتم عن هذا الوقت ﴿**إِلَّا عَشْرًا**﴾ أي عشر ليال، والمراد بالليالي الأَيَّام بلياليها، وهذا أولى من أن يقال: حذف تاء عدد المذكَّر على القلَّة، أو على لغة للفاصلة. حكى الكسائي: «صمنا من الشهر خمسا»، وفي الحديث: «**ثمَّ أتبعه بستٍّ من شوال**»[2].

ويدلُّ لإرادة الأَيَّام قوله: ﴿ان لَّبِثْتُمُوَ إِلَّا يَوْمًا﴾ اسـتقصروا مدَّة اللبث في القبور ندمـا على قولهم: إنَّكـم لا تبعثون، وقيـل: أرادوا اللبـث في الدنيا استقصارا بالنظر إلى أبد الآخرة، وتأسُّـفا عن إضاعة أَيَّام الدنيا في الشهوات والمعاصي، ولا يبحث بأنَّهم في شـغل عن ذلك لأنَّهم لم يذكروا أَيَّام الدنيا شوقا إليها من حيث إنَّها أورثتهم الهلاك الحاضر، الذي لو لم يضيِّعوها لنجوا منها، وأيَّام اللذَّة قصيرة وأيَّام الشدَّة طويلة.

---

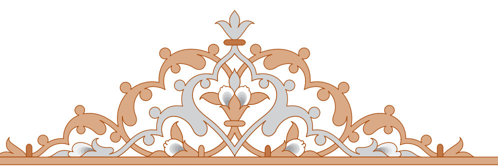
(1) البيت من الشواهد ولم تنسـبه المراجع لقائله. المعجم المفصَّل في شـوهد اللغة العَرَبِيَّة، ج 5، ص 148.

(2) رواه **أبو داود** بهذا اللفظ في كِتَاب الصوم، باب في صوم سِـتَّة أَيَّام من شوال، رقم 2078. ورواه **مسلم** في كِتَاب الصوم، باب: استحباب صوم سِتَّة أَيَّام من شوال إتباعا لرمضان، رقم 1984، بلفظ: «ثم أتبعه ستًّا من شوال». عن أبي أَيُّوب الأنصاري.

وعن ابــن عبَّاس: عنوا أربعين عامــا يرفع عنهم العــذاب فيها بين نفخة الموت ونفخة البعث. والجملة محكيَّــة بـ«يَتَخَافَتُونَ» لأنَّ معناه: يقولون في سرٍّ، وإن قدَّرنا القول أي يتخافتون قائلين: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ احتمل أنَّهم يقولون غير هذا أيضا في تخافت.

﴿**نَّحْنُ أَعْلَمُ**﴾ منهم ﴿**بِمَا يَقُولُونَ**﴾ في شــأن التقليل كلَّما قلَّلوا كنَّا أشدَّ تقليلا في مدَّة اللبث، وتنزيل الكثير منزلة القليــل ﴿**إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً**﴾ أعدلهم عقلا ورأيــا ﴿**اِن لَّبِثْتُــمْ إِلَّا يَوْمًا**﴾ ولم يقل أحد منهــم أقلَّ من يوم كساعة، ولعلَّ الله ﷻ مثَّل لهم بها أيضا في التقليل.

وقد قال بعض: أريد باليــوم الزمان القليل فهو صادق بالســاعة فالتنكير للتحقير والتقليل، وليس كما قيل إنَّ مقابلته للعشــر تســتبعده، ونســب هذا لأمثلهم لكونه أعظم في الندم، وأدلَّ على شــدَّة الهــول، وقائله أعلم بفظاعة الأمر وشدَّة العذاب.



﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿105﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿106﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿107﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿108﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿109﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿110﴾ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿111﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿112﴾ ﴾

أحوال الأرض والجبال والناس يوم القيامة

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ﴾ عطف قصَّة على أخرى، والسائلون منكرو البعث من قريش على الاستهزاء، يقولون: كيف يفعل ربُّك بالجبال إن كان البعث؟ كما رواه ابن جريج أنَّهم سألوا: كيف يفعل بها الله؟ فنزلت الآية، يحتجُّون لعدم البعث بأنَّ الجبال تبقى وَلَا بُدَّ في زعمهم ولو صحَّ البعث لأثَّر فيها بالتغيير.

وفيه ردٌّ على من قال: لم يقع سؤال، وإنَّ المعنى من شأنهم أن يسألوك فإذا سألوك ﴿فَقُلْ يَنسِفُهَا﴾، وهو حمل على غير الظاهر بلا دليل، بل سألوا متوهِّمين أيضا أنَّ الجبال مانعة من جمع الناس، فضلا عن أن يتخافتوا، وفيه أنَّ التخافت يتصوَّر ولو بين اثنين.

وقيل: جماعة من ثقيف [تخافتوا] على الإنكار كذلك، وقيل: قوم من المؤمنين طلبا للعلم ﴿فَقُلْ يَنسِفُهَا﴾ يفرِّقها ﴿رَبِّي﴾ بالريح ﴿نَسْفًا﴾ شديدا

بعد أن يجعلها كالرمل، والفاء الموضوعة للتعقيب دليل على الأمر بالســـرعة في جواب قريش وثقيف تحقيقا للحقِّ، وإزالة لشـــبهتهم، أو حفظا للمؤمنين عَمَّا يفسد اعتقادهم.

وجواب السؤال في الأصول تارة بالفاء كالآية وتارة بدونها كقوله تعالى: ﴿يَسْـئَلُونَكَ عَنِ الَاهِلَّةِ...﴾ [ســورة البقرة: 189] و﴿يَسْـئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ...﴾ [سورة الإسراء: 85] و﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّـاعةِ...﴾ [سورة الأعراف: 187]، وفي الفروع بدونها كقوله ﷻ: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ...﴾ [ســورة البقرة: 219] و﴿يَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ...﴾ [ســورة البقرة: 215] و﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الَانفَالِ...﴾ [سورة الأنفال: 1] و﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ اليَتَامَىٰ...﴾ [ســورة البقرة: 220] و﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾ [ســورة البقرة: 222] ومنكروا البعث من قريش ومن غيرهم ينكرون فناء الأرض والسماوات أيضا.

﴿**فَيَذَرُهَا**﴾ يصيِّر الجبال باعتبار أجزائها السُّــفل المســاوية في الانبساط للأرض بعد نسف ما خرج منها عن الأرض، أو يقدَّر مضاف أي نصيِّر أسفلها بعد نســفها، أو للضمير المدلول عليها بذكر الجبال وبقوله: ﴿**قَاعًا**﴾ مفعول ثان بلا تشبيه ﴿**صَفْصَفًا**﴾.

[لغة] القاع: السهل أو المســتوي من الأرض لا نبات ولا جبل ولا بناء، المنكشفُ أو المستوي كذلك صلبا، والصفصف: الأرض المستوية الملساء، أو هما بمعنى واحد وهو المستوي بلا ساتر فيه. و«صَفْصَفًا» حال أو بدل، أو يكون مفعولا ثانيا، و«قَاعًا» حال من ضمير النصب قبله.

﴿**لَّا تَـــرَىٰ فِيهَا**﴾ في الأرض أو في أســافل الجبال بعد نســفها. والرؤية بصرية، والخطاب لكلِّ من يصلح له علــى طريق البدليَّة، أو له ﷺ ويلحق به غيره ﴿**عِوَجًا**﴾ عدم استقامة حسِّــيَّة ويطلق على عدم المَعنَويَّة، وكذا المفتوح العين، وقيل: المكسور ما لا يدرك بالعين، والمفتوح ما يدرك بها، وعليه فما

في الآية يدرك بالهندسة، وقيل في المفتوح: إنَّه مصدر، وصحَّت الواو بعد فتح لصحَّتها في ما أخذ منه وهو «أعوج» بوزن أكرم فعلا ماضيا.

﴿وَلَآ أَمْتًا﴾ ارتفاع بعض عن بعض، وعن ابن عبَّاس ﴿عِوَجًا﴾: ميلا، و﴿أَمْتًا﴾: أثرا مثل الشراك، وعنه: ﴿عِوَجًا﴾: واديا، و﴿أَمْتًا﴾: رابية، وعن قتادة: ﴿عِوَجًا﴾: صدع، ﴿أَمْتًا﴾: أكمة، وقيل: ﴿أَمْتًا﴾: شقًّا في الأرض، وقيل: الأمت أن يغلظ مكان ويدقَّ مكان، والكلُّ يرجع إلى الأوَّل. وجملة ﴿لَّا تَرَى...﴾ مفعول ثان أو حال أو نعت.

﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم إذ نسفت، والماضي بمعنى المضارع لتحقُّق الوقوع، أو إذا للاستقبال هنا، وهكذا حيث يصلح، أي يوم إذ تنسف، وذلك من إضافة العامِّ وهو «يوم» أي وقت إلى الخاصِّ وهو «إذ» بمعنى وقت مقيَّد.

و«يَوْمَئِذٍ» متعلِّق بقوله: ﴿يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ﴾ أو بدل من «يَوْمَ الْقِيَامَةِ» مع كثرة الفصل وتعطُّل «يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ» عَمَّا قبله، وعدمُ التعطُّل وعدم كثرة الفصل أولى، وكذلك لا يصار إلى الاستئناف مع إمكان عدمه بلا تكلُّف ولا ضعف، كما أنِّي لم أذكر الاستئناف في قوله ﷿: ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ وقد ذكروه، والواو عائد إلى الناس مطلقا.

والداعي: إسرافيل في الصور على صخرة بيت المقدس قائلا: «أيَّتها العظام البالية والجلود المتمزِّقة واللحوم المتفرِّقة هلمُّوا إلى العرض على الرحمن» ويقبلون إلى جهة الصوت من كلِّ موضع في ظلمة تطوى السماوات وتتناثر النجوم ويذهب القمر والشمس.

﴿لَا عِوَجَ لَهُ﴾ لا ميل لأحد عن ذلك الداعي، واللام بمعنى عن أو على، أصله كما يقال: لا عصيان له ولا ظلم، أي لا يُعصى ولا يُظلم بالبناء للمفعول، بمعنى لا يوجد له من لا يتبع صوته، أو الهاء للدعاء، أي لا يميل

دعاؤه عن أحد فيبقى بلا مجيء أو بلا سماع، أو للداعي على معنى لا عوج له، وقيل: المعنى لا شكَّ في وقوع ذلك الدعاء.

﴿وَخَشَعَتِ الَاصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ﴾ خفيت لمهابته وقت الهول، شبَّه خفاء الصوت بالذلِّ المسمَّى خشوعا لجامع انتفاء الترفُّع فسمَّاه باسمه، واشتقَّ منه خشعت على التبعيَّة وذلك مجاز لغويٌّ، وهذا أولى، ويجوز المجاز الحذفيُّ بأن يقدَّر: خشعت أصحاب الأصوات. ومع شدَّة الهول ذكر اسمه الرحمن للإيناس.

﴿فَلَا تَسْمَعُ﴾ الخطاب مثله في قوله تعالى: ﴿لَا تَرَى﴾ ﴿إِلَّا هَمْسًا﴾ صوتا خفيًّا، أو كلاما خفيًّا كقراءة أُبي: فلا ينطقون إلَّا همسا، وعن ابن عباس ﵁: تحريك الشفة بلا نطق، ولا يصحُّ عنه إذ لا صوت فيه يسمع، إلَّا إن ضمِّن معنى «تَسْمَعُ» معنى تشاهد، وعنه: [الهمس:] خفقُ الأقدامِ في المشي إلى المحشر وهم سكوت، كقوله:

«وهنَّ يمشين بنا هميسا»(1)

ويقال للأسد «هموس» لخفاء وطئه الأرض.

﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم إذ وقع أو يقع ما ذكر على ما مرَّ، يتعلَّق بـ«خَشَعَت» أو بـ«تَسْمَعُ» أو بدل من «يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، أو من «يَوْمَئِذٍ» أو بقوله: ﴿لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ﴾ على أنَّه لا صدر لـ«لَا» إذا لم تعمل عمل إنَّ، أو كانت في جواب القسم، والمعنى: لا تنفع الشفاعة أحدا.

﴿إِلَّا مَنَ اَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ أذن له أن يشفع له شافع، واللام للنفع، وأجيز أن تكون للتعليل ﴿وَرَضِيَ لَهُ﴾ هذه اللام مثل الأولى، متعلِّق بـ«رَضِيَ» أو

(1) أورده صاحب اللسان ولم ينسبه، وقال: تَمَثَّلَ به ابن عبَّاس. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مَادَّة «همس».

بمحذوف حال لقوله: ﴿قَوْلاً﴾ من شافع، يقول مثلا: اللهمَّ ارحم هذا، أو منه نفسه ـ أعني المشفوع له ـ يقول في الدنيا: لا إله إلَّا الله ويتبعه بالوفاء.

وقد يشفع شافع بلا إذن من الله فلا تنفع، أو يشفع فتقبل، ومن الأوَّل قوله ﷺ في المجرور إلى النار: «**هذا يا ربِّ من أمَّتي ـ أو من أصحابي ـ فيقال له: لا تدري ما أحدث فيقول:** «**سحقا**»[1]. ويجوز أن يكون من أذن له هو الشافع على حذف مضاف أي لا تنفع الشفاعة أحدا إلَّا شفاعة من أذن له الرحمن أن يشفع، ورضي له أي لهذا الشافع قولا، هو أن يقول: «يا رَبِّ ارحم هذا» فيكون معنى الإذن إصدار الشفاعة منه ولو لم يقل له اشفع مطلقا.

﴿**يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ**﴾ ما استقبلهم، كأنَّه يرونه متوجِّها ﴿**وَمَا خَلْفَهُمْ**﴾ ما قبلهم كأنَّه أمر مستدبر، أو ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾: ما مرَّ كأنَّه بين أيديهم لحصوله، و﴿مَا خَلْفَهُمْ﴾: ما يعقبهم كأنَّه خلفهم لعدم حضوره ووقوعه. أو ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾: الآخرة و﴿مَا خَلْفَهُمْ﴾: الدنيا، أو بالعكس، أو ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾: ما يدركونه و﴿مَا خَلْفَهُمْ﴾: ما لا يدركونه. والهاءان للناس لا بقيد الحشر، وقيل: بقيده.

﴿**وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ**﴾ بالله ﷻ، لا يحسُّونه بجوارحهم ولا بقلوبهم، بل يُعلَم وجودُه بمصنوعاته متنزها عن شبه الخلق ﴿**عِلْمًا**﴾ تمييز محوَّل عن الفاعل ﴿**وَعَنَتِ**﴾ ذلَّت كذلِّ العاني أي الأسير ﴿**الْوُجُوهُ**﴾ الناس، عبَّر عنهم بأشرف الأعضاء الظاهرة وهو وجوه الرؤوس، خصَّت لذلك الشرف ولسرعة

---

(1) الحديث رواه **الربيع** في مسنده (6) باب في الأُمَّة، رقم 43، من حديث أبي هريرة. ورواه **مسلم** في كتاب الفضائل، باب إثبات حوض نبيئنا ﷺ وصفاته، رقم 2295، ونصُّه: قال ﷺ: «إنِّي فرطكم على الحوض فإيَّاي لا يأتينَّ أَحَدكم فيذبُّ عَنِّي كما يذبُّ البعير الضالُّ فأقول فيم؟ فيقال: إنَّك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول: سحقا».

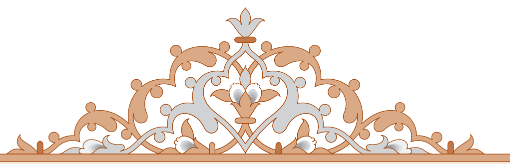
ظهور الذلِّ إليها إذا كان. و«ال» للعهد أو عوض عن الضمير أي وجوههم، وقيل: وجوه المجرمين كقوله تعالى: ﴿سِيئَتْ وُجُوهُ الذِينَ كَفَرُواْ﴾ [سورة الملك: 27] أو الوجوه بمعنى الأشراف منهم، وذلُّهم أولى بالذكر.

[أصول الدين] ﴿**لِلْحَيِّ**﴾ الذي لا يتَّصف بالموت ولا بحياة الخلق ﴿**الْقَيُّومِ**﴾ بالخلق إيجادا وإعداما وأحوالهم ﴿**وَقَدْ خَابَ**﴾ خسر وفاته الخير ﴿**مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا**﴾ شركا أو ما دونه من الكبائر، وحمله البقاء معه حتَّى مات.

﴿**وَمَنْ يَّعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ**﴾ عملا ثابتا من الأعمال الصالحات، أو يعمل بعض الصالحات على أنَّ «مِن» التبعيضيَّة اسم مضاف، ولا دليل له، وذلك العمل أداء الفرائض وترك المعاصي، وذلك غير التوحيد والشرك، وذكرهما بقوله: ﴿**وَهُوَ مُومِنٌ**﴾ موحِّد لم يخلط شركا ولا يتصوَّر ثواب الآخرة على عمل مع الإشراك.

﴿**فَلَا يَخَافُ**﴾ أي فهو لا يخاف ولولا هذا التقدير لقيل: «لا يخف» بالجزم وإسقاط الفاء، لأنَّ «لا» النافية تصلح لأن تلي «مَن» الشرطيَّة ﴿**ظُلْمًا**﴾ بعذاب ﴿**وَلَا هَضْمًا**﴾ إذلالا بإبطال حسناته، أو ﴿ظُلْمًا﴾: منع ثواب، و﴿هَضْمًا﴾: منع بعضه، أو ﴿ظُلْمًا﴾: بزيادة في سيِّئاته و﴿هَضْمًا﴾: بنقص من حسناته، أو لا يخاف أن يعامل معاملة الظالم لغيره الهاضم له، لأنَّه لم يظلم غيره ولم يهضمه.

أمَّا على حذف مضاف، أي جزاء ظلم ولا هضم، أو سمِّي الجزاء باسم سببه، فإنَّ الظلم والهضم للغير سبب للجزاء الذي هو العقاب، والآية مقابلة لقوله ﷻ: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾.



﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿113﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿114﴾﴾

عربيَّة القرآن وتصريف القول فيه، وعدم العجلة بقراءته قبل تمام الوحي

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ عطف على قوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ﴾ وهنا ما هنالك، والمعنى: أنزلنا القرآن على طريقة إنزال هذه الآية، والهاء للقرآن لحضوره في الأذهان مع معونة لفظ الإنزال ولدلالة ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ وكان عربيًّا لتفهمه العرب عن نبيئهم فيعلموا ببلاغته القصوى التي عجزوا عنها أنَّه من ربِّ العالمين.

﴿وَصَرَّفْنَا﴾ كرَّرنا ﴿فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ﴾ وعيدا من جملة الوعيد على الشرك والمعاصي ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ الشرك والمعاصي خوف عقاب كالعبد المطيع لسيِّده خوف الضرب ﴿أَوْ يُحْدِثُ﴾ أي القرآن أسند الإحداث إليه لأنَّه سبب ﴿لَهُمْ ذِكْرًا﴾ تفكُّرًا فيه مؤدِّيا إلى الإيمان به، أو ذكرا نفس الاتعاظ، وذلك كقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [سورة طه: 44] وفسَّر بعض التقوى بترك المعاصي والذكر بفعل الطاعات، ولا يتمُّ إلَّا بجعل «أو» بمعنى الواو إذ لا يجزي أحدهما عن الآخر.

ويجوز أن تكون للتنويع على معنى إكثار الرغبة في ترك المعاصي مع الحظِّ المجزي من الطاعات، أو إكثار الرغبة في الطاعات مع الحظِّ المجزي

من ترك المعاصي، وتركها تخلية (بالخاء المعجمة) وفعل الطاعات تحلية (بالمهملة)، ويجوز أنَّها بمعنى الواو، والذكر: الشرف فإنَّ القرآن شرف للعرب مع التقوى الشاملة لأداء الطاعات، و«لعلَّ» للتعليل أو للترجية لا للترجِّي.

﴿**فَتَعَالَى اللَّهُ**﴾ تعاظم عن أن يشرك به أو يعصى أو أن يكون ما أنزل غير متسبِّب للاتقاء والذكر، وإنَّما خالفوا عنادا ﴿**الْمَلِكُ**﴾ للوعد والوعيد والأمر والنهي في مصالح الدنيا والدين ﴿**الْحَقُّ**﴾ الثابت القائم بنفسه، صفة ثانية أو صفة للملك، أي الحقُّ في مالكيَّته، وهو خلاف الباطل، فما في القرآن لا يحوم حوله باطل.

﴿**وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَنْ يُّقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُ**﴾ عطف إنشاء على إخبار هو قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ أو على إنشاء هو قوله: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الحَقُّ﴾ لأنَّه تعجيب، كأنَّه قيل: نبَّهتك على عظمة جلالي ولاق بك أن لا تقصِّر فيها بالعجلة بكلامي.

[سبب النزول] وكان ﷺ يتبع جبريل حرفا حرفا أو كلمة كلمة خوف أن يفوته، فنزل: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ...﴾ الآية [سورة القيامة: 16ـ17] نهيا له عن أن يفوته بالتلفُّظ سماع ما بعدَ ما تلفَّظ به.

[قلت:] ولا يصحُّ ما قيل: إنَّ ذلك نهي عن تبليغ المجمل قبل نزول بيانه، وما قيل من أنَّه نهي عن كتابته قبل أن يفسَّر له ما لم يفهمه، لأنَّ العجلة بتبليغ المجمل والكتابة قبل التفسير طاعة مأمور بها فاعل هو بها، وأيضا كيف يكتبه كاتب قبل التبليغ؟.

وقيل: نهي عن الحكم فيما من شأنه أن ينزل فيه قرآن فيؤخَّر لعلَّه ينزل فيه شيء، كما روي أنَّه لطم رجل زوجه فحكم لها بالقصاص فنزل إبطالا

لحكمه قوله ﷻ: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ...﴾ [سورة النساء: 34] أو نزل قوله ﷻ: ﴿وَلَا تَعْجَلْ﴾ فترك حكمه باللطم.

وقيل: ضرب له أهل مَكَّة وأسـقف نجران من النصـارى أجلا ثلاثة أَيَّام ومضت، وفشـا أنَّه عجز فطلـب نزول القرآن فـي ذلك فنـزل: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰٓ﴾ أي يوفَّى إليك وحيه.

﴿**وَقُل رَّبِّ**﴾ يا ربِّ ﴿**زِدْنِي عِلْمًـا**﴾ في الدين وكلِّ ما أحتاج إليه، أو في القرآن فإنَّ تحت كلِّ حرف أو كلمة أسرارا، فكان ﷺ يقول: «**اللهمَّ انفعني بما علَّمتني وعلِّمني ما ينفعني، وزدني علمـا والحمد لله على كلِّ حال**»[1]. وكان يقول: «**اللهمَّ زدني إيمانا وفقها ويقينا وعلما**»[2].

---

(1) رواه **الترمذي** في كتاب الدعوات (129) باب العفو والعافية، رقم 3599. ورواه **ابن ماجه** في كتاب المقَدِّمَة (23) باب الانتفاع بالعلم والعمل به، رقم 251. من حديث أبي هريرة.

(2) رواه **البيهقي** في شـعب الإيمان، المقدمة، باب القول في زيادة الإيمان ونقصانه، رقم: 46، ج1 ص149. من حديث ابن مسعود.

﴿وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا ١١٥ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ ١١٦ فَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ ١١٧ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعۡرَىٰ ١١٨ وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضۡحَىٰ ١١٩ فَوَسۡوَسَ إِلَيۡهِ ٱلشَّيۡطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ ١٢٠ فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ١٢١ ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ ١٢٢ قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ١٢٣ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ١٢٦ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَنۡ أَسۡرَفَ وَلَمۡ يُؤۡمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦۚ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ ١٢٧﴾

قصَّة آدم في الجنَّة وإخراجه منها

﴿وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ﴾ قبل هذا الزمـان أو قبل وجود هؤلاء المخالفين، وقبل نزول القرآن، أو قبل الأكل من الشجرة، والأوَّل أولى ويليه الثالث ثمَّ الثاني.

والكلام متعلِّق بقوله ﷻ: ﴿وَلَا تَعۡجَلۡ﴾ بمعنى أنَّ النسيان قد سبقك في أبيك وأنت منه مع أنَّه كان في الجنَّة، وعهدنا عليـه، وإنَّما العصمة منِّي، أو

بمعنى: لا تعجل فقد عجَّل أبوك بالأكل من الشجرة فوقع فيما علمت، أو متعلِّق بقوله: ﴿صَرَّفْنَا﴾ ولو تخالفا إخبارا وإنشاء، فإنَّ القَسَم إنشاء لكن محطّ الكلام جوابه، وهو خبر مثل «صَرَّفْنَا»، بمعنى إنَّ هؤلاء المخالفين تركوا الوعيد كما تركه أبوهم آدم كذا قيل.

[قلت:] ويبحث بأنَّ فيه تشبيه آدم بالكفَّار وتشبيههم به مع أنَّهم عمدوا ولم يتعمَّد بل نسي، أو تأوَّل، ولو أجيب بأنَّ محطَّ الكلام مجرَّد التسلية عَمَّا وقع من المخالفة وأنَّ القصور شأن الإنسان ولو سعيدا.

أو متعلِّق بـ«نَقُصُّ» تمثيل له وفيه بعد لكن فيه إنجاز الموعود، وهو إخراج آدم، كما أنَّ المقصوص عنهم منجز لهم الوعيد، وفيه إنجاز القصِّ، أو متعلِّق بمحذوف مستأنف بمعنى: إنَّا نمهل ونعفو، إلَّا من عاند وأصرَّ.

﴿فَنَسِيَ﴾ ترك العهد والوعد وهو الخروج من الجنَّة، أو ﴿إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ بتأويل، أو لم يحافظ عليه حتَّى زال عن حافظته، والعطف على «عَهِدْنَا» فالترتيب عرفي، أو على محذوف أي: لم يهتم فنسي.

﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ عمدا للمعصية بل تأوَّل أو زال عن حفظه، والنفس تميل إلى ما لا ينبغي، والتفاضل في أصحابها بجبذها عنه.

[سيرة] وقد اهتمَّ عليُّ بن أبي طالب [كرَّم الله وجهه] بعد موت رسول الله ﷺ بتزوُّج بنت أبي جهل على فاطمة رضي الله عنها، فتذكَّر عداوة أبي جهل لرسول الله ﷺ وآله، فتركها مع إسلامها لذلك، ولئلَّا تغتاظ فاطمة رضي الله عنها.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ شروع في بيان المعهود لآدم، أي واذكر يا محمَّد إذ قلنا... إلخ عطف قصَّة على أخرى، أو على محذوف أي: اذكر هذا واذكر إذ قلنا... إلخ.

﴿فَسَجَدُواْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾ أكَّد هذا الاستثناء بقوله: ﴿أَبَىٰ﴾ أي امتنع من السجود له، أو أبى السجود له كما يحتملهما قوله: ﴿أَبَىٰٓ أَنْ يَّكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ [سورة الحجر: 31] أو الإباء أشدُّ الامتناع، أو لا يقدَّر له معمول تنزيلا له منزلة اللازم كذا قيل، وفيه أنَّ هذا التنزيل إنَّما يحسن إذا احتمل العامل متعلقات، وأمَّا إذا كان له واحد متعيِّن كالسجود هنا فلا.

﴿فَقُلْنَا﴾ نصحا لآدم ﴿يَآ ءَادَمُ إِنَّ هَذَا﴾ أي الذي لم يسجد لك ﴿عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ أعاد اللام للدلالة على أنَّ عداوته لحوَّاء بالأصالة لا بالتبع له، ولولا ذلك لقيل لك وزوجَك بالنصب على المعيَّة أو بالجرِّ عطفا بلا إعادة للجارِّ، كقوله تعالى: ﴿تَسَّآءَلُونَ بِهِ وَالَارْحَامَ﴾ [سورة النساء: 1] بجرِّ «الأرحام» في قراءة.

[نحو] وعلى أنَّه لا بدَّ من إعادة الجارِّ فعلَّة إعادته أيضا ما ذكر من الدلالة على الأصالة المذكورة، لأنَّه يمكن أن يقال: احذره أنت وزوجك فإنَّه عدوٌّ لكما، أو عدوٌّ لك وزوجك بالنصب، ونحو ذلك مما لا يحتاج إلى إعادة اللام.

[بلاغة] كما نقول التنكير للمبالغة في ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [سورة مريم: 4] مع أنَّ التمييز أبدا نكرة لأنَّه يمكن أن يقال: اشتعل شيب الرأس أو شيب الرأس اشتعل، أو اشتعل الرأس شيبه، أو بشيب، ونحو ذلك مما لا تمييز فيه.

وتلك العداوة حسد وهو أوَّل من حسد، وقيل: عاداه لأنَّه شيخ جاهل وآدم شاب عالم، والجاهلون لأهل العلم أعداء، أو لتنافي النار والطين، ولا يقال: إبليس أعلم لقدمه وكثرة تجاربه لأنَّ ذلك ليس على رسوخ منه، وآدم راسخ ولو قلَّ علمه بالأشياء، ألا ترى استغفاره عقب الذنب؟ وما ذلك إلَّا لرسوخ معرفته بالله، ولو قيل له: يكون إبليس مكانك في الجنَّة لم يمتنع ولم ينقض استغفاره. وروى أبو أمامة الباهلي والحسن: إن عقل آدم كعقل جميع أولاده.

﴿فَـلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِـنَ الْجَنَّةِ﴾ لا يؤثِّـر فيكما كيـده أو لا تتأثَّرا بكيده ﴿فَتَشْقَىٰٓ﴾ تلحقك متاعب الدنيا من مرض وحزن وحرارة وبرد وجوع وعراء وظمأ ونحو ذلك، ومشاقِّ تحصيل المعاش.

[بلاغة] وأفرده بالذكر لأنَّه الأصل ولاستلزام شقائه شقاءَها لا للفاصلة إذ لو قال فتشقيا لتمَّت، إلَّا أن يقال: إتمام الفاصلة بآخر الفعل أولى وأنسب من إتمامها بضمير، كما تمَّت في «أَبَى» و«تَضْحَى» و«يَبْلَى» و«غَوَى» ومراعاة هذا وجه حسن، وكذا في قوله: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ وَإِنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ لا تكون منكشفا للشمس إذ لا يصل من في الجنَّة إلى جوع أو عطش أو عراء أو بروز للشمس، ولا شمس فيها بل يتنعمون بتلك النعم على حسب خطور ذلك ببالهم، بدون حضور أضداده.

[بلاغة] وجمع الجوع مع العراء لا مع الظمأ، والظمأ مع الضحو لأنَّ الجوع خلو الباطن والعري خلو الظاهر، والظمأ حرارة الباطن والضحو حرارة الظاهر، والحاصل أنَّه لا يصيبك ضرر باطن ولا ظاهر، ولو جمع انتفاء الجوع وانتفاء الظمأ لتوهِّم أنَّهما نعمة واحدة أو قرب التوهُّم، وكذا انتفاء الضحو والعري.

كما قطع امرؤ القيس ركوب الجواد عن قوله لخيله كرِّي كرَّة، وقطع تبطن الكاعب عن ترشف الكأس في قوله:

كأنِّي لم أركب جوادا للذَّة ولم أتبطَّن كاعبا ذات خلخال
ولم أسبأ الزِّقَ الروِيَّ ولم أقل لخيلي كرِّي كرَّة بعد إجفال

وقد يقال: جمع الأَوَّلَيْن للَّذَّة والأخيرين للشجاعة. والآية تفصيل لمضمون بعض قوله تعالى: ﴿فَـلَا يُخْرِجَنَّكُمَا...﴾ وبقي كثير لكفاية التمثيل بقليل، فإنَّ في الجنَّة أيضا نكاحا وغيره مما يلذُّ.

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ﴾ عُدِّي بـ«إلى» لأنَّ المراد: أنهى إليه الوسوسة.

[لغة] وهي الخطرة الرديَّة، وأصله: صوت الحليِّ الخفيِّ، من مضاعف الحكاية للصوت كولولة الثكلى، ووعوعة الذِّئب، ووقوقة الدجاجة، وقطقطة القطا.

﴿قَالَ يَآ ءَادَمُ هَلَ اَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾ بدل من «وَسْوَسَ»، أو جواب سؤال ماذا قال في وسوسته؟. ناداه باسمه وألان له بالاستفهام ليكون مقبلا عليه، وأمكن للاستماع موهما له أنه ينصحه كما نصحه الله بالنداء.

وشجرة الخلد: شجرة لا يموت من أكل منها، أو يكون ملكا وقد زعم زاعم أنَّ الملائكة تأكل منها وهو خطأ، وقد قال الله ﷻ عنه: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ [سورة الأعراف: 20] وهو كلام مناقض، فإنَّ الشجرة المشار إليها هي التي أكل آدم وحواء منها فخرجا ولم يخلدا.

ومعنى ﴿لَا يَبْلَىٰ﴾ لا يكون باليا رثًّا، أو لا يفنى، وذلك من لوازم الخلود، ذُكر تأكيدا أو زيادة للترغيب كذا قيل، وفيه أنَّ الخلد لا يوجب عدم الرثَّة إلَّا أن يفسَّر بالفناء.

﴿فَأَكَلَا﴾ آدم وزوجته ﴿مِنْهَا﴾ من الشجرة التي سمَّاها اللعين شجرة الخلد مع أنَّها شجرة الخروج والفناء والتعب.

[قصص] قال سعيد بن جبير: لَمَّا خرج آدم استقبله ثور أبلق فقيل له: اعمل عليه، فكان يعمل ويمسح العرق عن جبينه، ويقول: هذا ما وعدني ربِّي ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ﴾ ثمَّ نادى يا حواء يا حواء أنت عملت بي هذا؟. فعمَّال الثور يقولون: «حوحو» مكرَّرا اختصارا من قول آدم: يا حواء يا حواء في بلادنا المضابية هذه عند حرث الأرض والدوس مع البغال والحمير وغيرها، دخل عليهم ذلك من قبل آدم.

﴿فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا﴾ ظهرت لكلٍّ واحد سوأتان من الآخر، ولكلٍّ واحد قبل نفسه، وهما القبل والدبر.

[قصص] كانا مستورين بنور فنزع، أو بظفر فنزع، وبقيت بقية منه في أصابعهما وبنانهما ليتذكرا بها شؤم الذنب، وذلك عقوبة للذنب ولا يخلو عن مصالح أخرى، ولَمَّا ضرب ذلك الثور قال: لم؟ قال: لعصيانك لي فقال: هل ضربك الله إذ عصيته؟.

﴿وَطَفِقَا﴾ شرعا ﴿يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا﴾ يرقِّعان ويخيطان.

[نحو] وفيه عمل عامل واحد في ضميرين لمسمًّى واحد، وهو عندي جائز مقيس مطَّرد في كلِّ عامل، إذا كان أحدهما بجارٍّ لكثرة ذلك في القرآن، فألف «يَخْصِفَانِ» وهاء «عَلَيْهِمَا» لآدم وحواء معا في الموضعين والعامل «يخصف».

﴿مِن وَّرَقِ الْجَنَّةِ﴾ يلصقان ورقة بأخرى، والمتبادر أنَّ شجر الجنَّة بأوراق كأوراق شجر الدنيا، وفي الآثار أنَّها من ذهب وفضَّة، ولعلَّ المراد بـ«وَرَقِ الْجَنَّةِ» هنا ورق تلك الشجرة التي أكلا منها، وأنَّ أوراقها كأوراق شجر الدنيا ولا مانع من أن يرقِّعا عليهما أوراق الذهب والفضَّة، وفي أثر أنَّه تفتَّت الورق عنهما إذ يبس.

﴿وَعَصَىٰٓ﴾ لا يقال: آدم عاص لأنَّ اسم الفاعل أقوى من الفعل ﴿ءَادَمُ رَبَّهُ﴾ بالأكل من الشجرة ﴿فَغَوَىٰ﴾ ضلَّ عن الرشاد باغتراره بقول العدوِّ، أو عن الخلود الذي طلب بالأكل، أو عن المطلوب منه، وهو ترك الأكل من الشجرة.

والذي أقول به: إنَّ ما نسب الله ﷻ إلى بعض الأنبياء من المعاصي ليست من جنس معاصينا لا عمدا ولا خطأ قبل النبوءة ولا بعدها، بل دونها عدَّها الله عليهم معاصي لعظم مقامهم، كمكروه وجائز ومرجوح ونسيان، وتأويل كما ذكر في آدم كما شاع «حسنات الأبرار سيِّئات المقرَّبين».

وقال إبراهيم: يا ربِّ أدخلت آدم الجنَّة بلا عمل وأحسنت إليه كلَّ إحسان وعصى مرَّة فملئت الأفواه بمعصيتـه! فقال: أما علمـت أنَّ مخالفة الحبيب للحبيب أمر عظيم، وذكر بعض أنَّ ذلك ليزجر أولاده.

في البخاري ومسـلم عن أبـي هريرة عـن رسـول الله ﷺ: «**احتجَّ آدم وموسـى، قال موسـى: يا آدم أنت أبونا أخرجتنا من الجنَّة! فقال له آدم: أنت يا موسـى اصطفاك الله تعالى بكلامه وخطَّ لك التوراة بيده أتلومني على أمر قدَّره الله تعالى عليَّ قبـل أن يخلقني بأربعين عاما؟ فحجَّ آدم موسـى**» وفي رواية مسلم: «**قال آدم بكم وجدت الله تعالى كتب التوراة قبل أن أخلق؟ قال: بأربعين سنة، قال: فهل وجدت فيها «وعصى آدم ربَّه فغوى»؟ قال: نعم، قال: فهـل تلومني على أن عملت عملا كتـب الله عليَّ أن أعملـه قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟**» قال ﷺ: «**فحجَّ آدم موسى**»[1].

[أصول الدين] وقال ابن العربي والقرطبي: إنَّه لا يجوز استئناف ذكرِ نبيءٍ بمعصيةٍ نَسَبَها اللهُ إليه، بل إذا قرئت الآية أو الحديثُ فيها، كما في المتشابه من القرآن والحديث في شـأن الله كاليد والأصبع والنزول. وأجازت الأزارقة على الأنبياء الإشـراك وما دونه، وأجاز الباقلَّاني صدور الكبيرة مطلقا قبل النبوءة، وإرسالَ مَن أسلَمَ مِن شِرْكٍ، ووافقه كثير من الأَشعَرِيَّة ومن المعتزلة.

[أصول الدين] ومنعـت المعتزلـة صـدور الكبيـرة قبـل البعثة، وفي المواقـف[2]: جوَّز الأكثـرون صدور الكبيرة غير الشـرك وغيـر الكذب في المعجزة سهوا أو خطأ، ونسـب بعض جواز الصغيرة غير الخسيسة عمدا بعد البعث، ونسب للجمهور، ويقال: تجوز سهوا إجماعا. واشترط المحقِّقون أن ينبَّهوا فينتبهوا، وأجيزت الصغائر قبل البعثة، وذلك من آدم قبلها.

---

(1) رواه **البخاري** في كتاب تفسـير (230) بـاب قوله: ﴿فَـلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْـقَى﴾ رقم 4461. ورواه **مسلم** في كتاب القدر (2) باب احتجاج آدم وموسى عليهما السلام، رقم 2652.

(2) وهو كتاب المواقف لعضد الدين الإيجي. ينظر: ج3، ص425 فما بعد.



[أصول الدين] قالت الشيعة: الأنبياء معصومون عن الصغائر من وقت الولادة، وأكثر المعتزلة من وقت البلوغ، وأكثر الشَّافِعِيَّة من وقت النبوءة، وعليه أبو الهذيل وأبو عليٍّ من المعتزلة، وذلك أنَّه لا أقبح ممن رفعت درجته وعصى رافعَها، ولو عصى كان كآحاد الأمَّة وزال الوثوق به وصار آمرا بما لا يفعل ناهيا عَمَّا يفعل، وأجاز أكثر المعتزلة الصغائر عنهم عمدا.

﴿**ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ**﴾ اختاره من جملة العاصين بأن وفَّقه للتوبة، وفي ذكره مع لفظ الربوبيَّة والإضافة إليه مزيد تشريف، وأصل الاجتباء: جمع الشيء للنفس مع اختياره ﴿**فَتَابَ عَلَيْهِ**﴾ رجع عليه بالرحمة وقبول التوبة، إذ قال هو وزوجه: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [سورة الأعراف: 23] وفي ذكرهما بهذا الاستغفار ذكر لهما بالتوبة وقبولها، والهدى المذكور في قوله: ﴿**وَهَدَىٰ**﴾ إلى كَيفِيَّة التوبة بتلك الكلمات أو إلى الثبات على التوبة، وما يرضي الرَّبَّ ﷻ، ولكن لم يذكرها للفاصلة، ولأنَّ المرأة تبع للرجل كما لا تذكر في أكثر القرآن، وللإعراض عن زيادة النعي عليه بذكرها.

﴿**قَالَ**﴾ كأنَّه قيل: هل بقيا في الجنَّة إذ تابا فيها؟ فقال: ﴿**قَالَ اهْبِطَا**﴾ انزلا يا آدم وحوَّاء ﴿**مِنْهَا**﴾ من الجنَّة إلى الدنيا ﴿**جَمِيعًا**﴾ لا يبقى واحد منكما ﴿**بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ**﴾ حال مقدَّرة، والجمع باعتبار ما يتولَّد منهما، والتعادي في الحقيقة بين أولادهما، وذلك عكس خطاب اليهود بما فعل آباؤهم. والخطاب في «اهْبِطَا» لآدم وإبليس وأمَّا حواء فتبع لزوجها، والخطاب في «اهْبِطُوا» لآدم وإبليس وذرِّيَّتهما وهو المتبادر من قوله: ﴿عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ كأنَّه قيل: كذلك تكون العداوة بين أولاده وأولادك، وهذا أنسب بأن تفسَّر العداوة بالتعادي بين أولاد آدم، لكن لا مانع من أن يراد ذلك، أو بين أولاد كلٍّ فيما بينهما، وأولاده وأولاد الآخر إخبارا بأنَّ الدنيا دار التواء دينا ودنيا، لا كالجنَّة التي كنت فيها.

[قصص] وقيل: الـكاف لآدم وإبليس والحية إذ دخـل إبليس في فمها مستخفيا عن الملائكة للوسوسـة، وهو بعيد إذ لا خطاب للحيَّة بإتيان الهدى إليها واتِّباعه والإعراض عنـه المذكورَيْن بعدُ، والحمل على المجموع خلاف الأصل، ولم يجر للحيَّة ذكر، وعلى كلِّ حـال دخل إبليس الجنَّة بعدما خرج منها فصحَّ أن يقال له: اهبط منها.

﴿**فَإِمَّا**﴾ «إِنْ» الشرطيَّة و«مَا» المزيدة للتأكيد ﴿**يَاتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى**﴾ بوحي أُرسِـله إليكم أو كتابٍ، وذلك يعـمُّ، بخلاف ما لو قلنا: هـدًى بنبيء، إذ لا يبعث إلى آدم نبيء بل هو نبيء، وإنَّما يصحُّ ذلك لو خصَّ الخطاب بالذرِّيَّة.

﴿**فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ**﴾ مقتضى الظاهر: فمن اتَّبعـه، وأظهر وأضاف إلى الله تشـريفا وتأكيدا لإيجاب الاتِّباع ﴿**فَلَا يَضِلُّ**﴾ عن الديـن أو عن الصواب أو الرشاد، لأنَّ معه الهدى مِنَّا، وهو الدين والصواب والرشاد ﴿**وَلَا يَشْقَىٰ**﴾ في الآخرة، ولا يصحُّ أن يفسَّر الهدى بالقرآن خاصَّة.

وأمَّا قول ابن عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قارئا الآية: «أجـار الله تابع القرآن من أن يضلَّ في الدنيا أو يشـقى في الآخرة» وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من اتَّبع كتاب الله هداه الله من الضلالة في الدنيا ووقاه سـوء الحسـاب في الآخرة**»[1] فلأنَّ القرآن من جملة الهدى لا لكونه المراد بالهدى، ألا ترى أنَّ الخطاب للمكلَّفين مطلقا لا لهذه الأمَّة خاصَّة.

وأمَّا قوله: ﴿**وَمَنَ اَعْرَضَ عَن ذِكْرِي**﴾ أي لم يتبعه فالذكر فيه عامٌّ أيضا لا يخصُّ القـرآن، فإنَّه كمـا يطلق على القرآن قـد أطلق فيه علـى غيره وعلى العموم، وكذا لا تختـصُّ الآيات في قوله: ﴿أَتَتْكَ ءَايَاتُنَـا﴾ بآيات القرآن بل على العموم، وعلى الدلائل، كما أنَّه فسَّـر بعضهم ﴿ذِكْرِي﴾ بـ«هُدَايَ» لأنَّه سبب ذكره وعبادته عَزَّ وَجَلَّ.

---

(1) أورده **الآلوسي** في تفسيره: ج 6، ص 276. وقال: أخرجه جماعة من حديث ابن عبَّاس.

وقيل: لا يضلُّ طريق الجنَّة في الآخرة، وهو في مقابلة ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ ولا يتعب في معيشة الدنيا، وهو مقابل قوله ﷻ: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ وعليه فقدَّم حال الآخرة لأنَّها محطُّ رغبة المهتدين، وما مرَّ أولى، لأنَّه تفسير النبيء ﷺ وابن عبَّاس رضي الله عنهما كما مرَّ، وأجيزا في الآخرة وأجيزا في الدنيا [أيضا] لأنَّ الشقاء بما فيها من الانحراف.

﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً﴾ حياة ﴿ضَنكًا﴾ شديدة الضيق، وأصله مصدر، ولذلك يوصف به المفرد المذكَّر وغيره.

والكافر في الدنيا في شدَّة الضيق ولو كثر ماله لضيق قلبه بالحرص والشحِّ وطلب الزيادة وخوف النقص وسلب القناعة حتَّى لا يشبع، وإن كان له قناعة بكثير أو قليل فقلبه متقطِّع بالشهوات، ومعيشة الكافر أيضا مطلق ضنك، أي سبب للشدَّة يوم القيامة كما يعذَّب بماله أيضا إذ لم يخرج حقوقه.

وعن ابن مسعود وأبي سعيد: المعنى عذاب الكافر في قبره، وعن أبي هريرة عنه ﷺ: «**المؤمن في قبره في روضة خضراء يرحب له سبعين ذراعا في ضوء كضوء القمر ليلة البدر، هل تدرون فيم نزلت ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾**» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**عذاب الكافر في قبره، يسلَّط عليه تسع وتسعون حيَّة لكلِّ واحدة سبعة رؤوس تلسعه، وتنفخ إلى يوم ينفخ في الصور**»[1] وما قبل قيام الساعة وبعد الموت من الدنيا في قول، وقيل: المعيشة الضنك بعد البعث: الشوك والزقُّوم والغسلين.

﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ تارة وأزرق أخرى [آية 102 من السورة]، أو أزرق زرقة مسبَّبة عن موت ضوء العين، أو فساد الجسد، أو بعض أزرق

(1) أورده **الآلوسي** في تفسيره: ج 6، ص 277. وقال: أخرجه ابن أبي الدنيا في ذكر الموت، والحكيم الترمذي وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبَّان وابن مردويه من حديث أبي هريرة.

وبعض أعمى كما مرَّ، وقال الله ﷻ: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [سورة الإسراء: 97] وقد قال الله ﷻ: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ﴾ [سورة الكهف: 53] ويقرؤون كتبهم ويرون أهوال القيامة وذلك بالبصر، وقال: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ [سورة مريم: 38]، ويتكلَّمون فيما بينهم، ولمالك خازن النار ولغيره، ويجابون ويسمعون الجواب فكلٌّ منهم يتكلَّم ويخرس، ويبصر ويعمى، ويسمع ويصمُّ، وذلك في مواطن.

﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾ في الدنيا ولم أستوجب أن أبعث أعمى، نسِيَ أعماله السوء الموجبة لبعثه أعمى، أو ظنَّ أنَّه لا يعاقب عليها، والآية على الغالب من الإبصار، وبقي من كان في الدنيا أعمى وهو مجرم فإنَّ الله ﷻ يجعل له البصر ليرى جهنَّم وأهوال الساعة وليقرأ كتابه ثمَّ يعمى أيضا.

وقيل: أعمى عن الحجَّة التي كنت أحتجُّ بها في الدنيا وأسمِّيها بصيرة، وقيل: المعنى **لم حشرتني متحيِّرا لا أدري ما أصنع من الحيل في دفع العذاب، وقد كنت في الدنيا محتالا في مصالحي!**.

﴿قَالَ﴾ الله ﴿كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَاتُنَا فَنَسِيتَهَا﴾ الإشارة إلى الحشر له أعمى، أي قد فعلت مثل ذلك الحشر وهو أنَّك تركت آياتنا فنسيتها.

[قلت:] وكنت في سنِّ الشباب أتأوَّل مثل هذا التشبيه خروجا عن تشبيه الشيء بنفسه، بأنَّ نفس وقوع الشيء مثلا غير وصفه، فإنَّ ارتسامه في نفس السامع لا بدَّ أنَّه غيره، فنقول هنا: مثل ذلك الإتيان البديع أَتَتكَ آيَاتنَا، ويجوز الحكم بإقحام الكاف، أي أتتك آياتنا ذلك الإتيان، وقس على ذلك مثله في القرآن، وإذا وجدت مشبَّها به فاعمل عليه بلا إشكال ولا حاجة إلى التأويل.

والنسيان: الترك، شبَّه الترك بالنسيان في شدَّة الإعراض، فإنَّ الناسي أشدُّ إعراضا عن الشيء ممن لم ينس، والمشبَّه والمشبَّه به موجودان في قوله

تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ تترك عن الخير إلى الشرِّ، كما تركت آياتنا، فأنت باق على العمى لا تبصر إلَّا لتشاهد أمرا فظيعا أشدَّ من العمى. وعن عكرمة: لا يرى شيئا إلَّا النار، أي بعد دخولها.

[فقه] [قلت:] ونسيان القرآن غير كبيرة، وهو زواله عن الحافظة، وإنَّما الكبيرة ترك العمل به، ويحمل ما ورد في عقاب ناسيه على تارك العمل به، أو على من تهاون به تهاونا حتَّى نسيه، فهناك كبيرتان: كبيرة التهاون وكبيرة نسيانه.

﴿**وَكَذَٰلِكَ**﴾ مثل ذلك الجزاء بالإعماء ﴿**نَجْزِي**﴾ بالنار وغيرها ﴿**مَنَ اَسْرَفَ وَلَمْ يُومِنۢ بِـَٔايَاتِ رَبِّهِ**﴾ بالانهماك في الشهوات وهم هؤلاء المحشورون عُميا، أعاد ذكرهم بالاسم الظاهر ليصفهم بالإسراف، وذلك تشبيه للعذاب العامِّ بالخاصِّ، على أنَّه شمل الإعماء المتجدِّد بعد إعماء الحشر وغيره من العذاب، أو شبَّه العذاب بالإعماء بالعذاب بالنار تشبيها للخاصِّ بالخاصِّ.

﴿**وَلَعَذَابُ الَاخِرَةِ**﴾ على الإطلاق أو عذاب النار في الآخرة ﴿**أَشَدُّ وَأَبْقَى**﴾ من العذاب الذي أصابهم في الدنيا أو سمعوا به لغيرهم، أو منه ومن عذاب القبر، أو منهما ومن العذاب بالعمى.

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴿128﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿129﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿130﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿131﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿132﴾﴾

الأمر بالصلاة والصبر على أذى المشركين والاعتبار بالأمم السابقة

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ أغَفَلوا فلم يهد لهم، وفاعل «يَهْدِ» ضمير الله، كما يدلُّ له قراءة: «نَهْدِ» بالنون، والهاء للمشركين على عهد رسول الله ﷺ، والهمزة للإنكار والتوبيخ.

[نحو] وعدِّيَ «يَهْدِ» باللام لتضمُّن معنى التبيين، والمفعول محذوف، أي: أفلم يبيِّن لهم العبر، أو نزِّل كاللازم، أي: أفلم يحضر لهم الهداية، وقيل: فاعل «يَهْدِ» ضميره ﷺ، وقيل: ضمير الإهلاك المدلول عليه بقوله ﷻ:

﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ﴾ أصحاب الحجر وثمود وقوم لوط، هذه الجملة بيان للهداية على طريق الالتفات من الغيبة إلى التكلُّم، وللمفعول المحذوف وهو العبر، وأجيز أن تكون مفعولا لـ«يَهْدِ»، أي أفلم يبيِّن الله لهم مضمون هذا الكلام، وأن تكون مفعولا لـ«يَهْدِ» معلَّقا عنها بـ«كَمْ»

الخبريَّة كما يعلَّق بالاستفهاميَّة، لأنَّ لكلٍّ الصدرُ. و«كَمْ» مفعول به لـ«أَهْلَكْنَا»، و«مِنَ الْقُرُونِ» نعتها.

﴿يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِم﴾ يمشي القرون في مساكن أنفسهم مطمئنِّين، الجملة حال من «الْقُرُونِ»، أو تمشي كُفَّار قريش المذكورون في مساكن القرون المهلكين. والجملة حال من هاء «لَهُمْ»، فإنَّهم إذا سافروا إلى الشام شاهدوا أرض الحجر وثمود وقوم لوط.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ ءَلَايَاتٍ لِأُوْلِي النُّهَىٰ﴾ تقرير للهداية التي لم يهتدوا بها، وتعليل للإنكار والتوبيخ، أي لا ينبغي عدم اهتدائهم ولا يليق لأنَّ في ذلك الإهلاك[1]، وإشارة البعد لعلوِّ شأن هذا الإهلاك. و«آيات»: دلالات كثيرة، أو آيات تولَّدت من ذلك الإهلاك مع أنَّه آية واحدة، كقولك: رأيت من زيد أسدا وبحرا، وكقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُم فِي رَسُولِ اللهِ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [سورة الأحزاب: 21] إذا فسَّرنا ﴿إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ بإنسان يقتدى به.

و«النُّهَى» جمع نهية أي عقل، لأنَّ العقول ناهية عَمَّا يفعل هؤلاء المشركون على عهده ﷺ من أنواع الكفر والمعاصي.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ﴾ عِدَة [من الوعد] ﴿سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ بأن لا يهلك أمَّتك باستئصال كقوم نوح وعاد وثمود إكراما لك، كما يَدُلُّ له لفظ الرُّبُوبِيَّة مضافا لضميره، ولأنَّ من نسلهم من يؤمن ولِمَا شاء الله ﷻ ﴿لَكَانَ﴾ الإهلاك لهم ﴿لِزَامًا﴾ لاصقا بهم فُجأة، ولا يتأخَّر كخصم مُلحٍّ، كما فعلنا بمن قبلهم.

[لغة] وأصله مصدر «لازم يلازم»، أو اسم آلة كالحزام والركاب، وصف به للمبالغة، ويبعد كونه جمع «لازم» كقائم وقيام لإفراد ضمير «كَانَ»، فيحتاج إلى تأويل: إنَّ إهلاك كلِّ واحد كان لازما، وجملة إهلاكاتهم لوازم.

---

(1) في نسخة ب: «قوله «لأنَّ في ذلك الإهلاك» لعلَّ في العبارة سقطا، إذ لم يذكر اسم أَنَّ فكان عليه أن يقول: لأَنَّ في ذلك الإهلاك اعتبارا لأصحاب العقول أو نحو ذلك».

﴿**وَأَجَلٌ مُّسَمًّى**﴾ عطف على «كَلِمَةٌ» أو ضميرها في «سَبَقَتْ» أُخِّر مسارعة إلى مضمون جواب «لَوْلَا»، وللفاصلة.

والأجل المسمَّى: آجال أعمارهم، وقيل: الأجل المسمى لعذابهم يوم القيامة، أجَّلنا لهم عذاب يوم القيامة وحده لا عذاب استئصال معه، وقيل: الأجل المسمَّى أجل عذاب يوم بدر، وعدهم إِيَّاهُ ولم يعدهم عذاب الاستئصال.

وأجيز عطفه على ضمير «كَانَ»، أي لكان الأخذ العاجل، والأجل المسمَّى لازمين لهم كدأب عاد وثمود. وسلَّاه الله ﷻ من ضيق قلبه بكفر قومه وأذاهم بقوله:

﴿**فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ**﴾ من كلمات الكفر، فإنَّهم معذَّبون عليه لا محالة، وليسوا مهملين بل مُمْهلون، وهذا صبر لا ينسخ، فهو مستمرٌّ بعد الأمر بالقتال وقبله.

﴿**وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ**﴾ صلِّ مُلتبسا بحمد ربِّك، يزدك كمالا وتوفيقا ﴿**قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ**﴾ صلاة الفجر ﴿**وَقَبْلَ غُرُوبِهَا**﴾ صلاة العصر.

قال فضالة بن وهب الليثي[1]: قال لي رسول الله ﷺ: «**حافظ على العصرين**» قلت: وما العصران؟ قال: «**صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها**»[2] وقيل: ﴿قَبْلَ غُرُوبِهَا﴾: الظهر والعصر لأنَّهما قبل الغروب وبعد الزوال. وجمعها مطابقة لقوله: ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ ولا يخفى أنَّ المتبادر قبل الغروب: العصر لأنَّه يليه.

---

(1) فضالة بن وهب الليثي: صحابي، هو والد عبد الله الليثي، وليس فضالة بن وهب الزهراني التابعي، وقد روى له أبو داود حديث المحافظة على العصرين في سننه. ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة، ج 3، ص 202، رقم 7002.

(2) رواه **أبو داود** في كتاب الصلاة، باب المحافظة على وقت الصلوات، رقم 428، من حديث فضالة الوهبي.

﴿وَمِنَ ـ انَـآءِ الَيْلِ﴾ من ساعات الليل جمع إِنْيٌ أو إِنْوٌ، بكسر الهمزة وإسكان النون فيهما، أو إِنًا بكسر الهمزة وفتح النون بعدها ألف عن ياء أو عن واو، وهو متعلِّق بقوله: ﴿فَسَبِّحْ﴾ على أنَّ الفاء مقحمة للدلالة على لزوم ما بعدها لما قبلها، أو بمحذوف عَطَف عليه بالفاء «سَبِّحْ»، أي قم وقتا من آناء الليل، أو قم بعض آناء الليل فسبِّح، وزعم بعض عن النحاة أنَّ الفاء لا تمنع ما بعدها عن العمل فيما قبلها، ولو لم تكن زائدة. والمراد: صلاة المغرب والعشاء.

﴿وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾ بالنصب عطفا على محلِّ «مِنَ ـ انَـآءِ اللَّيْلِ» أو على «مِنْ» التبعيضيَّة، أو على «قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ»، أو على «قَبْلَ غُرُوبِهَا». والمراد: ذكر الله في جميع النهار بصفات الجمال والتنزيه عن النقائص، أو بقول «سبحان الله والحمد لله»، روي: «إنَّه من سبَّح عند غروب الشمس سبعين تسبيحة غربت بذنوبه».

[فقه] وعبَّر بطرفيه ـ لا صلاة النفل كما قيل ـ لأنَّه لا صلاة بعد صلاة الفجر حتَّى تطلع الشمس طلوعا كاملا، ولا بعد صلاة العصر، ولأنَّ ذلك نفل، والأصل في الأمر الوجوب والمقام لـه، وَتَقَدَّمَ قول بدخول صلاة الظهر في قوله: ﴿قَبْلَ غُرُوبِهَا﴾، وأجيز إرادة صلاة الظهر بـ﴿أَطْرَافَ النَّهَارِ﴾ لأنَّها بعد الطرف الأوَّل وهو النصف الأوَّل من النهار وأوَّل الطرف الآخر وهو النصف الثاني، وذلك ولو كانا طرفين للنصفين هما طرفان للنهار، لأنَّ النصفين له، والظهر ولو كان لا يقام آخر النصف الأوَّل لكن يقام أوَّل النصف بعده، فتلك صلاة حصلت بعد وجود الطرف الأوَّل، وحصول الثاني، وقيل: هذا تكرير لصلاة الصبح والعصر.

و«النهار»: ما بين طلوع الفجر وغروب الشمس، ولا يَضُرُّنا أنَّ الطرف الأوَّل محدود متميِّز والثاني ليس على حِدته، إلَّا أنَّ الأصل عدم التكرير. و«أطراف»: مراد به اثنان، أو هو باعتبار تعدُّد النهار، والأوَّل أولى، وأجيز أن يكون الطرف بمعنى الطائفة من الشيء.

﴿**لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ**﴾ متعلّق بـ«سَبِّحْ» أي سبِّحْ في هذه الأوقات راجيا أن تنال ما ترضى به نفسك من الثواب، أو بالأمر بالصلاة والصبر أي لعلَّك ترضى بحصول الظفر وانتشار دين الإسلام.

[سبب النزول] قال أبو رافع: نزل برسول الله ﷺ ضيف فبعثني إلى يهوديٍّ فقال لي: قل إنَّ رسول الله ﷺ يقول بعني كذا وكذا من الدقيق، أو اسلفني إلى هلال رجب، فأتيته فقلت له ذلك، فقال: والله لا أبيعه ولا أسلفه إلَّا برَهْنٍ، فأتيت رسول الله فأخبرته فقال: «**والله لو باعني أو أسلفني لقضيته، وإنِّي لأمين في السماء وأمين الأرض، اذهب إليه بدرعي**» فنزل قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَوٰةِ الدُّنيَا**﴾ أي زينتها، والخطاب لرسول الله ﷺ بأن يدوم على ما هو عليه من عدم مدِّ النظر إلى زينة الدنيا، متضمِّن وعظ أمَّته بأن يكتسبوا عدم مدِّ النظر.

وكان ﷺ أبعد الناس عن الدنيا وكان يقول: «**الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلَّا ما أريد به وجه الله**»[1].

قال زيد بن أرقم: كُنَّا عند أبي بكر فدعا بشرابه فأتي بماء وعسل، فلمَّا أدناه من فيه بكى فبكينا لبكائه فسكتنا ولم يسكت، ثمَّ مسح عينيه، فقلنا: ما هاجك يا خليفة رسول الله ﷺ؟ فقال: كنت مع رسول الله ﷺ فرأيته يدفع عن نفسه ولم أر معه شيئا ولا أحدا، فقلت: يا رسول الله أراك تدفع عن نفسك شيئا ولا أرى معك شيئا؟ قال: «**هذه الدنيا تمثَّلت لي، فقلت: إليك عَنِّي فتنحَّت، فقالت: أما إنَّك إن تفلتَّ عَنِّي فلن يُفلِتَ عَنِّي مَن بعدك**» فخفت أن تلحقني، ثمَّ وضع الإناء من يده ولم يشرب.

---

(1) رواه **الترمذي** في كتاب الزهد، باب ما جاء في هوان الدنيا، رقم 1222. ورواه **ابن ماجه** في كتاب الزهد، باب مثل الدنيا، رقم 4187، من حديث أبي هريرة بلفظ: «الدنيا ملعونة... إلَّا ذكر الله وما والاه أو عالما أو متعلما».

قال معاوية: أمَّا أبو بكر فلم يرد الدنيا ولم ترده، وأمَّا عمر فأرادته ولم يردها، وأمَّا عثمان فنال منها ونالت منه، وأمَّا عليٌّ فكان يرجو منها أحيانا ويتركها أحيانا، وأمَّا نحـــن فتمرَّغنا فيها ظهرا لبطـــن ولا ندري إلى ماذا يصير الأمر!.

ويحتمل في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ...﴾ أنَّه يصدر منه المدُّ ابتغاء لها للمؤمنين لينتفعوا بها، ويتوصَّلوا إلى إعانة الدين والقيام لا لنفسه، ويردُّه أنَّه لا يحبُّ لهم ما يكون واسطة للسوء كالفخر بل يحبُّ لهم الكفاف.

أو الخطاب لمن يصلح له من أمَّته لا له. والذي مُتِّعَ به أصناف الكفرة هو زخارف الدنيـــا، كالأولاد والبنين والأموال والمنـــازل، والملابس والمطاعم والأزواج. وفي المـــدِّ تلويح بأنَّ النهي عـــن الإطالة أو الإعجـــاب والميل، ولذلك لم يقل: لا تنظرن، لأنَّ النظر بدون ذلك معفوٌّ عنه.

وكان بعض العلماء يغضُّ بصره عن النظر إلى أبنائهم وملابسهم لأنَّه يغريهم ويغري غيرهم عليها، ولأنَّ النظر إليها محصِّل لغرضهم إذ اتَّخذوها للفخر.

[فقه] ولقد شـــدَّد المتَّقون في وجوب غـــضِّ البصر عـــن أبنية الظلمة وملابس الفســـقة، لأنَّهم اتَّخذوا ذلك لعيـــون الناظرين، فـــلا تعينوهم على مرادهم من النظـــر، وانظروا إلى ما يلـــوح على ذلك مـــن ذلِّ العقاب. وكان عروة بن الزبيـــر إذا رأى ذلك قرأ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ...﴾الآيـــة ونادى أهله للصلاة وقرأ: ﴿وَامُـــرَ اَهْلَكَ بِالصَّلَـــوٰةِ﴾. وكان ﷺ إذا رأى احتياجـــا في أهله أمرهم بالصلاة وصلَّى وقـــرأ: ﴿وَامُرَ اَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ﴾ وكـــذا [يفعل] مالك بن دينار وبكر بن عبد الله المزني.

و«زَهْرَةَ» مفعول ثان لـ«مَتَّعْنَـــا» على تضمين معنى «أعطينـــا»، أو يقدَّر: أعطيناهم زهرة الحياة الدنيا، أو يقدَّر: احذر زهرة الحيـــاة، أو أَذُمُّ زهرة، فإنَّ الرغبة فيها تحرم نور التوفيق.

﴿**لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ**﴾ اللام متعلّق بـ«مَتَّعْنَا» والمعنى: لنعاملهم معاملة المختبر، أو لنعذِّبهم بسببه في الآخرة، عبَّر عن العذاب بسببه وذلك تقبيح لها في قلوب المؤمنين.

﴿**وَرِزْقُ رَبِّكَ**﴾ الذي ادَّخره لك في الآخرة، أو ما رزقك في الدنيا من النبوءة والهدى، أو ما ادَّخر لك من فتح البلاد والغنائم، ويضعف أنَّه القناعة إذ لا دليل له في الآية، ولو كان في نفسه صحيحا، بل يضعف بقوله: ﴿وَأَبْقَىٰ﴾.

﴿**خَيْرٌ**﴾ ممَّا متّعوا به في ذاته، ولا عاقبة سوء عليه بخلاف ما متّعوا به ﴿**وَأَبْقَىٰ**﴾ فإنَّ خير الآخرة لا يزول، وأثر النبوءة والهدى وفتح البلاد مستمرٌّ إلى قرب قيام الساعة، وتستمرُّ ثمرة ذلك في الآخرة أيضا، بخلاف ما متّعوا به فيزول بموت أو غيره.

﴿**وَامُرَ اَهْلَكَ**﴾ أزواجك وبناتك، أو هؤلاء ومؤمني بني هاشم والمطَّلب، أو مؤمني أمَّته ﴿**بِالصَّلَوٰةِ**﴾ الصلوات الخمس. روت الإماميَّة من الروافض حديثا وضعوه، وهم أكذب الناس إذا رووا حديثا في شأن عليٍّ بن أبي طالب: «كان ﷺ من حين نزلت الآية يمشي كلَّ وقت صلاة الفجر إلى بيت عليٍّ وزوجه فاطمة إلى ثمانية أشهر ويقول: الصلاة رحمكم الله تعالى ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [سورة الأحزاب: 33]».
وروى أبو داود بإسناد حسن مرفوعا: «**مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين واضربوهم عليها وهم أبناء عشر سنين، وفرّقوا بينهم في المضاجع**»[1].
﴿**وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا**﴾ مع أهلك، كما دلَّ عليه المقام. والاصطبار: علاج في الصبر شديد، والمراد: المداومة، عبَّر عنها بلازم معناها، لأنَّ المداومة لا بدَّ فيها من شدَّة صبر.

---

(1) رواه **أبو داود** في كتاب الصلاة، باب متى يؤمر الغلام بالصلاة، رقم 495. ورواه **أحمد** في مسند المكثرين من الصحابة، رقم 6650. من حديث عبد الله بن عمرو.

﴿لَا نَسْـئَلُكَ﴾ وأهلك ﴿رِزْقًا﴾ لا نكلِّفكم الاشتغال بكسب الرزق، **وليست المداومة على الصلاة تضرُّ بأمر المعاش** بل هي سبب لتيسيره ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ ذكر «نَحْنُ» للاختصاص والتقوية.

وقيل: الخطابان بالكافين خاصٌّ به ﷺ، لأنَّ الله ﷻ أمر الناس بالكسب، وليس كذلك فإنَّ المراد بالصلاة الخمس ولا يعذر عنهنَّ بالاشتغال بالكسب، بل يجوز التفسير بالفرض حتما والنفل ندبا، بحسب ما تيسَّر، استعمالا للأمر في الوجوب والندب، أو في الإيقاع بقطع اعتبار الوجوب والندب.

[سيرة] والصلاة سبب لإدرار الرزق وكشف الهمِّ، قال عبد الله بن سلام: كان النبيء ﷺ إذا نزلت بأهله شدَّة أو ضيق أمرهم بالصلاة، وتلا ﴿وَامُرَ اَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ﴾[1]. وروي أنَّه ﷺ إذا حزبه أمر أسرع إلى الصلاة[2]، وقال ثابت: كان النبيء ﷺ إذا نزلت بأهله خصاصة نادى أهله «**صلُّوا صلُّوا**»، قال ثابت: كانت الأنبياء عليهم السلام إذا نزل بهم أمر فزعوا إلى الصلاة[3]. وقال أسلم: كان عمر بن الخطاب يصلِّي من الليل ما شاء الله تعالى أن يصلِّي حتَّى إذا كان آخر الليل أيقظ أهله للصلاة، ويقول لهم: الصلاة الصلاة، ويتلو الآية: ﴿وَامُرَ اَهْلَكَ...﴾.

﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ الغاية المحمودة الجنَّة وغيرها، وقيل: الجنَّة لأهل التقوى، كما قال: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [سورة الأعراف: 128]، أو العاقبة ثابتة للتقوى **وملاك الأمر التقوى**.

---

(1) رواه **الطبراني** في الأوسط. ج1، ص272، رقم: 886. من حديث عبد الله بن سلام.

(2) رواه **أحمد** بلفظ: «إذا حزبه أمرٌ صلَّى». ج38، ص330، رقم: 23299. من حديث حذيفة.

(3) رواه **البيهقي** في الشعب، كتاب الصلاة، باب تحسين الصلاة والإكثار منهما. ج4، ص518، رقم: 2915. من حديث ثابت.

﴿وَقَالُواْ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٣٣ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ۝١٣٤ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُواْۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ۝١٣٥﴾

إعنات المشركين للرسول، وتهديدهم بما ينتظرهم

﴿**وَقَالُواْ**﴾ أي مشركو قريش ﴿**لَوْلَا**﴾ هلَّا، وهو تحضيض اعتبارا لما في قلوبهم أنَّهم على الحقِّ، وأنَّه على الباطل حَتَّى بالغوا بألسنتهم في الحثِّ على الإتيان إيقانا أنَّه لا يأتي، أو عَرْضٌ، وعلى كلٍّ جعلوا ما شاهدوا من الآيات غير معجز فطلبوا معجزة وقالوا: ﴿لَوْلَا **يَاتِينَا بِئَايَةٍ مِن رَّبِّهِ**﴾ فإنَّهم رأوا أنَّ ما يأتي به سحر منه يحتجُّ به، فطلبوا أن يأتي بشيء من ربِّه حجَّة له، وردَّ الله ﷻ عليهم بقوله: ﴿**أَوَلَمْ تاتِهِم**﴾ في القرآن ﴿**بَيِّنَةُ**﴾ دلائل، وأفرد لأنَّ المقصد واحد ﴿**مَا فِي الصُّحُفِ الأُولَىٰ**﴾ الكتب الأولى: التوراة والإنجيل والزبور وغير ذلك، ولا تفسَّر البيِّنة بقرآننا هذا إذ لا وجه لقولك: قرآن ما في الصحف الأولى والمراد قرآننا هذا، بخلاف قولك: أتاهم في القرآن ما في تلك الكتب، ولا يصحُّ ما قيل: إنَّ المراد تهديدهم بالتخويف بأن يصيبهم ما أصاب من قبلهم.

والهمزة للإنكار داخلة على محذوف، أي أولم يأتهم سائر الآيات، ولم يأتهم خاصَّة ما في الصحف الأولى؟ لو أنصفوا لكفاهم أنَّه لا يعرف الكتابة

ولا يجالس أهــل الكتاب وأهل الأخبــار، ومع ذلك أخبرهــم بأخبار الأمم والغيوب، وجاءهم بكتاب عجز عنه بلغاؤهم.

﴿وَلَــوَ انَّــآ أَهْلَكْنَاهُم بِعَــذَابٍ مِّن قَبْلِــهِ﴾ ولو ثبــت إهلاكناهم بعذاب مســتأصل من قبل البيِّنة، وذكرها باعتبار أنَّها برهان، أو قيل: الإتيان المفهوم من قوله: ﴿أَوَلَمْ تاتِهِم﴾ أو من قبل الرسول أو الإرسال ﴿لَقَالُواْ﴾ يوم القيامة ﴿رَبَّنَا﴾ يا ربَّنا ﴿لَوْلَآ﴾ طلب برغبة ﴿أَرْسَــلْتَ إِلَيْنَا رَسُــولاً﴾ في الدنيا مع آيات ﴿فَنَتَّبِعَ ءَايَاتِكَ﴾ التي جاءنا بها ﴿مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ﴾ بعذاب الاســتئصال في الدنيا ﴿وَنَخْزَىٰ﴾ بدخول النار اليوم، ومعناهما واحد.

وقيل: الذلُّ الهــوان والخزي الافتضــاح، وقيل: كلٌّ من الــذلِّ والخزي بعذاب الآخرة، وهو متبادر، لأنَّه لا يبقون بعد مجيء الاســتئصال في الدنيا وقتا يتبيَّن فيه ذلُّهم بل يَفْجَأُهم، إلَّا أنَّه من الجائز بقاء وقت، فما أهلكهم الله إلَّا على حجَّة كما قال: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا...﴾ [سورة الملك: 9].

وليس في الآية جواز الإهلاك بلا نبيء ولا كتــاب وإنَّما قال الله ﷻ: لو فعلنا ذلك، وهو لم يفعله.

﴿قُلْ﴾ يا محمَّد لقومك الكفرة ﴿كُلٌّ﴾ مِنَّا ومنكم ﴿مُّتَرَبِّصٌ﴾ منتظر لما يؤول إليه الأمر. وأفرد الخبــر للفظ «كُلٌّ» ﴿فَتَرَبَّصُواْ﴾ عطف إنشــائيَّة فِعلِيَّة على اسمِيَّة خبريَّة.

﴿فَسَــتَعْلَمُونَ﴾ بعد مدَّة، والســين على أصلها، والبعد متفاوت، وقيل: الســين للوعيد والمــراد القــرب، ولا دليل على هــذا، ﴿مَن﴾ اســتفهاميَّة ﴿اَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ﴾ المستقيم، نحن أم أنتم؟.

[نحو] «مَنْ» مبتدأ و«أَصْحَــابُ» خبر، أو بالعكــس، والجملة في محلِّ نصب سدَّت مســدَّ مفعولي «تعلم». ﴿وَمَنِ اهْتَدَىٰ﴾ «مَنْ» اســتفهاميَّة مبتدأ

وخبره جملة «اهْتَدَى» وجملة «مَنِ اهْتَدَى» معطوفة على الأولى مثلها سـدَّت مسدَّ مفعولين. وإن جعلنا «تَعْلَمُ» بمعنى تعرف فالجملة في الموضعين سدَّت مسـدَّ مفعول به واحد، وجاز جعل «مَن» الثانية موصولة معطوفة على الأولى على أنَّها موصولة أيضا، حـذف صدر صلتها للطـول، أي: من هم أصحاب الصراط السويِّ، أي الذين هم أصحاب الصراط السويِّ والفريق الذي اهتدى.

اللهم اجعلنا منه، أنت الرحمن الرحيم.

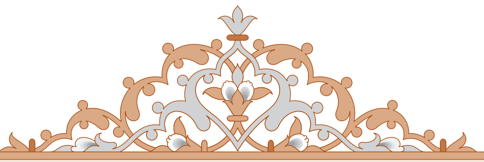




21

تفسير سورة الأنبياء

مكِّيَّة وآياتها 112 ـ نزلت بعد سورة إبراهيم



﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ (1) مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (2) لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ (3) قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (4) بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ (5) مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ (6)﴾

غفلة الناس عن الحساب وشاهد ذلك

﴿**اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ**﴾ قَرُب قُرْبًا شَديدًا لزيادة الهمزة والتاء، أو مرادف للمجرَّد كرقب وارتقب، ولا يقال: ما القرب؟ ومن حين نزولها إلى الآن أكثر من ألف عام وثلاثمائة وأحد وعشرين لأنَّه تعالى عظيم الشأن فالقرب عنده بعيد عندنا جدًّا، فالألف من السنين عنده يوم، فقد مضى يوم واحد وزيادة، وقد قال الله ﷻ: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ [سورة المعارج: 6ـ7]، أو المراد بالاقتراب تحقيق الوقوع، وإذا جاز التعبير

بالماضي عن الآتي فكيف لا يعبَّر عنه بالقرب؟ وكلُّ آت قريب، والبعيد ما وقع ومضى كما قيل:

فلا زال ما تهــواه أقرب من غد ولا زال ما تخشاه أبعد من أمس[1]

أو القرب باعتبار ما مضى من الدنيا. ولا حاجة إلى تقدير مضاف هكذا: «اقترب للناس زمان حســابهم»، فإنَّ ما قرب زمان وقوعه قد قرب، وما قرب وقوعه قرب زمانه.

وهنا ذكر ما يقع، وفي ﴿اقتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ [ســورة القمر: 1] ذكر الزمان وذكر اقتراب الحساب، ولم يذكر العذاب لأنَّ الحســاب يوجبه، وهو لدلالته على المناقشة دالٌّ على العذاب الشديد، وذلك مِمَّا لا يخلو قلوبهم عن الاضطراب به ولو بالغوا في العناد.

كما روي أنَّه لَمَّا نزلت: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ [سورة القمر: 1] قالوا: أمسكوا عن بعض ما تعملون حتَّى ننظر ما يكون، فمضت مــدَّة، فقالوا: ما رأينا ما تعدنا، فنزل: ﴿اَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ فأشفقوا ومضت مدَّة، وقالوا: ما نرى شيئا.

والــلام بمعنى إلى أو للاســتحقاق أولى من كونها بمعنــى «مِن». وقدَّم «للناس» وأخَّر «حسابهم» على طريق الاهتمام بالمقدَّم والتهويل به والتشويق إلى ذكر المؤخَّر، ولم يقل: اقترب الناس للحساب، لأنَّ الأصل ـ وهو الجاري في القرآن ـ أن يسند الاقتراب إلى الآتي لا إلى الموجود.

و«الناس»: المكلَّفون عموما، أو المشــركون، أو مشــركو مكَّة ليذكرهم بأوصاف الشــرك بعدُ، أو للعموم اعتبارا بالأكثر، وللأكثــر حكم الكلِّ عرفا وشرعا، وذلك كلٌّ لا كلِّيَّة، أو المشــركون والعصاة فيصرف إلى كلِّ فريق ما يليق به، وهو خلاف الظاهر.

[سيرة] ويــروى أنَّ خاتم النبيء ﷺ ثلاثة أســطر: «محمد» ســطر أوَّل،

(1) البيت لأبي عمر أحمد بن محمد بن دراج القسطلي. ينظر ديوانه.

و«رسول» سطر فوقه، و«الله» سـطر ثالث أعلى، وخاتم الصدِّيق: «نعم القادر الله»، وخاتم الفاروق: «كفى بالموت واعظا يا عمر»، خاتم عثمان: «لتصبرنَّ أو لتندمنَّ»، وخاتم علـي: «الملك لله»، وخاتم عمر بـن عبد العزيز: «أغز غزوة تجادل عنك يوم القيامة».

﴿وَهُم فِي غَفْلَةٍ﴾ عظيمة بشدَّة بُعدها عن التنبيه، أو بعمومها في أمور الدين، من التوحيد والرسـالة والحسـاب والثواب والعقاب ونحو ذلـك من الأصول والفروع. والجملة حال من «الناس»، ولا شعور للغافل عن المغفول عنه بخلاف الإعراض، ولذا ذكره بقوله: ﴿مُّعْرِضُونَ﴾ خبر ثان، أعرضوا عن التفكير في عاقبة حالهم ومـآل أمرهم، وذلك تابـع لغفلتهم، أو أعرضوا عن الآيـات والنذر بعد النزول، أو أعرضوا: أتوا بأمر عريض أي واسع في غفلتهم وأفرطوا فيه كقوله:

عطاء فتى تمكَّن فـي المعالي وأعرض في المعالي واستطالا[1]

أي تمكَّن في عرض المعالي وطولها، ولا يقال: أعرضوا عن تحسـين الحقِّ وتقبيح الباطل **لأنَّ التحسين والتقبيح العقليَّين لا يثبتان**، ولو قالت بهما المعتزلة، إلَّا أن يقال: المعنى أعرضوا عن أن يقلِّدوا حسن ما حسَّنه الله وقبح ما قبَّحه.

قال حذيفة بن أسـيد: اطلع النبيء ﷺ من غرفة ونحن نتذاكر الساعة، فقال: **«لا تقوم الساعة حتَّى تكون عشر آيات قبلها: طلوع الشمس من مغربها، والدجَّال، والدخان، ودابَّـة الأرض، ويأجوج ومأجوج، وخروج عيسـى، وثلاثة خسـوف: خسف بالمغرب وخسف بالمشرق وخسـف بجزيرة العرب، ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس إلى المحشر، تبيت معهم إذا باتوا وتقيل معهم إذا قالوا»**[2].

(1) البيت لذي الرمة كما في اللسان لابن منظور، وضبطه هكذا:

فعـال فتـى بَنَـى وَبَنَـى أبوه فأعرض في المكارم واسـتطالا

ابن منظور: لسان العرب، ج 9، ص 137.

(2) رواه **ابن ماجه** في كتـاب الفتـن (28) باب الآيات، رقـم 4127. ورواه **أحمد** في مسـند المدنيين، رقم 15711. من حديث حذيفة بن أسيد الغفاري.

[ما قيل عن الدجال] وعــن عمر إذا ذكر الدجَّــال عند النبيء ﷺ قال: «إن الله لا يخفى عليكم، إنَّ الله ليس بأعور، وإنَّ المسيح الدجَّال أعور العين اليمنى، وهي طافئة كالعنبــة». وعن أنس عن النبـــيء ﷺ: «ما بعث الله من نبـــيء إلَّا أنذر قومه بالأعــور الكذَّاب، إنَّــه أعور وإنَّ ربَّكــم ليس بأعور، مكتوب بين عينيه كافر». وعن حذيفة عن النبـــيء ﷺ: «إنَّ مع الدجال ماء ونارا ماؤه نار وناره ماء».

وعن فاطمــة بنت قيس: إنَّ النبـــيء ﷺ أخَّر ليلة صلاة العشــاء، ثمَّ خرج فقال: «إنَّما حبسني حديث كان يحدِّثني به تميم الداري[1]، إنَّ ابن عمٍّ له ركب البحر فوقع في جزيرة من جزائر البحر، فإذا هو بقصر عال فيه رجل يجرُّ شعره مسلســل بالأغلال، فقال: من أنت؟ فقال: أنا الدجَّال، أما خرج الرسول الأمي بعد؟ قال: بلى، قال: هل أطاعه قومه؟ قال: نعم، قال: ذلك شرٌّ لي خير لهم»، فقيل: إنَّ الدجَّال محبــوس ويخرج آخر الزمــان، وقيل: ســيولد آخر الزمان ويخرج ويدعو الناس إلى عبادة نفسه، فيتبعه من اليهود ما لا يحصى، ويطوف بالبلدان ويفتن كثيرا من الناس، ثمَّ ينزل عيســى بن مريم عليه السلام فيقتله في باب لُدّ من بيت المقدس، ويظهر الإسلام في جميع الأرض.

﴿مَا يَاتِيهِم مِّن ذِكرٍ﴾ اســم مصدر أي تذكير ببعض القرآن، أو طائفة منه يكمل بها التذكر، حتَّى إنَّها نفس التذكُّر، و«مِــن» صلة في الفاعل والتي في قوله: ﴿مِن رَّبِّهِم﴾ للابتداء المجازي لتنزُّه الله عن الجهات والحلول، متعلِّقة بـ«يَاتِي» أو بمحذوف حال من «ذِكْرٍ» أو بقوله: ﴿مُّحْدَثٍ﴾ فقدِّم للحصر.

(1) تميم بن أوس الداري: صحابيٌّ كان نصرانيًّا قدم المدينة هو وأخوه نعيم فأســلما سنة 9هـ. وكان راهب فلسطين وعابدها، وهو أوَّل من أسرج السراج في المسجد، له قصة مع عمر بن الخطاب فيها كرامة واضحة. توفي بالشــام وقبره ببيت جبرين من بلاد فلسطين. ابن حجر: الإصابة، ج 1، ص 186.

وفي ذلك دلالة على كمال شرف القرآن وقبح مُنكره إذ كان ممن هو ربٌّ لهم. أو الذكر المحدث: السنَّة أو كلُّ ذلك ﴿إِلَّا اسْتَمَعُوهُ﴾ حال من الهاء مقدَّرة، أو من «ذِكْرٍ»، ويبعد أنَّه نعت لمحذوف بدل، أي: إلَّا ذكر استمعوه ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ حال من واو «اسْتَمَعُوهُ» ﴿لَاهِيَةً﴾ عنه، حال سببيَّة من إحدى الواوين، وقوله: ﴿قُلُوبُهُمْ﴾ فاعل «لَاهِيَةً»، وأسند اللهي إلى القلوب لأنَّها محلُّ رسوخ الشرِّ ومنبعه، يقال: لَهِيَ عن الشيء بكسر الهاء يَلْهَى بفتحها سلا عنه، وترك ذكره ولو بلا نسيان.

واستماع الآيات لا ينافي الغفلة المذكورة بقوله: ﴿فِي غَفْلَةٍ﴾ وقوله: ﴿لَاهِيَةً﴾ لأنَّها تعقب الاستماع، أو نزَّل شعورهم منزلة العدم، أو ﴿لَاهِيَةً﴾ بمعنى تاركة، ولم أقل «لَاهِيَةً» من اللهو بالواو لأنَّ قبله «يَلْعَبُونَ»، والتأسيس أولى، نعم يجوز على معنى: يلعبون بجوارحهم وألسنتهم مع رسوخ موجب اللهو في قلوبهم.

[أصول الدين] ومعنى الإحداث أنَّه يحدث نزوله شيئا فشيئا وعظا وتذكيرا، وليس المراد بالحدوث الذي تضمنه الإحداث نفي القدم، لأنَّ المقام ليس لذكر حدوثه ونفي قدمه للمشركين، وهو حادث لا قديم، واللهِ الذي لا إله إلَّا هو، إلَّا أنَّ الآية لم تنزل لذلك.

ولا يصحُّ لعاقل أن يقول بقدمه لأنَّه مركب حالٌّ في ألسنتنا، والقديم لا يحلُّ في الحادث، ولا يصحُّ لمنصف أن يقول: ألفاظ القرآن ترجمة للقرآن الذي هو الكلام النفسي، لأنَّه مناقض لنصوص القرآن والأحاديث أنَّ هذه الألفاظ هي القرآن، ولا يصحُّ لمن صحَّ إيمانه أن يثبت الكلام النفسي لأنَّ فيه اعتقاد أنَّ الله ظرف، وأنَّه متحيِّز، وحالٌّ، و[فيه] وتعدُّد القدماء، حاشاه عن ذلك. بل نصف الله بالعلم وننفي عنه كلَّ شبه بالمخلوق.

ويضعف ما قيل من أنَّ الذكر الرسول، ومن أنَّه يدلُّ له قوله ﷻ: ﴿هَلْ هَذَا﴾ لأنَّ قوله: ﴿إِلَّا اسْتَمَعُوهُ﴾ ينافيه إلَّا بتأويل: إلَّا استمعوا قوله، أو إلَّا استمعوا له.

ويقال: رُبَّ غافل عن الحساب لاستغراقه في دنياه وإعراضه عن مولاه، وربَّ غافل عن الحساب لاستهلاكه في مولاه وإعراضه عن دنياه، فهو يفيق برؤية المولى، والأوَّل إنَّما يفيق في عسكر الموتى، ومعنى رؤية المولى إحضار عظمته.

﴿وَأَسَرُّواْ النَّجْوَى﴾ اسم مصدر وهو التناجي، أي الإسرار بينهم، أو اسم للكلمة المسرورة، وعلى كلِّ حال المعنى: زادوا للإسرار إسرارا، وبالغوا فيه بكلِّ ما أمكن، حتَّى إنَّهم لا يتناجون بحضرة من يراهم، أو ﴿أَسَرُّوا﴾ بمعنى أظهروا أي أظهروا ما كانوا يخفونه كقول الفرزدق:

فلمَّا رأى الحجاج أظهر سيفه   أسرَّ الحروري الذي كان أضمرا

والأصل خلاف هذا، ويحتمل البيت معنى نطق بما في قلبه سرًّا.

[نحو] ﴿الذِينَ ظَلَمُواْ﴾ بدل أو بيان من واو «أَسَرُّوا» المحذوفة للساكن، أو فاعل «أَسَرُّوا» وواو أسرَّ حرف علامة للجمع على لغة «**يتعاقبون فيكم ملائكة**»[1] وهي لغة شهيرة لا شاذَّة، أو مبتدأ خبره ﴿أَسَرُّواْ النَّجْوَى﴾ كقولك: قام أبوه زيد، «زيد» مبتدأ «قام أبوه» خبر، أو يقدَّر: هم الذين، أو يقول الذين، أو أعني الذين، أو أذمُّ الذين. ويبعد إبداله من «النـاس»، أو جعله نعتا له. وأظهر «الذِينَ» ليذمَّهم بصلته.

﴿هَلْ هَذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمُۥٓ أَفَتَاتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ مفعول لقول مقدَّر في جواب سؤال: ماذا قالوا في إسرارهم النجوى؟ أو مفعول لـ«أَسَرُّوا» لأنَّ فيه معنى القول، أو [مفعول] لـ«النَّجْوَى» بمعنى التناجي على إعمال المصدر

(1) إشارة إلى الحديث الذي رواه **البخاري** في كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر، رقم 530، من حديث أبي هريرة، وهو قوله ﷺ: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثُمَّ يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلُّون وأتيناهم وهم يصلُّون».

المقرون بـ«ال» واسمه عمل الفعل، أو يقدَّر: فقالوا: هل هذا... إلخ بعطف القول المقدَّر على «أَسَرُّوا» أو يقدَّر: قالوا بلا عاطف على أنَّه بدل من «أسرُّوا»، أو ذلك بدل من «النَّجْوَى» بلا تقدير قول، والمعنى: أسرُّوا هذه الجمل.

والفاء في ﴿أَفَتَاتُونَ السِّحْرَ﴾ عاطفة على محذوف أي أتضلُّونَ عن دينكم فتأتون؟ أو أتتركون دينكم فتأتون؟.

[نحو] [قلت:] والمحافظة عندي على عدم تقديم ما بعد العاطف وهو الهمزة بتقدير الجملة أولى، فلا تقل كابن هشام، ألا ترى أنَّ الحذف كثير لا تعدُّ كثرته ولا تقصر على السماع إلَّا عند قيام المانع.

والاستفهام هنا للإنكار، و«أَنتُمْ تُبْصِرُونَ» حال من واو «تَاتُونَ» مقرِّرة للإنكار أي كيف تذعنون له مع أنَّه بشر؟ والبشر لا يكون نبيئا [على رأيهم] بل الملك يكونه.

ويبعد ما قيل: إنَّهم أسرُّوا ليقولوا له ﷺ: «إن كنت نبيئا فأخبرنا بما أسررنا» لأنَّه لا دليل له ولا يناسب المبالغة بـ«أَسَرُّوا» ولا بـ﴿أَفَتَاتُونَ السِّحْرَ﴾ ولو ناسب قوله تعالى: **﴿قُل رَّبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَآءِ وَالَارْضِ﴾** إلَّا أنَّه لم يقل: قل ربِّي يعلم السرَّ في السماء والأرض، لأنَّ القول أعمُّ من السرِّ لشموله الجهر.

ففي ذكر «القول» تعميم للسرِّ والجهر، وإيذان بأنَّهما عنده سواء، وأنَّه يعلم الأخفى أيضا كما ذكر عنهم الإخفاء في قوله: ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ﴾ كأنَّه قال: قل يا محمَّد ربِّي يعلم هذا الضرب من السرِّ، وما هو أخفى. و«فِي السَّمَآءِ» حال من «الْقَوْل» أو متعلِّق به، أي يعلم ما قيل في السماء والأرض، والقول بمعنى المقول، والمراد في السماء والأرض وغيرهما، وخصَّهما بالذكر للظهور، أو المراد بالسماء والأرض جهة العلوِّ والسفل مطلقا، وشمل السماوات والأرضين.

﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ العليم بالأصوات ﴿الْعَلِيمُ﴾ بغيرها أيضا، ودخل في ذلك أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، فهو يجازيهم عليها، ولا يترك منها شيئا لخفائه إذ لا يخفى عنه شيء.

﴿بَلْ قَالُواْ أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾ إضراب من الله انتقالي من ذكر قولهم الباطل: ﴿هَلْ هَذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُم...﴾ إلى ذكر قول آخر باطل هو قولهم: ﴿أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾، أي ما تتلو علينا تخاليط مرائي يراها الإنسان في نومه.

﴿**بَلِ افْتَرَاٰيهُ**﴾ إضراب منهم عن قولهم ﴿أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾ إلى قولهم إنَّ القرآن من عنده البتَّة، مقتطع منه لا اتِّصال له بشيء مَّا من الله ﴿**بَلْ هُوَ**﴾ أي محمَّد ﴿**شَاعِرٌ**﴾ إضراب منهم عن قولهم: إنَّه افتراه إلى قولهم: إنَّ القرآن شعر وشاعره محمَّد، يخيِّل به للناس ما لا حقيقة له، وهو أخصُّ من الافتراء.

والإضرابان انتقاليَّان أو إبطاليَّان، أو الثاني انتقاليٌّ والثالث إبطاليٌّ، أو بالعكس، ويجوز أن يكونا من الله ﷻ على تقدير القول، أي بل قالوا: افتراه، بل قالوا: هو شاعر.

وقولهم سحر دون قولهم: ﴿أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾ في الفساد، وقولهم: ﴿أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾ دون قولهم: ﴿افْتَرَاٰيهُ﴾، وقولهم: ﴿افْتَرَاٰيهُ﴾ دون قولهم: هو شاعر، وذلك كما جاء: «**إنَّ من البيان لسحرا**»[1] وتخاليط الكلام لا تنضبط.

والقرآن بلاغته لا طاقة له ﷺ بها ولا لهم، مع شدَّة أمانته عندهم، وإنَّه لا افتراء له في شيء يدَّعونه عليه، فضلا عن أن ينسبوه إلى افتراء القرآن.

(1) رواه **الربيع** في مسنده (5) باب في طلب العلم لغير الله ﷻ، رقم 37. من حديث ابن عمر.

[قلت:] ولا حكمة في الشعر إلَّا نادرا، وحكم القرآن لا تحصى، فقوله ﷺ: «**إنَّ من الشعر لحكمة**»[1] إخبار بالنادر بل قال الراغب[2]: الشاعر في القرآن بمعنى الكاذب، وقد وصفهم الله ﷻ بأنَّهم يهيمون في كلِّ واد وأنَّه يتبعهم الغاوون، فهم في غيٍّ وإغواء وأنَّهم يقولون ما لا يفعلون، فهم كاذبون واستثنى الله من اتبع هذا القرآن[3].

﴿**فَلْيَاتِنَا**﴾ إن لم يكن كما قلنا بل صدق فليأتنا ﴿**بِئَايَةٍ**﴾ ليست من جنس ما يأتي به ﴿**كَمَآ أُرْسِلَ الاَوَّلُونَ**﴾ صالح وموسى وعيسى، كالناقة والعصا وإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى، وغير ذلك مما لا يحتمل السحر، وشبه الأحلام في الضعف والشعر ويدوم ويشاهد، وهذا شأن المحجوج المبطل المتردِّد بين باطل وأبطل.

[بلاغة] وقد نفوا أن يكون البشر نبيئا ومع هذا قالوا: ﴿كَمَآ أُرْسِلَ الاَوَّلُونَ﴾ وكأنَّهم أرادوا: كما أرسل الأوَّلون في زعمك، أو قالوه اضطرابا، ولم يقولوا: كما أتى الأوَّلون ليزيدوا بذكر الإرسال من الله ﷻ، ولم يقولوا: فليُرسل إلينا بالبناء للمفعول تلويحا بأنَّه قال من عنده لا برسالة كالأوَّلين، كما قالوا: «افْتَرَاهُ».

[نحو] و«مَا» مصدريَّة، أي إتيانا ثابتا كإرسال الأوَّلين، أو اسم، أي بآية مثل آيات أرسل بها الأوَّلون أو مثل الآيات التي أرسل بها الأوَّلون، وحذف الرابط المجرور بدون أن يجرَّ الموصول بمثله، ويتعلَّق الموصول بمثل ما

---

(1) رواه **ابن ماجه** في كتاب الأدب (41) باب الشعر، رقم 3823. ورواه **البخاري** في كتاب الأدب (90) باب ما يجوز في الشعر، رقم 6145. ورواه **أبو داود** في كتاب الأدب، باب ما جاء في الشعر، رقم 5010. من حديث أُبي بن كعب.

(2) الراغب الأصفهاني هو الحسين بن محمد بن المفضل أديب من العلماء الحكماء سكن بغداد، له مؤلَّفات كثيرة منها محاضرات الأدباء، المفردات في غريب القرآن، حل متشابهات القرآن. توفي سنة 502هـ. الزركلي الأعلام ج 2 ص 255.

(3) الشعراء آيات: 224، 225، 226، 227.

تعلَّق به لظهور المعنى واشــتراط ذلك ليــس متَّفقا عليه كمــا ذكره الصبان بقول[1]، والمنعوت كالموصول، بل المتعلِّق متَّحد هنا لأنَّ الإتيان والإرسال بمعنىً مأصدقا، وعلى الاشــتراط تجعل «ما» حرف مصدر أولى من أن يقال حذف الجار ونصب مدخوله فحذف كما يحذف الرابط المنصوب.

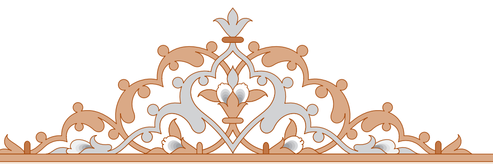
﴿مَآ ءامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ اَهْلَكْنَاهَآ﴾ ما آمن أهل قريةٍ قبلَهم مقترحةٍ آيةً أهلكناها بالاستئصال، بل أهلكنا به من اقترحوها ولم يؤمنوا، فلا تقترحوها، وإن اقترحتموها لم أجبكم إليها لأنَّه سبقت كلمتي أن لا أعذِّب أمَّة محمَّد به، وأن سيخرج من أصلابهم من يؤمن بي، أو عادتي الإهلاك به للمقترح إن لم يؤمن، وأنتم اقترحتم انشــقاق القمر فانشقَّ ولم اســتأصلكم لذلك، وتفضُّلا عليكم، ونجَّيتكم بعدما بحثتم بالظلف عن الحتف.

و«أَهْلَكْنَاهَــا» نعت «قَرْيَةٍ»، و«مِن» صلة فــي الفاعل، على حذف مضاف كما رأيت، وإن قلنا: المراد بالقرية أهلها وضعا لغويًّا أو تســمية للحالِّ باسم المحلِّ فلا حذف، لكن يعارضه «أَهْلَكْنَاهَا» إذ لم يقل: أهلكناهم، فيحتاج إلى ردِّ الضمير إلى القرية لا على معناها، بل على معنى الأهل بطريق الاستخدام، وهو خلاف الأصل مع ما فيه هنا من الاضطراب، وما تقــدَّم أولى، ويليه أنَّ إهلاك القرية كناية عن إهلاك أهلها.

﴿أَفَهُمْ يُومِنُونَ﴾ أهم شــاكرون نعمة النجاة من الاستئصال فهم يؤمنون؟ أو أمن قبلهم لم يؤمنوا فهم يؤمنــون؟ لو أعطوا ما اقترحوا لم يؤمنوا، كما لم يؤمن قبلهم من اقترحوا، أو الهمزة مما بعد الفــاء، فيكون العطف على ﴿مَآ ءَامَنَتْ﴾. والاستفهام على كلِّ حال إنكار.

---

(1) محمَّد بن علي الصبان: عالم بِالعَرَبيَّةِ والأدب، مصري مولده ووفاته بالقاهرة، من مؤلَّفاته: حاشية على شرح الأشــموني على الألفية وغيرها، توفي ســنة 1206هـ. الزركلي: الأعلام، ج 6، ص 297.



﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٧ وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ٨ ثُمَّ صَدَقۡنَٰهُمُ ٱلۡوَعۡدَ فَأَنجَيۡنَٰهُمۡ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهۡلَكۡنَا ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٩ لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٠﴾

بشريَّة الرسل وإنجاز الوعد لهم

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالاً يُوحَىٓ إِلَيْهِمْ﴾ ردٌّ على قولهم: لا يكون النبيء بشرا، فهو متعلِّق بقوله: ﴿هَلْ هَذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُم﴾ وأخِّر عن جواب قولهم: «فَلْيَاتِنَا» مسارعة إلى ردِّ قولهم هذا الذي قالوه، تعجيزا له ﷺ، ولأنَّ الكلام على الإرسال يستدعي بسطا متَّصلا يناسب بعضه بعضا. والمضارع للحال الماضية، كأنَّها استحضرت لتشاهد. والجملة نعت «رِجَالاً» جيء به مدحا لهم بأنَّ الإرسال نعمة لرجال خصُّوا بها وفضيلة لا للملائكة.

﴿**فَسْئَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ**﴾ أهل الكتاب: التوراة والزبور والإنجيل لتزول شُبهتكم، فتوقنوا أنَّ الأنبياء والرسل بشر لا ملائكة، وإخبار الجمِّ الغفير يفيد العلم في مثل هذا، ولا سيما أنَّهم أعداء محمَّد ﷺ، وأصدقاؤكم في عداوته، فلا يبقى لكم إلَّا تصديقهم في أنَّ الأنبياء والرسل بشر، وليس المراد بأهل الذكر أهل القرآن فإنَّ كُفَّار قريش أعداء للمؤمنين بالقرآن لا يسألونهم وهم قد أنكروا عليهم.

﴿**إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**﴾ شاع في مثل ذلك أن يقال: الجواب محذوف دلَّ عليه ما تقدَّم، وليس كذلك فإنَّه لا حذف، بل لا جواب فيه فإنَّه استغنى

عليه بما تقدَّم، وإنَّه يقال محذوف لو أريد: فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون أهل الذكر، وليس تقديره بمراد فليس محذوفا، وإذا قلت: يقوم زيد إن قمت، لم ترد يقوم زيد إن قمت يقوم زيد أو يقم زيد، فكيف تقدِّر ما لا تريده ولا تعنيه؟.

﴿**وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَاكُلُونَ الطَّعَامَ**﴾ كالملائكة، بل جعلناهم جسدا يأكلون الطعام ويشربون الماء وغيره، والمراد بالطعام ما يشمل لبن الرضاع. أي وما صيَّرناهم ابتداء كذلك، مثل قولنا: سبحان من صغَّر البعوض وكبَّر الفيل، بمعنى خلقه صغيرا ولم يكن كبيرا ثمَّ صغِّر، وخلق الفيل كبيرا فإنَّه في حين ولد كبير ولو يزداد كبرا، أو معناه: ما خلقناهم، فـ«جَسَدًا» حال، والجملة نعت «جَسَدًا» وهو قيد.

[لغة] والجسد جسم العقلاء الإنس والملائكة والجنِّ، والجسم أعمُّ منه، وقال الخليل: الجسد للإنسان، لا يقال لغيره من خلائق الأرض ونحوه، ويقال: الجسد له لون والجسم ما لا لون له يبين كالهواء والماء، هل لهما لون لا يبين أو لا لون لهما، والهواء جسم شفاف لا يحجب ما وراءه، قال الفخر له لون، قلت: لا لون له، وقيل: الجسد جسم ذو تركيب وهو ـ قيل ـ أعمُّ من الحيوان، وقيل: يخصُّ به، وقيل: هو في الأصل مصدر جَسُدَ الدم يجسُدُ أي التصق، وأطلق على الجسم المركب لأنَّه ذو أجزاء يلتصق بعضها ببعض. ومن خصَّه بالعاقل أراد ذلك في أصل الوضع وخرج إلى العموم في الاستعمال، وأخبر به عن الجمع لإرادة الجنس، أو لأنَّه في الأصل مصدر أو لأنَّ المراد جعلنا كلَّ واحد أو ذوي جسد.

﴿**وَمَا كَانُواْ خَالِدِينَ**﴾ أبدا كما تخلد الملائكة ولا تموت أبدا على زعم المشركين، إلَّا أنَّ الفلاسفة يقولون: الملائكة عقول مجرَّدة. وتضمَّنت الآية الردَّ على قولهم: ﴿مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَاكُلُ الطَّعَامَ﴾ [سورة الفرقان: 7].

﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ﴾ وفَّيناهم الوعد على تعدِّي «صدق» لاثنين، أو في الوعد، عطف على المعنى الذي يقال فيه لغير الله عطف توهُّم، كأنَّه قيل: أوحينا إليهم ما أوحينا ثمَّ صدقناهم الوعد بإهلاك الأعداء الذي تضمَّنه الوحي، أو عطف على «يُوحَى» بمعنى أوحينا فُصِلَ بالردِّ عليهم، أو على «أَرْسَلْنَا»، و«ثُمَّ» على هذا لتراخي الذِّكر، والآية تضمَّنت جوابا وتهديدا على مخالفته.

﴿فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَآءُ﴾ أي المؤمنين لقوله: ﴿وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ و«ال» للاستغراق ﴿وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمُوَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [سورة غافر: 43]، أو ﴿مَن نَّشَآءُ﴾: المؤمنون وكفارٌ يُخرج الله المؤمنين منهم أو من ذرِّيَّتهم، و«ال» للجنس، ولذا لم يقل: أنجيناهم ومن آمن، أو أنجيناهم ومن معهم. و«نَشَاءُ» للحال الماضية المستحضرة.

﴿لَقَدَ اَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ﴾ يا قريش أو جميع العرب ﴿كِتَابًا﴾ عظيما يخبر بصدق محمد ﷺ، وأنَّه من جملة الرسل، ولو كذَّبتموه وأعرضتم عَمَّا يقول.

﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ نعت «كِتَابًا» أي فيه شرفكم إذ كان بلغتكم على لسان نبيء منكم، أو فيه مكارم الأخلاق، والأفعال المتمِّمة لشرفكم إن عملتموها، أو تذكيركم بما تحتاجون إليه من الدنيا والدين، أو تذكيركم بالوعظ، ويناسبهما قوله سبحانه: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي أتتركون إهمال أنفسكم عن التفكُّر فيما فيه من المصالح والزواجر؟ ويبعد التفسير بفيه ذكر قبائحكم ومعاملتكم النبيء ﷺ والأنبياء قبله ومن هو على الحقِّ بالتكذيب.

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَت ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ۝١١ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ۝١٢ لَا تَرْكُضُواْ وَارْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ۝١٣ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝١٤ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ۝١٥ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝١٦ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ۝١٧ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ۝١٨ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ۝٢٠﴾

الإنذار بعذاب الاستئصال والتذكير بعجائب الخلق

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَت ظَالِمَةً﴾ هذا بعض تفصيل لإجمال قوله عَجَّلْ: ﴿وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ وبيان لكيفيَّة الإهلاك، وإخبار بكثرة المهلكين، فإنَّ «كَمْ» هذه للتكثير مفعول به لـ«قَصَمْنَا» بمعنى كسرنا بتفريق الأجزاء لشدَّة الغضب، ونعت القرية بموجب ذلك وهو الظلم بالكفر بالآيات مثلكم، فهلَّا حذرتم أن ينزل بكم ما نزل بهم؟ والمراد: كان أهلها أو هي أهلها مجازا أو وضعا أو كناية.

ولا يصحُّ التفسير بقرية في اليمن، بعث إليهم رجل يسمَّى ميشا أو شعيبا، وليس شعيب موسى، فضربه عبد بعصا فقتلهم كلَّهم «بخت نصر»، أو بعدما هزموا قومه مرَّتين فخرج بنفسه في الثالثة؛ ولا بقريتين: «حضور» و«قلابة» أهلكهما «بخت نصر» لأنَّ «كَمْ» للتكثير. ويضعف أن يجاب بأنَّ

التكثير للقصم لا للقرية، أي كم قصمنا من ساكني قرية أو قريتين، كما تقول: كم أخذت من دراهم زيد، على تعليق «مِن» بالفعل لأنَّه خلاف الظاهر، بل «مِن» زائدة في التمييز، وأن يجاب بأنَّ المراد: قرية أو قريتان تخويف بها أو بهما لا اختصاصا، وأنَّ «كَمْ» للتقليل لفظا تخويفا بالوقوع في شأن هذا القليل، وإذا صحَّت الرواية في ذلك عن ابن عبَّاس مثلا فلعلَّ المراد التمثيل للآية بالقرية والقريتين.

﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا﴾ بعد إهلاكها فاعتبر ما مرَّ هنا في شأن القرية، وفي قوله: ﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ اَهْلَكْنَاهَا﴾ [سورة الأنبياء: 6] ﴿قَوْمًا ـ اخَرِينَ﴾ سكنوا القرية أو قريبا منها.

﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ﴾ أي أهل القرية المقصومة لا القوم الآخرون، إذ ليس ذنب هؤلاء لهم، أي: ولَمَّا أدركوا بحواسِّهم ﴿بَأْسَنَآ﴾ عذابنا الشديد، رأوا بأعينهم ما يُرى أو بآذانهم ما يُسمع؛ أو البأس استعارة بالكناية، والإحساس تخييل، أو الإحساس مجاز عن مطلق الإدراك ﴿إِذَا﴾ للمفاجأة ﴿هُم مِّنْهَا﴾ أي من القرية، وهي للابتداء، ويضعف ردُّ الضمير إلى البأس مؤنَّثا لمعنى البأساء أو النقمة، فتكون للتعليل لأنَّ ذلك خلاف الظاهر، ولاحتياجه إلى التأويل، وهي متعلِّقة بقوله: ﴿يَرْكُضُونَ﴾ داوبَّهم، أي يسوقونها بالضرب إسراعا وتنجية لها ولأنفسهم عليها، أو يسرعون فإنَّه يستعمل أيضا لازما، يقال: فرس راكض، أي جار بسرعة، أو يهربون كمن يركض الدَّابَّة.

﴿لَا تَرْكُضُواْ وَارْجِعُواْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْئَلُونَ﴾ كنت في زمان صغر السنِّ أفسِّره بحال مَن شأنه أن يقال له ذلك لتمكُّنهم في نعمهم وأحوالهم مطمئنِّين، ولا قائل تحقيقا، ويحتمل أن يقول لهم ذلك استهزاء بهم مَلَائكَتُهم، أو الملائكة الجاؤون بالعذاب، أو المؤمنون، أو الوافدون إليهم للسؤال، أو «بخت نصر»، أو بعض قومه على أنَّ الإهلاك بهم على ما مرَّ.

ويقال: هم عرب «حضور» وهي قرية باليمن قتلوا نبيئا مبعوثا إليهم فأخذتهم سيوف «بخت نصر»، وملك ينادي من جهة السماء يا لثارات الأنبياء، وسمعوا وفرُّوا حين لا ينفعهم. و﴿أُتْرِفْتُمْ﴾: نعمتم فيه من النعم، و«في» للظرفيَّة؛ أو صيَّرتم بطرين كافرين للنعم، و«في» للسببيَّة.

والمراد بالسؤال السؤال في المهمَّات والنوازل كحالهم من قبل، أو عَمَّا جرى عليهم في أموالهم ومنازلهم التي يفتخرون بها، فيخبرون السائل عن معاينة، أو سؤال عبيدهم وأولادهم وخدمهم عَمَّا يفعلون أو يتركون، أو الطلب من الفقراء أو غيرهم منهم عطاء وكانوا أسخياء رئاء أو بخلاء فقيل لهم ذلك، تهكُّما بالشح إلى تهكُّم بـ﴿لَا تَرْكُضُواْ وَارْجِعُواْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾.

أو المعنى: ارجعوا إلى مساكنكم في النار تهكُّما والرجوع بمعنى مطلق الذهاب، والسؤال عن العذاب لتكذيبهم لأنَّه ملزوم للعذاب وسبب.

﴿**قَالُواْ**﴾ إذ لم ينفعهم الهرب ﴿**يَاوَيْلَنَآ**﴾ هلاكنا، نادوه تفجُّعا لا قصدا لإقباله، أو أرادوا: اذهب عَنَّا يا هلاكنا، أو «يَا» تنبَّه وتيقظ لا نداء، و«وَيْلَنَا»: مفعول مطلق، أي هلكنا هلاكا، فحذف «هلك» وأضيف «هلاك» إلى «نَا» وهو «ويل».

﴿**إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ**﴾ لأنفسنا بالتكذيب، وذلك ندم حين لا ينفع، أو لَمَّا أخذتهم سيوف «بخت نصر» ونادى مناد من السماء: يا لثارات الأنبياء، قالوا ذلك.

﴿**فَمَا زَالَت تِّلْكَ**﴾ الكلمة التي هي ﴿يَاوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ «تِلْكَ» اسم «زَالَ»، و﴿**دَعْوَاٰيهُمْ**﴾ خبره، ولا دليل على غير ذلك، لأنَّه الأصل، وأيُّ داع إلى العكس بدعوى تأخير ما قدِّم وهو خلاف الأصل، وأيُّ داع إلى دعوى الإجمال بل يقال ذلك إلْبَاسٌ.



[نحو] والإلباس ممنوع، وسواء في ذلك الفاعل والمفعول والمبتدأ وخبره والمفعول الأوَّل والثاني، والثاني والثالث فيما يتعدَّى لثلاث، واسم كان وخبرها إذا لم يظهر الإعراب أو يظهر ولا يعرف في الخطِّ، ولم تسمع من اللسان، نحو: «ضربت هند دعد» غير مصروفين، إذ لو صرفا لكان المنصوب بالألف في الخطِّ.

والدعوى: الدعوة، لأنَّ الموَلْول يقول: يا ويل يا ويل!، كأنَّه يدعو الويل ليقبل، على ما مرَّ آنفا.

﴿**حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا**﴾ نباتا محصودا أي مثله، أو استعارة للفظ حصيد لمن تقطَّعوا وماتوا، أو شبَّههم بالنبات اليابس على طريق الاستعارة بالكناية ورمز إليه بلازمه وهو الحصد ﴿**خَامِدِينَ**﴾ حال من الهاء استعارة من سكون النار بعد خمودها، بأن صارت رمادا، لسكونهم بالإهلاك واشتقَّ منه «خَامِدِينَ» على التبعيَّة.

[صرف] ولا يجعل «فعيل» مصدرا إذا صحَّ أن يكون بمعنى «مفعول» بلا ضعف، ولا يجعل بمعنى الجمع من أنَّه «فعيل» بمعنى «مفعول» لأنَّ ذلك في معنى «فاعل»، كقوله: ﴿وَالْمَلَآئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [سورة التحريم: 4] في أحد الأوجه، وهو الوارد دون استعمال «فعيل» بمعنى «مفعول» جمعا، فإنَّه لم يرد، ولو استويا في الموازنة للمصدر كصهيل ودبيب. أو «خَامِدِينَ» مفعول ثان بعد مفعول ثان، كما تقول: خبر بعد خبر.

﴿**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَآءَ وَالَارْضَ**﴾ العجيبتين ﴿**وَمَا بَيْنَهُمَا**﴾ من أصناف الخلق وبدائعهم ﴿**لَاعِبِينَ**﴾ خارجين عن الحكمة، أو لاعبين لعب الملوك بأملاكهم، بل داعين بهما إلى الاستدلال على وجودنا، وكمال قدرتنا، وحقِّية ما جاءت به الرسل، وعقاب من كذَّب وإثابة من امتثل، ومنكر الرسل جاعل لخلق السماء والأرض لعبا وعبثا.

﴿لَوَ اَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاَتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا﴾ أي لاتَّخذنا لهوا إلهيًّا، وهو حكمة، اتخذتموها لهوا ونسبتموه إلينا، أو اتخذتموها لهوا من جهتكم، وهي على كلِّ حال عين الحكمة لا مسيس لها باللعب لو اعتبرنا وقوعه لنفته الحكمة.

[أصول الدين] ولا يقال: لو أردناه لامتنع، لأنَّ إرادة الله لا تتخلَّف إلَّا إن أريد بإرادته اعتباره، والله لا يريد اللعب لأنَّ الحكمة صارفة عنه، ولا يقال: إنَّا قادرون على اللعب لو أردناه، لأنَّ الله لا يوصف بالقدرة على ما لا يجوز في صفته، لأنَّ القدرة عليه وصف له بإمكانه في حقِّه، وإمكانه مستحيل في حقِّه، ولا فرق في أصل الكفرين القول بالوقوع والقول بإمكان الوقوع، ولا تقل أيضا: عاجز عنه لتنزيهه عن العجز.

﴿إِن كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ أي ما كُنَّا فاعلين، لأنه تكون «إنْ» نافية ولو لم تكن بعدها «إلَّا» ولا لام الفرق، ولو قلَّ ذلك، وهذا تقرير وتذييل للامتناع بـ«لو»، أي ما فعلنا اتِّخاذه لأنَّه راجع للحكمة مثل خلق السماوات، أو ما كُنَّا فاعلين اللهو الذي يقتضيه حالكم.

وإن جعلت شرطيَّة لزم الشكُّ مِنَّا في أنَّه فعل الحكمة، وهي واقعة قطعا فما الشكُّ؟ الجواب: إنَّ ذلك تقرير لما قبله هكذا: يكون اللهو نفس الحكمة إن كان وقد كان، ومنه خلق السماء والأرض.

أو المعنى: لو أردنا أن نتَّخذ لكم لهوا تلهون به لجعلناه أمرا عجيبا غير السماء والأرض، وقرَّر ذلك بالشرط الآخر وهو ﴿إِن كُنَّا فَاعِلِينَ﴾، وقيل: لاتَّخذناه عندنا من المجرَّدات عن الأجسام.

ومذهبنا ومذهب أكثر الأَشعَرِيَّة نفي المجرَّدات. أو ولو أردنا اللهو لاتَّخذناه من لدنَّا لا كما تشاهدون، لأنَّه عيب يستر، فهذا نفي لاتِّخاذه.



أو اللهو: الولد بلغة حضرموت، أو الزوج بلغة اليمن، أو يقدَّر مضاف، أي أهل لهو، وهو ما يرتاح إليه من زوج أو ولد، و﴿مِن لَّدُنَّا﴾ مما نشاء، أو من الحور، وما تقدَّم أولى، لأنَّ المحلَّ ليس لذكر الزوج أو الولد بل محلُّه حيث قال: ﴿لَّوْ أَرَادَ اللهُ أَنْ يَّتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ [سورة الزمر: 4] وقوله: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ﴾ [سورة الأنعام: 101] ونحو الآيتين.

﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ﴾ إضراب عن إرادة الاتِّخاذ، أو عن الاتِّخاذ، والمعنى: لكِنَّا لا إرادة لنا لاتِّخاذ اللهو، أو لا اتِّخاذ له، بل من شأننا أن نضرب بالحقِّ على الباطل، بمعنى أن نغلِّبه عليه، ولذلك جاءت «عَلَى».

والمراد: عموم الحقِّ والباطل الذي من جملته اللهو، لا خصوص القرآن بالحقِّ، والشيطان بالباطل، والحجَّة بالحقِّ، وشُبَهِهم والولد والزوج بالباطل، أو الحقُّ الإيمان والباطل الكفر، أو الحقُّ نفي الولد والباطل إثباته.

[بلاغة] واستعير القذف وأصله الرمي البعيد مع صلابة للإيراد، أي بل نورد الحقَّ على الباطل العقليَّان والحسِّيَّان، أو ذلك استعارة تمثيليَّة بأن شبَّه غلبة الحقِّ على الباطل وإذهابه إيَّاهُ برمي جرم صلب كحجر أو حديد على رأس دماغ رخو فيشقّه، فالحقُّ عال باق، والباطل سافل فانٍ.

﴿فَيَدْمَغُهُ﴾ يمحقه بالكلِّيَّة كتلك القرى المهلَكة، والدمغ: كسر الشيء الرخو الأجوف، واستعير للمحق، أو شبَّه الباطل بالرخو الأجوف، ورمز إليه بلازمه وهو الدمغ.

﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ ذاهب، أسرع إليه الذهاب حتَّى كأنَّه لم يكن من أوَّل الأمر ﴿وَلَكُم﴾ معشر كُفَّار قريش، أو معشر كُفَّار العرب ﴿الْوَيْلُ﴾ العقاب في الآخرة، كما لهؤلاء الكفرة قبلكم ﴿مِمَّا تَصِفُونَ﴾ «مِن» للتعليل أو

الابتداء متعلِّقة بـ«لَكُمْ» لنيابته عن نحو: ثابت أو ثبت أو بثابت أو ثبت؛ أو حال من المســـتتر في «لَكُمْ» و«مَا» مَصدَرِيَّة، أو نكرة موصوفة، أي من ولد تصفون الله به، أو من شـــيء تصفون الله به، من نحو الولد، أو اسم موصول أي من الولـــد الذي تصفون الله بـــه، على جواز حذف الرابـــط المجرور بلا شـــرط، لظهور المعنى، وإن قدِّر تصفونه فيهما بردِّ الهاء لـ«مَا» وهو الولد أو نحوه، أي تثبتونه لله حاشاه، أو من الوصف الذي تصفونه بردِّ الهاء للوصف فقد حُذف منصوبا لا مجرورا.

﴿**وَلَهُ**﴾ لا لغيره ﴿**مَـــن**﴾ للعقلاء وغيرهم تغليبا لهم ﴿**فِي السَّـــمَاوَاتِ وَالَارْضِ**﴾ تقرير لقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّـــمَآءَ والَارْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ إلَّا أنَّه جمع الســـماء هنا إظهارا لمزيد العظمة، أي له كلُّ ما في كُلٍّ واحدة، وهناك أراد مجرَّد هذا السقف الذي يشاهدونه، والفراش الممهد، وما بينهما [مُشتملٌ]على حِكَمٍ لا تحصى.

أو تقريـــر لما قبله كلِّـــه، أي له خاصَّة مـــا فيهنَّ خلقا وملـــكا وتدبيرا وتصرُّفا وإحيـــاء وإماتة وإثابة وعقابـــا. ويضعف عوده إلى «لَكُـــمُ الْوَيْلُ» بمعنى: لكم ما ليس لله من الشـــرور، ولله ما ليس لكم من الخيور، أو إلى «تَصِفُونَ» على أنَّ الـــواو للحال: تصفونه بالولد مع أنَّ ما في الســـماوات والأرض ملك له.

﴿**وَمَـــنْ عِندَهُ**﴾ العنديَّـــة عنديَّة الشـــرف والتنزيل منزلـــة المقرَّبين عند الملوك، فـ«عِندَ»: اســـتعارة لقرب المكانة مفردة لا تمثيليَّة، لأنَّ التمثيليَّة لا تقع في المفرد.

و«مَن» مبتدأ خبره قوله: ﴿**لَا يَسْـــتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِـــهِ**﴾ ويجوز عطف «مَن» على «مَنْ» وجملة «لَا يَسْتَكْبِرُونَ» حال من المستتر في «عِندَ»، أو في «لَهُ» فيكون عطف خـــاصٍّ على عامٍّ لمزيَّتـــه، وهو الملائكـــة المعبَّر عنهم

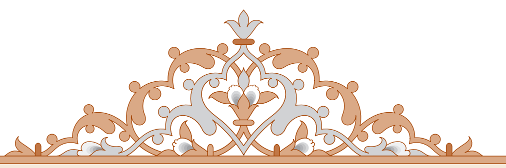
بـ«مَنْ» الثانية كقوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَآئِكَةُ وَالرُّوحُ﴾ [سورة القدر: 4] أو نوع من الملائكة، أو ﴿مَن فِي السَّمَاوَاتِ والَارْضِ﴾: الملائكة و﴿منْ عِندَهُ﴾: نوع منهم كالحافِّين حول العرش، **والعموم في ذلك كلِّه أولى كما فسَّرت الآية أوَّلا**، ومعنى ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾: لا يتعظَّمون عنها ويعدُّون أنفسهم كبراء عنها.

﴿**وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ**﴾ لا يكلُّون عن العبادة ويفترون عنها لتعب، إذ لا يصيبهم تعب، والاستفعال هنا بمعنى الفعل، كأنَّه قيل: لا يحسرون، أو للمبالغة على الأصل بمعنى: انتفى الحسور انتفاء بليغا، كما هو وجه في قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [سورة فصلت: 46] أي انتفى الظلم عنه انتفاء بليغا.

﴿**يُسَبِّحُونَ الَيْلَ وَالنَّهَارَ**﴾ عبارة عن المداومة، لأنَّه ليس الليل والنهار في كلِّ موضع فيه الملائكة، أو المراد الليل والنهار عندنا مثلا، بمعنى: يسبِّحون في كلِّ وقت، الوقت الذي هو ليلكم والوقت الذي هو نهاركم، والتسبيح تنزيه الله عن صفات الخلق والنقص، وتعظيمه بصفات الجلال.

﴿**لَا يَفْتُرُونَ**﴾ عن التسبيح بفراغ أو شغل، ولو في حال تلقِّي الوحي وتبليغه، ولعن الكفار وسائر الأشغال، قوَّاهم الله على ذلك، كما مرَّ عن عزرائيل حين ساير إدريس، وحين عرف أنَّه ملك الموت قال له: أراك اشتغلت بالذكر معي والمقام عَمَّن يموت، فقال: لا.

ويقال أيضا: التسبيح منهم كالتنفُّس لا يمنع كلاما ولا فعلا، ويقال: التبليغ واللعن تسبيح لهم، ويقال: لهم ألسنة يسبِّحون ببعض ويلعنون ببعض ويبلِّغون ببعض، ويقال: الذين لا يفترون نوع منهم لا كلُّهم، وإنَّهم المراد بمن عنده، ويقال: **المراد المبالغة على عدم الفتور البتَّة**، ويقال: هذا التسبيح ذكر قلبيٌّ لا يمنعه التبليغ أو غيره.



﴿أَمِ اتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿21﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿22﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿23﴾ أَمِ اتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿24﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿25﴾﴾

إثبات وحدانية الله وتوبيخ المشركين

﴿**أَمِ اتَّخَذُواْ**﴾ مع الله ﴿**ءَالِهَةً**﴾ «أم» للإضراب الانتقالي، أو مع الاستفهام الإنكاري نفي للياقة الاتِّخاذ شرعا ﴿**مِنَ الْأَرْضِ**﴾ متعلِّق بـ«اتَّخَذُوا»، و«مِنْ» للابتداء، أو للتبعيض، أو نعت لـ«ءَالِهَةً» وذلك تحقير للآلهة من حجر الأرض، أو معادنها أو شجرها، وقوله:

﴿**هُمْ يُنشِرُونَ**﴾ نعت لـ«ءَالِهَةً» أي آلهة باعثة للموتى محيية لهم الآن، أو يوم القيامة. لم يقولوا: تبعثهم، لكن كلٌّ من عبادتها وتسميتها آلهة وتعظيمها جدًّا يقتضي أنَّها تبعثهم كما هو شأن من هو إله، وهذا النشر هو محطُّ الإنكار.

ولا يبعد أن يريدوا إنكار الواقع بمعنى: إن لم يتَّخذوا آلهة باعثة بل غير باعثة عندهم أيضا، أو يراد أنَّها الناشرة وحدها استقلالا لا الله، ويجوز ـ على بُعد ـ أن يراد: أهم ينشرون؟ على تقدير الاستفهام، فيقال: لا، فيقال: تتَّخذ آلهة وهي جماد عاجزة، وقال قطرب: ﴿يُنشِرُونَ﴾: بمعنى يخلقون.

﴿**لَوْ كَانَ فِيهِمَآ**﴾ في الفريقين السماوات والأرض.

[نحو] ﴿ءَالِهَةٌ اِلَّا اللّٰهُ لَفَسَـدَتَا﴾ «إلَّا» ومدخولها بمنزلة اسـم نُعت به «آلِهَةٌ» ووقع الإعراب على اللفظ الذي هو اسم ولو جيء بلفظ «غير» لرُفع وجرَّ ما بعده، وقيل: إنَّ الاسـم نعت لـ«آلِهَةٌ» جعل إعرابه في الاسم بعده لأنَّها بصورة الحرف، كما جعل إعراب «ال» الموصولة في الاسم بعدها، وفيه أنَّ كون «إلَّا» اسما يقتضي جرَّ مـا بعدها لأنَّها بمعنى غير، وكونها والاسـم بعدها اسـما واحدا لم يتمحَّض المعنى إذا لم يتغلَّب فيه معنى «إلَّا»، ولا معنى لفظ الجلالة، كآكل موز بعسل لم يتحصَّل على طعم موز ولا عسل، فيجاب بأنَّ معنى «إلَّا» النفي، كأنَّه قيل: لو كان فيهما آلهة وحدها لا الله وحده لفسدتا، وذلك لأنَّهم يدعونها آلهة مستقلَّة.

ومعنى كونها فيهما الكـون بالتصرُّف والتدبير لا مجـرَّد الوجود فيهما، والمراد فسادهما بالتهدُّم والسقوط وعدم بقائهما حيث هما لأنَّهما في محلِّهما بلا علاقة ولا عماد، وفساد ما فيهما كذلك بتقطُّع أجزائه وبالاختلاف.

[أصول الدين] لـو كان إلهان لزم فعلهما فعلا واحـدا والفعل لا يصدر من اثنين وإن اختلفا فعـلا وتركا فالفاعل هو الإله، وإن عجـزا فلا واحد منهما إله، وإن اصطلحا فعجـزٌ فلا إله منهما، والإله قادر على كلِّ شـيء، فإن أراد تحريك زيد فحرَّكاه معـا لزم وقوع فعل من اثنيـن، وإن أراده أحدهما والآخر تسـكينه فالواقع ما أراد هو الفاعل، ولا يتصور وقوع التحريك والتسكين معا، لأنَّه تناقض وتضادٌّ، ثمَّ استواؤهما في القدرة يوجب أنَّ أُلُوهِيَّة أحدهما دون الآخر تحكّم.

﴿فَسُـبْحَانَ اللّٰهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ نزهوا الله عما لا يليق به أكمل تنزيه من وجود إله غيره، أو تعجَّبوا أَيُّهَا العقلاء ممن يعبد الأشـياء التي هي خسيسة عاجزة لا تضرُّ ولا تنفع، مع وجود المالك القادر النافع الضارِّ.

[بلاغة] وأعـاد لفظ الجلالـة لإدخال المهابـة والروع والإشـعار بأنَّ الأُلُوهِيَّة منـاط لجميع صفات الكمـال النافية للشـركة، وأكَّد ذلك بوصف الرُّبُوبِيَّة، والإضافة للعرش.

وكأنَّه قيل: إذا كان الله ناهيا عن الشركة لاستقلاله بالتصرُّف والتدبير فلم خلق من يعصيه باتِّخاذ إله غيره؟ وإذ خلقه فلم لم يصرفه عن العصيان؟ فأجاب بقوله: ﴿**لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ**﴾ سؤال اعتراض لأنَّه الحكيم التامُّ الحكمة لا يقدر أحد على إدراك تفاصيلها، ومن أبى إلَّا الاعتراض عنادا فليخلق مثل ما خلق ﴿**وَهُمْ**﴾ أي العباد المكلَّفون ﴿**يُسْـَٔلُونَ**﴾ عَمَّا يفعلون، ويعترض عليهم بما فعلوه باختيارهم مما يثاب عليه أو يعاقب، لأنَّه ولو كان بخلقه منهم لكن لهم اختيارا، ولو كان هذا الاختيار أيضا خلقا منه، وهو ممَّا لا يُسأل عنه أيضا، مع أنَّ الفاعل يجد من نفسه قدرة على الفعل والترك.

[أصول الدين] وذلك كلُّه بعلمه وإرادته، ولا أوَّل لهما وهما من صفاته، وصفاته هو، وليس كما قيل: إنَّ الخلق مسبوق بالإرادة والإرادة مسبوقة بالعلم، إلَّا إن أريد بالإرادة المسبوقة مقاربة الفعل[1] وأسبابه من الله ﷻ.

قال ﷺ: «**من وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلَّا نفسه**»[2]. والسؤال في الموضعين على العموم، قال الزجَّاج: هما يوم القيامة لظهور الوعيد فيه وهو مناسب، والعموم أولى إذ لا دليل على التقييد.

[أصول الدين] وأفعال الله لا تعلَّل بالأغراض وإلَّا كان الله محتاجا إلى ذلك الغرض مستكملا به، وما يوهم العلل فبالنظر إلى الخلق أو العاقبة، والله المستعان، وزعمت المعتزلة والمَاتُريديَّة والحنابلة أنَّها تعلَّل بها.

﴿**أَمِ اتَّخَذُواْ مِن دُونِهِ ءَالِهَةً**﴾ إضراب انتقال من ذكر اتِّخاذهم آلهة مع الله إلى ذكر اتِّخاذهم آلهة مع إنكار الله، وهو لفريق من المشركين، أو

---

(1) كذا في النسخ ولعلَّ الصواب: مقارنة الفعل، بالنون بدل الباء.

(2) هذا جزء من حديث قدسيٍّ رواه **مسلم** في كتاب البر والصلة والآداب (15) باب تحريم الظلم، رقم 2577. من حديث أبي ذر. وَأَوَّلُه قوله: «يا عبادي إنِّي حرَّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرَّما فلا تظالموا...».

بيان لكون اتِّخاذهم آلهة مع الإقرار بالله سبحانه مثل اتِّخاذها مع إنكار الله، أو ما مرَّ في اتِّخاذ آلهة من الأرض، وما هنا في اتِّخاذها مطلقا حتَّى تشمل النجوم والملائكة لمن يعبدها، أو ما مرَّ في آلهة تبعث الموتى وما هنا في آلهة تعبد.

﴿**قُلْ**﴾ يا محمَّد تبكيتا لهم ﴿**هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ**﴾ ما تعدُّونه برهانا أو إيتوا ببرهان صحيح عقليٍّ أو نقليٍّ، فلا يصحُّ القول بلا دليل، أو هاتوا برهانكم الصحيح، وهذا تهكُّم عليهم بأنَّ لهم برهانا ﴿**هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِي وَذِكْرُ مَن قَبْلِي**﴾ أي هذا برهان من معي من المسلمين، على أنَّ الله سبحانه واحد، وبرهان الأنبياء قبلي ومن آمن من أممهم على الوَحدَانِيَّة، آتوا ببرهانكم على الشركة كما أتيت برهاننا على التوحيد.

وذلك تحضيض لهم على الإتيان ببرهان إن كان حَتَّى يظهر عجزهم، وأعاد الذكر مع أنَّه واحد لتأكيد الإزعاج، ولأنَّ وحي كلِّ نبيء غير وحي الآخر، ولو اتَّحَدَ المعنى، أو الذكر الأوَّل: القرآن والثاني: التوراة والإنجيل والزبور والصحف، فانظروا هل تجدون فيها شركة، وأفرد لأنَّه في الأصل مصدر ولاتِّحادها مأصدقا.

﴿**بَلَ اَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ**﴾ لا يعرفون، فتعدَّى لواحد، أو يقدَّر لا يعلمونه الحقِّ، أو لا يعلمون العلم الحقَّ، على أنَّه مفعول مطلق. أي كلُّهم، أو على ظاهره على أنَّ بعضهم القليل يميِّز الحقَّ ولكن يجحده، وذلك إضراب انتقال من تبكيتهم إلى بيان أنَّ الاحتجاج عليهم لا ينفع لعدم تمييزهم بين الحقِّ والباطل.

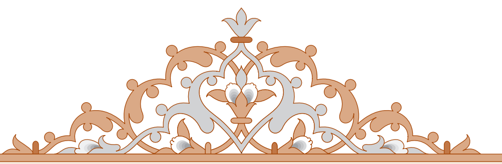
﴿**فَهُم**﴾ لأجل ذلك ﴿**مُّعْرِضُونَ**﴾ عن التوحيد واتِّباع الرسل مصرُّون على ما هم عليه، أو عَمَّا ألقي إليهم من البراهين العَقلِيَّة وَالنَّقلِيَّة، لا يتفكرون، [معرضين] إعراضا مستمرًّا.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ الَّا يُوحَىٰٓ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَاعْبُدُونِ﴾ تقرير لِمَا تَقَدَّمَ من التوحيد، وإن أريد بذكر «مَنْ قَبْلِي» التوراة والإنجيل والزبور فهذا تعميم بعد تخصيص.

[نحو] والإفراد في «إِلَيْهِ» مراعاة للفظ «رَسُولٍ»، وواو «اعْبُدُونِ» مراعاة لمعناه لعمومه إذ كان نكرة في سياق النفي، ولا سيما أنَّها أكِّدت بـ«مِن» على أنَّ «فَاعْبُدُونِ» من جملة ما أوحي من قبل، ويجوز أن يكون خارجا عن ذلك خطابا للنبيء ﷺ وأمَّته، وعلى الأوَّل يكون الموحى مفردا معنويًّا ولفظا، أي إلَّا انفرادي بالألوهيَّة، ولفظ «فَاعْبُدُونِ» وذلك لفتح همزة «أَنَّهُ» فـ«أَنْ» مصدريَّة، أو يقدَّر: قائلا فاعبدون، أو مقولا للرسل: فاعبدون.

وعلى كلِّ حال يقال لكلِّ رسول وأمَّته «اعْبُدُونِ». و«يُوحَى» لحكاية الحال الماضية كأنَّها حاضرة، ومعنى حكاية الله كذا: ذِكْرُه له. وفي الأثر: منع أن يقال: حكى الله عن فلان أو عن قوم أو نحو ذلك، كأنَّه يوهم أنَّ الله لا يعلمه إلَّا من جهتهم.





﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿26﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿27﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿28﴾ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿29﴾﴾

الملائكة عباد مكرمون، وتعالى الله عما يقوله المشركون

﴿**وَقَالُواْ اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا**﴾ الواو للمشركين إجمالا، والمراد: طائفة أو طوائف منهم، وهم حيٌّ من خزاعة قالوا: الملائكة بنات الله، سبحانه، وقيل: قال بذلك خزاعة وبنو المليح، وبنو سلامة وجهينة وقريش. وروي عن قتادة أنَّ اليهود قالوا: صاهر الله الجنَّ فكانت الملائكة أولاده منهم. وشملت الآية أيضا قول النصارى: المسيح ابن الله، وقول اليهود: عزير ابن الله، والآية **نزلت ردًّا عليهم جميعا.**

﴿**سُبْحَانَهُ**﴾ نزَّه الله تعالى نفسه عن ذلك، أو نزِّهوه تنزيهه اللائق به، وقيل: هو علم للتسبيح الذي هو قول من الله مقول على ألسنة العباد، والأصل على هذا إخبار من الله، أي سبَّح الله نفسه تسبيحا، ثمَّ كان الحذف والتأخير والنيابة إلى «سبحان الله»، ونذكره على الإنشاء.

ويدلُّ على أنَّ المراد بالولد الملائكة قوله تعالى: ﴿**بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ**﴾ أي بل هم عباد له بخلقه إيَّاهُم مكرمون، والولد لا يكون عبدا لوالده، وعلى أنَّ المراد بالولد عموم ما مرَّ خصَّ منهم بالذكر هنا الملائكة ليصفهم بأنَّهم

مكرمون، أي مقرَّبون عنده، وبأنَّهم لا يسبقونه بالقول، وبأنَّهم لا يعملون إلَّا بأمره، ويصفهم بالخشية والإشفاق كما قال:

﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ...﴾إلخ لا يقولون شيئا حتَّى يقوله أو يأمرهم به، وذلك شأن أدباء العبيد، والأصل: لا يسبقون قوله بقولهم، أو بالقول المعلوم لهم، فـ«ال» نائبة عن الضمير، أو للعهد، أعني ظهور أن القول لهم، وحذف المضاف وهو قول واتَّصل الهاء بـ«يَسْبِقُونَ» ليكون اللفظ نفيا لسبقهم وجود الله استهجانا لقول من يقول ما لا يجوز في وصفه تعالى، حتَّى كأنَّه قول بالتقدُّم لهم على وجود الله ﷻ، وأوضح بعد ذلك أنَّ التقدُّم بالقول في الآية، وإن شئت فقل: الأصل: لا يسبق قولهم قوله، ثمَّ عاد الكلام إلى لفظ الآية تشنيعا بلزوم أنَّهم بمنزلة من ادَّعى سبْقَ وجودٍ وجودَهُ تعالى.

﴿وَهُم بِأَمْرِهِ﴾ لا بغير أمره، وغير أمره شامل لأمرهم وأمر غيرهم من الخلق، قدِّم على قوله: ﴿يَعْمَلُونَ﴾ للحصر والفاصلة ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ لا يخفى عنه شيء من أحوالهم، فهم لعلمهم بذلك يراقبونه غاية مراقبة، فلا يقولون إلَّا بقوله، ولا يفعلون إلَّا بأمره.

[أصول الدين] ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ أي ارتضاه الله ﷻ أن يشفعوا له، وهو من يقول: «لا إله إلَّا الله» وأتبعه بالعمل الصالح ومات على غير كبيرة، وشفاعتهم الاستغفار في الدنيا ويوم القيامة، وكما لا يشفعون إلَّا له [أي لمن ارتضاه الله] لا يشفع الأنبياء والأولياء إلَّا له، لأنَّ الأمر في ذلك على حدٍّ سواء.

[فوائد الصلاة على رسول الله] [قلت:] ومن أسباب الارتضاء الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ، قال ابن فرحون القرطبي[1]: في الصلاة عليه

---

(1) هو علي بن محمَّد بن فرحون القيسي، عالم بالحساب من أهل قرطبة، أقام زمنا بفاس ثُمَّ جاور بِمَكَّةَ إلى أن توفي سنة 601هـ، له كتاب لب اللباب في مسائل الحساب. الأعلام للزركلي، ج 4، ص 330.



عشر كرامات: صلاة الملك الجَبَّار، وشفاعة النبيء المختار، والاقتداء بالملائكة الأبرار، ومخالفة المنافقين وَالكُفَّار، ومحو الأوزار، وقضاء الأوطار، وتنوير الظواهر والأسرار، والنجاة من دار البوار، ودخول دار القرار، وسلام الرحيم الغفَّار.

وفي بعض الكتب: الصلاة عليه ﷺ تفيد اثنتين وأربعين فائدة: امتثال أمر الله تعالى، وموافقته تعالى في الصلاة عليه، وموافقة الملائكة فيها، وعشر صلوات من الله تعالى، ورفع عشر درجات، وعشر حسنات، ومحو عشر سيِّئات، وإجابة الدعاء، وشفاعته ﷺ، وغفران الذنوب، وستر العيوب، وكفاية ما أهمَّ والقرب منه ﷺ، وقيامها مقام الصدقة، وقضاء الحوائج، وطهارة المصلِّي، والتبشير بالجنَّة قبل الموت، والنجاة من هول القيامة، وردُّه ﷺ إليه السلام، وتذكير ما نسي، وتطييب المجلس، والنجاة من حسرة القيامة، ونفي الفقر، ونفي البخل إذا صلَّى عليه عند ذكره ﷺ، والنجاة من رغم الأنف الذي دعا به ﷺ لمن لم يصلِّ عليه عند ذكره، وإتيانها بصاحبها إلى الجنَّة، والنجاة من نتن المجلس أي إذا لم يذكر فيه، وإتمام الكلام المبدوء باسم الله تعالى، والجواز بسرعة إلى الجنَّة، والنجاة من أن يكون جافيا له ﷺ، وإلقاء الله تعالى عليه الثناء الحسن بين السماء والأرض، وسبب الرحمة، وسبب البركة، ودوام محبَّته ﷺ، وازديادها في قلبه، ومحبَّته ﷺ له، وسبب لعرضه وذكره عنده ﷺ، وتثبيت القدم، وأداء قليل من حقِّه ﷺ، وشكر نعمة الله تعالى عليه به ﷺ، وشكر الله تعالَى [إيَّاه]، ومعرفة إحسانه، ودعاء له ﷺ، ودعاء لنفسه، وانطباع صورته ﷺ في صدره، وقيام الإكثار منها مقام الشيخ[1]. قال ﷺ: «**أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم صلاة عليَّ**»[2].

(1) كذا في النسخ، وَلَعَلَّ الصواب: مقام التسبيح.

(2) رواه **الترمذي** في كتاب الصلاة (352) باب ما جاء في فضل الصلاة على النبيء ﷺ، رقم 484، من حديث ابن مسعود. مع تقديم وتأخير في آخره.

﴿وَهُم﴾ مع تلك المراقبة منهم لحقِّ الله ﷻ ﴿مِّنْ خَشْيَتِهِ﴾ من خوفه الشديد أو بسبب خوف عذابه ﵇، متعلّق بقوله: ﴿مُشْفِقُونَ﴾ قدّم للحصر والفاصلة، أي كائنون على حذر من أن يقربوا زلّة أو من أن يكون في خشيتهم قصور.

والخشية خوف مشوب بتعظيم ومهابة، ولذلك وصف بها العلماء في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَآءُ﴾ [سورة فاطر: 28] والإشفاق: خوف مع اعتناء. ومن شدّة خوف الملائكة أنَّ جبريل ﵇ يتضاءل أحيانا حتَّى يصير كالوَصْع[1]، وما روى جابر بن عبد الله عنه ﷺ: «**مررت ليلة أسري بي بجبريل ﵇ وهو بالملأ الأعلى ملقى كالحلس البالي من خشية الله تعالى**»[2].

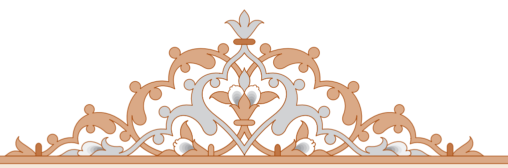
﴿**وَمَنْ يَّقُلْ**﴾ على سبيل الفرض والتقدير لا قول تحقيق خارجا، إذ لا يصدر عنهم ﴿**مِنْهُم**﴾ من الملائكة، لأنَّ الكلام فيهم وفي تنزيههم عمَّا قيل فيهم من الولديَّة، وقيل: الهاء للخلق كلِّهم، وقيل: المراد بـ﴿مَن يَّقُلْ﴾: إبليس، وهو ادَّعى الأُلُوهِيَّة لنفسه تحقيقا لا فرضا، وأمر بادّعائها وإِلْهَاءً للخلق ﴿**إِنِّيَ إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ**﴾ كسائر المجرمين، لا ينفعهم ما سبق من عبادتهم.

﴿**كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ**﴾ الواضعين للأشياء في غير مواضعها، ويتعدَّوْن أطوارهم.

---

(1) أورده **السيوطي** في الدر المنثور، وقال: أخرجه ابن المبارك في الزهد عن ابن شهاب. ج1، 228.

(2) رواه **الطبراني** في الأوسط، رقم: 4679: ج5، ص64. من حديث جابر بن عبد الله.



﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ۝٣٠ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٣١ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ۝٣٢ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۝٣٣﴾

توبيخ آخر للمشركين على عدم تدبُّر آيات الكون الدالة على وجود الإله الواحد

﴿أَوَلَمْ يَرَ الذِينَ كَفَرُواْ﴾ تجهيل لهم وتوبيخ على عبادة ما لا يملك ضرًّا ولا نفعا، ولا يضرُّ ولا ينفع، وترك الإيمان والإخلاص لمالك كلِّ شيء من أجسام وأعراض ومنافع ومضارٍّ وخالق ذلك.

والتقدير: ألم يتفكَّر الذين كفروا ولم يروا؟ ولَمَّا حذف ذلك أظهر «الذين كفروا». والرؤية: رؤية علم، والمراد أن يخبرهم الله بالرتق والفتق فيدركوهما، لا الأمر باستعمال النظر استعمالا يدركونهما به لأنَّه لا يدركونهما به ولو كان ممكنا، أو أراد: ألم يعلموا من أهل الكتاب؟.

﴿أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالَارْضَ كَانَتَا رَتْقًا﴾ ثنَّى لاعتبار أنَّ السماوات كمفرد بمعنى فريق أو طائفة، كقوله ﷻ: ﴿وَلِلهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالَارْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [سورة المائدة: 17] وقوله ﷻ: ﴿إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالَارْضَ أَن تَزُولَا...﴾ [سورة فاطر: 41]، وقول الشاعر:

إِنَّ المنيـــة والحتـــوف كلاهما ‏ ‏ ‏ ‏ دون المخارم يرقبان سوادي[1]

وأفرد «رَتْقًا» لأنَّه في الأصل مصدر بمعنى الضـــمِّ، فيُؤَوَّل بمرتوقتين، أي بمضمومتين، أو ذاتَيْ رتقٍ، أو مبالغة كأنَّهما نفس الضمِّ، أو كانتا شـــيئا واحدا مضموما.

﴿**فَفَتَقْنَاهُمَا**﴾ إلى ســبع ســـماوات، وجعلناهنَّ حيث كنَّ الآن وإلى سبع أرضين وجعلناهنَّ حيث هنَّ الآن، بين كلِّ من ذلك وأخرى خمســـمائة عام، سمَّى كلَّ ما يكون سماء أو أرضا من ذلك المجموع المضموم سماء وأرضا، على مجاز الأوْل وذلك أنَّ السماوات والأرض في ألف «كَانَتَا».

[أصول الدين] والممكن قبل وجوده متميِّز في نفس الأمر لأنَّه متصوَّر، ولا يمكن تصوُّر الشـــيء إلَّا بتمييزه عن غيره وإلَّا لم يكن بتصوُّره أولى من غيره، ولأنَّ بعض المعدومات قد يكون مرادا دون بعض، ولولا التمييز بينهما لما عقل لأنَّ القصد لإيجاد غير المتعيِّن ممتنـــع، لأنَّ ما ليس متعيِّنا لا يتميَّز القصد إليه عن القصد إلى غيره.

وعن الحسن: خلق الله الأرض كالفهر في موضع بيت المقدس عليها دخان ملتصق به، فصيَّره ســـماوات، والفهر أرضين، والفتق بقدرته تعالى. وعن كعب الأحبار: بريح توسطها. أو خلقهنَّ كألواح متطابقة، وسمَّى تماسَّهما رتقا. وروي عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ الســـماوات والأرضين في محالِّهنَّ من حين خلقهنَّ الله، وأنَّ الرتق هـــو عدم نزول المـــاء ونبـــت الأرض، والفتق: إنزال المـــاء وإنبات الأرض، بعد أن خلق الله للأرض من يسكنها، وللسماوات مدخل في نزول الماء بقدرة الله عَزَّ وَجَلَّ، وشهر أنَّ الماء من السماء الدنيا، وشهر أنَّه من السحاب.

---

(1) البيت للأســـود بن يعفر النهشـــلي من شـــعراء الجَاهِلِيَّة، وورد أيضا بلفظ: «يوفى المخارم يرقبان سوادي». شواهد المغني، ص188.

﴿وَجَعَلْنَا﴾ خلقنا أو صيَّرنا ﴿مِنَ الْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ عطف على «فَتَقْنَا» لا على «أَنَّ السَّمَاوَاتِ والَارْضَ...» لأنَّ «يرى» لا يتسلَّط على «جَعَلْنَا» بلا حرف مصدر، ولا معلَّق كالاستفهام.

والمعنى: خلقنا كلَّ حيوان من الماء كقوله: ﴿واللهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ [سورة النور: 45]. و«مِن» للابتداء، ولو قدَّرنا: ثابتا من الماء. ومعنى كونه من الماء أنَّ الإنسان من طين والطين ماء وتراب، وهو والدوابُّ من نبات وثمار متولِّدة من الماء، والماء أعظم ما يحتاج إليه أيضا، وخصَّت الملائكة والجنُّ فليست من الماء.

ويجوز أن يكون المعنى: لا ينفكُّ عن الماء فتدخل الجنُّ لأنَّها تأكل وتشرب، ويجوز أن تكون من التجريد مبالغة في شدَّة الاحتياج إلى الماء كقولك: رأيت من زيد البحر والأسد. فالمعنى: جرَّد من الماء الحيَّ. أو الماء: النطفة، فلا تدخل الملائكة أيضا، ولا ما يتولَّد بدونها.

﴿اَفَلَا يُومِنُونَ﴾ أيعلمون ذلك فلا يؤمنون، أنكر لياقة انتفاء إيمانهم مع مشاهدتهم موجبه.

﴿وَجَعَلْنَا فِي الَارْضِ رَوَٰسِيَ﴾ جبالا ثوابت راسخة على وجه الأرض وداخلها. و«فواعل» جمع لمذكر غير عاقل، على وزن «فاعل»، كما يجمع عليه المؤنَّث مطلقا ﴿أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ تميل بتحرُّك إذ كانت على الماء.

وحذْفُ المضافِ ـ وتقديره: كراهة أن تميد ـ أولى من تقدير لام الجرِّ ولا النافية، لأنَّ قلَّة الحذف أولى، نعم يجوز أن تقدَّر لام الجرِّ بدون «لا»، أي جعلناها لأنْ تميد، أي أعددناها لأن تميد، كقولك: أعددت هذه الخشبة أن يميل الحائط، والأوَّلان أولى، لاقتضائهما أنَّها لا تميد، وما يوجد من ميدها في بعض الأزمان ليس من كونها على الماء. والباء للتعدية أي أن تُميدهم بضمِّ التاء.

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا﴾ في الأرض وكرَّر الجعل لما فيه من كمال الامتنان، ولأنَّ المجعول هناك الرواسي، وهنا الفجاج، أو الضمير للرواسي، كما روي عن ابن عبَّاس، ويناسبه أنَّها أشدُّ احتياجا للسبل، والأوَّل أولى، لأنَّ سبل الأرض أكثر وأشدُّ احتياجا إليها من الجبال ﴿فِجَاجًا﴾ جمع فجٍّ وهو طريق بين جبلين، أو مطلق الواسع طريقا أو غيره في الجبل أو الأرض.

[نحو] ﴿سُبُلاً﴾ عطف بيان على جوازه في النكرات، أو بدل من «فِجَاجًا»، وهذا أولى من جعله مفعولا، و«فِجَاجًا» حال منه، وأنَّ أصله نعت، لأنَّ في جعله حالا مأخوذة من نعت تقديما وتأخيرا، ووقوع النعت والحال غير مشتقَّين إلَّا بتأويل بواسع، فهو ينعت كسائر الجوامد، كما نعت في قوله تعالى: ﴿مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [سورة الحج: 27]. وفي البدليَّة التأكيد بِنِيَّة تكرار العامل، ونزيد أنَّ المبدل منه ليس في نية السقوط. وأخِّر «فِجَاجًا» في سورة نوح [الآية: 20] للفاصلة والامتنان، وقدِّم هنا للحثِّ على التفكُّر.

﴿لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ إلى الاستدلال على التوحيد وكمال القدرة والحكمة، وقيل: إلى مصالحهم ومهمَّاتهم، ويردُّه أنَّه لا ترجية في الاهتداء إليها لأنَّهم قد اهتدَوا إليها.

﴿وَجَعَلْنَا السَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ من البلى والتغيُّر، فألوانها الآن ألوانها من يوم خلقها الله، كما روي عن قتادة. وقال جمهور المسلمين وجمهور الفلاسفة: إنَّها قد تغيَّرت ولا بدَّ من تغيُّرها يوم القيامة وزوالها بنصوص القرآن.

وقيل: ﴿مَحْفُوظًا﴾ عن الوقوع. وقيل: ﴿سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ عن استراق السمع بالرجوم لا كسقوف الدنيا يمكن السرق منها، وهذا يتمُّ إن اعترف المشركون باستراق الشياطين السمع ورجمها بما ترمى به، وقد اعترف به بعضهم فهلَّا آمنوا لهذه القدرة؟.

وقيل: ﴿مَحْفُوظًا﴾ عَمَّن تحتها لا تقع عليهم، ولا يصلونها إلَّا من شاء الله، وعنه ﷺ: «**السماء سقف مرفوع وموج مكفوف، تجري كما يجري السهم، محفوظة من الشياطين**»[1] فهذا يدلُّ على الحفظ من الشياطين، لكن ليس فيه منع أنَّها حفظت عن غيرهم أيضا، وقيل: محفوظا من الشرك والمعاصي فكيف تشركون أنتم من لم يخلقها بمن خلقها؟[2].

﴿**وَهُمْ عَنَ ـ ايَاتِهَا**﴾ دلالاتها على وحدانيَّتنا وكمال قدرتنا الظاهرة ظهور الشمس، وما لم يظهر يعلم بالبحث ﴿**مُعْرِضُونَ**﴾ لا يتفكَّرون بعقولهم فيها.

﴿**وَهُوَ الذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ**﴾ اللذين هما آيتا الليل والنهار، والأربعة بيان لبعض تلك الآيات التي أعرضوا عنها على طريق الالتفات من التكلُّم إلى الغيبة، لتأكيد الاعتناء بالفحوى، وذكر إيجاد الحيوانات والرواسي والسماء والطرق بالجعل، وهذه الأربع بالخلق، لأنَّ ذلك ليس على نمط واحد فما هنا محض خلق وما هنالك جعل في الأرض وجعل من الماء والتكوين سقفا.

﴿**كُلٌّ**﴾ كلُّ واحد من الشمس والقمر ﴿**فِي فَلَكٍ**﴾ ثابت في فلك بالإفراد على سبيل البدليَّة، ولو قدِّر ثابتان نظرا للمجموع لا للبدليَّة لصحَّ كما قال أبو حيَّان.

[نحو] لا كما قال ابن هشام: يجب إفراد الضمير ولو قدِّر ما أضيف إليه «كلّ»، فإنَّا نرى جواز [قولنا:] كلُّ رجل قائمون كما جاز قائم، وإذا قال: كلُّهم، أو قدِّر الجمع وجبت المطابقة، وما قاله ابن هشام حسن لكن لا يجب.

---

(1) أورده **الآلوسي** في تفسيره، ج6، ص39. من حديث ابن عبَّاس نقلا عن ابن حبَّان في البحر، ج6، ص309.

(2) راجع كتاب «من الإعجاز في القرآن الكريم» للدكتور حسين أبو العينين، ففيه ما يتناسب ويساير مكتشفات هذا العهد.

والمراد: في فلكين ـ بالتثنية ـ لكن أفرد نظرا إلى أنَّ الكلام على سبيل البدليَّة، وكذا لو قدّر: كلُّهم فالمراد: في أفلاك، وأفرد لإرادة الجنس على أنَّ لكلِّ واحد فلكا وحده، ووجه الجمع مع أنَّ الشمس والقمر اثنان أنَّهما معظَّمان كأنَّهما جماعة، وكذا جمعا في قوله تعالى:

﴿يَسْبَحُونَ﴾ أو جمعا باعتبار طلوعهما في كلِّ ليل وكلِّ نهار، كما يقال بهذا الاعتبار شموس وأقمار، أو بتغليبهما على النجوم وباستحضار النجوم عند ذكرهما، وقد قيل: الواو للنجوم، ولو لم تذكر لدلالة ما ذكر عليها، وقيل: للشمس والقمر والليل والنهار، وفيه أنَّ الليل والنهار لا يوصفان بالسباحة إلَّا مجازا عن السير، فلزم الجمع بين الحقيقة والمجاز.

[بلاغة] أو الحمل على عموم المجاز، وهو هنا مطلق التحوُّل، وفيه أنَّ السباحة مجاز ولو في القمرين، وإنَّما هي حقيقة للحيوان والإنسان في الماء، وعلى كلِّ حال اختير الجمع للفاصلة، والواو لغير العقلاء تعظيما، ولوصفهما بوصف العاقل وهو السباحة، ولو كانت تكون أيضا للحيوان مطلقا، وقيل: في الشمس والقمر والنجوم عقول، كما قال به بعض المسلمين كالفلاسفة. و«يَسْبَحُونَ» حال، وإن جعل خبرا علِّق به «فِي فَلَكٍ».

[فلك] وهو جسم مستدير، وكلُّ مستدير فلك، مثل فلكة الغزل. وعن ابن عبَّاس: إنَّه السماء فهي مستديرة. وأكثر المفسِّرين على أنَّ الفلك موج مكفوف تحت السماء تجري فيه الشمس والقمر. وقال الضحَّاك: ليس جسما بل مدار النجوم والقمرين، وزعم الفلاسفة أنَّ الفلك السماء وأنَّه حيٌّ عالم متحرِّك بالإرادة حركة مستديرة لا يقبل السكون والذبول والخرق والالتئام.

وشهر أنَّ الأفلاك تسعة: سبعة للسيارة الدراري السبعة والثامن للثوابت، والتاسع يدور بالكلِّ دورة يوم وليلة، ولعلَّها أكثر أو أقل، وقد قيل: إنَّ

القمرين والنجوم بأيدي ملائكة تحت سماء الدنيا تجري بها الملائكة حيث شاء الله، كما نرى.

ونسبة السـباحة إليها ظاهر في أنَّها تتحرَّك حركة ذاتية، واختار بعض أنَّها تتحرَّك حركة عارضة، أعني أنَّه يتحرَّك ما هي فيه كمن هو في سـفينة تتحرَّك به، والأوَّل أولى إذ لا يقال لمن في زورق أو سفينة أو صندوق أو على جذع في الماء: إنَّه يسبح، فهي تتحرَّك تحرُّك الحوت في الماء.

﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿34﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿35﴾ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿36﴾ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿37﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿38﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿39﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿40﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿41﴾ ﴾

قيام الساعة بغتة،
والخلود ليس من شأن البشر

﴿ **وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ** ﴾ البقاء في الدنيا لمخالفته الحكمة، أو المكث الطويل، والأوَّل أولى لطول مكث الخضر وإلياس [فيما قيل]. واستدلَّ بعض على موتهما بالآية، وليس كذلك، فإنَّ المراد بالخلد البقاء بلا موت، وهما يموتان عند رفع القرآن والكعبة، بل لو كانا لا يموتان إلَّا عند قيام الساعة لكفى.

﴿ **أَفَإِيْن** ﴾ أطمعوا في الخلد فإن ﴿ **مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ** ﴾ الاستفهام توبيخ وإنكار منسحب على مجموع الشرط والجزاء، كقولك: إن قام زيد قمت،

ومحطُّه بالذات الجواب أي أهم خالدون إن متَّ؟. نزلت حين قالوا: نتربَّص به ريب المنون، وذلك في بيان عجزهم عن المعارضة الصحيحة، بأنَّ الخصم إذا لم يبق له متمسَّك تمنَّى موت خصمه أو سعى في إهلاكه.

﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ**﴾ تلابسه على وجه تتألَّم به على اختلاف الناس في شدَّته، فهو على بعض أشدُّ منه على آخر، قال ﷺ: «**إنَّ للموت سكرات**»[1]. وأمَّا ما جاء أنَّ بعض الناس ما أحسُّوا للموت ألَمًا فشاذٌّ.

والذوق مجاز عن أصل الإدراك، وحقيقته في الطعم، والموت لا يؤكل، وبعد حصوله لا يدرك لعدم وجود الروح في البدن، فذوقه ذوق مقدِّماته من الآلام العظام، وزعم بعض أنَّ الروح تتألَّم بالموت بعد مفارقة البدن.

والموت: زوال الحياة عن الحيِّ فهو أمر عدميٌّ كزوال البصر عن من يبصر والسمع عن من يسمع، والنطق عن من ينطق والحسِّ عن من يحسُّ، فالجنين قبل نفخ الروح فيه ليس ميِّتا لعدم تقدُّم الحياة فيه، هذا مذهب الجمهور، وقيل: هو عدم الحياة عما من شأنه أن يحيى أو لم يحي.

[أصول الدين] فالجنين ميِّت على هذا لقوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [سورة البقرة: 28] وقال أبو الحسن الأشعري: الموت أمر وجودي يضادُّ الحياة لقوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ [سورة الملك: 2] والخلق الإيجاد، ولأنَّه جائز، والجائز لا بدَّ له من فاعل، وأجيب بأنَّ الخلق بمعنى التقدير، أو بأنَّ ﴿خَلَقَ الْمَوْتَ﴾: خلق أسبابه على تقدير مضاف، وأنَّ الفاعل يريد العدم كما يريد الحياة، فالفاعل يعدم الحياة كما يعدم البصر مثلا، وإذا كان أمرا إعداميًّا فهو عرض.

---

(1) رواه **البخاري** في كِتَاب المغازي، باب مرض النبيء ووفاته، رقم 4094. وفي كِتَاب الرقاق، باب سكرات الموت، رقم 6029. عن عائشة.

وتوقَّف بعض القائلين بأنَّه وجودي: أجوهر أو عرض؟ ويدلُّ لعرضيَّته ما روي في بعض الأحاديث أنَّه أمر خلقه الله في كفِّ ملك الموت، وعلى أنَّه جوهر ما في بعضها أنَّه خلقه الله على صورة كبش أملح لا يمر بشيء يجد ريحه إلَّا مات.

وجلُّ عبارات العلماء إمَّا أنَّه عَرَض يعقب الحياة، واعترض بأنَّه غير مانع لشموله العمَى بعد البصر، ونحو ذلك وأجيب ببقاء حياة العين مثلا، وإمَّا أنَّه فساد بنية الحيِّ، وهو تعريف بالعارض.

ومثله قول بعض: إنَّه تعطُّل القوى لانطفاء الحرارة الغريزة التي هي آلتها، فإن كان ذلك لانطفاء الرطوبة الغريزة فالموت الطبعي وإلَّا فغير الطبعي، وعن ابن عبَّاس في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْمَوْتَ والْحَيَاةَ﴾ [سورة الملك: 2] أنَّ الموت الآخرة والحياة الدنيا.

والآية تقضي بموت الإنسان والجنِّ والملائكة والحيوانات والحور والولدان والأرواح، ويعبَّر عنها بالنفوس، ثمَّ يبعثون ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ اِلَّا وَجْهَهُ﴾ [سورة القصص: 88] وزعم بعض أنَّ الأرواح لا تموت وبعض أنَّ الحور والولدان لا يموتون، وبعض أنَّ بعض الملائكة لا يموتون كالملائكة الأربعة، وأنَّ أرواح الأفلاك والقمرين والنجوم لا تموت على زعم أنَّ لها أرواحا قال أحمد بن الحسين أبو العلاء المعرِّي:

تنازع الناس حتَّى لا اتفاق لهم ... إلَّا على شَجَبٍ والخُلف في شَجب

فقيل تخلص نفس المرء سالمة ... وقيل تشرك جسم المرء في العطب

﴿**وَنَبْلُوكُمْ**﴾ نعاملكم معاملة المختبر، ولا يخفى عنا شيء، والخطاب للناس كلِّهم أو للكفرة على طريق الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ﴿**بِالشَّرِّ**﴾ ما تكرهون فيكم وفيمن يليكم مطلقا، كالشدَّة والفقر والمرض وغير ذلك هل تصبرون عليه؟ ﴿**وَالْخَيْرِ**﴾ ما تحبُّون فيكم وفيمن يليكم مطلقا، كالرخاء

وصحَّة البدن والغنى والعقــل وغير ذلك، هل تشــكرونه؟ وقدِّم ما تكرهون وهو الشــرُّ لأنَّه أليق بهم لكفرهم، ولو أريد بالخطاب النــاس مطلقا، ولأنَّه أنسب بالموت المذكور، قبله ولأنَّ الخير أيضا شرٌّ لميل النفس به إلى البطر.

﴿فِتْنَةً﴾ ابتــلاء، فهو مفعــول مطلق أو مفعــول من أجلــه، أي لإظهار جودتكم بالشــكر والصبر، ورداءتكــم بالجزع والكفــر، والأوَّل أولى لعدم احتياجه إلى تأويل بالإظهار.

وزعم بعــض أنَّه يجوز أن يكون حــالا بمعنى مظهريــن، وهو خطأ لأنَّ اللفظ تسمية لله ﷻ بلفظ الفتنة مع التأويل بالمشتقِّ والتفسير بالإظهار، وكلٌّ من المنحة والمحنة ابتلاء هل يصبرون ويشكرون؟ والنفس تميل بالطبع إلى البطر فالقيام بحقوق الصبر أيســر من القيام بحقوق الشــكر، قال عمر: «بلينا بالضراء فصبرنا وبالسراء فلم نصبر»، قال علي: «من وسِّع عليه دنياه ولم يعلم أنَّه لعله مكر به فهو مخدوع عن عقله».

﴿وَإِلَيْنَا﴾ وحدنا ﴿تُرْجَعُونَ﴾ للجزاء بما فعلتم من خير أو شــرٍّ، على أنَّ الخطاب بالكاف للناس فذلك وعد ووعيد، أو للعقــاب على أنَّه للكفار فهو وعيد وإنَّما خلق المكلفون للابتلاء.

﴿وَإِذَا رَءَاكَ الذِينَ كَفَرُواْ﴾ أشركوا، وقوله: ﴿إِنْ﴾ أي ما ﴿يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُؤًا﴾ حال من «الذيــن» أو الكاف، و«هزؤا» مفعول ثــان بمعنى ذا هزؤ أو نفس الهزؤ، أو بمعنى مهزوء به، حصر اتخاذهم إيَّاه على الهزؤ أي لا يجاوز اتخاذهم إيــاك الهزؤ، وقيل: المعنــى ما يفعلون بك إلَّا اتخــاذك هزؤًا، وهو تفسير معنى لا صناعة، وجواب «إذا» قول محذوف عامل في قوله:

﴿اَهَذَا الذِي يَذْكُــرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ تقديره قالوا: أهــذا الذي، وليس الجواب ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُؤًا﴾ لأنَّه لا يصلح شــرطا، فلا بــدَّ فيه من الفاء لو كان جوابا كسائر أجوبة «إذا» في القرآن وغيره على الأصل.

[نحو] ومتى لم يقرن مــا يتوهَّم أنَّه جواب قدِّر جريــا على الوارد كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَــىٰ عَلَيْهِــمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَــا كَانَ حُجَّتَهُــمْ إِلآ أَن قَالُواْ﴾ [سورة الجاثية: 25] كسائر أدوات الشرط فلا تختصُّ «إذا» بجواز عدم الفاء كما قال بعض، مع أنَّه لو جعل «إِن يَّتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُؤًا» جوابا لم يجز عن معنى القول في قوله: ﴿أَهَذَا الذِي﴾ بل لا بدَّ أن يقدَّر قول معطوف على «إِن يَّتَّخِذُونَكَ»، أي ويقولون، أو حال أي قائلين: «اَهَذَا الذِي يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ؟».

أو ضمِّن معنى القول فينصب ﴿أَهَذَا الــذِي...﴾ وإذا كان كذلك فتقديره جوابا أولى لسلامة من شذوذ ترك الفاء ومن حذف العاطف والمعطوف.

[بلاغة] والاستفهام إنكار وتعجُّب، عاملهم الله بعدله، والمراد يذكر آلهتهم بالسوء، ولم يذكر بالسوء لأنَّه معروف إذ هو ﷺ عدوٌّ لها ولهم، أو ضمِّن الذكر معنى العيب أي أهذا الــذي يعيبها؟ وكذا يقال في قوله ﷻ: ﴿سَــمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾ [ســورة الأنبياء: 60] وحذفوا الســوء أو ضمَّنوه هزؤا تأدُّبا مع آلهتهم.

﴿**وَهُم بِذِكْــرِ الرَّحْمَنِ هُــمْ كَافِرُونَ**﴾ حــال من ضمير القــول المقدَّر، والمعنى: أنكروا على رســول الله ﷺ ذكر آلهتهم بالسوء، مع أنَّها لا تنفع ولا تضرُّ، والحال أنَّهم يذكرون الله بالجحود، أو بالشــركة مع أنَّه لا نفع ولا ضرَّ إلَّا منه، وأنَّه المعروف بغاية الرحمة، أو حال من واو «يتَّخذونك».

وكرَّر قوله: ﴿هُمْ﴾ تأكيدا بإشهارهم في السوء، وهو توكيد لفظي للأوَّل، و«كافرون» خبر للأوَّل.

وقيل: «ذِكر» بمعنــى القرآن أو التوحيد، أو الوعظ والإرشــاد بالرســل والكتب، أو ذكــر الرحمن، ذكر لفظ الرحمن إذ قالوا: مــا نعرف الرحمن إلَّا رحمان اليمامة، **وفيه ضعف والأولى ما تقدَّم أوَّلا.**

[سبب النزول] مرَّ الرسـول ﷺ على أبي سـفيان وأبـي جهل يتحدَّثان وضحك أبو جهل وقال: «هذا نبيء بني عبد مناف»! فغضب أبو سفيان فقال: ما إنـكارك أن يكون لبني عبد منـاف نبيء، فوقع ﷺ في أبـي جهل وخوَّفه وقال: «ما أراك منتهيا حتَّى يصيبك مـا أصاب عمَّك الوليد بن المغيرة» وقال لأبي سفيان: «ما قلت ذلك إلا حَمِّية» ونزلت الآية في ذلك على ما قيل.

﴿**خُلِقَ الاِنسَانُ**﴾ جنس الإنسان على الصحيح ﴿**مِنْ عَجَلٍ**﴾ طلب الشيء قبل أوانه لقلَّة الصبر، حتَّى كأنَّه خلق من نفس العجل، فهو ملازم له لا ينفكُّ، كما يقال لملازم اللعب: أنت من اللعب، وقال ﷺ: «**لست من الداد ولا الداد منِّي**»[1] وذلك هو الصحيح.

[قصص] وقيـل: المراد النضر بـن الحارث إذ قـال: ﴿اللَّهُـمَّ إِن كَانَ هَذَا...﴾ [سورة الأنفال: 32].

[قصص] وقيل: آدم إذ همَّ بالقيام قبل وصول الـروح إلى رجليه، أو إذ خلق آخر يوم الجمعة، ولما جرت الروح في عينيه ولسـانه ولم تبلغ أسفله، حين وصلت الروح بطنه واشتهى الطعام، وقد رأى ثمار الجنَّة في أشجارها، وقام إليها فسـقط فقال: يا ربِّ عجِّل خلقي قبل غروبهـا، أو إذ خلق بمرَّة لا تدريجـا كذرِّيته، وعلى كلِّ حال صـارت العجلة في ذرِّيتـه على نمط ذلك. وقيل: العجل الطين بلغة حمير كما قال شاعرهم:

النبع في الصخرة الصماء منبته   والنخل منبته في الماء والعجل[2]

---

(1) رواه **البيهقي** في كتاب الشهادات (58) باب: من كره كُلّمَا لعب الناس به من الخرة وهي قطعة خشب... رقم 20965. و**الطبراني** في الكبير، ج 19، ص 343. و**البخاري** في الأدب المفرد باب في الغناء واللهو، رقم 785 من حديث أنس. بدون ألف كما أورده صاحب اللسان بدون ألف هكذا: «ما أنا من دَدٍ ولا الدَّدُ مني»، وفي رواية: «ما أنا مـن ددًا ولا ددًا مني»، قال ابن الأثير في تفسير الحديث: الدَّد: اللهو واللعب. اللسان مَادَّة «ددم» وقال: إنَّ المادة محذوفة اللام.

(2) نسبه مقاتل إلى الشماخ، نقلا عن الهذيل. ينظر: تفسير مقاتل، ج2، ص368 (ترقيم الشاملة).

ووجهه تحقير شأن الإنسان تتميما للتهديد في قوله:

﴿سَأُرِيكُمْ ءَايَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ والخطاب للكفرة المستعجلين عموما، وآياته: نقماته، وإراءتهم إياها: إحضارها لهم في الدنيا والآخرة، أو في الآخرة، لقوله تعالى:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِين لَوْيَعْلَمُ الذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُّجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ﴾ بأنفسهم ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ بغيرهم ﴿بَلْ تَاتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ والعجلة ولو كانت بالطبع لا يكون التكليف بتركها تكليفا بما لا يطاق، لأنَّه ﷻ جعل لهم أسبابا يتوصَّلون بها إلى تركها، واستعجالهم استهزاء وإعجاز، وكذا طلب تعيين وقته، أي متى وقوع هذه الساعة الموعود بها.

[نحو] والجملة اسمية، وقال بعض الكوفيين: فعلية، أي متى يأتي هذا الوعد. والخطاب في «كنتم» للنبيء ﷺ والمؤمنين، وجواب الشرط محذوف، أي إن كنتم صادقين فليأتنا به، أو فلتأتونا به، دلَّ عليه ما قبله، وليس كقوله: «أقوم إن قمت» مما نقول فيه: يغني عنه ما قبله ولا يقدَّر.

[نحو] وقوله ﴿لَوْ يَعْلَمُ﴾ استئناف لبيان شدَّة هول ما يستعجلون به، وإنَّما يستعجلون به لفرط جهلهم، و«يعلم» للحال المستمرَّة إذ عدم علمهم مستمر، ومقتضى الظاهر: لو يعلمون حين... إلخ، وضع الظاهر موضع المضمر ليصرِّح بكفرهم الذي هو علَّة استعجالهم، و«حين» مفعول به لـ«يعلم» أي لو يعرف الذين كفروا نفس وقت لا يكفُّون، أو نزل كاللازم، أي لو كان لهم علم، فيتعلَّق «حين» بمحذوف أي حين يرون ما يرون يعلمون حقيقة الحال، وذلك حين لا ينفعهم.

[نحو] أو المفعول لفظ مجيء يتعلَّق به «حين» أي لو يعلم الذين كفروا مجيء الموعود حين لا يكفُّون. وجواب «لو» محذوف يقدَّر بعد قوله:

﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ هكذا لما فعلوا ما فعلوا من الاستعجال أو لم يستعجلوا، وقدَّر بعضهم: لسارعوا إلى الإيمان، وبعض: لعلموا صحَّة البعث، وهما ضعيفان لأنَّ المقام للاستعجال، وقيل: «لو» للتمنِّي على معنى: من شأنهم أن يتمنَّوْا المعرفة المحقَّقة المستتبعة للعمل، فلا جواب لها، وهو ضعيف.

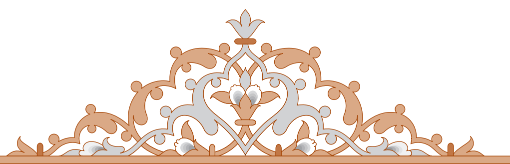
[نحو] وما قيل: من أنَّ إضافة «حين» للجمل بعدها تنزيل لهنَّ منزلة ما عرفوه لشدَّة ظهور حقيقته ينافيه قوله تعالى: ﴿لَوۡ يَعۡلَمُ﴾. وضمير «تأتي» لتلك الساعة المدلول عليها وهي في أذهانهم وألسنتهم بالإنكار، أو العِدَة المعلومة من الوعد، أو الحين لتأويله بالساعة، أو النار، وذلك استدراك ببل على قوله ﷻ: ﴿لَوۡ يَعۡلَمُ﴾ أو تأتي الآيات بغتة لا على حسب اقتراحهم على أنَّ الاستدراك متعلِّق بقوله: ﴿لَا يَكُفُّونَ﴾ والعطف عليه.

[نحو] و«بغتة» مفعول مطلق لـ«تأتي» لتضمُّنه معنى تبغتهم، أو لمحذوف حال أي باغتة بغتة، أو التقدير: إتيان بغتة. والبغتة: الفجأة، و«تبهتهم»: تدهشهم أو تقلبهم. و«ها» في قوله: «ردَّها» لما عاد إليه ضمير «تأتي»، وقيل: على البغتة. ومعنى ﴿وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾: لا يؤخَّرون لحظة للاستراحة، وقد أهملوها في الدنيا وضيَّعوا أعمارهم.

﴿**وَلَقَدُ اسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ**﴾ شروعٌ بعد وعظ المشركين والاحتجاج عليهم والجواب عما قالوا، في تسلية رسول الله ﷺ عن استهزائهم بأنَّه قد استهزَأَ برسلٍ كثيرين عظامٍ أقوامُهم وصبروا، وتلويح بأنَّك قد بلَّغت ولك عاقبة الخير، كما لهم ولقومك السوء كما لأقوامهم كما قال: ﴿**فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ**﴾.

و«مِن قَبۡلِكَ» نعت لِـ«رُسُلٍ»، أو متعلِّق بـ«اسۡتُهۡزِئَ»، وعليه فالمعنى على إجمال أن يراد قبل زمانك كالأوَّل، أو قبل الاستهزاء بك، ويقال بالصناعة قبل

استهزائك، أي الاستهزاء المنســوب إليك الصادر منهم. ومعنى «حاق»: نزل محيطا بهم ولا يســتعمل إلَّا في الشرِّ، و﴿الذِينَ سَــخِرُواْ﴾: كفَّار أمم هؤلاء الرسل. والهاء في «مِنْهُمْ» للرسل، و«ما» اســم، وهاء «به» لـ«ما»، أي عذاب عظيم كانوا يســتهزئون بــه، أو العذاب الذي كانوا يســتهزئون بــه، أو كلام يســتهزئون به، أو الكلام الذي يســتهزئون، ســمَّى الله به العذاب لأنَّه سبب العذاب، أو يقدَّر مضاف أي جــزاء ما كانوا... إلخ، ويبعــد جعلها مصدرية. وهاء «به» للرسل إفرادا لهم باعتبار أنَّ كلَّ واحد لقومه عذاب على حدة.



﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ (42) أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ (43) بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ (44) قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ (45) وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (46) وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ (47)﴾

عناية الله وحفظه للإنسان وعدله في الحساب

﴿**قُلْ**﴾ يا محمد سائلا سؤال تقريع عن الاغترار بالنعم التي بين أيديهم ﴿**مَنْ يَكْلَؤُكُم**﴾ يحفظكم ﴿**بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ**﴾ قدَّم الليل لأنَّ الدواهي فيه أكثر وأشدُّ، ولأنَّه أسبق ﴿**مِنَ الرَّحْمَنِ**﴾ اختار لفظ الرحمة إيذانا بأنَّه لا حفظ لهم إلَّا برحمته، وتلقينا بأن يجيبوا: تكلؤنا برحمتك، وإعلاما بشدَّة البأس إن لم يؤمنوا، كما يقال: أعوذ بالله من غضب الحليم، وتقبيحا لهم بشدَّة خبثهم حتَّى لم تنلهم رحمته مع سعتها.

﴿**بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ**﴾ انتقال إلى ذكر أنَّهم ليسوا من أهل السماع، وأنَّهم يستمرُّون على الإعراض اشتغالا بآلهتهم ونعمهم عن ذكر

المنعم عليهم المربِّـي لهم، والمقام لتقبيـح حالهم، فلا يصحُّ ما قيل: إنَّ المعنى أنَّهم لم يغفلوا من الله البتَّة، لأنَّهم يعبدون الآلهة لتشفع لهم عند الله، ولكن أعرضوا عن ذكره وعن التذكُّر بتذكير المذكِّر لهم.

﴿**أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا**﴾ توبيخ لهم على اعتمادهم على آلهتهم في التنجية من العذاب، أي بل لهم آلهة، انتقال عن وصفهم بالإعراض إلى وصفهم بالاعتماد على آلهتهم في التنجية. و«تمنعهم» نعت، و«مِن دُونِنَا» نعت ثان، أو انتقال من الأمر بالسؤال في «قُلْ مَن يَّكْلَؤُكُمْ» الذي في الغافل عن الشيء إلى السؤال الذي في المعتقد لنقيض الشيء، فإنَّه أفحش، وهو الذي في ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ...﴾؟ أو عن السؤال عن الكالئ من ربِّهم إلى ذكر الإعراض عن الربِّ فإنَّه أقبح، ونعت الآلهة أيضا بقوله:

﴿**لَا يَسْتَطِيعُونَ**﴾ الواو للآلهة لأنَّهم يعظِّمونها كالعقلاء ﴿**نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ**﴾ لا يستطيعون نصر أنفسهم بأنفسهم، ولا بناصر منَّا فكيف ينصرون من يعبدونهم؟ أو الضمائر للكفار، بمعنى لا ينصرون أنفسهم بأنفسهم ولا بآلهتهم ولا بناصر منَّا، والجملة مستأنفة، والمعنى على كلِّ حال: لا يصحبون بنصر منَّا أو بناصر منَّا لعدمه، فـ«منَّا» متعلِّق بالفعل بعده، أو نعت لمحذوف كما رأيت.

﴿**بَلْ مَتَّعْنَا هَـٰؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ**﴾ انتقال إلى ذكر استدراجهم المتضمِّن للوعيد، أو من توهُّمهم أنَّهم في كلاءة من آلهتهم ـ أو من توهُّم أنَّها تمنعهم، وأنَّ ما هم فيه يدوم ـ إلى أنَّ إبقاءهم متنعمين استدراج.

﴿**أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَاتِي الاَرْضَ**﴾ ألا يعتبرون فلا يعلمون أنَّا نأتي أرضهم؟ أو أرض الكفرة مطلقا ﴿**نَنقُصُهَا مِنَ اَطْرَافِهَآ**﴾ بتغليب المؤمنين عليها، ولم يقل: أفلا يرون أنا ننقص الأرض، بل قال: ﴿نَاتِي الاَرْضَ...﴾ إشارة إلى أنَّ انتزاعها بإتيان جيوش المؤمنين وأنَّه بقدرته تعالى، كأنَّه قيل: إنَّ جيوشنا

يأتــون الأرض ينقصونهــا مــن أطرافها، وإشــارة إلــى تعظيم أمــر الجهاد والمجاهدين إذ أسند ما لهم إليه.

و«ننقص» حال مقدَّرة، والآية مدنيَّة بعد فرض الجهاد جعلها الله تعالى في ســورة مكيَّة، وعلى أنَّها نزلت بمكَّــة فنقص الأرض إذهــاب بركتها، قيل: تخريب قراها، وموت أهلها، وفيه أنَّه لم يظهر التخريب وموتهم.

ولا يصحُّ أيضا ما روي عنه ﷺ: «**إنَّ نقصهــا بموت العلماء**» فهو حديث موضوع إذ لم يظهر موتهم وإن أريد علماء أهــل الكتاب لم يظهر أيضا، وإن ظهر ففيم ذكر موتهم في هذا المقام؟.

﴿**أَفَهُــمُ الْغَالِبُونَ**﴾ أنحــن الناقصون لها فهــم مع ذلــك الغالبون على رسول الله ﷺ والمؤمنين، لا يتصوَّر ذلك، بل المؤمنون هم الغالبون، وضمائر الغيبة في ذلك كلِّه من قوله ﴿بَــلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِمْ﴾ إلــى هنا تحقير لهم، وتنزيل لهم منزلة ما هو أخسُّ من البهائم.

وأمر رسوله بخطابهم في قوله: ﴿**قُلِ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم**﴾ في شأن الاستعجال ﴿**بِالْوَحْيِ**﴾ الصادق الناطق بإثبات الســاعة وشــدَّة هولهــا، وقوله: ﴿**وَلَا يَسْــمَعُ الصُّمُّ الدُّعَآءَ اذَا مَا يُنذَرُونَ**﴾ صيح عليهم بحدوث مخوف، وذلك من جملــة ما أمر الله ســبحانه رســوله ﷺ أن يقوله لهم، أو مســتأنف من الله ﷻ، أي قل لهم ﴿إِنَّمآ أُنذِرُكُم بِالْوَحْــيِ﴾ ولا يؤثِّر فيهم قولك، ولكن تبليغا وقطعا للأَعذَار، كما لا يؤثِّر النداء المكــرَّر المرفوع به الصوت جدًّا في الصمِّ، فإنَّ من شــأن الإنذار رفع الصوت جــدًّا وتكريره على هيئة تدلُّ على حادث مكروه.

هم يسمعون ولكن شــبهوا بمن لا يســمع فضلا عن أن يعملوا بما يقال لهم، و«الصمُّ» المراد به الجنــس، فهؤلاء داخلون أوَّلا إذ فيهم الكلام، أو هم

المقصودون ذُكروا بالاسم الظاهر ليصرح ببعدهم عن قبول، فلذا لم يقل: ولا يسمعون، وأجيز أن يكون المعنى: لا يسمع هؤلاء أو هم وأمثالهم الدعاء إلى الحقِّ إذا أنذروا به.

﴿**وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ**﴾ أدنى شيء ﴿**مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ**﴾ يوم القيامة، أو في الدنيا كما مثَّل ابن عباس بالجوع الذي نزل بمكة، أو مطلقا وهو أولى.

[بلاغة] بالغ بالمسِّ الذي هو دون إنفاذ، ودونه تشديد بل مجرَّد إيصال، وبما في النفح من القلَّة كإعطاء قليل وضرب بحدِّ حافر، وببناء المرَّة، وبالتنكير[1]، عابهم الله ﷻ بالسرعة إلى الويل، والقسم العظيم بأدنى عذاب، مع بطئهم عن التصديق بالخبر، ومع عدم التصديق مع طول الإخبار كما قال:

﴿**لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ**﴾ رسول الله وأنفسنا بالتكذيب، وما قيل من أنَّه لا مبالغة بالمسِّ بل هو أقوى لدلالته على تأثُّر حاسة المحسوس غير مسلَّم لكثرة استعمال المسِّ في القلَّة، وعدم شهرة استعماله في القوَّة وربما قيل: إنَّ في تلك التقليلات تلويحا بأنَّ اللائق أن يتأثَّروا بأقل قليل من الوحي الصادق.

﴿**وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ**﴾ تمثيل لانتفاء أن ينقص شيء من الأعمال، أو من الجزاء.

[أصول الدين] ولا ميزان حقيق، كما قال الضحاك، وقتادة ومجاهد والأعمش، [قلت:] **وهو الحقُّ ولا داعي إلى العدول عنه مع ظهوره، إلى جعلها حقيقة** وهو غير ظاهر لاحتياجه إلى دعوى تجسيم الأعراض، أو إلى وزن البطاقة وليست من الأعمال، وإلى دليل من حديث ولا يوجد إلَّا ما وضع أو اتهم بالوضع، فما الميزان إلَّا كيد الله وقبضته ونحو ذلك من المؤوَّل، والجمع باعتبار الحسنات والسيِّئات.

(1) يريد استعمال كلمة «نفحة» التي تفيد بصيغتها المرة والتنكير.

ومن قال: كموازين الدنيا فمن قائل لكلِّ أمة ميــزان، وقائل لكلِّ مكلَّف ميزان، وقائل لكلِّ مؤمن موازين بعدد حسناته، وشهر أنَّه واحد لكلِّ المكلَّفين من الثقلين كفَّتاه كأطباق السماوات.

والجمع للتعظيم، أو لتعــدُّد الموزون، كما يقال شــموس وأقمار لتعدُّد طلوعهما. يأخذ جبريل بعموده ناظرا إلى لســانه وميكائيــل أمين عليه، وإن الحسنات أجسام نورانية والسيِّئات أجســام مظلمة، وهل هو موجود؟ الظاهر أنَّه سيوجد كالصراط على دعواهم.

وروي أنَّ داود عليه السلام ســأل الله عز وجل أن يريــه الميزان فأراه فغشــي عليه، وقال: بعد إفاقته من يقدر على ملئــه؟ فقال تعالى: «يا داود أرضى أن يملأه عبدي بتمــرة» **ولا ندري أصحَّ الحديــث أم لم يصحَّ، وعلــى صحَّته فهو تمثيل لما سيكون.**

[نحو] و«الْقِسْــطَ» نعت به مبالغة، أو يقدَّر ذوات القســط، أو مفعول من أجله أي لأجل القســط، أي العدل. والجملة عطف قصَّة على أخرى، أو حال على تقدير قد أو نحن من الضمير في «لَيَقُولُنَّ» والربط بواو الحال.

﴿**لِيَــوْمِ الْقِيَامَةِ**﴾ في يوم القيامــة متعلِّق بـ«نَضَعُ» أو بـ«الْقِسْــطَ» وقيل: تعليل أي لحساب يوم القيامة، أو لأهل يوم القيامة، وقيل: اللام للاختصاص. ولا وزن للمشــرك ومن يدخل الجنَّة بلا حســاب ﴿**فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَــيْئًا**﴾ مفعول مطلق، أي لا تظلم ظلما مَّا بزيادة سيِّئة أو نقص حسنة، أو نقص ثواب أو زيــادة عذاب عما قضــى الله، أو مفعول به أي لا تنفع ثوابا أو حســنة، أو مفعول مطلق أي لا تنقص نقصا مَّا فحذف المفعول به، ومثله في السيِّئة.

﴿**وَإِن كَانَ**﴾ العمل المدلول عليه بوضع الموازين، أو الشيء المذكور أنَّه لا يزاد ولا ينقص ﴿**مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِّــنْ خَرْدَلٍ**﴾ أي ما يوازنها فــي ثقلها ﴿**اَتَيْنَا**

بِهَا﴾ أي بالمثقال، وأنّث لإضافته لمؤنَّث، وذلك المثقال هو العمل ومعنى الإتيان به الجزاء عليه بعد إحضاره أنَّه كذا، ثمَّ تذكَّرت أنَّ قراءتنا رفع «مِثْقَالُ» فاعلا لـ«كَانَ» بلا خبر لها، أي إن حصل مثقال حبَّة أحضرناه، ويضعف أن يجعل «إن» وصليَّة و«أَتَيْنَا بِهَا» مستأنف.

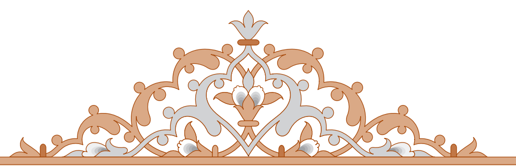
﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ «نا» فاعل و«حَاسِبِينَ» حال بمعنى عادِّين، أو بمعنى مجازين على الأعمال.

وفي الترمذي عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن رسول الله ﷺ: «**إنَّ الله سيخلِّص رجلا من أمَّتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة ينشر له تسعة وتسعون سجلا، كلُّ سجل مدُّ البصر، ويقول له أتنكر من هذا شيئا؟ أظلمتك كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يا ربِّ، فيقول: ألك عذر؟ فيقول: لا يا ربِّ، فيقول الله: بلى إنَّ لك عندنا حسنة، فإنَّه لا ظلم عليك اليوم، فيخرج له بطاقة فيها «أشهد أن لا إله إلَّا الله وأنَّ محمدا رسول الله»، فيقال له: أحضر وزنك، فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقال: إنَّك لا تظلم اليوم، فتوضع السجلات في كفَّة والبطاقة في كفَّة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة، ولا يثقل مع اسم الله شيء**»[1] قلت: هذا [في حقِّ] مشرك ختم بالشهادة ومات قبل أن تقع عليه الفرائض، أو فاسق ختم بها عمله مخلصا، وأمَّا الوضع في الكفَّة فعبارة عن تجويد الحساب.

---

(1) رواه **الترمذي** في كتاب الإيمان (17) باب ما جاء فيمن يموت وهو يشهد... رقم 2639. ورواه **ابن ماجه** في كتاب الزهد (35) باب ما يرجى من رحمة الله رقم 4376. من حديث عبد الله بن عمرو.





﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلۡفُرۡقَانَ وَضِيَآءٗ وَذِكۡرٗا لِّلۡمُتَّقِينَ ٤٨ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ ٤٩ وَهَٰذَا ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ أَنزَلۡنَٰهُۚ أَفَأَنتُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ٥٠ ﴾

القصة الأولى: قصَّة موسى عليه السلام

مقارنة بين خصائص القرآن وخصائص التوراة

﴿وَلَقَدَ ـ اتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْـرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ هنَّ التوراة، هي فرقان من حيث إنَّها تفرق بين الحقِّ والباطل، و«ضياء» من حيث إنَّها تزيل ظلمة القلب والجهل، و«ذكرا» من حيث إنَّها تعظ وتذكِّر، والمراد التوراة الجامعة للفرق والضوء والذكر، وذلك مختصٌّ في العطف بالواو، وأجازه الأخفش بالفاء.

وإنَّما هي على موسى ولكن هارون نبيء أخوه في زمان واحد معاضد له، فنسبت إليهما معا. وخصَّ المتقين بالذكر لأنَّهم المنتفعون بها.

أو الذكر: ذكر ما يحتاجون إليه في الشريعة، أو الشرف لهما، أو «الْفُرْقَانَ»: النصر كقوله تعالى: ﴿يَـوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ [سورة الأنفال: 41] للفرق بين العدوِّ والوليِّ، والضياء حينئذ التوراة أو الشريعة أو اليد البيضاء، والذكر أحد المعاني المذكورة، أو الفرقان فرق البحر، **والأولى ما تقدَّم أوَّلا وهو المناسب لتحقيق القرآن** المشارك لسائر كتب الله عز وجل، ولا سيما التوراة فيما ذكر من الصفات، ولأنَّ في قولهم: ﴿فَلْيَاتِنَا بِئَايَـةٍ﴾ تلويحا بفرق البحر ألا ترى كيف عقَّب ذلك بقوله: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ انزَلْنَاهُ﴾ وهو القرآن.

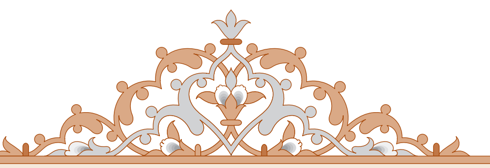
﴿**الذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم**﴾ أي عذاب ربِّهم نعت للمتقين وهو أولى، أو بدله أو بيان، وأمَّا دعوى أنَّه منصوب أو مرفوع على المدح فلا دليل عليه ﴿**بِالْغَيْبِ**﴾ حال من «رَبِّ» أي يخشونه غير محسوس لهم، وذلك مدح لهم إذ آمنوا للدَّلائل بما لم يروا وذمٌّ للكفرة إذ لا يتأثَّرون بالإنذار ما لم يشاهدوا ما أنذروا به، أو حال من الواو أي لا يدري الناس بخشيتهم، ويقرب منه ما قيل: يخشونه في قلوبهم.

﴿**وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ**﴾ خائفون مع استعداد واعتناء، وخصَّ الخوف من الساعة بعد التعميم للخشية، لأنَّ الساعة أعظم مخوف، ولذا وللفاصلة قدَّمها على «مُشْفِقُونَ» وفي ذلك مضادَّة لصفة المستعجلين.

﴿**وَهَذَا**﴾ هذا الكتاب وهو القرآن، أشار إليه إشارة القرب لأنَّه كالشيء الحاضر لأنَّه شرع في نزوله، وما تمَّ نزوله حينئذ فهو كالحاضر المتَّصل، ولا سيما أنَّ هذه الألفاظ التي هي قوله: ﴿وَهَذا...﴾ بعضه، وأيضا إشارة القرب لسهل تناوله حفظا وفهما.

﴿**ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ**﴾ يتذكَّر به كلُّ من لم يواجهه بالردِّ، كثير البركة، والحمد لله على حصول منفعته لنا ﴿**انزَلْنَاهُ**﴾ خبر ثان أو نعت ثان، ولا يخفى تعظيمه بوصف أنَّه من الله ﴿**أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ**﴾ هو كالتوراة فأنتم له منكرون؟ لا يليق إنكاره، ولو لم تعترفوا أنَّه مثلها فإنَّه مثلها في أنَّه من الله، مع أنَّه أفضل منها، وهو بلغتكم وعلى نبيئكم، وهذه نعمة كفرتموها.

وقدَّم «له» للحصر الإضافي، أي أنكرتموه لا التوراة والزبور والإنجيل، وللفاصلة ولاهتمامهم بإنكاره واعتنائهم بإنكاره.



﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿51﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿52﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿53﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿54﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿55﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿56﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿57﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿58﴾ ﴾

القصة الثانية: قصَّة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ

ـ 1 ـ

إنكار عبادة الأصنام والدعوة إلى توحيد الله تعالى

﴿وَلَقَدْ ـ اتَيْنَآ إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ﴾ يعني اهتداءه إلى وجوه الصلاح في الدين والدنيا، والصحف والحكمة والوحي والتوفيق للخير من صغره **﴿مِن قَبْلُ﴾** من قبل موسى وهارون ومحمَّد ﷺ، وعن ابن عبَّاس وابن عمر: قبل موسى وهارون، وقيل: قبل البلوغ حين خرج من السرب، وقيل: قبل الولادة إذ كان في صلب آدم، **ولا دليل لهذه التعيينات.**

والمقبول الأوَّلان واختير منهما قول ابن عبَّاس لقرب ذكر موسى وهارون، ولمجيئهما بعد إبراهيم، ولأنَّهما يتأسَّيان بإبراهيم، ويتسلَّيان به، ولكثرة آيات موسى وتكاثفها، كآيات نبيئنا ﷺ فيسلِّيه به، ثمَّ بإبراهيم وهكذا، ألا ترى إلى قوله: ﴿وَنُوحًا اِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ﴾ [سورة الأنبياء: 76] أي قبل هؤلاء، وقيل: قبل إبراهيم ولوط وهود وصالح.

﴿وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ أي عالمين بأحواله وما فيه من الكمالات، وهذا أولى من أن يقال: كناية عن حفظه، كما قال له جبريل في الهواء وقت ألقي في النار: هل لك حاجة؟ فقال: أمَّا إليك فلا، فقال: فسل ربَّك، فقال: علمه بحالي يغني عن سؤالي.

﴿**إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ**﴾ دخلت أمُّه في قومه توسُّعا ولم يذكرها لأنَّ الرجال أشدُّ اعتناء بعبادة الأصنام، وذكر الله عنه الأب أوَّلا مع أنَّ الواو لا ترتِّب لعلَّه لأَنَّه بدأ به وهم مجتمعون لأنَّه أحقُّ من ينصح، و«إذ» متعلِّق بـ«ءَاتَيْنَا» وهو أولى أو بـ«عَالِمِينَ» أو بـ«رُشْدَ» أو بدل من «قَبْلُ» باعتبار نصبه لأن «مِن» لا تدخل على «إذ» أو مفعول لـ«اذكر» محذوف.

﴿**مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ التِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ**﴾ الصور التي تشبه صور الرجال أو الكواكب، وإشارة القرب تحقير، والسؤال بـ«مَا» ـ الموضوعة لطلب الحقيقة، أو شرح الاسم مع علمه بأنَّها حجر أو نحوه ـ من تجاهل العارف[1]، ليتفاوضوا معه في الكلام. والعكوف على الشيء: ملازمته تعظيما له، قيل: أو لغرضٍ مَّا. يريد أنَّ هذا العكوف عجيب غير لائق فكيف عبادتها؟ واللام بمعنى على كقوله تعالى: ﴿يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾ [سورة الأعراف: 138] وقوله تعالى: ﴿وَإِنَ اَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [سورة الإسراء: 07] أي فعليها أو هي كلامِ التقوية على تضمين «عَاكِفُونَ» معنى عابدون.

وليس امتناع تفسير العكوف بالعبادة في قول عليٍّ ـ إذ مرَّ على لاعبين للشطرنج: «ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون؟ لأن يمسَّ أحدكم جمرا حتَّى ينطفئ خير له من أن يمسَّها» ـ مانعا من تفسيره في الآية به، وهي فيه بمعنى على، أي مقيمون عليها، أو للتعليل كما جاز في الآية أي مقيمون لأجلها وحذف على عبادتها، أو لا يقدَّر بل المعنى: أنتم لها فاعلون العكوف.

---

(1) يريد السؤال بـ«ما» من تجاهل العارف.

﴿**قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَابِدِينَ**﴾ جـواب تقليد ممن لا حجَّة له ﴿**قَالَ لَقَدْ كُنتُمُۥ أَنتُمْ**﴾ تمكَّنتم مستمرِّين، وليس المراد مطلق الكون ﴿**وَءَابَآؤُكُمْ**﴾ لعبادتكم وعبادتهم لها ﴿**فِي ضَلَالٍ**﴾ عجيب، مثله قليل ﴿**مُّبِينٍ**﴾ ظاهر لكلِّ عاقل، **والحـقُّ لا يكون مغلوبا بالكثـرة**، واختار قوله: ﴿فِـي ضَلَالٍ﴾ على الضَّالين ليكون كالتصريـح بمعنى أنَّهـم مغمورون في الضـلال، وليصفه بـ«مبين». وتعجَّبوا من ردِّه عليهم هـذا الردَّ المتين، فقالوا: على وجه الإنكار والتعجُّب ما قال الله ﷻ عنهـم: ﴿**قَالُواْ أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ**﴾ بالجـدِّ ﴿**أَمَ اَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ**﴾ داخل في زمرة اللاعبين، و«أم» متَّصلة، ينتظرون ما يجيب عليها، ويجوز أن تكون للإضراب الإبطاليِّ جزما منهـم بالردِّ عليه، أي بل أنت من اللاعبين، أو كبل والهمزة، وعدل عن أن يقال: أما جئت به جدٌّ أم لعب؟ إلى ما في الآية مطابقة له بألطف وجه كالمنصف.

﴿**قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّـمَاوَاتِ وَالَارْضِ الـذِي فَطَرَهُنَّ**﴾ خلقهنَّ مع ما فيهما كتماثيلكم وأنفسكم، أو فطر تماثيلكم، ويترجَّح الأوَّل بالعموم ودخول التماثيل فيه بالـذات، والثاني بـأنَّ المقام لإبطال التماثيـل، وهنَّ ضمير لا يختصُّ بالعقلاء، ولو خصَّ به لقيل: إنَّها عندهـم كالعاقل، ووصفه بالربوبيَّة إيذانا بأنَّ ما لا يخلق ولا يربِّي بالنعم على الإطلاق بعيد عن الألوهيَّة.

﴿**وَأَنَاْ عَلَىٰ ذَالِكُم مِّنَ الشَّـاهِدِينَ**﴾ «على» متعلِّـق بمحذوف جوازا، أي شـاهد على ذلكم المذكور من ضلال عبـاد التماثيل، وأنَّ ربَّ السـماوات والأرض وما فيهما هو ربُّ كلِّ شـيء وإلهه، لا متعلِّق بـ«شاهدين» لأنَّه صلة «ال»، ومعمول الصلة لا يتقـدَّم على الموصول، وقيل بالجواز للتوسـع في الظروف فلا يقدَّر محذوف، وعلـى الأوَّل ـ وهو تقدير محذوف ـ يكون «مِنَ الشَّاهِدِينَ» زيادة تقرير، كأنَّه قيل: من جملة الراسـخين في الشهادة العالمين بالشيء علما محقَّقا بمشاهدة البراهين.

[بلاغة] فـ«بل» إضراب إبطالي عن اعتقادهم التماثيل آلهة، وعن أن يكون من اللاعبين بإيراد البرهان، وهذا من الأسلوب الحكيم، إذ مقتضى الظاهر: بل أنا من المحقِّين لا من اللاعبين، وجـاء ببدله وهو قوله: ﴿بَلْ رَّبُّكُمْ﴾ لأنَّ فيـه تحقيق ما أراد، ونفـي اللعب وقرَّره بقولـه: ﴿وَأَنَاْ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾.

وزاد ـ إذ لم ينفعهم جوابه ـ شـدَّةً بالفعل، كما قـال الله ﷻ: ﴿**وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ**﴾ في يوم عيدكم هذا ﴿**أَصْنَامَكُم**﴾ أجتهد في كسرها باحتيال، فإنَّ أصل الكيـد الاحتيال في إيجاد مـا يضرُّ، مع إظهار خلافه، وهو يسـتلزم الاجتهاد، ولكن أخبرهم ليجمعوا أمرهم في حفظها، فإذا كسـرها مع ذلك كان أشدَّ غلبة.

أو قال ذلـك في قلبه أو حيث لا يسـمعون، وقيل: سـمعه رجل واحد منهم، وقيل: سمعه ضعفاء في آخر الناس في مشيهم إليها يوم العيد، وكانت سبعين تمثالا وقيل: اثنين وسبعين.

[نحو] والمشهور أنَّ ما يفيد التعجُّب من حروف القسم هو اللام، ويجوز في التاء أن تكـون للتعجُّب وأن لا تكـون، وقيل: لا تكـون إلَّا له، وأصل حروف القسم الباء إذ يجوز ذكر فعل القسـم معها، وتجرُّ الظاهر والمضمر، والتاء بدل من الواو، كما في «تجاه»، والواو قائمة مقام الباء لمناسبة الشفوية فيهما، مع أنَّ في الواو معنى قريبا من الإلصاق الذي هو أصل في الباء، وقيل: ليس حرف قسم أصلا للآخر.

﴿**بَعْدَ أَن تُوَلُّـواْ**﴾ ترجعوا عن عبادتها ﴿**مُدْبِرِيـنَ**﴾ عنها فهو حال مؤكِّد لعامله كذا شهر، وانظر كيف يرغب إبراهيم عليه السلام في تأكيد تولِّيهم؟ فلو قلت: بعد أن تولُّوا تولِّيا عظيما أو محقَّقا لم يقبـل، اللهمَّ إلَّا أن يريد أن تولُّوا تولِّيا محقَّقا لا يبقى منكم من يتخيل بي.

فإذا قلنا: بعد أن تولُّوا عنها بأجسامكم مدبرين عن عبادتها لم يكن في ذلك تأكيد، **وهذا أولى**. أوهمهم في طريقه معهم إلى عيدهم بأنَّه سقيم من رجليه في مشيه هذا، وتركوه فرجع إلى الأصنام.

﴿**فَجَعَلَهُم جُذَاذًا**﴾ عطف على محذوف أي تولوا مدبرين فجعلهم جذاذا، وكان معهم يترقَّب ذهابهم، أو أتى فجعلهم جذاذا أي قطعا بمعنى مجذوذا أي مقطوعا كالحطام بمعنى محطوم، أي جعلهم شيئا مقطوعا وهو في الأصل مصدر يصدق على القليل والكثير، وقيل: جمع أو اسم جمع مفرده جذاذة كزجاج وزجاجة وكلام وكلمة.

[قصص] ويقال: خرج به آزر في عيد فدخلوا عليها وسجدوا لها وجعلوا طعاما بين أيديها تبارك لهم فيها، فإذا رجعوا أخذوه، وقعد إبراهيم في الطريق، وقال: إنِّي سقيم فكسرها بفأس إلَّا كبيرا عند الباب من ذهب عيناه جوهرتان تضيئان ليلا، وعلَّقه في يده أو عنقه كما قال ﷻ: ﴿**إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ**﴾ فإنَّه لم يكسره ليرجعوا إليه كما قال الله ﷻ: ﴿**لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ**﴾ إلى الكبير ﴿**يَرْجِعُونَ**﴾ لعلَّ للتعليل، أي ليرجعوا إليه فيخاطبوه بأن يقولوا له: أخبرنا من كسر الأصنام؟ ولم تركت مريد كسرها إلى كسرها؟ ولعلَّك أنت الكاسر لها غضبا لأن عُبِدَتْ معك؟ ولم كُسِرت وسلمت أنت؟ ولم علِّق فيك الفأس؟ فلا يجيبهم بشيء.

فيتبيَّن عجزه وخَطَؤُهم في عبادته إذ لا ينفع ولا يدفع الضرَّ، ولم ينتقل من مكانه إلى كسرها غضبا، وهو كسائرها مثبَّت في الأرض برصاص أو غيره، وإن لم يثبت بذلك فإنَّهم لا يرون أثر المشي إليها للكسر.

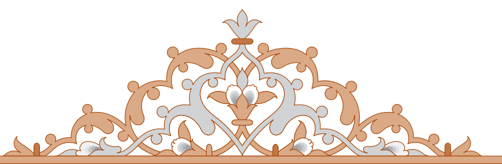
ظنَّ فيهم لشدَّة ميلهم إليها وإلى الكبير أنَّهم يعتقدون أنَّها تفعل كالعاقل فبكتهم، وإن لم يظنَّ ذلك فيهم فكسْرُها وتعليقه الفأس عليه استجهال لهم واستهزاء، فإنَّ من شأن المعبود أن لا يُفعل به ذلك وأن يضرَّ وينفع.

وقيل: الضمير لله أي لعلَّهم يرجعون إلى الله بتوحيده إذ سألوا وظهر عجز آلهتهم، وقيل: لإبراهيم أي لعلَّهم يرجعون إلى إبراهيم فيسألونه فيفحمهم، وعليه الجمهور، وذلك كلُّه ترجٍّ منه عليه السلام.

[بلاغة] ويجوز أن يكون ذلك من الله أخبر به عنه. والتقديم للفاصلة، وقيل: للحصر ولها، وقيل: للحصر على القول الأخير وللفاصلة، ويحتمل الحصر والفاصلة على الأوَّلين.

[فقه] ومن وجد عند صبي مثلا فخَّارا أو عودا أو نحوه على صورة آدمي أو صليب أو نحو ذلك مما يحرم لزمه كسره، لوجوب الأمر والنهي باليد لمن قدر بها في مثل ذلك في سنَّة رسول الله ﷺ وكذا من قصة إبراهيم، فإنَّ هذا مما لا تختلف فيه الشرائع.

وكأنَّه قيل: ما قالوا إذ رجعوا من عيدهم ورأوها جذاذا؟ فقال الله عز وجل:



﴿قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٩ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ۝٦٠ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ۝٦١ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝٦٢ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ۝٦٣ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٦٤ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ۝٦٥﴾

ـ 2 ـ

تكسير الأصنام والنقاش الحادُّ بين إبراهيم وقومه

﴿**قَالُواْ مَن فَعَلَ هَذَا**﴾ من فعل هذا الكسر، ﴿**بِئَالِهَتِنَآ**﴾ والاستفهام حقيقيٌّ، إذ لا يدرون الفاعل، فهم يريدون أن يعيَّن لهم، وفي ضمنه توبيخ وإنكار للياقة ﴿**إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ**﴾ مستأنف، أو «مَنْ» موصولة وهذه الجملة خبرها، وذكروها باسم الآلهة إعظاما لها كما يعبدونها، ولم يسمُّوها تماثيل أو أصناما، وللتشنيع على كاسرها إذ أهانها وعرَّض نفسه للهلكة من جانبها أو من جانبهم.

﴿**قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَاهِيمُ**﴾ قال بعضهم وهم من سمعوه أو مع من سمع من السامع إذ قال: ﴿وَتَاللهِ لَأَكِيدَنَّ﴾ وعلى أنَّه قال في قلبه أو لم يسمعه أحد فالمراد: سمعنا فتى يذكرهم بالسوء في ذلك اليوم أو قبله، ويعيبهم مطلقا، فلعلَّه كاسرها.

[نحو] وفي الكلام حذف أي سمعنا كلام فتى، والجملتان بعده نعتان له، وأجيز أن تكون الجملة بعده بدل اشتمال منه، وأجيز أن تكون مفعولا ثانيا

لـ«سمع» على أنَّه يتعدَّى لاثنين إذا أتي بعده بمفرد، وجملة «فتى...» مما يسمع، و«إِبرَاهِيمُ» نائب الفاعل مفرد، ولو كان القول أصله نصب الجمل، لأنَّه قد ينصب المفرد ولو لم يتضمَّن معنى الجملة، أو منادى أي يقال له: «يا إبراهيم»، أو خبر لمحذوف أي «هو إبراهيم»، أو «هذا إبراهيم»، والأولى **أنَّ إبراهيم نائب فاعل والقول نصب المفرد** بمعنى يذكر لفظ إبراهيم في شأنه فشمل هذا: «يا إبراهيم» و«هو إبراهيم»، و«أنت إبراهيم» و«جاء إبراهيم» وغير ذلك من كلِّ كلام يذكر فيه.

﴿**قَالُواْ فَاتُواْ بِهِ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ النَّاسِ**﴾ أي قال القائلون: ﴿مَن فَعَلَ هَذَا بِئَالِهَتِنَآ إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ إذا كان الفتى يذكرهم بسوء فأتوا به، أي أحضروه يعاينه الناس ﴿**لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ**﴾ بفعله أو قوله، أو ليشهدوا عقابه، ويحضروا له.

وكأنَّه قيل: فماذا كان؟ فقال ﷻ: ﴿**قَالُواْ**﴾ بعد ما أوتي به ﴿**ءَآنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِئَالِهَتِنَا يَآ إِبْرَاهِيمُ**﴾ استفهام حقيقي، لا علم لهم بأنَّه الفاعل، ويجوز أن يكون للتقرير بأنَّه الفاعل لترجُّح أنَّه الفاعل لأنَّهم سمعوا أنَّه يعيبها، أو وصلهم قوله: ﴿وَتَاللهِ لأَكِيدَنَّ...﴾ ولم يحقِّقوه.

﴿**قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا**﴾ على مقتضى زعمكم أنَّه إله أكبر، غضب أن يعبد معه غيره منها، فاعلموا أنَّ الله يغضب أن تعبدوا معه غيره؛ أو أراد إثبات الفعل لنفسه ونفيه عنها استهزاء بهم، كقولك لأمِّيٍّ: بل أنت كتبته، بعد قوله: أأنت كتبته؟ استهزاء به، تريد إثبات الكتب لك ونفيه عنه.

وفي البخاري ومسلم والترمذي عن رسول الله ﷺ: لم يكذب إبراهيم إلَّا ثلاث كذبات: اثنتين في ذات الله تعالى، قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ أي سقيم القلب بضلالكم، أو سأسقم، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ وقوله لسارة: «هذه أختي»[1] وكذا تسمية ذلك كذبا في حديث الشفاعة وذلك صورة كذب.

---

(1) رواه **البخاري** في كتاب أحاديث الأنبياء (08) باب قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ رقم 3179. ورواه **مسلم** في كتاب الفضائل (41) باب من فضائل إبراهيم عليه السلام، رقم 2371. =

ويجوز أن يكون قد أذن الله تعالى له أن يقول ذلك كما أذن ليوسف أن يقول: ﴿أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ [سورة يوسف: 70] وليسوا بسارقين، وتسمية ذلك كذبا مجاز، لأنَّ التعريض أو الاستهزاء صورة كذب لا كذب، وفي المعاريض مندوحة عنه، وكذا قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ إن أراد به ضيق قلبه بكفرهم فبطل قول من استدلَّ على عدم عصمة الأنبياء قبل النبوءة بالآية.

وكذا لو قيل على بُعدٍ: إنَّ فاعل «فَعَلَهُ» ضمير إبراهيم، أو فتى وهو مستتر، و«كبيرهم هذا» مبتدأ وخبر، ووجه بعده ردُّ المتكلِّم ضمير الغائب إلى نفسه، وتكلَّف ذلك إيهاما لهم وخروجا عن الكذب، ويضعفه أيضا الإضراب ببل فإنَّه غير مناسب لما قبله، وقد يوجَّه بأنَّه إضراب عن شكِّهم واستفهامهم إلى التصريح، ولا يشعرون بالتصريح.

ومع ذلك هو قول الكسائي [حسب قراءته]، وكان يقف على «فَعَلَه» إلَّا أنَّه قال: الفاعل محذوف، وكان يجيز حذف الفاعل بلا ضرورة ولا ساكن، أو أراد بالحذف هنا الاستتار.

[نحو] وحذف الفاعل بلا دليل لحن ولا يباح اللحن للتقيَّة، أعني أنَّه لا يخرج الكلام عن كونه لحنا لكونه تقيَّة، فهو مع التقيَّة لحن.

[انتقاد لتخريجات بعض المفسِّرين] وكلام الله منزَّه عنه، إلَّا إن كان كلام إبراهيم بالعجمة فلعلَّه وقع ذلك في كلام إبراهيم فذكره الله ﷻ كما هو في كلامه، ولم يصلحه، **وذلك ضعيف لا يخرج عليه القرآن، ولا على مثله في الضعف** مثل ما قيل: إنَّ كبيرهم إبراهيم، وفيه أنَّ إبراهيم ليس من تلك الأصنام فيحتاج أن يراد بالكبير الرئيس عليهم والسيادة عليهم، كما يقال للإنسان: إنَّه سيِّد دوابه، ومثل ما قيل: المراد كبيرهم هذا الإله الذي هو الله،

= ورواه **الترمذي** في كتاب تفسير القرآن (22) باب: ومن سورة الأنبياء، رقم 3166. من حديث أبي هريرة.

وفيه مع بعده الإشـــارة إلى الله بهذا في اللفظ ولو أراد بـــه مقصودا في قلبه، ومثل ما قيل: إنَّه فاعــل «فعل» وهو الله، أو إبراهيم نفســه، وما قيل: إنَّ الفاء عاطفة و«علَّ» هو «لعــلَّ» حذفت لامه الأولــى ولام من آخره كمــا قرأ ابن السميقع: «فعلَّه» بشدِّ اللام.

أو المراد: فعلــه كبيرهم هذا إن كانوا ينطقون، والإشـــارة للصنم، فيكون قوله: ﴿**فَاسْــأَلُوهُم**﴾ معترضا بين قوله: ﴿**إِن كَانُواْ يَنطِقُــونَ**﴾ وما أغنى عن جوابه هو: ﴿فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾، وما تقدَّم أولى. «فَاسْأَلُوهُم» غير معترض بل مغن عن جواب «إِن كَانُوا يَنطِقُونَ».

﴿**فَرَجَعُواْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ**﴾ بتذكُّر وتدبُّر بأنَّ ما لا يدفع الضرَّ عن نفسه حتَّى كسر ولا يدفع ذلك لا يكون إلها ولا يُعبد ﴿**فَقَالُواْ**﴾ كان القول فيهم بأن قال بعض لبعض: ﴿**إِنَّكُــمُۥٓ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ**﴾ بعبادة مــا لا ينطق، وما لا ينطق ولا حواسَّ له لا يعقل. أو بسؤال إبراهيم وترك ســؤالها وهي آلهتكم، أو بسؤاله موبِّخين له، أو بغفلتكم عنها حتَّى كســرت، أو بعبادة الصغار مع هذا الكبير حتَّى غضب وكسرها إذ عبدت معه، أو باتِّهام إبراهيم وقد رأيتم الفأس معلَّقا بالكبير، ومن لا يدفع عن رأســه الفــأس كيف يدفع عن عابديــه البأس؟!. والحصر إضافي أي: أنتم الظالمون لا إبراهيم.

﴿**ثُمَّ نُكِسُواْ**﴾ النكس: قلب الشــيء حتَّى يصير أعلاه أسفله، وذلك مجز عن ذكر الرأس فقوله: ﴿**عَلَىٰ رُءُوسِــهِمْ**﴾ تأكيد، أو جــرِّد النكس عن بعض معناه فتمَّ بقوله: ﴿عَلَىٰ رُءُوسِــهِمْ﴾، وقد يســتعمل النكس لغة بمعنى مطلق قلب الشيء من حال إلى حال، فيذكر الرأس للتصوير والتقبيح، والمراد:

ـ إمَّا الرجوع عن الجــدال معه بالباطــل إذ قالوا: «مَن فَعَــلَ...» وقالوا: «ءَآنــتَ...» إلى الجدال عنه بالحــقِّ إذ قالوا: ﴿**لَقَدْ عَلِمْتَ**﴾ يــا إبراهيم ﴿**مَا هَؤُلَآءِ يَنطِقُونَ**﴾ أصبت في أنَّهم ليســوا آلهة إذ لا يعقلون ولا قدرة لهم على

شيء مَّا، وهذا حقٌّ، فتسميته نكسا على معنًى مجرَّدٍ تقلُّبُ حال إلى أخرى، أو باعتبار أنَّهم مع هذا القول منهم ما اعتقدوا حقًّا بل رجعوا عنه إلى عبادتها.

ـ وإمَّا الرجوع عن الكفر الصحيح بأنَّها لا تستحقُّ العبادة لعجزها إلى عبادتها عنادا وتقليدا.

ـ وإمَّا المبالغة في إطراق الرؤوس خجلا حتَّى كأنَّهم منكوسون فقولهم: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ...﴾ جواب عاجز متحيِّر فإنَّه حجَّة عليهم، وقد يكون كناية عن مبالغة الحيرة وانخزال الحجَّة، ولو نطقوا حقًّا بقولهم: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ...﴾.

ـ وإمَّا الرجوع عن قولهم: إنَّه غضب لعبادة الصغار معه فكسرها، إلى قولهم: إنَّها لا تنطق، أي لا تعقل.

ـ وإمَّا النكس في الرأي.

ـ وإمَّا أن يراد بالرؤوس الرؤساء بأن ردَّت السفلة منهم على رؤسائهم في عبادتها وعنَّفوهم عليها، وما مرَّ أولى.

[بلاغة] والكلام استعارة تمثيليَّة، والجملة محكيَّة بـ«نُكِسوا» لتضمُّنه معنى القول، أو منصوبة بقول مقدَّر أي قائلين: «لقد علمت ما هؤلاء ينطقون».

﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ۝٦٦ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٦٧ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ ۝٦٨ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ۝٧٠﴾

ـ 3 ـ

انتصاره عليهم ونجاته من النار

﴿**قَالَ**﴾ مبكتا لهم ﴿**أَفَتَعْبُدُونَ**﴾ أتعلمون ذلك فتعبدون ﴿**مِن دُونِ اللهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا**﴾ من النفع ﴿**وَلَا يَضُرُّكُم**﴾ شيئا من الضرِّ، وطلب المحتاج من المحتاج زلَّة في رأيه وقلَّة في عقله، والاستعانة بمخلوق كاستعانة المسجون بالمسجون.

﴿**أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ**﴾ اللام للبيان، ومقتضى الظاهر: من دونه، وأظهر لفظ الجلالة لمزيد استقباح الإشراك به ﴿**أَفَلَا تَعْقِلُونَ**﴾ ألا تتفكَّرون فلا تعقلون!، قُبِّحَ صنيعكم حتَّى إنَّكم تأمرون به. ولما عجزوا عن الحجَّة أمروا بقتله كما قال عَزَّوَجَلَّ:

﴿**قَالُواْ**﴾ كأنَّ فيهم القول أي قال بعض لبعض: ﴿**حَرِّقُوهُ**﴾ فإنَّ النار أشدُّ ما يعذَّب به ولذلك كانت عذاب الله في الآخرة، **ولا يعذِّب بالنار إلَّا ربُّها** ﴿**وَانصُرُواْ**﴾ بتحريقه ﴿**ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ**﴾ مريدين لفعل نصرها، وإن لم تعذِّبوه البتة أو عذَّبتموه بغير النار فقد خذلتموها، أمرهم نمرود بن كنعان بن سنحاريب بن نمرود بن كوش بن حام بن نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ.

[قصص] وروي أنَّه تليت الآية على ابن عمر فقال: أتدري يا مجاهد من أمر بذلك؟ قال: لا، قال: رجل من أعراب فارس، يعني الأكراد على أنَّ الأكراد من الفرس، وذهب كثير إلى أنَّهم من العرب، وذكر أنَّ منهم «جابان» أبا ميمون من الصحابة، ولعلَّ المراد بالأعراب أهل الصحراء ولو عجما.

[قصص] ومات نمروذ ببعوضة في دماغه صارت فيه كالفرخ. وذكر ابن عطية أنَّ الآمر بذلك رجل من الأكراد خسف به الأرض، تجلجلا إلى يوم القيامة، واسمه هبون، وقيل: هدير، وذلك لأمره ولو كان المنفِّذ له نمروذ، لا إياه، وحيي نمروذ إلى أن مات بالبعوضة.

[قصص] حبسوه وجمعوا له الحطب الغليظ أربعين يوما، وقيل شهرا، وأوقدوه في حظيرة في بلدة يقال لها كوثى، من قرى الأنباط في حدود بابل من العراق، ولا يمرُّ عليها طائر إلَّا احترق ولا يقدرون على أن يقربوها، فأمرهم إبليس أو الرجل الذي أمر بها أن يلقوه فيها بالمنجنيق، وجعلوه فيه مغلولا مقيَّدا، فصاحت ملائكة السماء والأرض: «إلهنا ما في أرضك من يعبدك غير إبراهيم وهو يحرق فيك فأذن لنا في نصره» فقال ﷻ: «إن استغاث بأحد منكم فلينصره، وإن لم يدع غيري فأنا إلهه ووليه وعالم به، فخلُّوا بيني وبينه، فإنَّه خليلي ليس لي خليل غيره، وليس له إله غيري»، فأتاه خازن الماء وخازن الرياح فاستأذناه، فقال: «لا حاجة لي إليكم حسبي الله ونعم الوكيل»، وأتاه جبريل وهو في الهواء، فقال: هل لك حاجة؟ فقال: «أمَّا إليك فلا»، فقال: سل ربَّك، فقال: «هو عالم بحالي»، وحين أوثقوه قال: «لا إله إلَّا أنت سبحانك لك الحمد ولك الملك لا شريك لك». وفي البخاري عند قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [سورة آل عمران: 173] قالها إبراهيم حين ألقي في النار، ومحمد حين قيل: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ﴾[1].

---

(1) رواه **البخاري** في كتاب تفسير القرآن (13) باب ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ﴾ رقم 4563. من حديث ابن عبَّاس.

[قصص] وأنت خبير بما قيل هنا من روايات أنَّ الضفادع تسعى في إطفاء النار بالماء فذهب ثلثاها، وإنَّ الوزغ كان ينفخ في النار إلى غير ذلك. وكانت المرأة تنذر أنَّ عليها كذا من الحطب لإحراق إبراهيم إن نالت حاجتها.

ولم تضرَّه النار وبقي ضوؤها وإشراقها ولم تغيِّره شيئا سوى أن أحرقت كتافه، أي رباطه أبقى الله حرارتها على الكتاف وأزالها عنه كما قال الله ﷻ: ﴿**قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰٓ إِبْرَاهِيمَ**﴾ كوني باردة وذات سلام، أو ذات برد وسلام، أو نفس البرد والسلامة، ولو لم يقل: ﴿وَسَلَامًا﴾ لمات بالبرد، وهو مراعاة للَّفظ، وَأَنَّ هناك لافظا هو ملك أو ما شاء الله من الخلق، ويقال: هو جبريل وإنَّه تعالى خلق العقل في النار وخوطبت.

[قلت:] والذي لي أنَّ معنى الآية أنَّه تعالى أزال الحرارة التي خلقها فيها وجعلها باردة كالريح، وأزال مضرَّتها، أو أبقاها حارة بلا تأثير كما قيل: لا تحرق السمندل، وكان يعمل من وبره مناديل إذا اتسخت جعلت في النار فتزيل وسخها، ولا لفظ هناك من ملك ولا غيره.

[قصص] وروي أنَّ الملائكة أخذوا بضبعي إبراهيم فأقعدوه في الأرض فإذا عين ماء عذب وورد أحمر، وكلُّ حطب أثمر ثماره، ومكث فيها أربعين يوما أو خمسين يوما، وقال: أعظم أيامي طيبا أيام كنت في النار، وبعث الله ملك الظلِّ في صورة إبراهيم يؤنسه في النار، وبعث الله ﷻ إليه جبريل بقميص حرير من الجنَّة، وطنفسة وقعد معه يحدِّثه، وقال: يقول لك ربُّك: «أما علمت أنَّ النار لا تضرُّ أحبابي؟».

[قصص] وناداه نمروذ من أعلى صرحه: إنَّ ربَّك عظيم القدرة إذ فعل بك ذلك، فهل تطيق الخروج؟ وقال: نعم، قال: فاخرج، فمشى فيها حتَّى خرج، فقال: من الذي معك بجانبك على صورتك؟ قال: ملك الظلّ من الله

ربِّي يؤنســني، قال: فإنِّي أذبح لربِّك أربعة آلاف بقــرة لقدرته، قال: لا يقبل منك إلَّا إن رجعت إلى ديني، قال: لا أترك ملكي ولا بدَّ من ذبحها. وهو عليه السلام ابن أربع عشرة سنة وسالموه بعد ذلك.

[أنواع من النار] ويقــال: نار تحرق كلَّ مــا لاقاها وهي نــار الدنيا، إلَّا السمندل، ونار لا تحرق شيئا وهي نار الحجر والشــجر ما دامت فيهما، ونار تحرق بعضا دون بعض وهي نار إبراهيم أحرقــت كتافه والحطب دونه ودون لباســه، ونار الآخرة تحرق أهلها والحجارة دون الملائكــة، ونار مضيئة وهي ســائر النيران، ونار مظلمة وهي نار الآخرة، ونار تأكل وتشرب وهي نار الدنيا تأكل الحطب والفتيل وتشرب الزيت ونحوه، ونار لا تأكل ولا تشرب وهي نار الحجر ما دامت فيه، ونار تشرب ولا تأكل وهي نار الشجر ما دامت فيه، ونار تأكل ولا تشرب وهي نار الآخرة [فسبحان من جعل النوع الواحد أنواعا].

﴿**وَأَرَادُواْ بِهِ كَيْدًا**﴾ مكرا عظيما ﴿**فَجَعَلْنَاهُمُ الاَخْسَــرِينَ**﴾ لســعيهم في إطفاء نور الله سبحانه، أخسر من كلِّ خاســر إذ عقَّب كيدهم بما هو نصرة له وخذلان لهم، وقيل: ﴿الَاخْسَــرِينَ﴾ بأكل البعوض لحومهم وشرب دمائهم، وســلَّط على نمرود بعوضة في دماغه تعضُّه وأحبُّ النــاس عنده من يضرب رأسه فتنحلُّ عنه، ولكن تعود. والصحيح ما تقدَّم.

﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ۝71 وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ۝72 وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ۝73 ﴾

ـ 4 ـ

نعم أخرى على إبراهيم وإنجاؤه مع لوط إلى الأرض المباركة

﴿ **وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا** ﴾ هو ابن عمّه وقيل: ابن أخيه، ضمّن «نَجَّيْنَا» معنى أخرجنا ولذا عُدِّي بـ«إلى» في قوله: ﴿ **إِلَى الأَرْضِ التِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ** ﴾ أرض الشام وهي المشهورة ببركة الحرث والثمار والمال والخصب، ويقال: كلُّ ماء عذب من تحت صخرة بيت المقدس.

[قلت:] وفي الشام بركة الدِّين فإنَّ أكثر الأنبياء منها، وانتشرت بركة الدين إلى سائر الأرض، ودلَّ بـ«فيها» على أنَّها محيطة بالبركة، فلم يقل: باركناها، وقيل: المراد باركنا بالخصب وغيره مما هو دنيوي، **والأوَّل أليق بشأن الأنبياء وفيه الدنيا أيضا** ولا بدَّ منها.

[قصص] خرج من العراق عراق العرب وهو [منطقة] بغداد ومعه لوط وسارة بنت عمّه هاران الأكبر، وناخور، خرجوا من كوثى من العراق، فنزل حرَّان، وقيل: تزوّج سارة في حرَّان وهي بنت ملك حرَّان، وشرط عليه أن لا يغيِّرها عن دينها، ولما مكث ما شاء الله ارتحل منها إلى مصر، ثمَّ من



مصر إلى الشام، ونزل السبع من فلسطين ونزل لوط بالمؤتفكة على مسير يوم وليلة منها، أو أقرب.

وفي الآية مدح الشام، وفي الحديث: «**ستكون هجرة بعد هجرة فخيار أهل الأرض ألزمهم لمهاجر إبراهيم**»[1]، وعنه ﷺ: «**طوبى لأهل الشام**» فقال زيد بن ثابت: ما ذاك يا رسول الله؟ قال: «**إنَّ الملائكة** عليهم السلام **باسطة أجنحتها عليها**»[2]، وذكر الغزالي وغيره ذمَّ العراق واستحباب الخروج منه بل الفرار، وقيل: ﴿الَارْضِ التِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ مَكَّة، وقيل: مصر، والصحيح الأوَّل.

﴿**وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً**﴾ مفعول مطلق نوعي، لأنَّه بمعنى الهبة الزائدة، أو حال من «إسحاق ويعقوب» مؤسّسة لا مؤكِّدة محضة لإفادة معنى الزيادة على العامل كذلك، وهما زائدان على مطلوبه، أو من «يعقوب» كما قيل: إنَّه ولد الولد، وأمَّا إسحاق فمن جملة مطلوبه، أي ذوي نافلة، أو ذا نافلة، وهو من المصادر التي بوزن فاعل كالعاقبة والعافية.

﴿**وَكُلًّا**﴾ من إبراهيم ولوط وإسحاق ويعقوب ﴿**جَعَلْنَا صَالِحِينَ**﴾ وفَّقنا للصلاح دينا ودنيا فكمَّلناهما.

﴿**وَجَعَلْنَاهُمُۥٓ أَيِمَّةً**﴾ يقتدى بهم في الدين ﴿**يَهْدُونَ**﴾ الناس إلى الحقِّ ﴿**بِأَمْرِنَا**﴾ لهم أن يهدوا الناس ﴿**وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ الزَّكَوٰةِ**﴾ ذكرنا لهم بالوحي فعل الخير، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة على طريق أمرهم وأمر غيرهم بهنَّ، كما تقول: ذكر الأمير الغزو إلى بلد كذا اليوم، فيعلم السامع أنَّه أمر بإيقاعه.

(1) رواه **أبو داود** في كتاب الجهاد، باب في سكنى الشام، رقم: 2484. من رواية عبد الله بن عمرو.
(2) أورده **الآلوسي** في روح المعاني، وعزاه إلى الترمذي عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جدِّه، ج17، ص71. ولم نجده في سنن الترمذي. ولا يخفى على القارئ ما في مثل هذه الروايات من توجه سياسي. (المراجع).

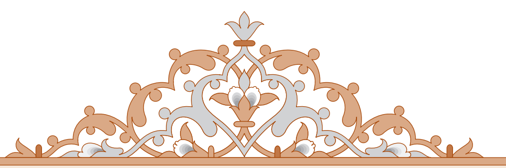
[نحو] فـ«فِعْلَ» مفعول بـه لـ«أَوْحَيْنَا» مصدر مضاف لمفعوله، ولا حاجة إلى جعـل «فِعْلَ» مصـدرا بمعنى الأمـر أي: افعلوا الخيـرات فعلا فحذف العامل، وأضيـف المصدر لمفعـول ذلك العامل، فصـار «فِعْـلَ الْخَيْرَاتِ» كـ[قوله تَعَالـىَ:] ﴿فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ [سورة محَمَّد: 4]، والخطـاب فيه للأنبياء الذين ذُكروا، وإنَّ المعنى: أوحينا إليهم قولنا: افعلوا الخيرات فعلا، ولا حاجة أيضا إلى أنَّ الأصل: أوحينا إليهـم أن تُفْعَل الخيرات بالبناء للمفعول ثمَّ فعلا الخيرات برفع الخيـرات نائبا لفعـلاً بالتنوين على أنَّه مصـدر للمفعول ثمَّ أضيف فكان فعـل الخيرات لتكلُّف جعل المصدر بمعنـى المبني للمفعول، ورفع الظاهر به مع الحذف للعامل، ثمَّ حذف تنوينه وإضافته.

[نحو] والصحيح منـع المصدر من المبني للمفعـول والداعي لذلك أنَّ المعنى المصـدري ليس موحى، وفيمـا ذكرت إغناء عن ذلـك، وفيه عموم الموحى إليهم الأنبياء وغيرهم، وإن خصُّوا فغيرهم تبع لهم.

وذكر إقام الصلاة وإيتاء الزكاة تخصيص بعد تعميم بفعل الخيرات.

[صرف] وحـذف التاء من مصدر «أفعـل» المعتل العيـن المعوِّضة عن محذوف مقيس مطلقا عند سيبويه، واشترط له الفراء الإضافة كما هنا، واختير الحذف هنا لموافقة «إيتاء»، وهي عـوض عن العين، أو عن ألف «إفعال» كما قررته في النحو والتصريف.

[قلت:] وفي الآية أنَّ الأمم يصلُّون ويزكُّون وليسـتا كهيئة صلاتنا وزكاتنا ولا كعددهما ﴿وَكَانُواْ لَنَا عَابِدِينَ﴾ وافين بعهد العبودية لنا.



﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿74﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِي رَحْمَتِنَآ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿75﴾﴾

القصة الثالثة: قصَّة لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ

﴿**وَلُوطًا**﴾ منصوب على الاشتغال في قوله: ﴿**ـ اتَيْنَاهُ**﴾ أي وآتينا لوطا آتيناه، والمقدَّر معطوف على «وهبنا»، والمذكور تأكيد له عمَّ في قوله: ﴿**وَكُلًّا**﴾ وخصَّ كلًّا بما أنعم به عليه، أو «كلًّا» غير شامل للوط بل لإبراهيم وإسحاق ويعقوب فخصَّ لوطا هنا، ولا حاجة إلى تقدير: اذكر لوطا واستئناف قوله: ﴿ءَاتَيْنَاهُ﴾.

﴿**حُكْمًا**﴾ أي حكمة، وهي ما فرض الله، أو النبوءة، فالأنبياء حكَّام على أممهم، أو القضاء بين الخصوم، وقيل: صحف إبراهيم واستبعد بأنَّها تنسب بالإيتاء إلى إبراهيم لا إليه ولو جاز ﴿**وَعِلْمًا**﴾ سائر ما ينبغي للأنبياء علمه، كالوعظ والأخبار والأمثال، وإذا فسَّرنا الحكم بشيء فالباقي علم.

﴿**وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ**﴾ سدوم، أو سبع قرى عبَّر عنها بأعظمها سدوم، وأشهرها، قلبن كلُّهنَّ على المشهور، وقيل: قلبت الواحدة لاتفاق أهلها وروي: قلبن إلَّا زعر لأنها مسكن لوط ومن آمن به ﴿**التِي كَانَت تَّعْمَلُ**﴾ كان أهلها يعملون، أو القرية اسم لأهلها حقيقة أو مجازا، كأنَّه قيل: من القوم التي كانت تعمل.

﴿**الْخَبَآئِثَ**﴾ أقبحها اللواط، وقيل: هو المراد لكن جمع لكثرته، قال ﷺ: «**عشر خصال عملتها قوم لوط بها أهلكوا، اللواط والرمي بالجلالق والحذف،**

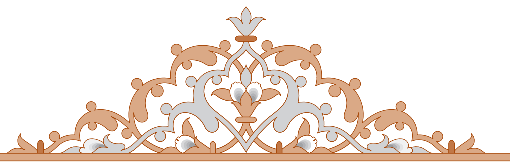
واللعب بالحمام، وضرب الدفوف، وشرب الخمور، وقصُّ اللحية وطول الشارب، والصفر، والتصفيق ولبس الحرير، وتزيد أمتي بسحاق النساء»[1].

﴿**إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ**﴾ خارجين عن الطاعة غير منقادين للوط عليه السلام، علَّة لـ«تَعْمَلُ الْخَبَآئِثَ»، وقيل: لـ«نَجَّيْنَاهُ» أي لم نبقه معها لأنَّهم فسَّاق لا يناسبهم، ولئلَّا يصيبه ما يصيبهم لفسقهم، **والأوَّل أولى**.

﴿**وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَآ**﴾ في أهل رحمتنا، والظرفية مجازية وكذا إن فسِّرت الرحمة بالنبوءة بتقدير مضاف، أي في أهل نبوءتنا، أو بدون تقديره، أي في نبوءتنا، وإن فسَّرنا الرحمة بالجنَّة كما قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الله قال للجنَّة: أنتِ رحمتي أرحم بكِ من أشاء من عبادي**»[2] كانت الظرفية حقيقة والرحمة مجازا ﴿**إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ**﴾ الذين سبقت لهم منا الحسنى، تعليل لقوله: ﴿أَدْخَلْنَاهُ...﴾.

(1) أورده **السيوطي** في الدر: ج4، ص324. و**الهندي** في الكنز: ج5، ص317، رقم 13014، وقال: رواه ابن عساكر عن الحسن مرسلا.

(2) رواه **البخاري** في كتاب تفسير القرآن (01)باب قوله ﴿وتقول هل من مزيد﴾ رقم 4850. ورواه **مسلم** في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها (13) باب النار يدخلها الجبارون... رقم 2846 و2847. ورواه **الترمذي** في كتاب صفة الجنة (22) باب ما جاء في احتجاج الجنة النار رقم 2561. من حديث أبي هريرة. وأول الحديث عنده: «تحاجت الجنَّة والنار فقالت النار: أوثرت بالمتكبرين...».



﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿76﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿77﴾﴾

القصَّة الرابعة: قصَّة نوح عليه السلام

﴿وَنُوحًا﴾ اذكر نوحا، قيل: أو معطوف على «لُوطًا» أمَّا على تقدير: اذكر لوطا، فظاهر، وأمَّا على نصب «لُوطًا» على الاشتغال فضعيف، لأنَّ فيه ذكر اسمين بالعطف وتخصيص أحدهما بالاشتغال، والمعنى عليه: وآتينا نوحا، ولا ضعف في عطفه على هاء «ءَاتَيْنَاهُ».

[قصص] ونوح بن لمك بن متوشلخ بن أخنوخ وهو إدريس، وقيل: اسمه عبد الغفَّار ولقِّب نوحا لكثرة بكائه على نفسه أو على قومه، وقيل: معناه بالسريانية: ساكن.

لَمَّا ذكر الله عز وجل أبا العرب وهو إبراهيم ذكر أبا الناس كلِّهم ممن جاء بعد الطوفان وهو نوح، وهو الأب الثاني، والأوَّل آدم عليه السلام.

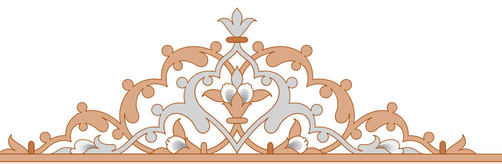
﴿إِذْ نَادَىٰ﴾ دعا ربَّه ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾ [سورة القمر: 10] ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ...﴾ [سورة نوح: 26]. بدل اشتمال من «نوح» والرابط ضمير «نَادَى»، قيل: أو يقدَّر مضاف لنوح يتعلَّق به «إذ»، أي واذكر نبأ نوح إذ نادى، وفيه أنَّه لا يصحُّ التعلُّق به لأنَّه ليس الإخبار وقت النداء، بل ليس النبأ بمعنى الإخبار بل القصَّة نفسها ﴿مِن قَبْلُ﴾ من قبل هؤلاء أو من قبل إبراهيم.

﴿**فَاسْــتَجَبْنَا لَهُ**﴾ دعاءه ﴿**فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ**﴾ الطوفان، أو إيذاء قومه.

[لغة] وأصل الكرب: قلب الأرض بالحفــر أو لنحو الحرث، والغمُّ يثير النفس كذلك، أو من كربت الشمس دنت للغروب، والغمُّ الشديد تكاد شمس الروح تغرب به، أو مــن الكرب الذي هو عقدة غليظة فــي حبل الدلو فالغمُّ على القلب مثلها.

﴿**وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الذِينَ كَذَّبُــواْ بِئَايَاتِنَآ**﴾ ضمّن «نَصَرْنَاهُ» معنى منعناه فعدّي بـ«مِن»، أو «مِن» بمعنى على، أو النصر بمعنى الإعانة على العدوِّ مع الانتقام منهم يتعدَّى بـ«من» كمــا هنا، وبمعنى مطلق الإعانــة يتعدِّى بعلى ﴿**إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَــوْءٍ**﴾ منهمكين في الشــرِّ فيما بينهم وبين الخلق، وفيما بينهم وبين الله ﷻ، تعليل لما قبل وتمهيد لقوله تعالى:

﴿**فَأَغْرَقْنَاهُمُۥ أَجْمَعِينَ**﴾ لانهماكهم المذكور، و«أَجْمَعِينَ» تأكيد بلا تقدُّم «كلّ»، ومن منــع التأكيد به دون تقــدُّم «كلّ» جعله حالا مــن الهاء، والكثير استعماله تأكيدا بعد «كلُّ»، والأولى جواز التأكيد به ولو لم يتقدَّم «كلٌّ».



﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ٧٨ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ٧٩ وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ لِتُحۡصِنَكُم مِّنۢ بَأۡسِكُمۡۖ فَهَلۡ أَنتُمۡ شَٰكِرُونَ ٨٠ وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةٗ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦٓ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيۡءٍ عَٰلِمِينَ ٨١ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ ٨٢﴾

القصَّة الخامسة: قصَّة داود وسليمان عليهما السلام

﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ﴾ عطف على «نُوحًا» بحسب ما تقدَّم فيه، أو على «لُوطًا» كذلك.

[قصص] وهو داود بن إيشا بن عوبر بن باعر بن سلمون بن بخيتون بن يارب بن حضرون بن فارض بن يهوذا بن يعقوب عليه السلام. وكان أحمر الوجه سبط الرأس أبيض الجسم، طويل اللحية فيها جعودة، حسن الصوت جمع له بين النبوءة والملك كابنه سليمان، عاش مائة سنة، وملكه أربعون عاما، وله اثنا عشر ابنا، أحدهم سليمان، وكان يشاوره مع صغر سنّه لوفور عقله وعلمه. وكان سليمان أبيض جسيما وسيما وضيئا خاشعا متواضعا، وملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة، ومات وهو ابن ثلاث وخمسين سنة.

والاسم ممنوع الصرف للعلميَّة وزيادة الألف والنون، إن كان قد سمَّاه الله بذلك للسلامة، أو سمَّاه والده مثلا لذلك، وإلَّا فالعلميَّة والعجمة

﴿إِذْ يَحْكُمَانِ﴾ ظرف لذلك المقدَّر، أو بدل، والمراد: حَكَمَا بصيغة الماضي وجيء بالمضارع استحضارا للحالة الماضية كأنَّها تشاهد بصورتها ﴿فِي الْحَرْثِ﴾ والمراد بالحرث هنا الزرع، وعن ابن مسعود: العنب، تشبيها له بما يحرث.

﴿إِذْ نَفَشَتْ﴾ رعت ليلا بلا راع، وأصل النفش التفرُّق، فالمراد: تفرَّقت فيه وانتشرت ﴿فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ حاضرين بعلمنا فلا يختلُّ، والهاء لسليمان وداود، والجمع للتعظيم كقوله تعالى: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ [سورة المؤمنون: 99]. أو اثنان جماعة حقيقة أو مجازا، ويدلُّ لذلك قراءة ابن عبَّاس: «لِحُكْمِهِمَا»، وقيل: الهاء لهما وللخصوم المدلول عليهم بالمقام، وللقوم، أي للحكم الواقع بينهم هكذا فلا يضرُّنا اختلافهم بالوقوع منها وعلى القوم ولخصومهم.

﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ عطف على «يَحْكُمَانِ» لأنَّه ماض بصورة المضارع كما مرَّ، و«هاء» للقضية أو الفتيا المعلومة من «يَحْكُمَانِ».

[قصص] روي أنَّ جاريتين جميلتين لعابدة إسرائيلية كبيرة السن قالتا: لو قتلناها لنصير إلى الرجال، فألقتا ماء البيض في فرجها وثوبها حين سجدت، وصاحتا بأنها زنت، فأراد داود رجمها فقال له سليمان: بل أوقد عليه النار فإن كان بيضا اجتمع، أو ماء الرجل افترق، فاجتمع ولم يرجمها.

[قصص] ودخل رجل يدَّعي على الآخر معه أنَّ غنمه أفسدت حرثه فقضى له بالغنم، وخرجا وسليمان على الباب كعادته فسألهما عمَّا حكم به، فقال: غير هذا أرفق بهما، فسأله داود بالنبوءة والأبوة: ما هو؟ فقال: أن يقوم صاحب الغنم بالحرث حتَّى يعود وينتفع صاحبه بلبن الغنم والصوف، ثمَّ يترادَّا فحكم داود بهذا، وكان سليمان ابن أحد عشر عاما وأحبَّه أبوه حبًّا شديدا لهذه الحكم.

[فقه] وكلا الحكمين عن اجتهاد لا عن وحي لأنَّ داود رجع عَمَّا حكم به، وسليمان قال: أرى، لو كان وحيا لبتَّه ولم ينتظر إلى أن يطلب إليه مع أنَّه ليس في سنِّ النبوءة، والوحي لا يبطل بالاجتهاد، ولا بأس برجوع المجتهد إلى غير ما ظهر له إذا رآه أفضل، كما ترجع الصحابة بعض إلى بعض، ألا ترى إلى قوله ﷻ: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا﴾ وتكلَّف خلافَ الظاهر من زعم أنَّهما وحيان الثاني ناسخ للأوَّل، أو أنَّه أوحي إلى داود أن يرجع إلى قول سليمان ولو كان ما قال سليمان اجتهادا.

[فقه] والمذهب أنَّه يضمن صاحب الغنم الحرث وعلى أصحاب المواشي حفظها ليلا ونهارا، إلَّا ما لا طاقة لهم، فقد جاء الحديث: «**جرح العجماء جبار**»[1] وإن اتبعها صاحبُها يصيح ضَمِنَ لأنَّها تزيد بصياحه، وفي رواية: على أصحاب الماشية حفظها ليلا وعلى أصحاب الأموال حفظها نهارا ورد هذا في شأن ناقة البراء[2] أفسدت في حائط رجل، وفي الرواية اضطراب وكلام في سنده، مع أنَّه يمكن أنَّ البراء أرسلها كما يجوز له.

[فقه] وزعم أبو حنيفة أنَّه لا ضمان على صاحب الدَّابَّة إذا لم يكن معها سائق أو قائد، وذكر لذلك حديث العجماء، وزعم الشافعي أنَّه يجب الضمان ليلا، وأنَّه من غصب عبدا فأبق منه أنَّه يضمن القيمة، وينتفع بها المغصوب منه بإزاء ما فوَّته الغاصب، فإذا ظهر الآبق ترادَّا.

[فقه] وعن أبي حنيفة في العبد القاتل أنَّه يعطى الوليَّ أو يفديه ويبيعه، وروي أنَّه لم يكن بين قيمة الحرث والغنم تفاوت.

---

(1) رواه **النسائي** في كتاب الزكاة (28) باب المعدن رقم 2496. ورواه **مالك** في كتاب العقول 604 (18) باب جامع العقل رقم 1670. من حديث أبي هريرة.

(2) راجع الرواية عند ابن قدامة في المغني الشرح الكبير، ج 5، ص 454. ونص الرواية: «روى مالك عن الزهري عن حزام بن سعيد عن محيصة: أنَّ ناقة البراء دخلت حائط قوم فأفسدت فقضى رسول الله ﷺ على أهل الأموال حفظها بالنهار وما أفسدت بالليل فهو مضمون عليهم».

[أصول الفقه] روي أنَّ رسول الله ﷺ قال لعمرو بن العاصي: اقض بين هذين، فقال: أقضي وأنت حاضر؟ فقال: نعم، قال: على ماذا أقضي؟ قال: «**على أنَّك إن أصبت فلك عشر حسنات وإن أخطأت فلك أجر واحد**»[1] فقد بَيَّنَ ﷺ أنَّ المجتهد يصيب ويخطئ، وفي الآية إلى قوله: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا ـ اتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ مدح لسليمان بأنَّه فهم ما لم يفهم أبوه، وأنَّ المجتهد معذور في خطئه وأنَّ حكمه علم ولو أخطأ.

﴿**وَكُلًّا**﴾ منهما ﴿**ـ اتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا**﴾ كثيرا في الجملة، وأمَّا في هذه المسألة فالعلم لسليمان، وقد يقال: حكم داود فيها حقٌّ أيضا، إذ كلُّ مجتهد في الفروع مصيب عند الله، بمعنى أنَّ الله ﷻ أباح حكمه، وعذره وأثابه ولو لم يوافق الحقَّ عنده، أو بمعنى أنَّ الحقَّ عند الله ما يحكم به الحكام، ولو تناقضت أحكامهم في مسألة واحدة.

ولا حكم لله غير أحكامهم، فضلا عن أن يقال: وافق الحكم ما عنده أو لم يوافق، وهو الذي خلقها منهم على كلِّ حال، وإذا عيَّن الوحي واحدا تعيَّن في العمل به وترك غيره كحكم داود.

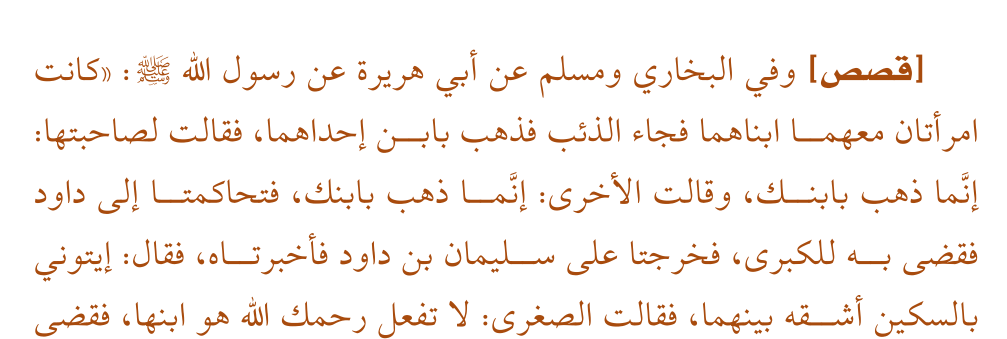
وعن مجاهد: ما لسليمان صلحٌ وما لداود حكمٌ والصلح خير، وذكر الجصَّاص أنَّهم ضمنوا لأنَّهم أرسلوا الغنم. وإنَّما أثيب المخطئ على اجتهاده لا على خطئه.

ولفظ البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاصي عن رسول الله ﷺ: «**إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر**»[2].

---

(1) رواه **أحمد** في مسند الشاميين، بقية حديث عمرو بن العاص، رقم: 17157.

(2) رواه **البخاري** في كتاب الاعتصام بالكتاب وَالسُّنَّة (21) باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ، رقم 7352. ورواه **مسلم** في كتاب الأقضية (06) باب بيان أجر الحاكم إذ اجتهد فأصاب أو أخطأ، رقم 1716. من حديث عمرو بن العاص.


[قصص] وفي البخاري ومسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: «كانت امرأتان معهما ابناهما فجاء الذئب فذهب بابن إحداهما، فقالت لصاحبتها: إنَّما ذهب بابنك، وقالت الأخرى: إنَّما ذهب بابنك، فتحاكمتا إلى داود فقضى به للكبرى، فخرجتا على سليمان بن داود فأخبرتاه، فقال: إيتوني بالسكين أشقه بينهما، فقالت الصغرى: لا تفعل رحمك الله هو ابنها، فقضى به للصغرى لشفقتها عليه».

﴿**وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ**﴾ إذا سبَّح يقلن: سبحان الله، ويسمعها داود، وقيل: وغيره أيضا، كما سبَّح الحصا في يد رسول الله ﷺ تسبيحا سمعه هو وغيره من الصحابة، وألقالهنَّ في يد صحابي فسبَّحن، وفي يد آخر كذلك، وهو أعظم لأنَّهنَّ سبَّحن بلا تسبيح منه، وسبَّحن ببركته في يد غيره.

وقيل: تسبيح الجبال صوت يسمع من جانبها وليس في ذلك من الكرامة ما في تسبيحها، مع أنَّه خلاف الظاهر، وقيل: ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ بلسان الحال ولا كرامة فيه، وقيل: ﴿يُسَبِّحْنَ﴾: يسرن فيحملن من رآها على التسبيح ولا دليل على هؤلاء الأقوال وهنَّ **خلاف المتبادر والتفسير الأوَّل هو الصحيح.**

وقوله ﷻ: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾ [سورة سبأ: 10] يخالف التفسير بلسان الحال، وتفسير بعض بالصدى والتفسير بالسير. والجملة حال من «الْجِبَالَ» أو مستأنفة، و«مَعَ» متعلِّق بـ«سَخَّر» أو بـ«يسبِّح» ﴿**وَالطَّيْرَ**﴾ عطف على الجبال، أو مفعول معه، تسبِّح كما تسبِّح الجبال ﴿**وَكُنَّا فَاعِلِينَ**﴾ من شأننا أن نفعل ما يستعظم ويستغرب لكمال قدرتنا.

﴿**وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ**﴾ عمل الدروع، ولم يعملها أحد قبله إلَّا صفائح كألواح، وألهمه الله جعلها نسجا وحلقا، فكانت أخفَّ.

مرَّ به ملكان فقال أحدهما للآخر: نعم العبد داود إلَّا أنَّه يأكل من بيت المال، فسأل الله مكسبا، فألان له الحديد يصنع منه الدروع ويبيعها يسيله الله

له من الجبل ويعمل منه. وقوله: ﴿لَكُمْ﴾ متعلِّق بـ«عَلَّمْنَاهُ» أو بـ«صَنْعَةَ»، أو نعت «لَبُوسٍ»، وأصله: كلّ ما يلبس كقوله على المجاز:

اِلبَسْ لكلِّ حالة لبوسها إمَّا نعيمها وإمَّا بؤسها[1]

﴿لِيُحْصِنَكُم﴾ متعلِّق بـ«عَلَّمْنَاهُ» ولو علَّقنا به أيضا «لَكُمْ» لاختلاف معنى اللَّامين، لأنَّ هذه للتعليل بخلاف الأولى، أو بدل اشتمال من «لَكُمْ» وضمير «يُحْصِن» للبوس أو لداود، أو للتعليم أو لله على طريق الالتفات من التكلُّم إلى الغيبة، ويدلُّ له قراءة «لِنُحْصِنَكُمْ» بالنون، أي لنحصنكم به.

﴿مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ أي من الضرِّ الواقع فيكم معشر الناس، وهو مضرَّة السيف مثلا، فلا يضرُّكم معه ما يضرُّكم دونه؛ أو يقدَّر مضاف أي من بأس عدوِّكم، أي ضرُّه أو حربه، وقدَّر بعض من آلة بأسكم كالسيف.

﴿فَهَلَ اَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾ توبيخ على التقصير في الشكر، وأمر به على وجه بليغ، كأنَّه قيل: هو مستحق الوقوع ولا بدَّ، فهل وقع؟.

﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ﴾ مطلقا، وقيل: الصبا، عطف الريح على «الْجِبَالَ»، و«لِسُلَيْمَانَ» على «مَعَ»، ولم يقل: ومع سليمان، لتفاوت التسخيرين، فإنَّ ما له بالانقياد لأمره ونهيه، وما لداود بطريق التبعيَّة له، وهو دون ما لسليمان ﴿عَاصِفَةً﴾ حال من «الرِّيح»، والعامل فيها حصَّتها في «سَخَّرنَا» المذكور، وكذا العامل في «وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ»؛ وبعض يقدِّر: وسخَّرنا لسليمان الريح عاصفة.

والعصوف: شدَّة الهبوب، ولا ينافي وصفها بالرخاء في الآية الأخرى لأنَّها في نفسها ليِّنة. والعصوف: شدَّتها لقطع المسافة البعيدة في زمان قريب؛

(1) أول من قاله هو بيهس الفزاري. ينظر: نهاية الأرب في فنون الأدب **للنويري**، ج3، ص12ـ13.

أو تلين إذا شاء وتعصف إذا شــاء، أو تعصف في الذهاب وتلين في الرجوع لحصول قضاء الوطر، أو بالعكــس للحنين إلى الوطن. ﴿**تَجْــرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الاَرْضِ التِي بَارَكْنَا فِيهَا**﴾ هي الشــام، والظاهر من الآيــة أنَّ البركة فيها قبله وهو كذلك.

وما قيل: من أنَّ الأرض أعمُّ من الشــام ـ وأنَّه وصفهــا بالبركة لأنَّه إذا حلَّ أرضا قتل كفَّارها وأثبت فيها الإسلام، ولا بركة أعظم من هذا ـ يُنافي ذلك، **فلا يصحُّ، إلَّا إن أراد زيــادة بركة**. ويقال: تجــري بأمره إلى الشــام رواحا بعد ما سارت منها بكرة، ولشيوع أنَّها مسكنه لم يذكر جريانها منها بل جريانها إليها.

[قصص] وقيل: مســكنه إصطخر، فتجري به إِلىَ الشام، منها يقعد عَلَى منبر من ذهب، وحوله الأنبياء عَلَى كراســي من ذهب، والعلماء عَلَى كراسي من فِضَّة، وحولهم ســائر الناس، وحــول الناس الجن في بســاط من ذهب وحرير، فرســخ في فرســخ من عمل الجنِّ، تحمله الصبا مســيرة شــهر من الصباح إِلىَ الرواح، ومنه إِلىَ الصباح؛ أو مركبا من خشب فيه ألف ركن، في كُلِّ ألف بيت، فيه الجِــنّ وَالإِنس، تحت كُلِّ ركن ألف شــيطان يرفعونه إِلىَ الجو فتســير به الريح، وَلَعَلَّ في هَذِهِ الخشب ذَلِكَ البســاط، والطير تظلهم إعظامًا لله ذَلِكَ عوضا عن عقره الخيل إذ فاتته بها صلاة العصر[1].

وقيل: تحمله العاصفة من الأرض إلى الجوِّ، وتسير به الرخاء، قال وهب: وجد في منزل بناحية دجلة مكتوب بيد بعض أصحاب سليمان من الإنس أو الجنِّ: «نحن نزلناه وما بنيناه، ومبنيًّا وجدناه، غدوُّنا من إصطخر فقلناه، فنحن رائحون منه إن شاء الله تعالى فنازلون بالشام».

---

(1) لا يخفى على القارئ ما في مثل هــذه الرواية من خيال القصَّــاص ومبالغتهم بما لم يثبت بطريق صحيح. وقد تناقلها المفســرون، منهم **الآلوسي** في روح المعاني، ج17، ص78. عَزَا الجزء الأول من القصة إلى مقاتل، والثاني إلى ابن أبي حاتم. (المراجع)

وعن الحسن: يغدو من إيليا فيقيل بإصطخر، ثمَّ يروح منها فيكون رواحه ببابل.

﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾ فما أعطيناه ذلك إلَّا لحكمة علمناها، ومنها تعويضنا عن الخيل.

﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ﴾ عطف على «مع» و﴿مَنْ﴾ عطف على الجبال بحدِّ ما مرَّ، أو ذلك مبتدأ وخبر، والأوَّل أولى لزيادة انسحاب التسخير فيه ﴿يَغُوصُونَ لَهُ﴾ يدخلون تحت ماء البحر لأجله، يستخرجون منه النفائس له، والواو لمعنى «مَن»، والجملة نعت لـ«مَن» لا صلة لها، إذ لا عهد للغوص لنا قبل نزول الآية، وإن كان فذهنيٌّ، وهو خلاف الأصل.

[قصص] ويروى أنَّه رأى بحرا عميقا جدًّا فأمر الشياطين بالغوص فيه فأخرجوا منه قبة بيضاء، فقال: يَا رَبِّ أريد أن أعلم ما فيها، ففتحها الله تعالى له فإذا فيها رجل بلباس جميل، فقال له: أبشر أنت أم جني؟ قال: بشر، قال: ما حالك؟ قال: كنت أطيع أُمِّي وأحملها على ظهري وبين يدي، ودعت لي أن يجعل الله تعالى لي موضعا أعبد فيه ليس سماء ولا أرضا، وماتت وأتيت ساحل البحر ورأيت هذه القبَّة، وأعجبتني فدخلتها، فانتقلت بي، ولا أدري أفي البحر أنا أم في البرِّ أَم في السماء؟ فقال: بم تعرف الليل والنهار؟ قال: تضاء عند الفجر ويزال الضوء عند الغروب، قال: ما تأكل وما تشرب؟ قال: طعام وشراب كلاهما أشدُّ بياضا من اللبن وأحلى من العسل، قال: اُدعُ الله أن يردَّني حيث كنت، فغلقت عليه فعاد.

﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً﴾ كثيرا ﴿دُونَ ذَالِكَ﴾ كبناء القصور والمدن، وابتداع الصنائع الغريبة كالحمام والنورة[1] والطاحون والقوارير، كما قال الله ﷻ:

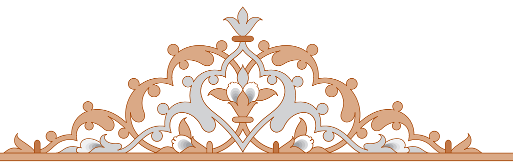
(1) كذا في النسخ ولعله النورج وهي آلة تداس به الأكداس من حديد أو خشب.

﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ...﴾الآية [سورة سبأ: 13]، وقيل: الصابون من ذلك واختير أنَّه من صناعة هرمس واندوخيا، وقيل: من بقراط وجالنوس، وقيل: أوَّل من صنعه الفارابي في دمشق.

والجنُّ: أجسام لطيفة عاقلة نارية، ومع لطفها تعمل الأعمال الشاقَّة كالريح تقلع وتهدم مع لطفها، والشياطين الذين يستخدمهم كفَّار، فحلَّ استخدامهم قهرا كالجزية، والمتبادر من لفظ الشيطان الكفر، ويناسب ذلك ما يأتي.

﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾ بتوكيل جماعات من الملائكة ومن مؤمني الجنِّ عليهم، عن أن يخبِّلوا الناس أو يقتلوهم، وعن أن يفسدوا ليلا ما عملوه بالنهار، وعن أن يزيغوا عن أمره.

استعمل الله له ما هو لطيف وهو الريح والشياطين، ولداود الأشياء الكثيفة الغليظة، وليس كما قال الجبَّائي: إنَّ الله عز وجل كثف أجسام الجنِّ لسليمان لتعمل الأمور الشاقَّة، ولَمَّا مات ردَّها إلى لطفها لِئَلَّا يلبس بهم على الناس من يتنبَّأ.



﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿83﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿84﴾﴾

القصة السادسة: قصَّة أيُّوب عليه السلام

﴿**وَأَيُّوبَ**﴾ عطف على «نوحا» أو اذكر أَيُّوب، أو لا تنس أَيُّوب إذا ذكرت لك شأنه. وهو ابن أموص بن رزاح بن عيص بن إسحاق، وقيل: أمُّه بنت لوط، ويقال: أَيُّوب بن أموص بن تارخ بن روم بن عيص بن إسحاق بن إبراهيم، ويقال: كان أبوه مؤمنا بإبراهيم.

وقال ابن جرير: كان بعد شعيب، وقال ابن خيثمة: بعد سليمان، وقال الكلبي: بعد يونس، وهو من بني إسرائيل في قول، وقيل: من الروم، وإنَّه لا نبيء منهم إلَّا هو، ويقال: امرأته ماضر بنت ميشا بن يوسف، ويقال: راحمة بنت زفرتيم بن يوسف.

﴿**إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي**﴾ بأنِّي ﴿**مَسَّنِيَ الضُّرُّ**﴾ هو ما في النفس [البدن] من مرض وهزال ونحوهما، وبالفتح يعمُّ ذلك وغيره، وقيل: عامَّان سواء، قيل: سلَّط الله عليه مرضا حتَّى كان كلحم في وضم، وحتَّى بولغ بأنَّه لم يبق إلَّا لسانه وقلبه وعيناه، وتأويله أنَّه لم يصبهنَّ مرض وأصاب باقي جسده وكان ملقى في كناسة بيت المقدس، لا يقربه أحد إلَّا زوجه رحمة بنت إفرائيم بن يوسف بن يعقوب، وتسلط الدود في جسده وتقع واحدة فيردها ويقول: كلي رزقك.



قلت: لا يصحُّ هذا بل لا يجوز، فكيف يفعله. ويخرج في بدنه مثل ثدي المرأة ثمَّ ينفتق.

[قصص] وقيل: سببه أنَّه استعان به مسكين على دفع ظلم فلم يعنه. وقيل: أجدب الشام فقال له فرعون: اِلحقْ بي فعندي سعة، فأقطع له أرضا، وَاتَّفَقَ أنَّه دخل شعيب على فرعون وهو عنده، وقال: أما تخاف أن يغضب الله فيغضب له السماوات والأرض والجبال والبحار؟، ولم يعنه أيُّوب، فقال الله ﷻ: أتسكت على إعانة شعيب على فرعون لأجل أن دعاك إلى أرضه، إنِّي أبتليك، قال: فديني؟ قال: أسلمه لك، فقال: لا أبالي. **والله أعلم بصحَّة ذلك.**

[قصص] وكان غليظ البدن والأعضاء طويلها جميلا وله سبعة بنين وسبع بنات وأصناف البهائم، وخمسمائة فدان في كلِّ واحد عبد له بزوج وولد، ويقال: ثلاثة آلاف بعير وسبعة آلاف شاة، وذهب ذلك كلُّه وصحَّة بدنه، وبقي كذلك ثماني عشرة سنة أو ثلاث عشرة أو سبعا أو ثلاثا أو سبعة أشهر، أو سبعة أيَّام وسبع ساعات، وعمره إذ ذاك سبعون أو ثمانون أو أكثر، وعمره كلُّه ثلاث وتسعون أو أكثر.

[قصص] وسبب دعائه قيل: إنَّ إبليس أتى زوجه في صورة عظيمة وقال: أنا إله الأرض غضبت على زوجك إذ عبد إله السماء دوني، فإن سجدت لي سجدة أردُّه إلى حاله، فأخبرت أيُّوب بذلك، فقال: لعلَّك افتتنت باللعين وطردها، وحلف لا يقبل طعامها وشرابها، ولئن عافاني الله لأضربنَّك مائة سوط، فبقي فريدا فحينئذ قال: ﴿رَبِّ إِنِّي...﴾. وعن الحسن: مرَّ به رجلان فقال أحدهما لآخر: لو أحبَّه الله لم يفعل به هذا، فقال: ﴿رَبِّ...﴾، ومثله ما قيل: أنَّه لو كان نبيئا لم يفعل الله تعالى به ذلك، وعن أنس عنه ﷺ: «**نهض ليصلِّي فلم يقدر فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾**»[1].

(1) لم نقف على تخريجه.

﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ أرحم من كلِّ راحم، وكلُّ رحمة من مخلوق رحمة من الله خلقها على يده، وذلك دعاء بألطف وجه وأبلغه، إذ لم يقل: اِشفني أو أزل عنِّي هذا الضرَّ. ومن هذا الباب أنَّ امرأة شكت إلى بعض ولد سعد بن عبادة قلَّة الفأر في بيتها، فقال: املئوا بيتها خبزا وسمنا ولحما، تريد ما في بيتي ما يأكل الفأر.

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ﴾ أوحى الله ﷻ إليه: ارفع رأسك من السجود، اركض برجلك، فركض فنبعت عين ماء فاغتسل منها، فبرئ ظاهره، وركض أخرى فنبعت أخرى شرب منها فبرئ باطنه كما كان، وكساه الله حلَّة فقعد في مكان مشرف. وقالت زوجه: لا أتركه ولو طردني لئلَّا يموت جوعا وعطشا، فطافت حول الكناسة وبكت، فقال: ما تريدين يا أمة الله؟ فقالت: هذا المبتلى، فقال: ما كان منك؟ فقالت: بعلي، فقال: أتعرفينه إن رأيته؟ فقالت: هل يخفى؟ وهو أشبه خلق الله بك، فتبسَّم فقال: أنا هو، فعرفته بضحكه فاعتنقته.

وروي أنَّها قالت له: ادع الله أن يشفيك فقال: كم مدَّة الرخاء؟ فذكرت مدَّة طويلة، وروي ذكرت ثمانين سنة، فقال: أستحيي من الله أن أدعوه وما بلغَتْ مدَّةُ بلائي مدَّةَ رخائي.

﴿وَءَاتَيْنَاهُ أَهْلَهُ﴾ زوجه وأولاده، ومعنى ردِّ امرأته ردُّ شبابها، لأنَّها حية قائمة به في مرضه، أو كان زوج أو أزواج أخر ميِّتات فأحياهنَّ الله تعالى له، وقيل: ماتت فردَّها الله وقيل: أولاده ﴿وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ عطف على «اسْتَجَبْنَا» ولا مانع من عطفه على «كَشَفْنَا» المنسحب عليه الدعاء لأنَّ الضرَّ في دعاء أَيُّوب شامل لذهاب المال والبنين.

فالضرُّ في كلام الله ضرُّ بدنه فقط، وذكر زوال ضرِّ الذهاب بقوله: ﴿وَءَاتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ أو أراد الضرَّ العامَّ الذي في دعاء أَيُّوب عليه السلام،

وخصَّ بعد تعميم إذ قال: ﴿وَءَاتَيْنَاهُ﴾ وإن أراد أَيُّوبُ ضرَّ بدنه فلا بأس بأن يذكره الله ويزيد عليه، كما تقول: سألت الله العلم فأعطانيه والمال.

[قصص] وإيتاء ذلك إحياء الله له أولاده الموتى وزوجه إن ماتت، وزاد له زوجا أخرى، وأولادا أخر، بأن يلدهم منها.

[قصص] ويروى أنَّ الله تعالى قال له: اذهب إلى أندارك، فذهب فأرسل الله تعالى عليه جرادا من ذهب فذهبت جرادة فردَّها، فسمع نداء: يا أَيُّوب ألم أغنك؟ فقال: بلى يَا رَبِّ، ولكن هذه بركة من بركاتك فلا أشبع من بركتك.

[قصص] وعن ابن عبَّاس أنَّه سأل النبيء ﷺ عن الآية فقال: «**ردَّ الله امرأته إليه وزاد في شبابها حتَّى ولدت ستًّا وعشرين ذكرا**» وعلى هذا ليس ذلك بإحياء الأولاد الموتى.

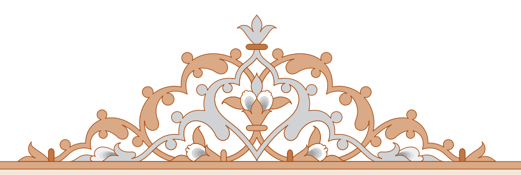
[قصص] وروي أنَّه جعل الله تعالى له مخزنا من جراد كلُّها من ذهب فطارت جرادة فأخذها، فقال له ملك: ألم يكفك ما بقي؟ وعنه ﷺ: «**أفرغ الله ﷻ سحابة ذهب في أندر قمحه، وسحابة فضَّة في أندر شعيره، حتَّى فاضا وكان يغتسل فخرَّ عليه جراد من ذهب فجعل يجمعه في ثوبه، فأوحى الله إليه: ألم أغنك عَمَّا ترى؟ فقال: بلى وعزَّتك، لكن لا غنى لي عن بركتك**»(1) رواه البخاري عن أبي هريرة مرفوعا.

قال عكرمة: قيل لأيُّوب: أهلك في الآخرة فإن شئت عجَّلناهم لك في الدنيا، وإن شئت كانوا لك في الآخرة وآتيناك مثلهم في الدنيا، فقال: بل يكونون لي في الآخرة، وأوتى مثلهم في الدنيا، فمعنى الآية: ﴿وَءَاتَيْنَاهُ أَهْلَهُ﴾ في الآخرة و﴿مِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ في الدنيا، وأراد بالأهل الأولاد. وعاش بعد زوال الضرِّ سبعين سنة فيما قيل عن ابن عبَّاس، ففي قول: يكون عمره ثمانين أو سبعين ونحو ذلك بحسب الأقوال السابقة.

(1) أورد الحديث ابن كثير في قصص الأنبياء، ص 273، عن أبي هريرة بعدَّة أسانيد.

﴿**رَحْمَــةً**﴾ مفعول من أجلــه، أي لأجــل رحمتنا لــه، أو مفعول مطلق لـ«آتَيْنَا» لأنَّ الإيتاء رحمة، أو لمحــذوف أي رحمناه رحمة، ولا ضعف فيه، بل هو أقوى من التعليل ﴿**مِّنْ عِندِنَا**﴾ نعت لـ«رَحْمَةً»، أو متعلِّق بـ«آتَيْنَاهُ».

﴿**وَذِكْرَى**﴾ اسم مصدر بمعنى التذكير ﴿**لِلْعَابِدِينَ**﴾ ليصبروا فيثابوا، كما أثيب أَيُّوب، وكلٌّ على قــدره، ولا يجزعوا فيحبطوا ثــواب عبادتهم، متعلِّق بـ«ذِكْرَى» شِــبه لام التقوية، وإن أريد بالذكرى المعنى الحاصل من المصدر كان نعتــا لـ«ذِكْرَى» ولا يحســن أن يجعل «رَحْمَةً» متنازعا مــع «ذِكْرَى» في «لِلْعَابِدِينَ»، لأنَّ «رَحْمَةً» ذكر في شأن أَيُّوب.



﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿85﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِي رَحْمَتِنَآ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿86﴾﴾

القصَّة السابعة:

قصَّة إسماعيل وإدريس وذي الكفل عليهم السلام

﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ﴾ واذكر إسماعيل... إلخ على حدِّ ما مرَّ، وظاهر الآية أنَّ ذا الكفل نبـيء، وهو كذلك عليه السلام، وعليه الجمهور واسـمه: بشير بن أَيُّوب، وقيل: ذو الكفل اسـمه، بعث نبيئا بعد أبيه، وأمَّا وصيه فهو ابنه حرمل، كما روي عن وهب.

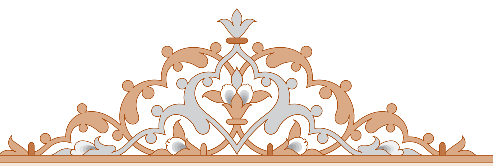
[قصص] وكان ذو الكفـل مقيما بالشـام، ومات ابن خمس وسـبعين [قضاها] كلَّها في الشـام، وأوصى إلى ابنه عبدان، ثمَّ بعث الله شعيبا، أو هو إلياس بن ياسين بن فنحاص بن العيزار بن هارون أخي موسى، أو يوشع بن نون أو زكرياء، أو اليسع بن أخطوب بن العجوز، أقوال.

وزعم اليهود أنَّه حزقيال وجاءته النبوءة وهو في وسـط سبي بخت نصر على نهر جوبار، وقيل: ليس نبيئا لكنَّه عبد صالح اسـتخلفه اليسع بشرط أن يقوم الليل ويصوم النهار ولا يغضب.

[قصص] وعن ابـن عبَّاس: احتضر قـاض من بني إسـرائيل فقال: من أستخلف على أن لا يغضب؟ فقال رجل: أنا، وقيل: احتضر ملك منهم، فقال له الرؤسـاء: اسـتخلف، وفزع إليه الناس، فقال: أسـتخلف مـن يتكفَّل لي

بثلاث، فقال فتى: أنا، فقال: اجلس فأعاد، فقال: أنا، فأعاد فقال: أنا، فقال: أن تقوم الليل ولا ترقد، وتصوم النهار ولا تفطر، وتحكم ولا تغضب، فقال: نعم، وفي هذه الأقوال لقِّب لأنَّه تكفَّل بما وجب، أو بما شرط عليه. ومن قال: هو زكرياء، فلأنَّه كفل مريم، وقيل له: ذو الكفل بهذا لأنَّ له حظًّا عظيما، والكفل: الحظُّ، وقيل: لأنَّ له ضعف ثواب أعمال أنبياء زمانه.

﴿**كُلٌّ**﴾ ممن ذكر ﴿**مِنَ الصَّابِرِينَ**﴾ على العبادة والمصائب وعن الشهوات، وهذا حضٌّ على الصبر بإشارة أنَّ من لم يصبر فهو خارج عن طريق الأنبياء ﴿**وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَآ**﴾ وعلَّل هذا تعليلا جمليًّا بقوله: ﴿**إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ**﴾ الكاملين في الصلاح لعصمتهم من الذنوب.



﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨﴾

القصَّة الثامنة: قصة يونس عليه السلام

﴿وَذَا النُّونِ﴾ صاحب الحوت يونس بن متَّى، ومتَّى أبوه كما قال البخاري وغيره، وصحَّحه ابن حجر، وكذا قالت اليهود، إلَّا أنهم يسمُّونه يونه ابن اميتاي، وبعض: يونان بن اماتي. وكان في زمان ملوك الطوائف من الفرس، ومعنى ملوك الطوائف تعدُّد الملوك، كلٌّ على طائفة ولم يجمعهم ملك واحد.

[قصص] وقيل: متَّى اسم أمِّه، فلم ينسب نبيء إلى أمِّه إلَّا يونس وعيسى عليهما السلام. ويروى أنَّ جبريل قال ليونس: أنذر أهل نينوى، فقال: ألتمس دَابَّة، فقال: الأمر أعجل من ذلك، فغضب، وانطلق إلى السفينة. ولعلَّ هذا قبل النبوءة ولم يعلم أنَّه جبريل. وعن وهب: أنَّه كان يونس عبدا صالحا في خلق ضيِّق فَلَمَّا تحمَّل أثقال النبوءة تفسَّخ تحتها تفسُّخ الربع تحت الحمل الثقيل، فقذفها من يده وهرب منها، فأخرجه الله من أولي العزم من الرسل، وقال: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُواْ الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [سورة الأحقاف: 35] وقال: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ [سورة القلم: 48].

وعن ابن عبَّاس: كانت رسالته بعد الخروج من بطن الحوت لقوله تعالى عقب ذكر خروجه من بطن الحوت: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مَائَةِ أَلْفٍ اَوْ يَزِيدُونَ﴾

[سورة الصافات: 147]. وأجاز بعضهم الصغيرة قبل النبوءة، وقد قال الله ﷻ: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ اَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ﴾ [سورة الصافات: 139ـ140] فهو من المرسلين قبل الإباقة لا بعدها.

﴿إِذ ذَّهَبَ﴾ عن قومه ﴿مُغَاضِبًا﴾ غضب عليهم غضبا شديدا لطول مكثه فيهم بالأمر والنهي.

[بلاغة] فالمفاعلة هنا للمبالغة شبَّه غضبه وحده بالغضب الذي هو مقابل لغضبهم عليه لجامع الشدَّة، ولا يقال هو على بابه من المفاعلة بين متعدِّد، لأنَّهم أيضا غضبوا عليه، إذ خافوا العذاب لذهابه بلا إيمان منهم، لأنَّا نقول ليس الخوف غضبا، اللهمَّ إلَّا على طريق الشبه، ولا يقال: هذا مفاعلة بلا مقابل ولا مبالغة، مثل: سافرت، لأنَّا نقول تحقَّق وجود «سافرت» في ذلك ولم يتحقَّق وجود المغاضبة كذلك في كلام آخر.

[قصص] ويقال: سبى ملك من فلسطين تسعة أسباط، ونصفًا من قوم يونس، وهو ساكن فيها، فأوحى الله إلى شعياء أن يأمر حزقيل الملك أن يوجِّه خمسة من الأنبياء لقتاله، فأمر يونس فقال: هل أمرك الله بإخراجي أو سمَّاني؟ قال: لا، قال: هنا أنبياء غيري، فألحُّوا عليه فخرج بلا إذن من الله ﷻ مغاضبا له، وركب سفينة في بحر الروم وأشرفت على الغرق في اللجَّة، فقال الملاحون: هنا عاص أو آبق، ومن العادة أن نقترع فنلقي من وقعت عليه، فغرق واحد أهون من غرق السفينة ومن فيها، وخرجت على يونس ثلاثا، فقال: أنا العاصي الآبق.

فكلَّما أتى جانبا من السفينة، وجد حوتا فاغرا فاه فألقى نفسه، فأوحى الله إليه[1] أن لا تخدشيه فإنَّك سجنه، وهذا على ظاهره، أو بمعنى قضى الله ﷻ

---

(1) أي من الوحي بمعنى الإلهام على حدِّ قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾.
وقد أرجع الشيخ الضمير إلى الحوت بصيغة التذكير هنا، ثم أنَّثه فيما يأتي، هكذا في النّسخ.

أن لا تخدشه، وَلَمَّا نبذته بالعراء ضعيفا كالفرخ أنبت الله ﷻ عليه شجرة من يقطين، قيل: يأكل من ثمارهـا أو تظله، وترضعه أروى، وَلَمَّا يبست حزن، فأوحى الله إليه: «أتحزن على شجرة ولم تحزن على مائة ألف أو أكثر؟».

[قصص] وأوحى الله إليه أن اذهب إليهم، فقل لملكهم: «إنَّ الله أمرك أن ترسل بني إسرائيل معي» فقال: لو علمنا أنَّك نبيء لفعلنا، ولو كان الأمر كذلك لمنعنا الله من سبيهم، ودعاهم ثلاثة أَيَّام، فأوحى الله ﷻ: أبلغهم إن لم يؤمنوا عذِّبوا، فأبلغهم ولم يؤمنوا وندموا، فسألوا العلماء من بني إسرائيل، فقالوا: إن خرج فقد صدق فلم يجدوه، وقيل لهم: خرج العشيَّة وأغلقوا الأبواب على المواشي فلم تدخل، وفرَّقوا بين الأولاد والأمهات من كلِّ حيوان، فلما انشقَّ الصبح جاء العذاب وألقت الحوامل ما في بطونها، وصاحت الصبيان والدواب، فرفع العذاب فبعثوا إلى يونس فآمنوا وأرسلوا بني إسرائيل معه.

﴿**فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ**﴾ نضيِّق عليه بالسجن في بطن الحوت أو غيره، ولا علم له بالحوت حتَّى وقع في فمه.

دخل ابن عبَّاس على معاوية، فقال معاوية: ضربتني أمواج القرآن الليلة فغرقت، كيف ينفي نبيء الله القدرة عن الله؟ فقال ابن عبَّاس: ذلك من القدْر لا من القدرة، أي من التضييق لا من معنى القدرة ضدّ العجز تعالى الله.

أو: لن نقضي عليه بعقوبة، ويدلُّ له قراءة عمر بن عبد العزيز بضمِّ النون وشدِّ الدَّال، وقراءة عليٍّ بياء مضمومة وشدِّ الدال من التقدير بمعنى القضاء، ولكن يجوز أن تكون القراءتان من معنى التضييق.

ويجوز أن يكون المعنى: **عَمِل عَمَلَ من ظنَّ أن لا تعمل فيه قدرتنا أو لا نستعمل فيه قدرتنا بتنجيته بل نتركه**، وأمَّا أن يسمَّى وسوسة الشيطان له

ـ بأن لا قدرة لله تعالى على تنجيتــك ظنًّا مع أنَّه ينفيها جزما، كما زعم بعض أنَّه أزلَّه الشــيطان حتَّى ظنَّ أنَّ الله ﷻ لا يقدر عليه وتاب، وقبلت توبته ـ فلا يتم، لأنَّ ذلك غير ظنٍّ إلَّا مجازا.

[قلت:] حتَّى إنِّي أقول لا وجه لتوقُّف المصلِّي وسكوته والاشتغال بنفي ما وســوس به الشــيطان مع مقارنة إنكاره لوسوســته، وإنَّما يقف وينفي لو ترجَّح عنده ما يوسوسه به، أو ارتاب به.

﴿**فَنَــادَىٰ**﴾ كان ما كان من ركوب الســفينة والمقارعــة والتقام الحوت، فنادى ﴿**فِي الظُّلُمَاتِ**﴾ ظلمة واحدة شــديدة، كأنَّها ظلمــات، أو تركَّبت من أجزاء كلٌّ جزء ظلمة وأمَّا قوله:

وليل تقول الناس في ظلماته سواء صحيحات العيــون وعورها[(1)]

فيحتمل أنَّ الجمع لتعــدُّد الناس، ومع ذلك لا بدُّ من اتِّفَاقهم في شــدَّة الظلمات، وكذلك الظلمة في الحوت، كظلمة العين العوراء التي لم يبق فيها إبصار مَّا، أو ظلمة الحوت وظلمة البحر وظلمة الليل، إذا جاء عليه الليل، أو هؤلاء الثلاث مع ظلمة حوت أخرى بلع هذه.

﴿**أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ**﴾ أن مخفَّفة من الثقيلة، أي إنَّه أي الشأن، أو تفسيريَّة لتقدُّم ما فيه معنى القول لا حروفه، وهو النداء، ومن الجائز أن يقدَّر: إنَّك لا إله إلَّا أنت.

﴿**سُبْحَانَكَ**﴾ أسبِّحك تسبيحك أي اللائق بك، أو حكاية لقول الله سبَّحت نفسي، كما قال بعض إنَّ «سبحان الله» عَلَم على تســبيح الله نفسه، لا تسبيح فيه لأحد إلَّا حكايته.

(1) البيت للأعشى، ونســب لمضرس بن ربعي. المعجم المفصَّل في شــواهد اللغة العَرَبيَّة، ج 3، ص 335.

﴿إِنِّي كُنتُ﴾ بهجرتي بلا إذن منك ﴿مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ لأنفسهم أو لها ولغيرها بذنوبهم، قال ﷺ: «**دعوة ذي النون إذ هو في بطن الحوت لا إله إلَّا أنت سبحانك إنِّي كنت من الظالمين، لا يدعو بها مسلم ربَّه إلَّا استجاب له**»[1]. وعن الحسن: إنَّها اسم الله الأعظم، ولذلك قال الله ﷻ:

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ دعاءه ﴿وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ﴾ وليست الإجابة مختصَّة باسمه الأعظم. عن أبي هريرة عنه ﷺ: «**لَمَّا انتهى به الحوت إلى أسفل البحر سمع حسًّا فقال في نفسه: ما هذا؟ قيل: هذا تسبيح دوابِّ البحر، فسبَّح هو، فسمعت الملائكة تسبيحه فشفعت له**».

وقال رسول الله ﷺ: «**لَمَّا دعا بها حفَّت بالعرش، فقالت الملائكة صوت ضعيف من موضع غريب**»، وروي: «**صوت معروف من موضع مجهول**» **فقال الله** ﷻ: **أما تعرفونه؟ قالوا: لا، قال**: **صوت عبدي يونس، قالوا: يا ربَّنا فرِّج عنه إذ لم يزل يرفع منه عمل مقبول في الرخاء، فأمر الحوت بإلقائه**[2]، بأن جذبها الماء إلى البرِّ، أو أقدرها الله على الحياة والمشي في البرِّ والرجوع إلى الماء.

والغمُّ: غم المكث في بطن الحوت من الضحى للعشية، أو ثلاثة أيَّام، أو سبعة أو أربعين يوما أقوال، ويضعف تفسير الغمِّ بالخطيئة.

وقال هنا: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ﴾ بالواو وفي قصَّة أيُّوب ﴿فَكَشَفْنَا﴾ بالفاء لأنَّ ما هنا زيادة إحسان على مطلوبه، فلم يترتَّب بالفاء كترتُّب الاستجابة والكشف، ولا مانع من كون التنجية من الغمِّ بعض تفصيل للاستجابة قبله، والتفصيل يكون بالواو كالفاء، إلَّا أنَّ الفاء فيها أكثر.

---

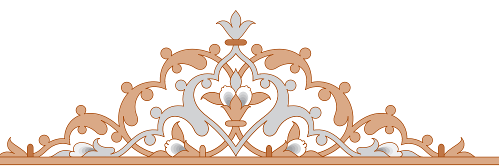
(1) رواه **الترمذي** في كتاب الدعوات (82) باب ما جاء في عقد التسبيح باليد، رقم 3505. ورواه **أحمد** في مسند العشرة المبشَّرين بالجنَّة، رقم 146. من حديث أبي هريرة.

(2) رواه **البزار** في مسنده، ج15، ص34، رقم: 8227. من حديث أبي هريرة.

والفاء في أَيُّوب ونوح لاعتبار شأن التفصيل لكثرة ما يفصل فيهما، والواو في ذي النون وزكرياء لقلَّته بالنسبة.

ورد في القرآن أذكار ذكر جزاءها بعدها [منها] قوله تعالى: ﴿لَآ إِلَهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ...﴾، ﴿حَسْبُنَا اللهُ ونِعْمَ الْوَكِيلُ...﴾ [سورة آل عمران: 173] ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيَ إِلَى اللهِ إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ فَوَقَاهُ اللهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُواْ﴾ [سورة غافر: 44 ـ 45] ﴿مَا شَآءَ اللهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ...﴾ [سورة الكهف: 39] ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا...﴾ [سورة الأنبياء: 89] وغير ذلك.

﴿وَكَذَالِكَ نُنجِي الْمُومِنِينَ﴾ ننجي سائر المؤمنين مثل ذلك الإنجاء، إذا دعونا في غمٍّ مخلصين، وهو مضارع أنجى حذفت النون الثانية الأصلية في الخطِّ لا الأولى الزائدة، لحصول التكرير بالثاني دون الأوَّل، لكن تخفى في الجيم لأنَّها ساكنة تخرج من الخيشوم، وكذلك تخفى في الشين والضاد.



﴿وَزَكَرِيَّآءَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٨٩ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ٩٠ وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ٩١﴾

القصَّة التاسعة:

قصَّة زكرياء ويحيى عليهما السلام مع قصَّة مريم

﴿وَزَكَرِيَّآءَ اِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ بلا ولد يرثني، كما في آية أخرى، وكما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ أي الباقين بعد الموت، ولو أراد فردا بلا ولد يعينني لقال: وأنت خير المعينين.

وفي ذلك مدح لله سبحانه بالبقاء، وتلويح بفناء ما سواه، لا تلويحا بأنَّه إن لم ترزقني ولدا فحسبي أنت وارثا، لأنَّه لا يناسب مقام الدعاء، لأنَّ مقام الدعاء كما قال ﷺ: «**إذا دعا أحدكم فلا يقل: اللَّهُمَّ اغفر لي إن شئت، اللَّهُمَّ ارحمني إن شئت، اللَّهُمَّ ارزقني إن شئت، ليعزم مسألته فإنَّ الله لا مكره له**». ويروى: «**فإنَّ الله يفعل ما يشاء ولا مكره له**». وروي: «**ولكن ليعزم المسألة وليعزم الرغبة، فإنَّ الله تعالى لا يتعاظمه شيء أعطاه**»[1].

(1) رواه **مسلم** في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار (03) باب العزم بالدعاء ولا يقل إن شئت، رقم 2679. ورواه **الربيع** في كتاب الأذكار (22) باب أدب الدعاء وفضيلته، رقم 503. من حديث أبي هريرة.

[قلت:] لكن يحتمل أنَّ النهي في الحديث لمن يقول ذلك مهملا على ظاهره لا لمن يقوله إظهارا للرضا بكلِّ ما قضى الله ولو خلاف مطلوبه.

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ دعاءه **﴿وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾** للمعاشرة بتحسين خلقها، وكانت سيِّئة الخلق طويلة اللسان رضي الله عنها، أو بردِّ شبابها بعد أن كبرت، أو بالولادة وكانت عاقرا.

[بلاغة] وعلى الأوَّل العطف على «اسْتَجَبْنَا» لأنَّه لم يدع بتحسين خلقها، أو على «وَهَبْنَا» فلزيادة إصلاحها على مطلوبه، كان بالواو لا بالفاء التفصيلية، وقدَّم هبة الولد لأنَّه مطلوبه الأعظم، وهو لا يتوقَّف على إصلاح خلقها، وإن أريد بالإصلاح إزالة العقم فالمراد: أردنا هبة يحيى له وأصلحنا له زوجه للولادة.

ويضعف ما قيل من أنَّ المراد: وهبنا لمجرَّد امتناننا لأنَّ المتبادر أنَّه إجابة لدعائه، والعطاء بعيد الإجابة أشدُّ امتنانا، والداعي إلى هذا الضعف أنَّه قال: ﴿وَوَهَبْنَا﴾ ولم يقل: فوهبنا، قلت: لا تنس أنَّ المعطوف بغير الفاء على مدخول الفاء ينسحب عليه حكم الفاء.

﴿إِنَّهُمْ﴾ أي الأنبياء المذكورين، لأنَّ العموم زيادة فائدة ولأنَّ فيه السلامة من إتمام الثلاثة بمؤنَّث جيء به من عرض لا لذاته اللازم في تفسير الضمير بزكرياء وزوجه ويحيى، وهذا تعليل جملي لمحذوف أي فعلنا بهم ذلك لأنَّهم... إلخ، أو استئناف لتعظيمهم.

﴿كَانُواْ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ إلى الخيرات كقوله سبحانه: ﴿سَارِعُواْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [سورة آل عمران: 133] وتفسير القرآن بعضه ببعض أولى من تجديد معنى آخر، كتضمين «يسارع» معنى يرغب فيتعدَّى بفي، ما لم يترجَّح المعنى الآخر لدليل أو يتعيَّن، [قلت:] ولا داعي إلى كونها للتعليل لضعف

معناه هنا، سواء قلنا الخيرات العبادات أو ثوابها أو المراتب، إذ يقدَّر ما يسارع به والأصل عدم الحذف إذا أغنى عنه المذكور.

﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا﴾ في نعمنا وقبول الأعمال ﴿وَرَهَبًا﴾ من نقمنا وردِّ الأعمال، ويروى أنَّ الدعاء رغبة ببطون الأكفِّ ورهبة بظهورها.

[نحو] [قلت:] والنصب على التعليل، وأيُّ داع إلى جعلهما حاليين بتقدير مضاف، أي ذوي رغب، أو للمبالغة، أو بتأويلهما بالوصف، أو إلى جعلهما مفعولين مطلقين، كقولك: قمت وقوفا؟ وعطف الجملة على «يُسَارِعُونَ» فيتسلَّط ـ قيل ـ عليها الكون، فهذا دعاء من توابع تلك المسارعة، ولو عطفت على «كَانُواْ...» لم يفد ذلك، وفيه أنَّه لا يلزم من قولك: «كان زيد يطعم الفقراء ويقرأ» أنَّ إطعامهم يستلحق القراءة. بل العطف على «يُسَارِعُونَ» للموافقة في المضارعة والتجدُّد.

﴿وَكَانُواْ لَنَا خَاشِعِينَ﴾ منقادين لنا خائفين. ﴿وَالتِي﴾ واذكر مريم التي، أو مِمَّا يتلى عليكم مريم التي، أي شأنها، لا مبتدأ خبرها «نَفَخْنَا» لأنَّ فيه زيادة الفاء من غير أن يتضمَّن المبتدأ معنى الشرط وجواز ذلك ضعيف، ﴿أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ عن الزنى وعن التزوُّج.

[فقه] وفي شرع قومها جواز التبتُّل للرجال والنساء، وحرِّم في شرعنا، إلَّا من لم يجد أو لم يحتج، وادَّعى بعض أنَّ الفرج جيب قميصها إذ جاء جبريل للنفخ فيه ولم تعرفه فمنعته، وفي هذا مزيد مدح لها.

﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا﴾ أمرنا جبريل بالنفخ فيها نفسها في بطنها كريح الفم لكن من جيب القميص فوصل النفخ منه الفرج وذلك نفخ في الفرج تحقيقا.

﴿مِن رُّوحِنَا﴾ هو الروح المعروف في الكلام، والإضافة إضافة ملك للمالك، و«مِن» للتبعيض أي بعض روحنا أرواحا من جملة روحنا على تعدِّي النفخ لتضمُّن معنى الإلقاء، كما تقول: لفظت النواة، أو للابتداء.

وقيل: **لا نفخ حقيقا هناك بل المراد الإحياء**، فيحتاج إلى أنَّ عيســى في بطنها كلحمة وضعها الله فيــه، أو نطفة منها فأحيــاه الله، وقيل: الروح جبريل فـ«مِن» للابتداء.

﴿**وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾ دليلا علــى كمال قدرتنا إذ تولَّد منها بلا أب، أو جنس آيات كلٍّ منهما، أو يقدَّر: وجعلناها آية وابنها آية.

[قلت:] ولا دليل في ذكرها مع الأنبياء على أنَّها نبيئة، وإنَّما ذكرت لأجل ابنها، وذُكرَا عند ذكر زكرياء وزوجه وابنهما يحيى للقرابة بينهم عليهم السلام .

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ۝٩٢ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ۝٩٣ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ۝٩٤ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝٩٥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ۝٩٦ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٩٧﴾

وحدة الرسالات السماوية، ووعد الله لا يتخلف

﴿إِنَّ هَـٰذِهِ أُمَّتُكُم﴾ هذه الطريقة أو الملَّة المذكورة عن الأنبياء ـ وهي التوحيد والعمل بما أوحي إليهم ـ أمَّتكم، أي طريقتكم أَيُّهَا الناس أو أَيُّهَا المؤمنون أو أَيُّهَا المعاندون من أمَّة محَمَّد ﷺ، بدأ السورة بهم ووعظهم وذكر لهم الأنبياء وأممهم وختم بهم.

ومن معاني الأمَّة في اللغة: الطريقة، أو هؤلاء الأنبياء أمَّتكم جماعتكم التي تتبعونها، ولا تميلون عنها، وذلك في التوحيد وصفات الله وأفعاله، وتختلف الأنبياء وأممهم في الفروع وقيل: الأمَّة الدين مجازا، وقيل: حقيقة ﴿أُمَّةً﴾ حال من «أُمَّتُكُم» فلا يختلف عامل الحال وعامل صاحبها، فإنَّ عامل الخبر المبتدأ، وهذا المبتدأ رافع للخبر ناصب للحال، وقيل: بدل من «هَذِهِ»، ﴿وَاحِدَةً﴾ متَّحدة فيما بين الأمم والأنبياء كلِّهم، أو في أنَّها لا يخالطها الشرك في القبول وصحَّة الِاتِّبَاع.

﴿**وَأَنَاْ رَبُّكُم**﴾ وأنا إلهكم واحد، الملَّة واحدة، والربُّ واحد، وأمر الأنبياء واحد، ويناسب أنَّ الربَّ بمعنى الإله قوله تعالى: ﴿**فَاعْبُدُونِ**﴾ خاصَّة، والإله المعبود، والإلاهة: العبادة. وفي لفظ الـربِّ ترجيح جانب الرحمة ودعاء إلى العبادة بالترغيب.

﴿**وَتَقَطَّعُواْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ**﴾ عطف على محذوف بطريق الالتفات من الخطاب إلى الغيبة، قطعا عنهم ونعيا لهم على كفرهم، أي أمروا بالاتفاق على التوحيد وتقطَّعوا أمرهم، أو عطف على قوله: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُم﴾ عطف فِعليَّة على اسمِيَّة.

[نحو] أو عطف على المعنى كما يقال في غير القرآن: عطف توهُّم، كأنَّه قيل: أمرتم بالاتِّفاق وتقطَّعتم. و«أَمْرَهُمْ» منصوب على تقدير في، أي تفرَّقوا فيه، أو مفعول به على أنَّ «تَقَطَّع» بمعنى قطَّع بالشدِّ من «تفعَّل» بمعنى «فعَّل» بالشدِّ، وإن ضمِّن معنى جعلوا فأين المفعول الثاني؟ وإن جعل تمييزا فالتمييز لا يكون معرفة.

ومعنى تفرُّقهم: اختلافهم في أنواع الشرك والمعاصي، أو «تَقَطَّعُوا» المسلمون والمشركون باختلافهم بالإسلام والشرك.

﴿**كُلٌّ اِلَيْنَا رَاجِعُونَ**﴾ للجزاء، كما قال تفصيلا للجزاء: ﴿**فَمَنْ يَّعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ**﴾ قدرا واجبا من الصالحات، أو زاد، أو بعض الصالحات وهو الواجب، أو مع زيادة ﴿**وَهُوَ مُومِنٌ**﴾ بما يجب الإيمان به ﴿**فَلَا كُفْرَانَ**﴾ لا حرمان ولا جحود، كما أنِّي حرَّمت على عبادي الكفر بي وجحود نعمتي، وهذا تأكيد عظيم في الثواب ﴿**لِسَعْيِهِ**﴾ لثواب سعيه أي عمله.

﴿**وَإِنَّا لَهُ**﴾ أي لسعيه، وهذا أولى من أن يقال: الهاء عائد إلى «مَن» على معنى أنَّه لا ننساه ولا يلتبس علينا، كما تكتب أسماء الجند في بعض الأحيان ﴿**كَاتِبُونَ**﴾ في اللوح المحفوظ بقدرتنا، أو بالملائكة في الصحف.

﴿وَحَرَامٌ﴾ ممتنع كما يمتنع الحرام ولا يرجى حصوله، أو واجب كقوله:

وإنَّ حراما ما لا أرى الدهر باكيا على شجوة إلَّا بكيت على صخر[1]

وهو وجه في قولـه تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ اَتْـلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ﴾ الآية [سورة الأنعام: 161] وهذا الوجه على أنَّ «لا» زائـدة. أو الرجوع للدنيا أو بمعنى التوبة من الشـرك ﴿عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾ أهل قرية ﴿اَهْلَكْنَاهَآ﴾ أردنا إهلاكها أو قدَّرناه في الأزل، أو الإهلاك الخذلان بالكفـر، والرجوع: التوبة ﴿أَنَّهُـمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ بالبعث أو إلى الدنيا أو عن الشرك.

[نحو] وانتفـاء الرجوع مبتـدأ، أو نفس الرجـوع إذا جعلنـا «لا» زائدة و«حَرَامٌ» خبر، أو «حَرَامٌ» مبتدأ رافع لمكتفى به ولو لم يتقدَّم نفي أو استفهام، وهو قول، وقال ابن مالك: يجوز بلا خلاف، وإنَّما الخلف في حسنه.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَاجُـوجُ وَمَاجُوجُ﴾ «حَتَّى» حرف ابتداء، ولا تخلو عن غاية، وقيل: جارَّة لـ«إِذَا»، وهي عائدة إلى محذوف، أي يستمرُّون على الكفر كافر بعد كافر إلى قرب السـاعة، وتقوم عليهم مصرِّين، وإذا قامت آمنوا ولا ينفعهم، أو عائدة إلـى «أَهْلَكْنَا» أو إلى «حَرَامٌ» أو إلـى «لَا يَرْجِعُونَ» أو إلى «تَقَطَّعُوا» وفيـه كثرة الفصل، أي يدومـون على التقطُّع والخـلاف حتَّى إذا جاءت الساعة آمنوا كلُّهم، ولكن يتَّفقون على الكفر فتقوم.

ولا جواب لـ«إذا» وقيل: جوابها هي «شَـاخِصَةٌ» قرن بالفاء وإذا الفجائية معا للتأكيد. وتفتيح ياجوج وماجوج مجاز عن إخراجهم، أو يقدَّر مضاف أي فتح سدُّ ياجوج.

﴿وَهُم﴾ ياجوج وماجوج، وقال مجاهد: الناس، ﴿مِّن كُلِّ حَدَبٍ﴾ مرتفع منحدر كجبل وأكمة ﴿يَنسِلُونَ﴾ يُسرعون، وأصله: مقاربة الخطو مع الإسراع، وعلى أنَّه حقيقة في مشي الذئب يكون هنا مجازا.

---

(1) البيت للخنساء، استشهد به كثير من المفسرين، منهم **الآلوسي** في روح المعاني، ج17، ص91.

[قصص] ياجوج وماجوج قبيلتان هما تسعة أعشار وبنو آدم عشر، قيل: يوحي الله ﷻ إلى عيسى عليه السلام: أنّي أخرجت عبادا لي لا يدان لأحد أن يقاتلهم فأحرز عبادي إلى الطور، يشرب أوائلهم ماء طبرية، ويقول آخرهم: كان هنا ماء، ويكون رأس الثور لأصحاب عيسى خيرا من مائة دينار.

﴿**وَاقْتَرَبَ**﴾ قرب قربا شديدا ﴿**الْوَعْدُ الْحَقُّ**﴾ ما بعد نفخة البعث من البعث والحساب والجزاء.

[قصص] [قيل] يقتل عيسى عليه السلام الدجّال عند باب لد الشرقي في الشام، فيوحي الله سبحانه إليه: أحرز عبادي المؤمنين إلى الطور فقد أخرجت عبادا لا يطاقون وهم ياجوج وماجوج، ويدعو عيسى والمؤمنون في إهلاكهم فيصبحون موتى بالنغف في رقابهم بمرّة، ويرسل الله سبحانه طيرا كأعناق البخت تلقيهم في البحر، ويغسل الأرض بمطر كزلفة، ويبارك في الأرض حتّى يأكل النفر من الرمانة ويستظلون بقشرها، وتكفي اللقحة الفئام من الناس وهم الفخذ، والشاة أهل البيت، ويبعث الله ﷻ ريحا طيّبة في آباط المؤمنين فيموتوا، ويبقى الكفار يتهارجون كالحمر.

والساعة بعد ياجوج وماجوج كالحامل المتمّة لا يدرى متى تضع، وتلد الفرس ولا يركب ولدها حتّى تقوم الساعة كما روي[1].

﴿**فَإِذَا هِيَ**﴾ أي القصّة ﴿**شَاخِصَةٌ**﴾ خبر لقوله: ﴿**اَبْصَارُ الذِينَ كَفَرُواْ**﴾ أو مبتدأ رافع له على الفاعلية، مستغن به عن الخبر على ما مرَّ آنفا.

[نحو] فذلك كالفعل والفاعل فصحَّ أن يكونا خبرا لضمير القصَّة، ولا يحكم لهما بحكم المفرد فلا تهم، فلو حكم لهما بحكم المفرد لم يجز

(1) رواه **ابن ماجه** في كتاب الفتن (33) باب فتنة الدجال وخروج عيسى... رقم 4153. ورواه **أحمد** في مسند المكثرين من الصحابة، رقم 3546، من حديث ابن مسعود. وللتوسع راجع: تفسير ابن كثير، تفسير الآية 96.

أن يقــال: أقائم الزيدان؟ بل أجــاز بعض الكوفيين الإخبــار بالمفرد عن ضمير القصَّة أو الشأن.

وقيل: هي عائد إلى مبهم فسَّــره «أبصار» بعده، وقيل: ضمير الساعة والخبر محذوف، أي واقعة، وقوله: ﴿أَبْصَارُ...﴾ مســتأنف، وفيه ضعف لعدم الاحتياج إلى التقدير. **وشخوص الأبصار**: ارتفاع أجفانها من غير أن تطرف لشدَّة الهول.

﴿**يَاوَيْلَنَا**﴾ مفعول لقول مقدَّر حال مما قبل، أو مســتأنف أي قائلين، أو يقولون، أو جواب «إذا». ونداء الويل تحسُّر. ﴿**قَدْ كُنَّا**﴾ قبل الفوت أو قبل اليوم ﴿**فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَــذَا**﴾ عن هذا اليوم، أو عن هذا الذي دهمنا من البعث للحساب ﴿**بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ**﴾ إضراب عن ذكر الغفلة إلى ذكر أنَّه قد أنذروا بقدر ما ينتفعون، وأنَّهم ظلموا أنفســهم بعــدم الاتِّباع، وتعريضها للعذاب الدائم.

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿98﴾ لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿99﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿100﴾ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿101﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿102﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿103﴾ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿104﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿105﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿106﴾﴾

أحوال الكافرين والمؤمنين في الآخرة

﴿**إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ**﴾ «ما» لغير العاقل أصالة ووضعا، ولا تستعمل في غيره أو في العموم إلَّا لدليل، فلا تدخل الملائكة إذ عبدتها بنو الْمُلَيح ـ بالتصغير بطن من خزاعة ـ ولا عيسى إذ عبده النصارى، ولا عزير إذ عبده اليهود. والنبيء ﷺ ذكر الآية لابن الزبعري حين احتجَّ بهؤلاء على معنى أنَّها لم تشملهم، ثمَّ إنَّه شُهر حتَّى لا يخفى عن نحو ابن الزبعري أنَّ الملائكة وعيسى ويلتحق بهم عزير يكرهون أن يعبدوا، فكيف يعذَّبون بما فعل غيرهم بلا رضًا منهم؟!.

[سيرة] دخل النبيء ﷺ المسجد وصناديد قريش في الحطيم وحول الكعبة ثلاثمائة وستون صنما، فعرض له النضر بن الحارث فأفحمه ﷺ،

وتلا: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ الآيات الثلاث، فأخبر الوليد بن المغيرة عبد الله بن الزبعري بذلك، فقال: ولو وجدت محمَّدًا لخصمته، فدعوا رسول الله ﷺ، فقال له: أنت قلت ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ...﴾ قال: نعم، قال: عبدت النصارى المسيح واليهود عزيرا وبنو المليح الملائكة؟ فقال ﷺ: عبدوا الشيطان، فأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّ الذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٓ﴾ أي عزيرا والملائكة وعيسى ﴿أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ ونزل في ابن الزبعرى ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [سورة الزخرف: 58].

وروي أنَّه ﷺ قال له: ما أجهلك بلغة قومك! إنَّ الله تعالى قال: ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ ولم يقل: ومن تعبدون، يعني أنَّ ما للأصنام لأنَّها لغير العقلاء، ولو أراد الملائكة وعزيرا وعيسى لقال: ومن تعبدون، [قلت:] وقوله ﷺ: «ما أجهلك بلغة قومك!» صحيح المعنى غير ثابت الرواية.

وسمَّى الله الأصنام وعبَّادها حصبا لأنَّهم يرمون لجهنَّم كما يرمى الحطب للنار، وأصله الحجارة الصغار يرمى بها إنسان أو غيره، كما قرأ جماعة «حطب جهنم» بالطاء، وعن ابن عبَّاس: الحصب الحطب بالزنجية، وإنَّما يذكر في القرآن من العجمة ما ذكره العرب منها أو ما ذكره الله عن أهلها.

﴿أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ مستأنف مؤكِّد لما قبله، واللام بمعنى على، أو للاختصاص، أو لام تقوية على أنَّ الورود متعدٍّ كقوله: ﴿وَرَدُوهَا﴾. ضَعُفَ «وارد» عن العمل لكونه وصفا لا فعلا ولتقدُّم المعمول فقوي بها. والورود هنا الدخول. والخطاب للكفرة أو لهم ولما يعبدون تغليبا للعاقل، وفي ورودها معهم زيادة غمٍّ إذ علموا أنَّها معهم ولا شأن لها، كيف عبدنا وحالها هذا؟ وقد أضعنا عبادتها إذ لم تشفع لنا، وعذِّبنا بها!.

﴿لَوْ كَانَ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ الأصنام التي تعبدونها ﴿ءَالِهَةً﴾ كما تزعمون ﴿مَّا وَرَدُوهَا﴾ عبَّر بالواو مراعاة لتعظيمهم لها ولو في وقت هذا الخطاب لهم، والشياطين أيضا واردوها لكن كلامهم في الأصنام.

﴿**وَكُلٌّ**﴾ من العابدين والمعبودين ﴿**فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ أبدا ﴿**لَهُمْ فِيهَا**﴾ متعلِّق بما تعلَّق به «لهم» أو بـ«لهم» لنيابته عنه، وأصل «خالدون» و«هم» أن يستعملا للعقلاء لكن غلبوا على غيرهم، كما أثبت الزفير وهو للعابدين دون الأصنام بقوله: ﴿**زَفِيرٌ**﴾ إلَّا إن جعل الله سبحانه لها حياة، وزفيرا بلا تعذيب لها بل بها، فلا تغليب في جنب زفير، وهو صوت نفس المغموم من أقصى الجوف، وقيل: أصله ترديد النفَس حتَّى تنتفخ الضلوع، ولا يقال: يجوز أن نجعل الخطاب في «أنتم» للعقلاء المخاطبين بـ«إنَّكم» فلا تغليب في «خالدون» ولا في «زفير» لأنَّا نقول: لا يصحُّ أن نجعل الخطاب لهم خاصَّة في قوله: ﴿أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ مع إثبات الورود لها أيضا في قوله: ﴿لَوْ كَانَ هَؤُلَآءِ...﴾ الواضح في شمول أنتم لها.

﴿**وَهُمْ فِيهَا**﴾ متعلِّق بقوله: ﴿**لَا يَسْمَعُونَ**﴾ ولا صدر لـ«لا» هذه، وقدِّم للفاصلة وعدم السمع لصممهم، لقوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [سورة الإسراء: 97] وهم على الصمم إلَّا نادرا.

ونهاية عذاب أهل النار أن لا يرى بعض بعضا ولا يسمعه، ويجعل في تابوت من حديد جوف تابوت آخر، ولا يرى أنَّ أحدا يعذَّب معه في النار، ذكر ذلك ابن مسعود وقرأ هذه الآية، وقيل: لا يسمع بعض زفير بعض لشدَّة الهول، وقيل: لشدَّة الزفير، وقيل: لا يسمعون ما يسرُّهم، ولا دليل في الآية لهذا.

﴿**إِنَّ الذِينَ سَبَقَتْ**﴾ في الأزل لا كما قيل في قوله: ﴿فَمَن يَّعْمَلْ﴾ وإنَّه تبشير لهم ﴿**لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰٓ**﴾ اسم تفضيل، أعني أنَّه تأنيث «أفعل» التفضيل، فالمعنى: الخصلة المفضَّلة في الحسن، وهي السعادة، وقيل: التوفيق للطاعة وذلك على العموم، لأنَّه يعتبر عموم اللفظ لا خصوص

السبب، فلا يشكل عليه ما ورد أنَّ سبب النزول: الملائكة وعزير وعيسى، فما هم إلَّا بعض أفراد العموم.

﴿**أُوْلَئِكَ**﴾ الذين سبقت لهم مِنَّا الحسنى، وإشارة البعد لعلوِّ درجتهم ﴿**عَنْهَا مُبْعَدُونَ**﴾ لا يدخلونها ولا يقربون منها، وذلك إبعاد حكم ورتبة، وقد يقال: إبعادٌ بعد قربٍ لقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [سورة مريم: 71]، أو هم إذ كانوا في الجَنَّة مبعدون عنها ﴿**لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا**﴾ صوت حركتها حين كانوا في الجَنَّة، ومن حين ورودها وقبل ذلك.

﴿**وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتَ اَنفُسُهُمْ**﴾ من كلِّ لذَّة ﴿**خَالِدُونَ**﴾ وما لم يكتبه الله لهم لا يخطر ببالهم، وإن خطر لم يشتهوه، كدرجة من هو أعلى. والتقديم للحصر أي لا يخلدون إلَّا فيما اشتهت أنفسهم، لا بدَّ من الخلود ولا بدَّ من كونه فيما اشتهوا.

﴿**لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الاَكْبَرُ**﴾ فأولى أن لا يصيبهم الأصغر، كذا قيل، وفيه أنَّه قد يصاب بالأصغر ولا يصاب بالأكبر، الجواب: أنَّ الآية في إعلاء درجتهم فلا يهانون بالأصغر أيضا، أو لأنَّ المقام لذكر الأكبر، والآية من نفي السبب وهو إصابة الأكبر مثلا بنفي المسبَّب، وهو الحزن.

والفزع الأكبر: الفزع حين انصرف أهل النار إلى النار، أو حين أطبقت النار على أهلها، أو حين يقال: ﴿اخْسَئُواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [سورة المؤمنون: 108]، أو حين يذبح الموت بصورة كبش أملح بين الجَنَّة والنار، ونودي: «خلود لا موت في النار ولا في الجَنَّة»، أو حين تطوى السماء، أو حين النفخة للبعث.

﴿**وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَآئِكَةُ**﴾ ملائكة الرحمة بالرحمة أو بالسلام حين الخروج من القبور ﴿**هَذَا يَوْمُكُمُ الذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ**﴾ أي قائلين هذا يومكم الذي كنتم توعدونه في الدنيا لإيمانكم وطاعتكم.

﴿**يَوْمَ نَطْوِي السَّمَآءَ**﴾ متعلِّق بـ«تَتَلَقَّاهُم» أولى من تعليقه بـ«يَحْزُنُ» أو بـ«الفَزَع»، والمصدر يتعلَّق به ولو نعت، كقوله:

إنَّ وجدي بك الشديد أراني   عاذرا من وجدت فيك عذولا[1]

أو فُصِل، أو بدل كلٍّ من هاء توعَدُونه المحذوفة.

والمراد بالسماء الجنس بل الاستغراق لقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتُۢ بِيَمِينِهِ﴾ [سورة الزمر: 67]، وهذا الطيُّ يعقبه إفناء أو تبدُّل بغيرهنَّ لقوله سبحانه: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الَارْضُ غَيْرَ الَارْضِ والسَّمَاوَاتُ﴾ [سورة إبراهيم: 48]، أو يراد بهذا التبديل تعويض أرض الجنَّة وسماءها.

﴿**كَطَيِّ السِّجِلِّ**﴾ الكاف اسم مضاف مفعول مطلق نائب عن محذوف، أي طيًّا مثل طيٍّ، أو حرف أي طيًّا ثابتا كطيِّ السجل، والسجلُّ الصحيفة، وخصَّه بعض بصحيفة العهد، وقيل: هو في الأصل حجر يكتب فيه، ثمَّ سمِّي به كلُّ ما يكتب فيه من قرطاس أو جلد أو غيرهما.

﴿**لِلْكِتَابِ**﴾ نعت للسجلِّ على قصد الجنس، أو حال له والكتابة مصدر، أو اللام للتعليل متعلِّق بـ«طَيِّ» فإنَّ المكتوب يطوى محافظة على ما كتب فيه، وإنَّ جعلنا السجل اسما للذي كتبه فاللام للتقوية، والكتاب مفعول به لـ«طي».

فقد قيل: السجل اسم ملك موكَّل بحفظ الصحف، إذا مات إنسان رفع كتابه إليه فطواه ليوم القيامة، ولا بأس بتشبيه الأقوى بالضعيف، كقوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ﴾ [سورة النور: 35] أو اعتبر القُوَّة هنا بما في الأذهان من أنَّ طيَّ الورقة لضعفها ودقَّتها وصغرها أقوى من طيِّ السماء، و[قيل] عن ابن عبَّاس وابن عمر: السجل كاتب النبيء ﷺ، وهو وصف لا علَم له، فلا

(1) أورده صاحب المعجم في شواهد اللغة العَرَبِيَّة: ج 6، ص 125، ولم ينسبه لأحد.

يضعَّف بأنَّه لا يعرف في الصحابة رجل اســـمه سجل، وقد قيل: اسمه زاد بن مردويه، والأكثر أنَّ الســـجلَّ الصحيفة، والجمهور على أنَّه اسم عربيٌّ، وقيل: فارسيٌّ معرَّب.

﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ﴾ نعيد الموتى بعد فنائهم بأجسامهم الأولى بنفسها، كما خلقناهم أوَّل مرَّة، وقيل: ما تلف وفني يخلق مثله.

[أصول الدين] والــروح لا تبــدَّل، أو هي المتلــذِّذة أو المتألِّمة، وليس الإحياء بعد الموت أصعب من الإيجاد الأوَّل، بل أســهل لبادي الرأي، وهما عند الله ســواء، ومن قال: أسهل أشــرك لوصف الله ســبحانه بالعجز. وعجم الذنب لا يفنى. والأنبياء ومــن التحق بهم لا تفنى أجســامهم، كما ورد في المؤذِّنين المحتسبين، وفي أنواع من الأعمال.

[نحو] والكاف اســم مضاف للمصدر مفعول مطلق، أي نعيده إعادة مثل بدئنا له، أو إعادة ثابتة كبدئنا له. و«ما» مصدرية كما رأيت، أو اســم أي كبدءٍ بدأناه، أو كبــدءِ الذي بدأناه، أو «كما» مكفــوف وكافٌّ[1]، وفي ذلك خلقان: الثاني يشبه الأول.

[سيرة] قالت عائشــة ﵂: دخل عليَّ رســول الله ﷺ وعندي عجوز من بني عامر، فقال: من هذه العجوز يا عائشــة؟ فقالت: إحدى خالاتي: فقالت: ادع الله أن يدخلني الجنَّة يا رسول الله، فقال ﷺ: «**إنَّ الجنَّة لا يدخلها عجوز**»، فأخذهــا ما أخذهــا، فقال ﷺ: «**ينشــئهنَّ الله خلقــا غير خلقهــنَّ**»، ثمَّ قال: «**تحشــرون حفاة عراة غلفــا**»، فقالــت: حاشــى الله تعالى من ذلــك، فقال رسول الله ﷺ: «**بلى إنَّ الله تعالى قال: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ﴾**»، فأفادت

---

(1) انتبه أنَّ الشــيخ يقصد بالــكافِّ: ما الكافَّــة عن العمل كمــا في إنَّما وحيثمــا وغير ذلك، وبالمكفوف إنَّ أو حيث وغيرهما من الكلمات العاملة.

الآيــة البعث ردًّا على منكريــه، وأفادت أنَّهــم يبعثون كما كانــوا فتردُّ إليهم شــعورهم وأظفارهم وقلفة الختــان من ذكــر وأنثى، وكلُّ جلــدة في طول أعمارهم وقصرها.

﴿وَعْدًا عَلَيْنَآ﴾ مصدر مؤكَّد، مثل أنــت ابني حقًّا، أي وعدنا ذلك وعدا، وإذا اعتبر في «نُعِيدُ» معنــى الوعد كان مصدرا مؤكِّدا لــه، كعليَّ ألف عرفا. و«عَلَيْنَا» نعت «وَعْــدًا» أي ثابتا باللزوم مِنَّا، أو «وَعْــدًا» بمعنى إخبار بخير، ونعــت بـ«عَلَيْنَا» اعتبــارا لمعنى موعود علــى معنى: علينا إنجــازه بطريق الاستخدام، وفيما مرَّ كفاية.

﴿إِنَّا كُنَّا فَاعِلِيــنَ﴾ لذلك لا محالــة، وذلك تأكيد آخــر، ويقال: معناه قادرين علــى الفعل، ويقــال: فاعلين للماضــي لتحقُّق الوقــوع، وكلُّ ذلك صحيح المعنى في نفســه، إلَّا أنَّنا نعتبر الظاهر مــا وجدنا صحَّة بلا ضعف، ولعلَّ وجه التفسير بالقدرة اعتبار أنَّ اسم الفاعل للحال، الموجود في الحال القدرة والفعل مستقبل.

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَــا فِي الزَّبُورِ﴾ الموحــى إلى داود عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿مِنۢ بَعْــدِ الذِّكْرِ﴾ التوراة، وقيــل: الزبور جنس كتب الله التي بعد التــوراة، وقيل: الزبور القرآن والذكر التوراة، وقيل: الزبور كتب الله كلُّها، والذكر اللوح المحفوظ. وتسميته ذكرا مجاز لاشتماله على حروف تنظم منها كلمات تتضمَّن تذكيرا.

وعنه ﷺ: «**كان الله ولم يكن قبله شــيء، وكان عرشه على الماء ثمَّ خلق السماوات والأرض وكتب في الذكر كلَّ شيء**»[1] أي في اللوح المحفوظ.

[لغة] والزبــور لفظ عربــيٌّ، «فعول» بمعنــى «مفعــول»، أي مزبور أي مكتوب، وخصَّه بعض بالكتابة الغليظة، أو بمعنى «فاعل» أي زابر أي زاجر.

---

(1) رواه **البخاري** في كتاب بدء الخلق (01) باب ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ﴾ رقم 3190. ورواه **أحمد** في مسند البصريين، رقم 19375. من حديث عمران بن حصين.

﴿أَنَّ الَارْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ أرض الجنَّة لأنَّها خلقت للصالحين، وما يدخلها فاسق إلَّا بعد أن يوفَّق للتوبة، ويعدُّ صالحا ولو عند الموت ما لم يشاهد، ويدلُّ لهذا أنَّها ذكرت بعد ذكر البعث، ولا أرض بعد البعث يتمكَّن فيها الصالحون غيرها.

وعن ابن عبَّاس: أرض الدنيا يستولي عليها المؤمنون، كقوله تعالى: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الَارْضِ﴾ [سورة النور: 55] قال ﷺ: «**إنَّ الله تعالى زوَّى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإنَّ أمَّتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها**»[1].

[قلت:] وهذا وعد بإعزاز الدين الإسلامي وأهله بالاستيلاء على أكثر المعمور الذي يتردَّد إليه المسافرون، وهذا هو المراد ولا يشكل علينا الدنيا الجديدة التي لم يدخلها المؤمنون والهند المغربي، وإن اعتبرنا زمان المهدي وعيسى وهو من هذه الأمَّة إذا نزل فلا إشكال، وأمَّا وضعه الجزية عن أهل الكتاب والمجوس فلا يقبل منهم إلَّا الإسلام، فمن سنَّة النبيء ﷺ إليه إذا أتى.

وقيل: أرض المقدس، وقيل الشام كلُّه، والصحيح الأوَّل، وعلى أنَّها أرض الدنيا لهذه الأمَّة لا يشكل كفر جميع المكلَّفين عند قرب الساعة جدًّا، لأنَّ الإرث لا يختصُّ بالدوام ولأنَّ أيَّام قرب الساعة قليلة لا يعتدُّ بها كأنَّها من أيَّام الآخرة.

﴿إِنَّ فِي هَذَا﴾ أي فيما ذكر في هذه السورة من دلائل الوَحْدَانِيَّة والنبوءة والمواعظ والوعد والوعيد، وقيل: في هذا القرآن ﴿لَبَلَاغًا﴾ كفاية كما يقال لفلان بلغة من العيش، أي كفاية يبلغ بها المراد، أو لسبب بلوغ إلى المراد من الدين، أو لنفس البلوغ إليه على المبالغة في أنَّ ما ذكر كاف، ﴿لِقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ لقوم مآلهم العبادة بالتوحيد والطاعة إذا سمعوا ذلك، أو زيادة عبادة بكلِّ ما سمعوا من ذلك بعد إيمانهم، أو همَّتهم العبادة يبحثون

(1) تَقَدَّمَ تخريجه في ج 8، ص 203.

عن طرقها الصحيحة. وعن الحسن: الذين يصلُّون الخمس جماعة. وعن ابن عبَّاس عنه ﷺ أنَّه قرأ ذلك فقال: «**هي ـ أي العبادة ـ الصلوات الخمس في المسجد الحرام جماعة**»[1]. وعن أبي هريرة: الصلوات الخمس، وعن كعب الأحبار: صوم رمضان والصلوات الخمس، قلت: المراد في ذلك التمثيل ولا يكفي التخصيص.

(1) رواه **الفاكهي** في أخبار مكة، رقم: 1198، ج2، ص96. من حديث ابن عبَّاس.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ١٠٧ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ١٠٨ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ١٠٩ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ١١٠ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ١١١ قُلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١١٢﴾

النبيء عليه السلام رحمة للعالمين وتذكير ونذر لهم

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ﴾ يا محمَّد بما ذكروا مثاله من الشرائع والأحكام والوعظ والوعد والوعيد ﴿إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ نصب على التعليل أي لنرحم بك العالمين، والرحمة من الله لا على التعليل، والرحمة منه ﷺ لاختلاف الفاعل لأنَّ فاعل الإرسال هو الله عز وجل، ويجوز أن يكون حالا من الكاف مبالغة، كأنَّه ﷺ نفس الرحمة، أو بمعنى راحما، أو ذا رحمة، أو حالا من «نَا» أي ذوي رحمة، أو راحمين.

[قلت:] ودخل في «الْعَالَمِينَ» الكُفَّار والمؤمنون، وأهل الشقاوة مطلقا لأنَّ الله رحمهم به لأنَّهُ ﷺ يُبَيِّنُ لهم الهدى وأسباب السعادة، فلم يقبلوا رحمته لخلافهم، وضيَّعوها، وأيضا هو لهم نفع دنيويٌّ أيضا إذ لا يستأصلون كما استؤصلت أمم قبلهم بنحو مسخ وخسف وإغراق وصاعقة.

وهل دخلت الملائكة في «الْعَالَمِينَ»؟ وهل بعث إليهم؟ قولان، قالت جماعة: بعث إليهم فهو رحمة لهم، ولا ندري بم أمرهم وعمَّا نهاهم وعليه

المحلِّي في شـــرح جمع الجوامع، وَادَّعَى الفخر الـــرازي الإجماع عليه ولا إجماع، وقال قوم: لم يبعث إليهم ولم يدخلوا فـــي «الْعَالَمِينَ»، القول الثالث أنَّهم داخلون في «الْعَالَمِينَ» ولم يبعث إليهم.

قلت: كنت أقول بهذا في المذهب لأنَّهـــم ازدادوا به عبادة ولم يبلهم الله تعالى بمـــا بلى به هاروت ومـــاروت، وقال ﷺ لجبريل: «**هـــل أصابتك هذه الرحمة؟**» قال: نعم كنت أخشى عاقبة فأمنت لقوله: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [سورة التكوير: 20]، ولا سند لهذا الحديث، فهو رحمة لهم كما هو رحمة لسائر الحيوان غير مرســـل إليها، وكذا المجانين والأطفال هو رحمة لهم بلا بعث إليهم، ويجوز أن نقول: بعث للأطفـــال والبلَّه الذين يفهمون قليلا فإنَّهم يثابون بحسناتهم بلا عقاب على سوء، وكما دخلت الملائكة في نحو «الْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» دخلوا هنا، وقد زعم بعض أنَّ الأشياء كلَّها من نوره ﷺ.

﴿**قُلِ اِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَـيَّ أَنَّمَآ إِلَهُكُمُۥٓ إِلَهٌ وَاٰحِـدٌ**﴾ هنا حصران: قصر الصفة على الموصوف: قصر الوحي على الوَحْدَانِيَّة، وقصر الموصوف على الصفة: أنَّ الله لا يجاوز الوَحْدَانِيَّة، وكأنَّه قيل: ما يُوحي إليَّ إلَّا أنَّه ما الله إلَّا واحد.

[بلاغة] ومعنى قصر الوحي علـــى الوَحْدَانِيَّة مع أنَّه قد أوحى إليه أيضا القصص والتكاليف، أنَّ الوَحْدَانِيَّة الأصل وغيرهـــا راجع إليها، والوحي بها هو الأصل وما عداه راجع إليه، أو غير منظور إليه في جنبه، فهو قصر ادِّعائي، أو قصر قلب إضافي، أي أوحي إليَّ التوحيد لا الشرك، وكذا الكلام في قصر الموصوف على الصفة. و«أَنَّمَا» بالفتح تفيد القصر كالمكسور على الصحيح اعتبارا للَّفظ قبل التأويل بالمصدر.

﴿**فَهَلَ اَنتُم مُّسْلِمُونَ**﴾ منقادون والمعنى: الأمر بالانقياد، وزعم بعض أنَّه أمر بلازم الانقياد، وهو إخلاص العبادة، والعقل طريق لإثبات الواجب، وأمَّا الوَحْدَانِيَّة فطريقها الســـمع، قلت: والعقل أيضا، ألا تـــرى إلى قوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ اِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا﴾ [سورة الأنبياء: 22].

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ استعارة تمثيلية، شبَّه ﷺ بمن بينه وبين أعدائه هدنة فأحسَّ بغدرهم فنبذ إليهم العهد، وشهر النبذ وأشاعه. و«عَلَى سَوَآءٍ» حال من التاء والكاف أي ثابتين أنا وأنتم على استواء في العلم بنبذ العهد، لا أخدعكم، أو من الكاف أي مستوين كلُّهم في العلم به، أو نعت لمحذوف أي إيذانا على سواء، ويجوز أن يكون الاستواء في ذلك كلِّه استواء في المعاداة، أو في وجوب العلم بالوحدانيَّة. والإيذان: الإعلام، والمفعول الثاني محذوف أي أعلمتكم حربي لكم، أو التوحيد.

﴿وَإِنْ أَدْرِي﴾ لا أدري ﴿أَقَرِيبٌ﴾ خبر ﴿أَم بَعِيدٌ﴾ مبتدؤه قوله: ﴿مَّا تُوعَدُونَ﴾ قدِّم لأنَّه الأهم لهم، وللفاصلة.

[نحو] أو مبتدأ رافع لمستتر مغن عن خبره. و«ما» فاعل لـ«بَعِيدٌ» على التنازع أغنى عن الخبر، أو فاعل لـ«قَرِيبٌ» أغنى عن خبره ولا ضمير فيه بل في «بَعِيدٌ».

﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ﴾ المجهور به ﴿مِنَ الْقَوْلِ﴾ في تكذيب الوحي ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ من ذلك ومن الحقد على المسلمين، فيجازيكم بذلك كلِّه، وعلى سائر كبائركم وصغائركم، وعلى ترك عمل الفرائض.

﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ﴾ أي التأخير المعلوم من الكلام أي لعلَّ تأخير جزائكم ﴿فِتْنَةٌ لَّكُمْ﴾ بعد فتن أُخَر، أو اختبار بعد اختبارات، لينظر كيف تعملون، وهو عالم به قبل وقوعه. وجملة «لَعَلَّهُ...» سدَّت مسدَّ مفعولي «أَدْرِي» معلَّقة كما يكون الاستفهام معلَّقا.

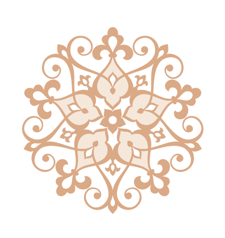
﴿وَمَتَاعٌ﴾ اسم مصدر وهو التمتيع ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ وقت الموت أو يوم بدر أو القيامة ﴿قُل رَّبِّ احْكُم بِالْحَقِّ﴾ المراد طلب التعجيل لأنَّ الحكم لا بدَّ واقع، وإنَّه بالحقِّ لا بدَّ، وأجاب الله له بعد أن دعاه بقتلهم يوم بدر.

﴿**وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ**﴾ مبتدأ وخبر ﴿**الْمُسْتَعَانُ**﴾ خبر ثان أو نعت للرحمن مراعاة للجمود والعلَميَّة، أو «الرَّحْمَنُ» نعت و«الْمُسْتَعَانُ» خبر، ﴿**عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ**﴾ من الإشراك والتكذيب بالوعيد، ودعوى خمود الإسلام ونحو ذلك، وكونه لا ولد له ﷺ فينقطع بموته ذكره، خيَّبهم الله!.

والله المستعان على كُلِّ من يعادينا، وختم لنا بالسعادة.

وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه.

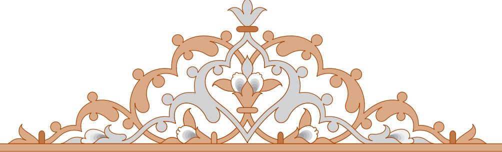
يَا رَبِّ، يَا رَبِّ، يَا رَبِّ.



22

تفسير سورة الحج

مدنيَّة إلَّا الآيات 52 ـ 55 فبين مكة والمدينة، وآياتها 78 ـ نزلت بعد سورة النور



﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (1) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (2) وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ (3) كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ (4)﴾

إنذار الناس بهول الساعة

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ الخطاب الذي حكمه العموم خطاب للموجودين من المكلَّفين في حال النزول والذين سيوجدون، أو سيوجد تكليفهم، مثل من وجد وهو طفل أو مجنون، وقضى الله حياته، وذلك تغليب وقيل حقيقة، وهو مذهب الحنابلة وطائفة من المتقدِّمين والفقهاء.

وقيل: مجاز، وقيل: خاصٌّ بالمكلَّفين الموجودين حال النزول، وأمَّا غيرهم فملتحق بهم من الحديث ومن القرآن لِمَا جاء فيه بطريق العموم والغيبة مثل: من فعل كذا، ومن لم يفعل كذا فله كذا وعليه كذا.

وكذا الخلف في جمع المذكر الســالم جمع صفة وواو الجمع تدخل فيه الإناث تغليبا أو حقيقة أو مجازا؟ أو لدليل آخر من القرآن مثل من فعل أو لم يفعل أو من الحديث.

وقيل: الخطاب خــاصٌ بأهل مَكَّة، وعليه فالتقوى ترك الشــرك بخلاف غير هذا القول فإنَّها تعمُّ ترك المعاصي مطلقا، لكن لا مانع من التعميم أيضا في أهــل مَكَّة، لأنَّ التحقيق خطاب المشــركين بالفروع، ولو كان الأنســب الأمر أوَّلا بالتوحيد، ولا خلاف في دخولهنَّ في نحو الناس والإنسان، مثل: ﴿إِنَّ الِانسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾الآية [ســورة العصر: 2] مما لفظه عامٌّ. ولا علامة تذكير ولا تأنيث فيه. ولفظ الربِّ تغليــظ، كأنَّه قيل: احــذروا عقوبة مالك أمركم ومربِّيكم.

﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَــيْءٌ عَظِيمٌ﴾ تحريك الأرض الدالُّ على قرب الساعة جِدًّا، وهي قبل طلوع الشــمس من مغربها شــيء عظيم، وهــي نفخة الفزع وبعدها نفخة الموت، وبعدها نفخة البعث، تمــوج الوحوش والإنس والجنُّ مختلطين. وأضاف الزلزلة للســاعة لأنَّها من أشــراطها وقربها، كأنَّها مجاورة كأنَّها وقعت الزلزلة في الســاعة، فيكون من إضافة المصدر إلى وقته أي في الســاعة، أو إلى فاعله، على أنَّ المزلزل للأرض هو الســاعة مجازا، أو إلى المفعول به المتجوَّز به كأنَّه زلزل الله الساعة، والمزلزل حقيقة هو الله ﷻ في ذلك كلِّه، أو المَلَكُ وفعله فعل لله سبحانه.

[قيل:] والزلزلة تكون بأمره مَلَكًا موكَّلا علــى جبل قاف بتحريق عروق الأرض المتَّصلة بجبل قاف، كذا قيل: إذا أراد زلزلة أرض يأمره بتحريك عرق تلك الأرض.

وتقول الفلاســفة: إنَّ الزلزلة باجتماع بخار واحتباســه في بطن الأرض وغلظه مع انتفاء منفذ، فقد يكون منه خســف وأصوات ونار لشــدَّة اشتعال

البخار، وإن صحَّ فالله جامعه ومخرجه، ومزلزل به إذا شـــاء، ويناســـبه شـــدَّة الزلزلة وكثرتها في الأرض الصلبة بالنسبة إلى الرخوة.

ويدلُّ على إرادة نفخة الفزع وجود المرضعـــة والحامل لقوله تعالى: ﴿**يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّـآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا**﴾ فإن كان المراد نفخـــة البعث كما قـــال الجمهور فالمـــراد بذهـــول المرضعات ووضع الحوامل الكناية عن شـــدَّة الهول لا حقيقة الإرضاع والوضع، **وهو وجه حسن** مع أنَّ نفخة الفزع ليست نفس ما يوعدون، ولا دلالة فيها على البعث، الجواب أنَّها ولو لم تدلَّ على البعث بذاتهـــا لكنَّها علامة على تحقُّق البعث وقربه، وقد أخبر النبيء ﷺ أنَّها من أشراط الساعة المنذرين هم بها الموعود بالبعث بعدها.

[سيرة] كان النبيء ﷺ في غـــزوة بني المصطلق فنزلت عليـــه ﴿يَآ أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُـــمُ...﴾ الآيتين فقال ﷺ: «**أتدرون أيُّ يـــوم ذلك؟**» قالوا: الله ورســـوله أعلم، قال:«**ذلك يوم يقول الله لآدم** عَلَيْهِ السَّلَامُ: **قم ابعث بعث النار، قال: يَا رَبِّ وما بعث النار؟ قال: من كلِّ ألف تســـعمائة وتسعة وتسعون إلى النار، وواحد إلى الجنَّة**» فأنشأ المسلمون يبكون، فقال ﷺ: «**قاربوا وسدِّدوا وأبشروا فإنَّه لم تكن نبوءة قـــطُّ إلَّا كان بين يديها جَاهِلِيَّة، ومـــا مثلكم في الأمم إلَّا كمثل الرَّقْمَة**[1] **في ذراع الدَّابَّة، أو كالشـــامة في جنب البعير، وإنِّي لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنَّة**»[2]، وهذا نصٌّ في أنَّ زلزلة الساعة بعد البعث.

[نحو] و«يَوْمَ» متعلِّق بـ«تَذْهَلُ» قدِّم علـــى طريق الاهتمام ولا حاجة إلى تعليقه بـ«عَظِيمٌ» أو إبداله من «السَّـــاعَةِ» وبناؤه جوازا للإضافة إلى الجملة،

(1) الرقمة: قال النووي: قال أهل اللغة: الرقمتان في الحمار هما الأثران في باطن عضده. وقيل: هي الدائرة في ذراعيه، وقيل هي الرمة الناتئة في ذراع الدَّابَّة من الداخل.

(2) رواه **الترمذي** في كتاب تفســـير القرآن باب (32) ومن سورة الحج، رقم 3168. ورواه **أحمد** في مسند البصريين، رقم 19400. من حديث عمران بن حصين مع زيادة.

ولا إلــى تقديــر: اذكروها من ترونهــا للزلزلــة، لأنَّها المحــدَّث عنها وهي المشاهدة، وقيل: الساعة.

والمرضعة وذات حمل شامل للنساء وسائر إناث الحيوان. و«ما» واقع على من لا يعلم ومن يعلــم، وتكون الأنثى ملقمة ثديهــا للرضيع فتذهل عنه، ولا يتعلَّق قلبها به مع ســقوطه عنها، وكأنَّه غير ولدها، أو كأنَّه حجر، أو «ما» مصدريَّة.

[صرف] والمرضعة والحائضة بالتاء من في حال الإرضاع والحيض، وأمَّا بلا تاء فمن لها من ترضع ومن بلغت سنَّ الحيض، ولم يقل: وتضع كلُّ ذات حمل ما حملت، لأنَّ الحَمل بفتح الحاء الجنين، وما حملت يحتمل الظهر وغيره، وإطلاق الحَمل بالفتح على ثمر الشجرة ولو كان حقيقا لكن لا يتبادر شمول الآية له.

والرؤية في الموضعيــن بصرية. وقيل: تبعث الحامــل حاملا والمرضعة مرضعة بحالها، وكلُّ أحد يحشــر بحاله فتلد الحامل بعد البعث وتذهل هي والمرضعة عَمَّا ولدتا.

﴿**وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ**﴾ ترى يا من يصلح للرؤية، وهذا عموم أولى من جعل الخطاب للنبيء ﷺ، لأنَّه أبلغ فــي التهويل، ولم يقل: وتصير الناس سكارى للإيذان بكمال ظهور تلك الحال، حتَّى لا تكاد تخفى عن كلِّ مبصــر، والمراد: تــرى حال الناس كحال الســكارى لكنَّهم ليســوا سكارى، ﴿وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ﴾ حال مؤكِّدة؛ أو «تَرَى» بمعنى تظنُّ وأزال الظنَّ بقوله: ﴿وَمَا هُمْ﴾ فلا تأكيد.

﴿**وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَــدِيدٌ**﴾ متعلِّق بقوله: ﴿وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ﴾ أي لكن شــدَّة العذاب صيَّرتهم كالســكارى، أو صيَّرتهم بحال تظنُّهم سكارى معها، ويبعد الاســتدراك على محذوف ما ذكر من الذهــول والوضع، ورؤية الناس

هيِّن ولكن عذاب الله شــديد، وهو عذاب النار والمحشــر، بخلاف ما ذكرت فإنَّ العذاب فيه هو نفس ما به الذهول والوضع والسكر.

﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُّجَادِلُ**﴾ ينازع ﴿**فِي اللهِ**﴾ في شأن الله بإنكاره، أو بجعل الشــريك وإنكار كتابه ورســوله، أو بوصف الله بغير صفته وإثبات الأباطيل ﴿**بِغَيْرِ عِلْمٍ**﴾ متعلِّق بـ«يُجَادِلُ» أو حال من ضميره.

[سبب النزول] ونزلــت في النضر بــن الحارث وكان خَصِمًــا، إذ قال: الملائكة بنات الله سبحانه، والقرآن أساطير الأوَّلين، وإنَّه سبحانه لا يقدر على إحياء الموتى، وفي أبي جهل وفي أُبي بن خلف.

وهي عَامَّة في كلِّ من يجادل في الله بغير علم، وخصوص السبب لا يمنع عموم اللفظ فالحكم بالعموم.

﴿**وَيَتَّبِعُ**﴾ في أقواله وأفعاله واعتقاده ﴿**كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ**﴾ متجرِّد عن الخير.

[لغة] شجرة مرداء: لا ورق فيها، ورملة مرداء: لا نبات فيها، ورجل أمرد: لا لحية له، وأمرد المكيال: مسح عليه كما تفعل قوم لوط في كيلهم، والمراد: إبليس وجنوده، وهو الظاهر، أو رؤساء الناس الداعون للعامة إلى الكفر.

﴿**كُتِبَ عَلَيْهِ**﴾ أي على الشــيطان ﴿**أَنَّهُ**﴾ أي الشــأن، أولى من عوده إلى الشيطان ﴿**مَن**﴾ شرطيَّة، والمقام للعموم كما هو شــأن الشرطيَّة، لا موصولة لأنَّ أصلهــا العهد وللاحتيــاج إلى زيادة الفــاء ﴿**تَوَلَّاهُ**﴾ والضمير المســتتر لـ«من» والهاء للشيطان، أي اتَّبَعَ الشــيطان وَاتَّخَذَه وَلِيًّا، أو بالعكس أي صار الشيطان واليا عليه، غالبا له.

﴿**فَأَنَّــهُ**﴾ أي الشــيطان ﴿**يُضِلُّــهُ**﴾ عــن الحقِّ الــذي هو طريــق الجنَّة ﴿**وَيَهْدِيهِ**﴾ يوصلــه ﴿**إِلَىٰ عَذَابِ السَّــعِيرِ**﴾ إلى عذاب النار المســعورة أي

الموقدة. وجملة «مَـن تَوَلَّاهُ...» خبر «أنَّ»، والمصــدر نائب فاعل «كُتِبَ» أي كتب عليه إضلال متولِّيه أو متولَّاه وهداه إلى عذاب الســعير. وجملة «كُتِبَ» ونائبه نعت «شَـيْطَانٍ». ومعنى ﴿كُتِبَ﴾ قضي وقدِّر، أو كتب عليه بالحروف أنَّه من تولَّاه... إلخ، أي رســم عليــه الإضلال والإيصال إلــى النار كتابة لا يتخلَّف عَمَّا فيها، وأصل الهداية أن تكون إلى الخير فاســتعمالها في الســوء استعارة تهكُّميَّة تمثيليَّة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ۞5 ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۞6 وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ۞7﴾

الاستدلال بخلق الإنسان والنبات على البعث

﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ**﴾ الكُفَّار بإنكار تحقُّق البعث ﴿**إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ**﴾ شكٍّ ﴿**مِّنَ الْبَعْثِ**﴾ من إمكان البعث، عبَّر بالريب مع جزمهم بالإنكار تلويحا إلى أنَّ إنكاره لوضوح دلائله كأنَّه لم يكن، وليست في شيء من الاحتمال، كما أنَّ التصدير بـ«إنْ» وتنكير «رَيْبٍ» تلويح إلى أنَّ حقَّه أن يضعف ويشكَّ فيه عندكم، لا أن ينكر، أو عبَّر بالريب مع جزمهم بالإنكار تنبيها على أنَّ جزمهم بالإنكار بمنزلة الشكِّ الضعيف، لقوَّة الدلائل.

و«من» بمعنى في متعلِّق بـ«رَيْبٍ» وعدل إليها لِئَلَّا تتكرَّر «في»، أو بمعنى الابتداء تتعلَّق بمحذوف نعت لـ«رَيْبٍ» واستظهر أنَّ المراد: في ريب من إمكان البعث، كما يدلُّ له إثبات الإمكان في قولــه: ﴿**فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ...**﴾ إلخ

وأجيز أن يكون المراد: في ريب من وقوع البعث، واعترض بمخالفته لما اتَّصَلَ به من إثبات الإمكان وتكرُّره مع قوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ﴾.

ويجاب بأنَّه لا تكرُّر لأنَّ هذا شكٌّ منهم في الوقوع، وأنَّ الله يبعث من القبور جزم من الله بالوقوع ردًّا عليهم، **وأيضا لو تكرَّر** لم يضرَّ، لأنَّ المراد التأكيد وللفصل، ولأنَّ المعنى: كيف تشكُّون في وقوع البعث مع أنَّه قد وقع خلقه لكم من تراب.

[نحو] والجملة تعليل نائب عن جواب الشرط، أي: أخطأتم في شكِّكم لأنَّا خلقناكم من تراب، أو معطوفة على جواب محذوف عطف إخبار على إنشاء هكذا: فانظروا إلى مبدإ خلقكم ليزول ريبكم فإنَّا خلقناكم من تراب، ومعنى خلقهم من تراب أنَّ أصلهم الذي تكوَّنوا منه من تراب وهو آدم، والأغذية التي تكوَّنوا منها من تراب.

﴿**ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ**﴾ منيٍّ، من النَّطْف وهو التقاطر، أو من قولهم للماء القليل الصافي نطفة، والمراد ما يشمل ماء الرجل وماء المرأة، ولو كان ماء الرجل أكثر، والمراد نطفة واحدة، وزعم بعض أنَّ المراد نطفة آدم ﴿**ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ**﴾ قطعة جامدة من الدم[1] متكوِّنة من النطفة ﴿**ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ**﴾ قطعة صغيرة من اللحم قدر ما يمضغ تكوَّنت من العلقة ﴿**مُّخَلَّقَةٍ**﴾ تعظم بعد فيكون إنسانا عظيم الجسم ﴿**وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ**﴾ يكون إنسانها صغير الجسم.

والتخليق إظهار أعضاء بعد أن كانت غير مظهرة، كسائر الترتيب، قبل أن تكون أوَّلا غير متبيَّنة الأعضاء ثُمَّ تكون متبيِّنة، وعلى هذا الأصل تقديم «غير مخلَّقة» على «مخلَّقة»، لكن أخِّرت لكونها عدم وجود والوجود أولى بالتقديم، والكلام في إيجاد ما لم يكن، والإيجاد في «مخلَّقة».

---

(1) يثبت العلم أنها مجموعة خلايا جنينية، وليست دمًا جامدًا؛ لأن الدم إذا تجمد يموت الجنين. ينظر: د. باحمد ارفيس: مراحل الحمل والتصرفات الطبية في الجنين. (المراجع).

[لغة] وعبَّر بالتخليق لا بالخلق لكثرة الأعضاء المختصِّ كلٌّ واحد منها بخلق وصورة، وقيل: المخلَّقة: المسوَّاة من النقص والعيب، يقال: خلَّق السواك أو العود سوَّاه وملَّسه، وصخرة خلقاء، وجبل أخلق: أملس، فمَن نطفتُه كذلك يخرج بدنه سويًّا حسنا منظرا وخصلة، وما نقص فيها ينقص منهما أو من أحدهما.

وقيل: المخلَّقة: التي تمَّت مدَّتها فولدت وغيرها ما سقطت، وليس في الآية شرط الحياة فهو مخلوق الصورة نفخ فيه الروح أو لم ينفخ.

قال ابن مسعود: إذا استقرَّت النطفة في الأرحام أخذها ملك الأرحام بكفه فقال: يَا رَبِّ أمخلَّقة أم غير مخلَّقة؟ فإن كانت غير مخلَّقة لم تكن نسمة وقذفها الرحم دما، وإن كانت مخلَّقة قال: يَا رَبِّ ذكر أم أنثى؟ شقي أم سعيد؟ ما الأجل؟ ما الأثر؟ ما الرزق؟ وبأيِّ أرض تموت؟[1].

ولا دليل في هذا القول الأخير لأنَّ ما يقذفه الرحم دما لا يقال إنَّه مراد بالخلق في قوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ﴾ نعم يقال من جنس هذه النطفة الموصوفة بالتامَّة والناقصة.

﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ اللام الأوَّل متعلِّق بـ«خَلَقْنَاكُمْ» وحذف المفعول للعموم وهذا الحذف بمنزلة قولك: لنبيِّن لكم ما لا تحصر عبارة تفاصيله، ومن ذلك أمر البعث، والدلالة عليه بإنشاء حيٍّ بأطوار متوالد من تراب.

وقدَّر بعض: لنبيِّن لكم أمر البعث، ولا بأس به، وزعم بعض أنَّ التقدير: لنبيِّن لكم أنَّ التخليق اختيار من الفاعل المختار، ولولا ذلك لم يصر بعض غير مخلَّق.

---

(1) وقد رواه **الربيع** في مسنده: ج3، رقم 801، باب ما جاء في الحجَّة على القَدَرِيَّة حديثا مرفوعا ما يقربه معنى.

﴿وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ﴾ من الأجنَّة، والعطف على جملة مستأنفة محذوفة والله أعلم هكذا: نخلقكم في الأرحام ونقرُّ ما نشاء ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وقت الوضع، وأقلُّه سِتَّة أشهر وأكثره عندنا وعند الشَّافِعِيَّة أربع سنين، وقال مالك: سنتان وكذا الحَنَفِيَّة، وإذا تحقَّق أنَّه في البطن حكم به بلا غاية ما دام متحقِّقا[1].

﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ﴾ من الأرحام ﴿طِفْلاً﴾ أطفالا يطلق على الجماعة والاثنين، كما يطلق على الواحد لأنَّ أصله مصدر طَفُل بالضمِّ على غير قياس بمعنى لان، وإذا أريد واحد جمع على أطفال، أو المراد الجنس، أو المراد طفلا طفلا كما يقال: اخرجوا رجلا رجلا فاختصر.

﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُواْ أَشُدَّكُمْ﴾ عطف على محذوف تقديره: نخرجكم لتكبروا شيئا فشيئا، ثمَّ لتبلغوا أو نمهلكم لتكبروا شيئا فشيئا، ثمَّ لتبلغوا، وجملة نخرجكم محذوفة مستأنفة غير مقرونة بـ«ثم».

[صرف] وقيل: المعطوف محذوف أي ثمَّ نمهلكم لتبلغوا، و«أَشُدَّ» مفرد بوزن الجمع، كـ«آنُك» ولا ثالث لهما، وهو أفعل بفتح الهمزة وإسكان الفاء وضمِّ العين، وأصل الشين السكون نقلت إليه ضمَّة الدال فأدغمت، أو جمع لا واحد له، أو جمع شذوذا لشِدَّة بكسر الشين كنِعمة وأنعم. أو لشَدٍّ بفتحها أو كسرها، وهو ما بين ثمانية عشر عاما إلى ثلاثين.

﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾ بعد الإخراج من الرحم، وقبل بلوغ الأشدِّ ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ﴾ أخسِّ ﴿الْعُمُرِ﴾ بالكبر بعد ما كان فيه بالطفولية ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ﴾ يعرف ﴿مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ مفعول مطلق أي علما مَّا، أو مفعول به أي شيئا من الأشياء، وذلك تقسيم لما بعد الإخراج بعد تقسيم ما قبله، و«مِن» للتبعيض.

---

(1) وقد توفَّر في عصرنا هذا من وسائل التحقيق ما يغني ويحسم الخلاف.

فالله ﷻ لم يذكر الأبعاض كلَّها، لأنَّ مـن المردودين إلى أرذل العمر من يعرف بعض الأشـياء. واللام للعاقبة والله عالم بها، ولم يسق الآية على معنى أنِّي أردُّه إلى أرذل العمر لأجل أن لا يعلم.

والله ﷻ ذكر أفضـل الأحوال وهو بلوغ الأشـدِّ، وأبدعها وهو الإخراج، وأسوأها وهو أرذل العمر، وبنى التوفِّي والردَّ للمفعول للعلم بالفاعل ﷾.

واحتجَّ للبعث أيضا بقوله: ﴿**وَتَرَى الَارْضَ هَامِدَةً فَـإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَآءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَـتْ وَأَنبَتَتْ مِـن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ**﴾ العطف على «إِنَّـا خَلَقْنَاكُمْ»، والخطاب لمن يتأتَّى منه الرؤية البصريَّة، أو للمجادل له ﷺ، ويجوز أن يكون له ﷺ، والمراد تنبيه غيره.

وخصَّ الإنزال لأنَّ ماء المطر أعمُّ إنباتا وأسـرع، ويبعد أنَّ الإنزال بمعنى الإرسال الشـامل له ولماء العين. وهمود الأرض: سـكونها بيبس واندراس، كما قابله باهتزاز، أي تحرُّكها بالنبات.

[بلاغة] شبَّه خلوَّها بالسكون والتباسـها به بالتحرُّك على الاستعارة، أو أسـند الاهتزاز إليها وهو للنبـات على المجـاز العقليِّ كما فـي «أَنبَتَتْ»، والإنبات فعل لله ﷻ، ويبعد أنَّ اهتزازها انفصـال بعضها عن بعض لخروج النبات، وكـذا الوجهان في «رَبَـتْ» أي ازدادت وانتفخت. والزوج: الصنف، والبهيج: حسن المنظر يسرُّ الناظر.

﴿**ذَالِكَ**﴾ الأمر البعيد المترتِّب العالي الذي هو خلق الإنسان أطوارا والإنبات بأنواع بهيجة ﴿**بِـأَنَّ اللهَ**﴾ أي ثابت بِأَنَّ اللهَ... إلخ والباء سَـبَبِيَّة، وإن قدَّرنا الخبر كونا خَاصًّا، أي مشـعر بأنَّ الله... إلخ لم تكن سَـبَبِيَّة، ولكـنَّ الكون الخاصَّ لا يحذف إلَّا لدليل. وقدَّر بعضهم: ذلك ليعلمـوا أنَّ الله... إلخ ﴿**هُوَ الْحَقُّ**﴾ الثابت وحده ثبوتا لا يحصل لغيره، لا يشاركه أحد في فعل ولا في قول، فهو القادر على البعث كما لا ينكره من عرف الولادة والنبات إلَّا عنادا أو إهمالا لعقله.

﴿وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ شـأنه تكريـر إحياء الأشـياء الموتى، كالأرض الميّتة، والنطفة والأطوار بعدها، وعزير وحماره، وغيرهما كما في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ [سـورة البقرة: 243] وكيف لا يقدر على إحياء الموتى يوم القيامة؟.

﴿وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَـيْءٍ قَدِيـرٌ﴾ قدرة بليغة إذ لم يقل قادر، وفيه مناسـبة الفواصل كما قُدِّم «كلِّ» للفاصلة، وإبراز تعميم القدرة.

﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ﴾ لوقتها المستقبل، واسم الفاعل أدلُّ على الثبوت من الفعل، ولذلك لم يقل: تأتـي ﴿لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ خبر ثـان لـ«أنَّ» أو حال من المسـتتر في «آتِيَةٌ» لا شكَّ فيها، والمعنى: ذلك بسـبب حقِّيَّة الله ذاتا وفعلا، وسـبب اعتياده الإحياء، وسـبب قدرته التَّامَّة على كلِّ شـيء، وسبب إتيان الساعة بلا ريب، وسبب بعثه من في القبور كما قال:

﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ﴾ لا بمعنى أنَّ إتيان السـاعة وبعث من في القبور مؤثِّران في خلقه الإنسان وإنباته الأرض تأثير القدرة فيها بل من حيـث إنَّ كُلًّا من إتيانها والبعـث داع بموجب رحمته للعبـاد إلى خلقهم وإنبات الأرض، وذلك بناء على حكمته البالغة، كأنَّه قيل: ذلك بسـبب أنَّه الموجود حقًّا، وأنَّه قادر على إحياء الموتى، وعلى كلِّ مقدور، وأنَّه حكيم، ولعدم ظهور السَّـبَبِيَّة في الآخريـن إلَّا بالتأويل قدَّر أبو حيـان: الأمر أنَّ الساعة آتية... إلخ.



﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ۝٨ ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ۝٩ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ۝١٠ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ۝١١ يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ۝١٢ يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ ۝١٣ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ۝١٤﴾

أحوال بعض الناس:

الجدال بالباطل والإيمان المضطرب، وجزاء المؤمنين الصالحين

﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُّجَادِلُ فِي اللهِ**﴾ أي في صفاته من القدرة ونحوها، وأفعاله من نحو البعث ﴿**بِغَيْرِ عِلْمٍ**﴾ كرَّر الآية تأكيدا لـذمِّ المجادل، وهو الأخنس بن شـريق عند محمَّد بن كعب، وأبو جهل عند ابن عبَّـاس، والنضر عند جماعة، قلت: أو كلُّهم، أو كرِّرت [الآية] لأنَّ في كلٍّ ما ليس في الأخرى، ويتخلَّص عن التكرير بجعل الـواو للحال من محـذوف، أي أوضحنا الأمـر والحال أنَّ من الناس من بقي على الجـدال، أو بجعل هذه في النضـر وأبي جهل والأخنس، والأولى في أتباعهم لقوله تعالى: ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾ والشيطان: الأخنس ونحوه، والمراد بالعلم [المنفيِّ] العلم بلا نظر وكسب. ﴿**وَلَا هُدًى**﴾ علم بنظر

واســتدلال موصل إلى العلم ﴿وَلَا كِتَابٍ﴾ موحى مــن الله ﴿مُّنِيرٍ﴾ موضح لما أبهم، وهو الحجَّة السمعيَّة، فليسوا على علم ضروريٍّ ولا كسبيٍّ ولا سمعيٍّ.

﴿ثَانِيَ﴾ حال من المســتتر في «يُجَادِلُ» أي: لَاوٍ ﴿عِطْفِـهِ﴾ جنبه، ولَيُّ الجنب كناية عن كِبْره وعدم قبوله، ويحتمل حقيقة اللَّيِّ لكن لَوَاه لِمَا ذُكر من الكبر وعدم القبول.

﴿لِيُضِلَّ﴾ متعلِّق بـ«يُجَادِلُ» وقــد يعلَّق بـ«ثَانِيَ» على أنَّ معناه ثناه ليتبع على ذلك الثنــي، والمعنى: ليضلَّ المؤمنيــن بالردَّة والشــاكِّين بأن يجزموا بالإنكار، والجازمين به بالبقاء عليه.

﴿عَن سَبِيلِ اللهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ جزاء على إضلاله، والجملة مستأنفة، ويجوز أن تكون حالا من ضمير «يُضِلَّ» مقارنة أي مستحقًّا الخزي.

[نحو] وكلُّ حال مقدَّرة ترجع بمعنى التأهُّل والاستحقاق والنية ونحوها إلى المقارنة، ونحو: مررت بزيــد اليوم صائدا غدا فيقدَّر بمعنــى: ناويا الصيد غدا، والنية مصاحبة له حال المرور، وما لم يعلمه يقدَّر منويًّا له ونحوه، كأنَّه علمه.

وقد أصاب القتل من أصاب يوم بدر، وأصابهم إفحام المؤمنين لهم إذ لا حجَّة لهم، وذلك إذلال والإذلال خزي.

﴿وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ النار البالغة في الإحراق، أو اســم طبقة منها، والإضافة فيهما من إضافة المســبَّب إلى السبب، وأجيز أن تكون من إضافة المنعــوت إلى النعت، أي العــذاب المحرق، وهو فــي ذلك كلِّه وصف في الحال، أو في الأصل، ويجوز أن يكون بمعنى الاحتراق.

﴿ذَلِكَ بِمَـا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ معمــول لحال مقدَّرة من ضميــر «نذيق» أي قائلين له: ذلك... إلخ، أو من الهاء أي مقولا له ذلك... إلخ. و«بِمَا» خبر أي ثابت بســبب ما قدَّمت يــداك من الكفــر والمعاصي، والأصل: بمــا قدَّمْتَ

بإسكان الميم وبتاء الخطاب وإسقاط «يداك»، ولكن أسند الفعل إلى اليدين لاعتياد الكسب بالأيدي.

[قلت:] ولا حاجة إلى تقدير: الأمر ذلك، فيبقى الباء بلا تعلُّق ظاهر، ولا إلى تقدير: فعلنا ذلك، وإن لم نقدِّر القول كانت الجملة مستأنفة على طريق الالتفات لتأكيد التشديد عليهم بالخطاب، والأصل: ذلك بما قدَّمت يداه.

﴿**وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ**﴾ أي ذلك بكسبك فقط لم يقترن معه ظلم الله لك بزيادة ما لم تفعل، ولا ذلك بمجرَّد ظلم الله لك دون عملك، وهذا من عموم السلب، و«ظلَّام» للنسب أي ليس بذي ظلم عظيم ولا حقير، ولا بذي ظلم قليل ولا كثير، قيل: أو المبالغة راجعة إلى نفي، أي انتفاء الظلم عنه انتفاء بليغا، وهو ضعيف لا نظير له.

وقدَّر بعض: ليس بظلام ولا بذي ظلم مَّا، إبقاء له على المبالغة، كما يجوز إبقاؤها على معنى هذا العذاب العظيم الذي أنتم فيه ليس ظلما من الله، ولو كان ظلما لكان ظلما عظيما حاشاه، وهما ضعيفان.

﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَّعْبُدُ اللهَ عَلَىٰ حَرْفٍ**﴾ طرف من الدين لا تشبُّث ولا توغُّل فيه.

[بلاغة] وفي «حَرْفٍ» استعارة مفردة، إذ شبَّه حاله في الدين بطرف الشيء، وليست الجملة استعارة مركَّبة تمثيليَّة، لأنَّ قوله: ﴿يَعْبُدُ اللهَ﴾ حقيقة على أصله، وإنَّما يجوز ذكر المشبَّه في الجملة التي يقال لها كناية، فإنَّه يجوز إرادة الحقيقة وغيرها فيها، ولو كان المعنى: إنَّه كالذي في طرف الجيش إن أحسَّ بظفر قرَّ، وإلَّا فرَّ، كما فسَّر ذلك بقوله سبحانه:

﴿**فَإِنَ اَصَابَهُ خَيْرٌ**﴾ كالرخاء والعافية، والولد والمال والصحَّة، مما يشتهيه، أو لم يخطر بباله ﴿**اطْمَأَنَّ بِهِ**﴾ ثبت على ذلك الطرف من الدين ﴿**وَإِنَ اَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ**﴾ كغلاء ومرض وخسارة وموت ولد مما يفتن به ﴿**انقَلَبَ**

عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾ رجع إلى الشـرك، شـبَّه الرجـوع بالانكباب علـى الوجه، أو بالذهاب إلـى الجهة المقابلة لوجهه، ولو حفرة أو بئرا أو سـبخة أو جبلا أو حريقا كالمنهـزم من حرب قلقا، فهو مقابل لـ«اطْمَـأَنَّ». وفي الانقلاب على الوجه استعارة اشتقَّ منها «انقَلَبَ».

[سبب النزول] قال ابن عبَّاس: كان الرجل يقدم المدينة فإن ولدت امرأته غلاما ونتجت خيله قال: هذا دين صالح، وإلَّا قال: دين سوء.

وضعَّف ابن حجر ما روي عن أبي سعيد: أسلم يهودي فذهب بصره وماله وولده، فقال لرسـول الله ﷺ: أقلني، أُصبت بالإسـلام، فقال ﷺ: «**الإسلام لا يقال، الإسلام يسبك الرجل كما تسبك النار خَبثَ الذهب والفضَّة والحديد**»[1] فنزلت الآية، ووجه ضعفـه أنَّ اليهود لا تعبد الأصنام، وقـد ذكرت في قوله: ﴿يَدْعُواْ مِن دُونِ اللهِ مَـا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنفَعُـهُ﴾ إلَّا أن يقال «مَا» لرهبانهم إذ كانوا معهم كالأصنام، وهو خلاف الأصل، ولو عبَّر بعد بـ«مَن» أيضا.

وقيل عـن ابن عبَّـاس: نزلت الآيـة في شـبيب بن ربيعة، أسـلم قبل ظهوره ﷺ وارتدَّ بعد ظهوره. وعن الحسن: في المنافقين.

﴿**خَسِرَ الدُّنْيَا وَالَاخِرَةَ**﴾ فاته ما يسرُّه فيهما، مستأنف أو بدل من ﴿انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾ بدل الشيء من الشـيء، أو عطف بيان على جوازه في الجمل، أو حال من ضمير «انقَلَبَ» ولو لم تكن فيه قد أو تقدَّر.

﴿**ذَلِكَ**﴾ الخسران البعيد جِدًّا، أو الانقلاب البعيد جدًّا، ولا يصحُّ ما قيل: إشارة البعد لكون المشار إليه غير مذكور صريحا، لأنَّ ذكر «انقَلَبَ» و«خَسِرَ» ذكرٌ له. ﴿**هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ**﴾ لا يشكُّ فيه.

﴿**يَدْعُـواْ**﴾ يعبد أو ينـادي للتخلُّص من شـدَّة ﴿**مِـن دُونِ اللهِ**﴾ فقوله:

---

(1) لم نقف على تخريجه، وقد أورده **السمعاني** في تفسيره، ج3، ص424، وقال: «والخبر غريب».

﴿يَدْعُواْ مِن دُونِ اللهِ﴾ اســتئنافُ ذِكرٍ لقُبحِ صنيعه، وبيانٌ لعظم خســرانه، أو حال من ضمير «انقلَبَ» ﴿مَا لَا يَضُرُّهُ﴾ من الأصنام، ولو لم يعبده أو كسره أو بال عليه ﴿وَمَا لَا يَنفَعُهُ﴾ ولو عبده.

﴿ذَلِكَ﴾ الدعاء ﴿هُوَ الضَّــلَالُ﴾ الخروج عن الطريــق في الأرض دون اهتداء إلــى حيث قصد، فالضــلال اســتعارة تصريحيَّة للخــروج عن الدين ﴿الْبَعِيدُ﴾ عن الاهتداء.

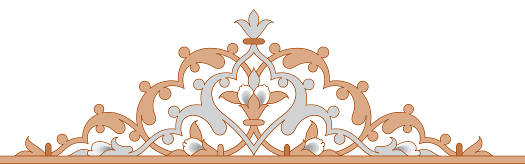
﴿يَدْعُواْ﴾ يقــول الكافر يوم القيامــة ﴿لَمَنْ ضَرُّهُ﴾ وهــو محقَّق، لأنَّهم معاقبــون على ذلك في الداريــن ﴿أَقْرَبُ مِــن نَّفْعِهِ﴾ لــو كان، واللهِ ﴿لَبِيسَ الْمَوْلَىٰ﴾ هو ﴿وَلَبِيسَ الْعَشِيرُ﴾ هو.

[نحو] وهذا كلُّه مفعول لـ«يَدْعُو» بمعنى يقول، واللام في «لَمَنْ» للابتداء وليســت جواب قســم كما رأيت، والقســم وجوابه خبر «مَن» الموصولة أو الموصوفة، وأجيــز أن يكون تأكيــدا لفظيًّــا لـ«يَدْعُو» الأوَّل فيكــون «لَمَن ضَرُّهُ...» من كلام الله ﷻ، وفيه أنَّ الأصل عدم التأكيد بالتكرير، وعدم فصل المؤكَّد، ولا سيما اللفظي.

﴿إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ﴾ أشجارا متكاثفة تجنُّ ما تحتها أي تســتره ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الَانْهَارُ﴾ تحت تلك الأشــجار المعبَّر عنها بالجنَّة.

[لغة] وإن أريــد بالجنَّة أرض دار الســعداء قدِّر مضــاف أي من تحت أشجارها، وإن أريد الأرض والأشــجار فالتحتية باعتبار الجزء الذي تكون به الأرض جنَّة وهو الشــجر، ويجوز ردُّ الضميــر في «تحتها» بمعنى الشــجر للجنات بمعنى الأرض على الاستخدام.

﴿إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ تعليل جملي لما قبله، وتقرير له بأنَّ ما يريده لا يتخلَّف، ومنه إثابة المؤمن وعقاب الكافر.



﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ⑮ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ ⑯﴾

حال اليائس من نصرة الله، وإنزال الآيات البيّنات

﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللهُ﴾ أي ينصر محمَّدًا ﷺ، عاد الضمير إليه ولو لم يذكره، لأنَّ الكلام فيه وله ومعه، فهو كالجبل الشامخ الذي لا يشتبه، أو الهاء لـ«مَن». أي من كان يظنُّ أن لا ينصره الله فيغتاظ لعدم نصره فليخنق نفسه.

والجمهور على أنَّها للنبيء ﷺ وبه قال ابن عبَّاس والكلبي ومقاتل والضحاك وقتادة وابن زيد والسدِّي والزجَّاج، ويرجِّحه أن مشركي العرب لا يقرُّون بالآخرة وهي مذكورة بقوله: ﴿فِي الدُّنْيَا وَالَاخِرَةِ﴾ فكيف يطمعون أن ينصروا فيها وفي الدنيا؟ اللهمَّ إلَّا إن يطمعوا على فرض أن تكون، أو يراد من أقرَّ بها منهم كأميَّة، أو يقال: المراد اليهود.

[قلت:] والصحيح أنَّها له ﷺ، فمن أقرَّ بها أو فرضها وظنَّ أنَّه ﷺ لا ينصر في الدنيا ولا في الآخرة، أو لا ينصر في الدنيا أو لا ينصر في الآخرة.

﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ اِلَى السَّمَآءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾ ينصر الله ﷻ نبيئه ﷺ ودينه وأتباعه ويثيبهم ويعاقب أعداءه دنيا وأخرى ومن غاظه ذلك فليستفرغ جهده في الكيد، فلن يصرفه عن ذلك الموعود لهم، فلا يبقى له إلَّا أن يقتل نفسه فيرجع كيده عليه.

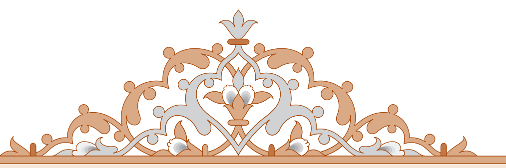
والباء صلة فالمعنى: فليمدد سببا أي حبلا، أو للإلصاق على معنى فليتمسَّك. و«السماء» سقف البيت، يعلَّق الحبل به، ويجعل عنقه في ربقة منه بحيث يختنق لعدم وصول رجله الأرض، ويقطع نَفَسَه ـ بفتح النون والفاء ـ أو أجَلَه، فحذف المفعول، ولا يقدَّر: فليقطع الحبل، إذ لا فائدة في قطعه.

والنظر: التدبُّر على سبيل الفرض فقط، لأنَّ الميِّت لا تدبُّر له، أو المأمور بالنظر غيره من الأحياء، فيكون ذلك تهكُّما به، كما أنَّ لفظ الكيد تهكُّم، أو ذلك تشبيه بالكيد لأنَّ هذا غاية ما يقْدِر، والكائد يأتي بغاية ما يقدر عليه، وذلك خلاف الظاهر لأنَّهما أمران مقرونان لا دليل على صرف أحدهما لغير ما صرف إليه الآخر.

أو لينظر ذلك المادُّ للحبل قبل فعل ذلك هل يفيده ذلك شيئا لو فعله؟. أو «السماء» إحدى السماوات وهي الأولى يطلع إليها بحبل ليقطع الوحي، أو النصر أو المسافة.

وقيل: الآية في مسلمين استبطؤوا النصر فليختنقوا غيظا، أو يطلعوا فيأتوا بالنصر، وقيل: قوم مِن أسلم وغطفان أحبُّوا الإسلام وخافوا من حلفائهم اليهود، واستبطؤوا، وفي القولين أنَّ الاستبطاء ليس نفيا للنصر بطريق الظنِّ نعم قريب منه. و«ما» مصدريَّة أو اسم، أي ما يغيظه.

﴿**وَكَذَلِكَ**﴾ مثل إنزال لهذه الحكم ﴿**أَنزَلْنَاهُ**﴾ أي أنزلنا سائره ﴿**ءَايَاتٍ**﴾ حال ﴿**بَيِّنَاتٍ**﴾ واضحات ﴿**وَأَنَّ اللهَ يَهْدِي مَن يُّرِيدُ**﴾ أي الأمر أنَّ الله يهدي من يريد، أو أنزلناه كذلك لأنَّ الله يهدي من يريد، أو عطف على الهاء، فالمعنى: أنزلنا أنَّ الله يهدي من يريد، وهداية الله من ضلال أو إثبات على الهدى، أو زياد فيه، والمراد الأوَّل فقط، أي من يريد هدايته وإلَّا لزم استعمال اللفظ في معانيه أو في حقيقته ومجازه.



﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿17﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿18﴾ ﴾

الفصل بين الأمم، وخضوع كلِّ ما في الكون لعزَّة الله

﴿**إِنَّ الذِينَ ءَامَنُواْ**﴾ بما يقول محمَّد ﷺ عَنَّا ﴿**وَالذِينَ هَادُواْ**﴾ أصحاب التوراة القائلين: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ [سورة الأعراف: 156] أو المنتسبين إلى يهوذا ـ فعرِّب بإهمال الذال ـ ﴿**وَالصَّابِينَ**﴾ هم قوم يعبدون الملائكة ويصلُّون إلى الكعبة ويقرؤون الزبور، أو قوم يزعمون أنَّهم على دين نوح، وقبلتهم من مهبِّ الشمال فليست الكعبة، وقيل: قوم يصبون من دين إلى دين، أو أخذوا مطائب التوراة والإنجيل، أو خرجوا من دين إلى دين وكانوا على عهد إبراهيم وأفحمهم، قيل: ومنهم عبدة الكواكب ومنهم عبدة الأصنام.

﴿**وَالنَّصَارَى**﴾ قالوا نحن أنصار الله، أو نزلوا قرية تسمَّى ناصرة ﴿**وَالْمَجُوسَ**﴾ قال قتادة: هم قوم يعبدون الشمس والقمر والنيران، وقيل: يعبدون الشمس والقمر، وقيل: يعبدون النيران، وقيل: قوم اعتزلوا النصارى ولبسوا المسوح، وقيل: أخذوا من دين النصارى وأخذوا من دين اليهود، وقالوا: للعالم أصلان نور وظلمة، وهم قبل اليهود والنصارى، وهم يعظِّمون النار أنزل عليهم كتاب فعاجلوه بالإنكار، فذهب.

وأصل مجوس صغير الأذنين أو نابت الشعر فيهما، قيل: هو معرب مكئوس، وقيل: معرَّب ميخ كوش، وقيل: إنَّه معرب موكوش، وإنَّه أطلق عليهم لأنَّهم يرسلون شعورهم إلى آذانهم.

﴿وَالذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ بعبادة الأصنام أو غيرها ممن لم يسمَّ صابئا ولا مجوسيًّا، أو بإنكار الله أو بإهماله لم يخطر له ولم يعبد غيره.

﴿إِنَّ اللهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ بإدخال الذين آمنوا واليهود التابعين للتوراة والنصارى التابعين للإنجيل الجنَّة، وغيرهم ومن أدرك القرآن ولم يؤمن والصابين والمجوس والذين أشركوا النار، كلٌّ في طبقة غير طبقات الآخرين.

[نحو] وجملة «إنَّ» واسمها وخبرها خبر «إنَّ» الأولى ولا مانع من ذلك، فلا حاجة إلى تقدير خبر للأولى أي مفترقون، وحسَّنَ إعادةَ «إِنَّ» طولُ الفصل، ولا قبح ولو لم يطل، نحو: إنَّ زيدا إنَّ أباه قائم. ﴿إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ حاضر له بعلمه، فالجملة تعليل جملي لقوله «يَفْصِلُ».

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ألم تعلم يا من يتأتَّى منه العلم. والآية بيان لقوله: ﴿إِنَّ اللهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾ بتعذيب فريق بعمله وإهانته، وإثابة آخر بعمله وإكرامه، أو تقرير لقوله: ﴿شَهِيدٌ﴾ أو تفريع على اختلاف الكفرة مع وجود الصارف إلى الإيمان.

﴿أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الَارْضِ﴾ ينقادون له في خلقه إيَّاهُم وتصرُّفه فيهم، لا يتعاصون، أو السجود مجاز عن دلالة لسان حال الأشياء بذلَّتها وافتقارها على صانعها وعظمته ﷻ. و«مَن» عمَّت العقلاء وغيرهم، فعطفُ قولِه: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَآبُّ﴾ عطفُ خاصٍّ على عامٍّ لشهرة هذا الخاصِّ، واستبعاد الجاهل إذعانه بالسجود، ولأنَّه عبد من دون الله.

عبدت حِمْير الشـــمس، وكنانة القمـــر، وتميم الدبـــران، ولخم وقريش الشعرى، وطيِّء الثريا، وأســـد عطارد، وربيعة المرزم، وأكثر العرب الأصنام المنحوتة من الحجر، وقد ذكر الجبال، وغطفان العزَّى وهي شجرة، وقد ذكر الشجر، ومن الناس من عبد البقر، وقد ذكر الدوابَّ.

[نحو] ﴿**وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ**﴾ فاعل لمحذوف أي ويسجد له كثير من الناس ســجود الصلاة والتلاوة والشــكر والدعاء، دلَّ عليه «يَسْــجُدُ»، ولو اختلف معناهما لحصول الملازمة والمناســبة، لأنَّ في سجود العبادة سجود الانقياد، فهو كقولك: «زيدا ألبســت غلامه»، أي أكرمت زيدا، و«عمرو ضربت غلامه» أي أهنت عمرا، فليــس كقولك: «زيد ضارب بالعصا وعمــرو» تريد: وعمرو ضارب، أي مسافر فضلا عن أن يمنع.

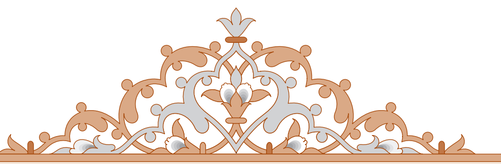
ولــك العطف بلا تقدير فــإنَّ المعنى: يســجد له بالانقيــاد الناس كلُّهم وغيرهم، وكثيــر منهم بالانقياد بســجود الوجــه أيضا، بل قــد أجاز بعض استعمال المشــترك في معنييه، وبعض اســتعمال اللفظ في حقيقته ومجازه، ويجوز تقدير: وكثير من الناس حقَّ له الثواب، مقابلة لقوله:

﴿**وَكَثِيرٌ حَــقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ**﴾ ويبعد التفســير بقولــك: وكثير من الناس المعتبرين لتقواهم وصلاحهم وغير المتقي كأنَّــه ليس من الناس، كما تقول: «زيد الرجل» تريد الكمــال، على أن يكون «كَثِيرٌ» مبتــدأ و«مِنَ النَّاسِ» خبر. ويجوز أن يعطف عليه «كَثِيرٌ» الثاني، وخبرهما «حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ» كما تقول: «لي ألف وألف» أي ألوف، والوجهان ضعيفان بعيدان. بل «كَثِيرٌ» مبتدأ خبره «حَــقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ» أي لا يســجد، فالمعنى: وكثير من الناس يســجد عبادة وكثير لا يسجد، فعبَّر عنه بـ﴿حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ وهو لازمه وسببه.

ويجوز ـ على بعد ـ عطف «كَثِيرٌ» على «كَثِيرٌ»، على أنَّ «حَقَّ...» نعت الثاني، وكلاهما ساجدٌ عبادةً، لَكِنَّ الثاني سبقت له الشقاوة، أو يسجد لله ويسجد للأصنام.

[قلت:] والكلام على الجنِّ كالكلام على الإنس، لأنَّ الصواب القول بأنَّهم مكلَّفون، وزعم بعض أنَّ الناس الجنَّ، وورد في كلام العرب نحو جاء ناس من الجنِّ.

﴿**وَمَنْ يُّهِنِ اللّٰهُ**﴾ بالخذلان والشقاوة لعمله ﴿**فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ**﴾ يسعده ﴿**اِنَّ اللّٰهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ**﴾ من إكرام وإهانة وغيرها.



﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ۖ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿19﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿20﴾ وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿21﴾ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿22﴾ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿23﴾ وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ ﴿24﴾﴾

مصير الكافرين والمؤمنين يوم القيامة

﴿**هَذَانِ خَصْمَانِ**﴾ الفريق المؤمن والفريق الكافر الشامل للخمس، قاله ابن عبَّاس رضي الله عنه ومجاهد وعطاء والحسن وعاصم والكلبي، وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عبَّاس أنَّهما اليهود والمؤمنون.

وأخرج البخاري[1] ومسلم والترمذي وابن ماجه والطبراني وغيرهم عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه أنَّه كان يُقسم أنَّ الآية في الثلاثة: حمزة وعبيدة بن الحارث وعلي، والثلاثة المحاربين لهم يوم بدر: عتبة وشيبة ابني ربيعة، والوليد بن عتبة.

وقيل: الجنَّة والنار، واعترض الأقوال الثلاثة بقوله تعالى: ﴿**اخْتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمْ**﴾ لأنَّ اختصام الجنَّة والنار بِأَنَّ النار تقول: خلقني الله للأقوياء الجبَّارين،

(1) رواه **البخاري** في كتاب التفسير (3) باب: ﴿هَـذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾، رقم 4743، من حديث أبي ذر.

والجنَّة: خلقني الله لأحبابه، والثلاثة قاتلــوا الثلاثة بلا خصام، واليهود قالوا: نحن أفضل لقدم ديننا ونبيئنا، والمؤمنــون قالوا: نحن أفضل لأنَّا آمنا بنبيئكم وكتبكم، كما آمنَّا بنبيئنا وكتابنا، وأنتم كفرتم بهما حســدا، وليس شــيء من ذلك اختصاما في الله، وقد يجاب بأنَّه يستلزم الخصام في الله.

﴿**فَالذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ**﴾ شدِّد للمبالغة ﴿**لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ**﴾ طبقات منها متراكمة على قدر أجسامهم، كتراكم الثياب بعض على بعض، وليس في ذلك استعارة تمثيلية بل الاستعارة في «ثياب» فقط.

وعن سعيد بن جبير: إنَّ الثياب قطع من نحاس مذاب وإذا حمي في النار النحاس فلا شــيء أحرَّ منه، وهي كسوة قبيحة كما قال وهب: يكسى بها أهل النار والعري خير لهم، ثمَّ إن كانت تلك الطبقات أو ذلك النحاس مقطَّع قبل نــزول الآية فالماضي علــى حقيقته في المضــي ونفس التقطيــع، وإلَّا أريد بالتقطيع القضاء بها، أو إعدادها في اللوح المحفوظ وعلمِه تعالى، فالماضي على حقيقته في المضيِّ، مجاز في التعبير عن الإعداد.

أو القضاء بالمسبَّب واللازم عن السبب والملزوم، والنار والجنَّة وجدتا الآن وليس في ذلك تعبيــر بالماضي لتحقُّق وقوعه، علــى أنَّه لا مانع من أنَّهما موجودتــان، والتقطيع مؤخَّر إلى يوم القيامــة، فيكون عبَّر بالماضي لتحقُّق الوقوع بعد. واللام للاســتحقاق، أو للفائدة تهكُّما بهم، أو للتعليل على حذف مضاف أي لتعذيبهم، وكــذا في قوله: ﴿وَلَهُم مَّقَامِعُ﴾ ويضعف أن تكون فيهما بمعنى على.

﴿**يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ**﴾ الماء البالغ النهاية في الحرارة، إذا طلبوا الماء للشرب أو خطر في بالهم، لو سقطت منه نقطة على جبال الدنيا كلِّها لأذابتهــا، ذكره ابــن عبَّاس، وهو المشــهور. وقال ســعيد بن جبير: النحاس المذاب.

وذكر «مِن» بيانا لتشـــديد الصبِّ بأنَّــه يعمُّ الفوق كلَّــه، وتلويحا إلى أنَّه ينتهي أثره إلى أســـفله. والجملة مســـتأنفة أو حال مقدَّرة من هاء «لهم» لأنَّ الصبَّ لم يوجد الآن ولو وجد التقطيع، أو خبر ثان للذين.

﴿**يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ**﴾ يذاب ويسال أمعاؤهم وأحشاؤهم، أو أريد بالبطون الباطن، فشـــمل الحلق والحلقوم، وتلا أبو هريرة هذه الآية فقال: ســـمعت رســـول الله ﷺ يقول: «**إنَّ الحميـــم ليصبُّ على رؤوســـهم فينفذ الجمجمة** ـ أي الرأس وما تحته ـ **حتَّى يخلص إلى جوف أحدهم، فيسلت ما في جوفه، حتَّـــى يمرق من قدميه وهـــو الصهر، ثمَّ يعـــاد كما كان**»[1]. ويســـتثنى القلب لأنَّه لا موت في النـــار ولا في الجنَّة، وليـــس المراد أنَّه يســـلت الجوف، ويبقى الجسد بل يسلت الجوف في ســـائر البدن، فيبقى العظم والقلب.

ألا ترى إلى قولـــه: ﴿**وَالْجُلُودُ**﴾ فكما يصهر الجلـــد يصهر اللحم تحته. وأخَّر الجلد للفاصلة، وصرَّح بعض بأنَّ الآية على ظاهرها، وهو صهر الجلد دون اللحم تحتها. والعطف على «ما»، وقدَّر بعضهـــم: وتحرق الجلود، لأنَّ الجلود لا تذاب بل تجتمع في النار، فذلك كقولـــه: «علفتها تبنا وماء باردا»، والماء لا يعلف فيقدَّر: وســـقيتها، قلت لا حاجة إلى ذلـــك بل خلق الله ذلك الحميم يصهر الجلود **وأحكام تلك الدار ليست كهذه.**

وفسَّر بعضهم الصهر بالنضج كقوله: تصهره الشمس ولا ينصهر، فناسب الجلد بلا تأويل، لكن يحتاج إلى ذكر الإسالة كما ذكر في الحديث، فالصهر بمعنى الإســـالة أولى. ﴿**وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ**﴾ المفرد مقمعة أو مِقْمَع وهو آلة الضـــرب أعلاها غليـــظ، وهي آلة القمـــع أي الردع، وفسِّـــرت بالمطارق

---

(1) رواه **الترمذي** في كتاب صفة جهنَّم (4) باب ما جاء في صفة شـــراب أهل النار، رقم 2582. ورواه **أحمد** في مسند المكثرين من الصحابة، رقم 8647. من حديث أبي هريرة.

وبالسياط، قال ﷺ: «**لو وضع مقمع منها في الأرض لم يقدر الثقلان على رفعه**»[1]، وهو في يد الملك كالريشة.

﴿**كُلَّمَآ أَرَادُواْ أَنْ يَّخْرُجُواْ مِنْهَا**﴾ ترفعهم بلهبها حتَّى يقربوا من موضع الخروج منها فيريدون الخروج، وهذا أولى من حمل الإرادة على القرب ﴿**مِنْ غَمٍّ**﴾ أي للغم العظيم كما يفيده التنكير، متعلِّق بـ«أَرَادُوا» أو بـ«يَخْرُجُوا». و«مِن» الأولى للابتداء، وإن جعلنا «مِنْ غَمٍّ» بدل اشتمال من الضمير في «مِنْهَا» أي من غمِّها أو غمٍّ فيها كان «مِن» فيه أيضا للابتداء. والغمُّ: الهمُّ، وأجيز أن يكون التغطية، يقال: غمَّه أي غطَّاه، أي من تغطيتها ﴿**اعِيدُواْ فِيهَا**﴾ أي في قعرها بالمقامع، فيهوي فيها سبعين خريفا ولم يخرجوا منها، لأنَّه لا خروج منها.

[أصول الدين] وزعم بعض أنَّهم يخرجون ويعادون فيها ولا دليل له، والنصُّ على أن لا يخرجوا، وقيل: ﴿أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ بمعنى أبقوا، والله ﷻ يقول: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُواْ أَنْ يَّخْرُجُواْ﴾ ولم يقل: كلَّما خرجوا، ولا دليل على تقدير: كلَّما أرادوا أن يخرجوا فخرجوا، ولا أنَّه عبَّر عن الخروج بإرادته وهو سببه، وأمَّا قوله: ﴿أُعِيدُوا فِيهَا﴾ فمعناه أعيدوا في قعرها، وزعم بعض أنَّ الخروج من أماكنهم فيها، وزعم بعض أنَّ الضمير في «منها» للثياب وكذا في «فيها».

﴿**وَذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ**﴾ أي وقيل لهم ذوقوا عذاب الحريق.

﴿**إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الذِينَ ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الَانْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنَ اَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا**﴾ يحلِّيهم الله بواسطة الملائكة أو بدون واسطة بأن يطير إليهم ذلك بإذن الله سبحانه، أو تحلِّيهم الملائكة بأمر الله ﷻ.

[نحو] و«مِنَ اَسَاوِرَ» نعت لمفعول ثان محذوف، أي يحلَّون فيها حليًّا

(1) رواه **البيهقي** في البعث والنشور، باب ما جاء في ثياب أهل النار، رقم: 537، ص299.

ثابتا من أساور، أو شيئا ثابتا من أساور، أو أساور ثابتة من أساور من ذهب، أو من مفعول به ثان مضاف لـ«أَسَاوِرَ»، أو «أَسَاوِرَ» مفعول ثان و«مِنْ» صلة في الإثبات، في قول، و«مِنْ ذَهَبٍ» نعت لـ«أَسَاوِرَ» أي ثابتة من ذهب، أو متعلِّق بنعت هو كون خاصة، أي موصوغة من ذهب. و«لُؤْلُؤًا» معطوف على المفعول الثاني في تلك الأوجه كلِّها، وإن جعلنا «من» للابتداء لا للتبعيض وعدَّينا «يحلَّى» لواحد قدَّرنا: يعطَون لؤلؤا.

﴿**وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ**﴾ خلقة من الله لا حرير دود، ومعلوم أنَّه لا بدَّ من اللباس لا كالحليِّ، ولا ندري ممَّ هو، فقال الله ﷻ: إنَّه حرير، وهذا لكون الكلام جملة اسميَّة أدلُّ على الثبوت، ولذلك وللفاصلة جيء بالاسميَّة بعد الفعليَّة، ولم يقل: يلبسون من حرير مع أنَّه يصحُّ أن يكون يلبسون من حرير جوابا لقولك ممَّ يلبسون؟ وذلك عامٌّ لأهل الجنَّة.

روى ابن حبَّان والنسائي عن أبي سعيد عنه ﷺ: «**من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة، وإن دخل الجنَّة لبسه أهل الجنَّة، ولم يلبسه**»[1]. ولعلَّ قوله: «وإن دخل الجنَّة...» زيادة من راو باطلة، ويدلُّ لهذا رواية البخاري ومسلم عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ: «**من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة**»[2] بمعنى أنَّه ليس من أهل الجنَّة.

---

(1) رواه **ابن حبَّان** في صحيحه باب: ذكر البيان بأنَّ لابس الحرير في الدنيا في كلِّ وقت محرَّم لبسه في الجنَّة إذا دخلها، رقم 4513 من حديث أبي سعيد. ورواه **النسائي** في كتاب الزينة (90) باب التشديد في لبس الحرير... رقم 5319 من حديث عبد الله بن الزبير (الشطر الأوَّل منه).

(2) رواه **البخاري** في كتاب اللباس (25) باب: لبس الحرير وافتراشه للرجال، رقم 5834، من حديث ابن الزبير. ورواه **مسلم** في كتاب اللباس والزينة (2) باب تحريم استعمال إناء الذهب وَالفِضَّة... رقم 2073، من حديث أنس.

هكذا كنت أقول حتَّى رأيــت البيهقي قال عن ابــن الزبير عنه ﷺ: «**من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة، ولم يدخل الجنَّة**»[1].

[فقه] وذلك أنَّ لبسه من الكبائر فلا يحســن التأويل بأنَّه لا يدخلها مع السابقين، مع أنَّ التأويل بلا مرجِّح له غير مقبول، وعلى صحَّة الزيادة وعدم ثبوت رواية البيهقي لا يكون ذلك إلَّا للتائب، وعدم لبسه لقصور درجته عن درجة من لم يلبسه كســائر تفاوت الدرجات بتفاوت الأعمال، وذكر بعض أنَّ من استحلَّ الحرير بالتأويل يلبسه في الجنَّة.

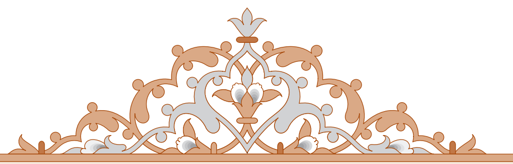
﴿**وَهُدُواْ إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ**﴾ في الجنَّة هو ﴿الْحَمْدُ للهِ الذِي أَذْهَبَ عنَّا الْحَزَنَ...﴾ إلىَ: ﴿...لُغُوبٍ﴾ [سـورة فاطر: 34] و﴿الْحَمْـدُ للهِ الذِي صَدَقَنَا...﴾ [سورة الزمر: 74] وقيل: ذلك وســائر ما يتحاورون به في الجنَّة، وقيل: قولهم في الدنيــا: «لا إله إلَّا الله والْحَمْــدُ للهِ، واللهُ أكبر» وســائر الأذكار والقرآن والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

﴿**وَهُدُواْ**﴾ في الجنَّة ﴿**إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيــدِ**﴾ طريق هو الطريق المحمود علــى أنَّ الإضافة للبيــان، أو صــراط الله الحميد، أي المحمــود، أو الحامد للمؤمنين حمــدا عظيما لهــم، أي المُثنى عليهــم، وهي الأقــوال والأفعال والمعاشرة الجاريات بينهم في الجنَّة.

أو هدوا في الدنيا إلى صراط الله الحميد وهو دينه، كما قال: ﴿إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [سـورة إبراهيم: 1] أو «**صِرَاطِ**» هو دينه المحمود، أو طريق الجنَّة وهو الإســلام، أو الصراط: الطريق إليها في الأرض، كما قال في الأشــقياء: ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [سورة الصافَّات: 23].

---

(1) رواه **البيهقي** في كتاب الصلاة (516) باب نهي الرجال عن ثيــاب الحرير، رقم 4203، من حديث ابن الزبير. بدون لفظ «لم يدخل الجَنَّة» وإنما هي من زيادة ابن الزبير.



﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (25) وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (26) وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (27) لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (28) ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (29)﴾

جزاء الصادِّين عن المسجد الحرام، وهداية إبراهيم لمكانه

﴿إِنَّ الذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَآءٌ الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِي وَمَنْ يُّرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ اَلِيمٍ﴾ خبر «إنَّ» محذوف يقدَّر بعد «أَلِيمٍ» هكذا: هلكوا أو خسروا.

[نحو] ولا بأس بهذا القول لأنَّه بالعطف والنعت وصلة النعت من حال أو تفسير. وذلك أنَّ «المسجد» معطوف على «سَبِيلِ» أو «اللهِ»، و«الذي» نعت كـ«الْحَرَامِ» و«جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ» صلة، و«سَوَاءٌ» خبر مقدَّم لـ«العَاكِفُ» و«البَادِي»، والجملة مفعول ثان، و«لِلنَّاسِ» متعلِّق بـ«جَعَلْنَاهُ» أو هو الثاني، والجملة حال أو مفعول ثان متعدِّد، وجملة الشرط بعدُ معطوفة على الصلة كقولك: أعجبني الذي أكرمك ومن أساء إليه عفا عنه، تريد: أعجبني الجامع بين الإكرام والعفو.

[سبب النزول] ومعنى «يَصُدُّونَ» صدُّوا، لأنَّها نزلت في أبي سفيان إذ صدَّ النبيء ﷺ عن مكَّة عام الحديبيَّة، فالمضارع لاستحضار ما مضى.

[قلت:] ومما وفِّقت لاستخراجه أنَّ في مواضع من القرآن التعبير عن الفعل الواقع مرَّة بصيغة التكرير لأنَّ صاحبه من شأنه أن يكرِّره، ولو لم يكرِّره، فتحتمله الآية.

والمسجد الحرام: مكَّة كلُّها، وعبَّر عنها بجزئها الأعظم المراد بالذات، والعاكف: المقيم، والبادي: الحادث، والإقامة ليست في المسجد بل في مَكَّة، فهي المراد بالمسجد.

[فقه] ويجوز بيع دور مكَّة وأرضها وكراؤها أَوْ لَا، أو أرضها، أو جاز في غير الموسم، أقوال.

و«إلحاد» مفعول، والباء صلة، أو المفعول محذوف أي يرد شيئا. والإلحاد: العدول عن الحقِّ، و«بِظُلْمٍ» متعلِّق به.

[فقه] ومن الإلحاد فيه احتكار الطعام فيه، كما جاء في الحديث، ودخوله بلا إحرام، والهمُّ فيها بمعصية ولو لم يفعلها، وقيل: الإلحاد الشرك، وتضاعف السيِّئة فيها وتكتب إرادتها، وجعل ابن عمر منزلا في الحرم وآخر في الحلِّ فقيل له؟ فقال: لأنَّ الحسنة في الحرم أفضل فهو يصلِّي فيه والخطيئة فيه أعظم فهو حال غير العبادة في الحلِّ. والحرم مما يلي المدينة ثلاثة أميال، ومما يلي العراق والطائف واليمن سبعة، ومما يلي جدَّة عشرة، ومما يلي جعرانة تسعة.

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ «إذ» مفعول به لـ«اذكر»، أي واذكر للكفرة الصَّادِّينَ عن سبيل الله والمسجد الحرام وقت تبوِئَتنا لجدِّهم إبراهيم مكان الكعبة، وتبوئة البيت له: جعله مباءة، أي مرجعا للعمارة والعبادة عنده؛ أو بيَّنَّا مكان البيت له ليبنيه ويكون مباءة له ولعقبه للعبادة والحجِّ.

[قصص] لَمَّا أمره الله ببنائه أمر الله له الريح فكشفت له أساسه وهو البناء الثاني، والأوَّل: بناء الملائكة من ياقوتة حمراء، رفع عند الطوفان.

[سيرة] والثالث: بناء قريش والنبيء ﷺ شابٌّ، وَاتَّفَقُوا بعد نزاعهم فيمن يضع الحجر الأسود، فكان على أوَّل من يخرج من هذه السكَّة، فخرج ﷺ، فقالوا: هذا الأمين، فوضعوه في ثوب ومسكوا بأطرافه فرفعوه فطلع ﷺ فوضعه، والرابع: بناء عبد الله بن الزبير بنى فيه الحجر الحطيم، والخامس: بناء الحجَّاج ردَّه كما كان فأخرج الحطيم[1]. وجمع البيت بيوت، والنظم أبيات لا بيوت، نصُّوا على ذلك.

﴿**أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا**﴾ «أن» تفسيريَّة لأنَّ في «بَوَّأْنَا» معنى القول دون حروفه لأنَّ التبوِئة للعبادة، فكأنَّه قيل: أمرنا أن لا تشرك بي شيئا، أو لأنَّ «بوَّأنا» بمعنى قلنا له: تبوَّأ. والخطاب لإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، كما قرئ: «أن لا يشرك» بالتحتية، وكما قال: ﴿وَأَذِّن﴾، وقيل: للنبيء ﷺ، والصحيح الأوَّل.

﴿**وَطَهِّرْ بَيْتِيَ**﴾ من الأوثان والأوساخ والأنجاس والمعاصي ﴿**لِلطَّآئِفِينَ**﴾ به ﴿**وَالْقَآئِمِينَ**﴾ المصلِّين عنده ﴿**وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ**﴾ جمع ساجد خصَّهما مع دخولهما في القائمين إظهارا لشأن الخضوع بالانحناء، ولم يعطف السجود لأنَّ السجود والركوع كليهما انحناء، أو خصَّهما تلويحا بأنَّ مجموعها مستحقٌّ للتبوئة أو التطهير كما استحقَّه القيام، أو بأنَّ صلاة هذه الأمَّة اشتملت عليهما وعلى القيام.

[قصص] ﴿**وَأَذِّن**﴾ ناد ﴿**فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ**﴾ بأمر الحجِّ، روي عنه ﷺ: لَمَّا فرغ من بنائه قال: يا ربِّ فرغت. قال: أذِّن بالحجِّ، قال: يَا رَبِّ ما يبلغ

---

(1) راجع الجزء الأوَّل، ص245، ففيه الحديث عن تاريخ بناء الكعبة. وفي سنة 1997 وقعت ترميمات فيها في عهد الملك فهد بن عبد العزيز.

صوتي؟ قال: عليَّ إبلاغه، قال: يَا رَبِّ ما أقول؟ قال: قل: «يا أَيُّهَا الناس كتب الله عليكم الحجَّ إلى البيت العتيق» فسمعه أهل السماوات والأرض، ألا ترى كيف يجيئون يلبُّون من أطراف الأرض؟ ولا يحجُّ إلَّا من لبَّى يومئذ من الأصلاب والأرحام والموجودين.

قيل: وأوَّل من أجاب أهل اليمن وقبلهم نبيئنا ﷺ، وكان نداؤه على أبي قبيس واضعا إصبعيه في أذنيه، أو على الحجر أو الصفا أو على الصفا فتطاول به كأعلى جبل، أو على المقام فتطاول كذلك، روايات. ولعلَّ النداء تكرَّر. وقيل: «أذِّن» خطاب له ﷺ بالتأذين في حجَّة الوداع، ولا دليل عليه.

﴿**يَاتُوكَ**﴾ يأتوا بيتك، أو ضمن معنى يجيبوك ﴿**رِجَالاً**﴾ مشاة جمع راجل بمعنى ماش ﴿**وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ**﴾ أي وراكبين على كلِّ بعير هزيل لطول السفر، ولم يقل رجالا راكبين، ليدلَّ على كثرة الآتين من الأماكن البعيدة.

[فقه] واستدلَّ بعض على أنَّه لا حجَّ على من لا يجد الحجَّ إلَّا بالبحر بالآية إذ لم يذكره، ويردُّه أنَّ عدم ذكر الشيء لا يوجب سقوطه، وبأنَّ أهل البحر يأتون مكَّة بعد الخروج منه رجالا وعلى كلِّ ضامر، وأيضا يجوز الحجُّ على نحو حمار وبغل مع أنَّه لم يذكره.

وبدأ بالمشي لأنَّه أفضل، وعن ابن عبَّاس: ما آسى على ما فاتني إلَّا الحجُّ راجلا، وقد كبرت الآن وربِّي بدأ به، وإنَّ رسول الله ﷺ قال: «للحاجِّ راكبا بكلِّ خطوة تخطوها دابَّته سبعون حسنة، وللماشي بكلِّ خطوة سبعمائة حسنة من حسنات الحرم»، وحسنة الحرم مائة ألف حسنة. ولفظ «كلِّ» للمبالغة.

﴿**يَاتِينَ**﴾ ضمير الإناث للجماعات من الرجال والركبان وليس فيه تغليب لأنَّ الجماعات لفظ مؤنَّث، وقيل: الضمير لـ«كلِّ» أو لـ«ضَامِرٍ» المتَّصف

بِالكُلِّيَّةِ. ﴿مِن كُلِّ فَجٍّ﴾ «كُلِّ» للمبالغة، و«الفـجُّ» الطريق مطلقا، وأصله بين الجبلين ﴿عَمِيقٍ﴾ بعيد على وجه الأرض طولا، وأصله البعيد سفلا.

﴿لِّيَشْهَدُواْ﴾ ليحضروا متعلّق بـ«يَاتُوكَ»، ويجوز تعليقه بـ«أذِّن»، والأوَّل أولى لقربه، وجـاز التنازع. ﴿مَنَافِعَ﴾ عظيمة كثيرة، ولذلـك نكّر، والمراد الدنيويَّة والأخرويَّة، وسـاغ الدنيويَّة إذ لم تقصد بالذات، والمقصود بالذات الأخرويَّة، وذلك المرويُّ عن ابن عبَّاس الروايـة الصحيحة، وعنه: الدنيويَّة، وهي لحوم الأضاحي ونحوها وربح التجر، **وهو ضعيف**، لأنَّه لا يصحُّ النداء لأجلها، ولا يمدح الآتي لأجلها، وأولـى منه أنَّها الأخرويَّة رضوان الله وثوابه ﴿لَهُمْ﴾ نعت «مَنَافِعَ».

﴿وَيَذْكُرُواْ اسْـمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ الْاَنْعَامِ﴾ الثمانية عند ذبحها بأن يقولوا: «بسم الله أكبر» أو يزيدوا: «اللهمَّ منك ولك عنِّي» أو عن فلان أو فلانة.

[فقه] والأيَّـام أربعـة: يوم النحـر وثلاثة أيَّـام بعده، وهـو الصحيح، لقوله ﷺ: «**أيَّام التشـريق كلُّها أيَّام ذبح**»[1] وعليه الحسـن، أو يومه ويومان بعده عند عمر وابنه وعليٍّ وابن عبَّاس وأنس وأبي هريرة، إذ قالوا: أيَّام النحر ثلاثة أفضلها أوّلها، وعند النخعـي: وقت النحر يومان، وابن سـيرين: يوم، وأبي سلمة وابن يسار: إلى هلال محرَّم.

وقيل: المعلومات عشـرة ذي الحجَّة. والذكر في هـذه الأربعة حمد الله وشكره عند الذبح وغيره، واليوم يشمل الليل، فجاز الذبح على الصحيح فيه ويحذر الخطـأ، وقال: ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ﴾ تسـهيلا للتقـرُّب إليه ﷻ بأنَّه هو رازقهم بها، والذكر عليها مشعر بالذبح ففرَّع على ذلك قوله ﷻ:

(1) رواه **أحمد** في مسـند المدنيين، رقم 16309، من حديث جبير بن مطعـم بلفظ: «وكلُّ أيَّام التشريق ذبح».



﴿**فَكُلُواْ مِنْهَا**﴾ ليس هذا التفاتا لأنَّه أمر ولو لم يكن الالتفات لقيل فيأكلوا منها، وليست مرادا بل إباحة الأكل بعد تحرُّج الجَاهِلِيَّة والشرع، إذ قال ﷺ: «**كنت نهيتكم عن لحوم الأضاحي فكلوا وادَّخروا وأطعموا**»[1] والأمر بعد النهي للإباحة لا للوجوب، وقيل: يجب الأكل وقيل: يندب.

﴿**وَأَطْعِمُواْ الْبَآئِسَ**﴾ صاحب البؤس، وفسَّره بقوله: ﴿**الْفَقِيرَ**﴾ وخصَّ بعض هنا البائس الذي يسأل ويجوز إطعام الغنيِّ لأنَّ صاحبها يأكل منها غنيًّا أو فقيرا.

﴿**ثُمَّ لِيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ**﴾ ليقطعوا ما طال من الأظفار وشعر العانة والإبط والرأس، والقضاء في الأصل القطع، كما يطلق على الفصل بالحكم، أو هو هنا أداء ما وجب من إزالة ما ذكر، قيل: سُمِّيَ القطع قضاء لمضيِّ زمان ذلك.

وقيل: قضاء التفث: أفعال الحجِّ كلُّها، وذلك لأنَّ التفث الوسخ، والمحرم لا يخلو عنه، ففعل ما ذكر من خروج عن التفث، فسمِّي بالتفث للجوار أو التسبُّب.

﴿**وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ**﴾ ما وعدوه من أفعال الخير في الحجِّ كالذبح والصدقة والصلاة في مواضع مخصوصة، وقصدها للزيارة ﴿**وَلْيَطَّوَّفُواْ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ**﴾ ليتطوفوا، أبدلت التاء طاء فأدغمت، وهو أبلغ من طوَّفوا، وهو طواف الإفاضة، ولا حجَّ لمن تركه، وقيل: طواف الوداع واختلف أهو من المناسك؟.

روى البخاري والترمذي والحاكم والطبراني عن عبد الله بن الزبير عنه ﷺ: «**سمَّى الله البيت العتيق لأنَّه أعتقه من الجبابرة ولم يظهر عليه جبَّار قط**»[2].

---

(1) روى ما يقاربه لفظا **الترمذي** في كتاب الأضاحي (14) باب ما جاء الرخصة في أكلها بعد ثلاث، رقم 1510، من حديث بريدة عن أبيه. **النسائي** في كتاب الفرع والعتيرة (2) باب ما جاء في تفسير العتيرة، رقم 4241، من حديث نبيشة. **ابن ماجه** في كتاب الأضاحي (16) باب ادِّخار لحوم الضحايا، رقم 3219، من حديث نبيشة. مع زيادة في آخره.

(2) أخرجه **البخاري** في تاريخه الكبير: مج 1، ق1، ص 201. و**الحاكم** في «مستدركه» كتاب التفسير (22) باب في تفسير سورة الحج، رقم 602/3465، من حديث عبد الله بن الزبير.

[قصص] وقصده تبّع بالهدم إذ قيل له كذبا: فيه كنز فأشير إليه بأنَّه مولد نبيء آخر الأنبياء، وأنَّ له ربًّا يحميه فكساه، وهو أوَّل من كساه، وقيل: أصابه الفالج فتركه، وقصده أبرهة فأصابه ضرٌّ وأنت خبير بقصَّة أصحاب الفيل، وأمَّا هدم الحَجَّاج فليخرج منه ابن الزبير إذ التجأ إليه وليردَّه كما كان، وليس أخذ القرامطة الحجر الأسود وبقاؤه عندهم سنين تملُّكا له، وإلقاء الحبشة أحجاره في البحر آخر الزمان من أشراط الساعة لا يرد نقضا.

وعن مجاهد: سمِّي عتيقا لأنَّه لم يملك موضعه قطُّ، أو لأنَّه لم يصبه الطوفان، وابن جبير: لأنَّه جَيِّد، كما يقال: فرس عتيق، وعن الحسن وابن زيد: **لقدمه، إذ هو أوَّل بيت وضع للناس**، وقيل: لإعتاقه من طاف به.

[فقه] ولا يجوز الطواف بغير الكعبة ولو بالمسجد النبوي، ولو بالبيت المقدس، وأهل يسجن يطوفون بمسجد عند شعبة يُقال لها مومو وبمسجد فوق جبل أبي العباس يطوفون بهما سبعا تعظيما وتضرُّعا وتبرُّكا وهو بدعة محرَّمة[1]، وكذا أهل غرداية يطوفون سبعا بمسجد ويطوفون سبعا بسارية في المكتب [أي المحضرة]، وأظنُّ ذلك قد تُرك، ولا حجَّة لذلك، **فهو حرام، وذلك عجيب يطاف على مسجد كأنَّه كعبة ولا يخافون العقاب!!** ومثل ذلك ما يفعله [بعض] أهل المغرب الأقصى من محاكاتهم أضرحة الشيوخ لبيت الله الحرام من جعل الكسوة لها، وتحديد الحرم على مسافة معلومة، بحيث يكون من دخل تلك البقعة من أهل الجرائم آمنا، وسَوْق الذبائح لها على هيئة الهدي، واتِّخاذ الموسم لها كلَّ عام[2].

(1) كان ذلك في زمان الشيخ رَحِمَهُ اللهُ أمَّا الآن فلم يبق لذلك أثر.

(2) ولا يزال كثير من ذلك في مواضع من الجزائر أيضا!.

﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ (30) حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ (31) ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ (32) لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ (33) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ (34) ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ (35) ﴾

تعظيم حرمات الله وشعائره وبشارة المخبتين الصابرين

﴿**ذَلِكَ**﴾ أي الأمر ذلك أو امتثلوا ذلك، وهو مقرِّب للاقتضاب من التخلُّص ﴿**وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللهِ**﴾ ما يحترم شرعا من فعل الواجب وترك المحرَّم في الحجِّ وغيره، وقيل: ﴿حُرُمَاتِ اللهِ﴾ المشعر الحرام، والمسجد الحرام، والبيت الحرام، والشهر الحرام، والمحْرِم حتَّى يحلَّ من إحرامه ﴿**فَهُوَ**﴾ أي تعظيمه ﴿**خَيْرٌ لَّهُ**﴾ منفعة له وإثابة ﴿**عِندَ رَبِّهِ**﴾ يوم القيامة، وإضافة الربِّ إليه تشريف له.

﴿**وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الاَنْعَامُ**﴾ الثمانية ذبحا وأكلا وانتفاعا بأجزائها غير الدم ﴿**إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ**﴾ في تحريمه من نحو الميتة وما أهلَّ لغير الله به، والمضارع لاستحضار ما مضى ليشاهد، أو للاستمرار لأنَّه يتلى مرَّة بعد

أخرى، وإن أريد بـ«ما» قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ [سورة المائدة: 3] كان الاستثناء منقطعا لأنَّ فيه ما ليس من الأنعام.

﴿فَاجْتَنِبُواْ الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ ترتيب على تحريم ما هو دونها، كالميتة المستثناة بـ«إلَّا» أو تسبَّب على «أُحِلَّتْ» فإنَّ إحلالها نعمة توجب الشكر، ومجانبة الأوثان.

[فقه] والرجس: هو الأوثان. و«مِن» للبيان. وأوجب اجتنابها من كلِّ وجه لا عبادتها فقط، فلا تصنع ولا تشترى ولا تباع ولا تمسك ولا تبقى، ولا تعظَّم بوجه مَّا.

﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ الكلام المائل عن الحقِّ، كتسمية الأوثان آلهة وتحريم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وقولهم في الطواف: «لبَّيك اللَّهُمَّ لبَّيك لا شريك لك إلَّا شريكا تملكه وما ملك» وكلُّ كذب، وشهادة الزور. قال ابن مسعود: انصرف رسول الله ﷺ من صلاة الصبح فقال قائما: «**عدلت شهادة الزور الإشراك بالله تعالى**»(1) ثلاث مرَّات فتلا الآية.

﴿حُنَفَآءَ لِلهِ﴾ مائلين لوجه الله أو إلى دين الله عن كلِّ دين، وكلِّ معصية ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ شيئا بعبادة أو رياء، ونحوهما مما خرج عن الإخلاص، كالأكل بالدِّين. و«غَيْرَ» حال من واو «فَاجْتَنِبُوا».

﴿وَمَنْ يُّشْرِكْ بِاللهِ﴾ أظهر [لفظ الجلالة] بيانا لقبح الشرك ﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَآءِ﴾ إحدى السبع أو عال سقط منها، وهذا تشبيه للإيمان بالسماء لعظم شأنه، والإشراك بالحضيض الأوهد لخسَّته عقلا وشرعا.

---

(1) رواه **الترمذي** في كتاب الشهادات (3) باب ما جاء في شهادة الزور، رقم 2300. ورواه **أبو داود** في كتاب الأقضية، باب في شهادة الزور، رقم 3599. من حديث خريم بن فاتك. مع زيادة في آخره.

وذلك بالارتداد أو الخروج عن إقرار يوم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [سورة الأعراف: 172] وعن الفطرة إذ كلُّ مولود يولد على الفطرة، أو عن الإيمان المقدور عليه جدًّا حتَّى كأنَّه وقع وخرج عنه.

[بلاغة] والاستعارة إمَّا تمثيليَّة فهي مركَّبة كأنَّه قيل: من أشرك بالله فقد أهلك نفسه إهلاكا ليس بعده، بأن صوَّر حاله بصورة حال من خرَّ من السماء فاختطفه الطير، فتفرَّق قطعا في حواصلها، أو عصفت به الريح حتَّى هوت به في بعض المهالك البعيدة، وإمَّا استعارة إفراديَّة بأن شبَّه الإيمان في علوِّه بالسماء، والذي أشرك بالله بالساقط من السماء، والأهواء المردية بالطير المختطفة، والشيطان الذي هو يوقعه في الضلال بالريح التي تهوي بما عصفت به في بعض المهاوي المتلفة.

﴿**فَتَخَطَّفُهُ الطَّيْرُ**﴾ تأخذه بسرعة للأكل، والأصل: فتختطفه الطير قلبت التاء طاء وأدغمت في الطاء، والمضارع لاستحضار الحال العجيب، كما في قوله سبحانه ﴿**أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ**﴾ والأصل: فاختطفه الطير أو هوت به الريح، بصيغة الماضي كما قال: ﴿خَرَّ﴾ ﴿**فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ**﴾ بعيد يموت فيه جوعا وعطشا، أو بأكل السباع إن لم يمت بالسقوط.

[بلاغة] والشيطان المضلُّ كالريح المهوية، والباء للتعدية أي تهويه الريح. و«أو» للتخيير، شبَّهه بالخارِّ من السماء أو بمن تهوي به الريح، أو للتنويع: نوع لا يرجى خلاصه كمن أكلته الطير، ونوع يرجى وهو الساقط، ونوع شاكٌّ ينتقل من كفر إلى كفر كمن توزعته الطير، وكلَّما أخذ طائر قطعة نازعه آخر فيها، ونوع مصمِّم معجب بما هو فيه، كمن سقط في مكان بعيد واستقرَّ فيه، والهلاك جامع لذلك. والكلام على فرض قدرة الطير على ذلك لأنَّ الكلام تشبيه لا تحقيق، أو على فرض طير كبار، أو هي كذلك بين السماء والأرض لا نراها لبعدها ولا تنزل للأرض.

﴿**ذَلِكَ**﴾ الأمر ذلــك، أو امتثلوا ذلك الأمر باجتنــاب الرجس وقول الزور ﴿**وَمَنْ يُّعَظِّمْ شَعَآئِرَ اللهِ**﴾ البدن والهدايا للذبح والمفرد شعيرة أو شعارة، سمِّيت لما فيه من علامة الحجِّ، أو علامة طاعة الله أو أثر الجرح بيانا أنَّها لذلك.

وتعظيمها: قصد أعظمها وأغلاهــا ثمنا كما أهدى ﷺ مائة بدنة فيها جمل لأبي جهل في أنفه حلقة من ذهب، وعمر بدنة طلبت منه بثلاثمائة دينار فأراد بيعها فيشتري بدنا كثيرة فنهاه ﷺ عن بيعها.

[قلت:] وذلك أصحُّ، لا ما قيل: الشــعائر الصفا والمروة والبدن والجمار والمســجد الحرام وعرفة والركن، أو الديــن كلُّه ﴿**فَإِنَّهَــا**﴾ أي تعظيمها أي تعظيمه إِيَّاهَا.

[نحو] فحصل الربط بالضميــر المقدَّر العائد إلى «مــن» أو الرابط «ال» النائبة عن الضمير، أو يقدَّر: تقوى القلوب منهم أو منه، ويجوز الربط بالعموم في ذوي تقوى القلوب. والجملة جواب، أو يقدَّر الجواب: يُثَبْ ثَوَابًا لا يُكْتَنَه لأنَّ تعظيمها ﴿**مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ**﴾ تقوى ذوي القلوب، وقدَّر بعض: من أفعال ذوي تقوى القلــوب. و«مِن» للابتــداء أو للتبعيض، وقيل: فهــم متَّقون لأنَّ تعظيمها من تقوى القلوب.

﴿**لَكُمْ فِيهَا**﴾ أي في الشــعائر المعلَّمة للذبح ﴿**مَنَافِــعُ**﴾ كركوبها ولبنها ووبرها وصوفها وشعرها ونســلها وإعارتها ولا تكرى إجماعا فيما قيل ﴿**إِلَىٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى**﴾ وقت تسميتها هديا، [قلت:] والذي عندي وقت نحرها ثمَّ رأيته للشــافعي ثمَّ تذكَّرت أيضا قوله ﷺ: «**اركبوا الهــدي بالمعروف حتَّى تجدوا ظهرا**»[1] وقوله ﷺ لرجل مرَّ به يســوق الهدي وهو فــي جهد: «**اركبها**» فقال:

---

(1) رواه **النســائي** في كتاب المناســك (76) باب ركوب البدنة بالمعروف، رقم 2801، و**مسلم** في كتاب الحج (65) باب جواز ركوب البدنة المهداة لمن احتاج إليها، رقم 376. من حديث جابر.

يا رسول الله، إنَّها هدي، فقال «**اركبها ويلك**»[1]، والحديث السابق كالنصِّ في أنَّ الجهد في الثاني ليس قيدا، وقيل: قيد، والآية ظاهرة في أنَّ الأجل المسمَّى وقت الذبح لأنَّ الضمير عاد إليها على الإطلاق.

﴿**ثُمَّ مَحِلُّهَآ**﴾ مصدر ميميٌّ، أي وجوبها، أي وجوب نحرها، مِن «حَلَّ الدَّيْنُ»: وجب، أو اسم زمان ميميٌّ، أي وقتها، أي وقت نحرها، والعطف على «مَنَافِعُ». و«ثُمَّ» للتراخي الزمانيِّ باعتبار أوَّل زمان الثبوت، أو للتراخي الرتبيِّ، أي لكم فيها منافع دنيويَّة إلى أجل مسمًّى، وبعده منافع دِينيَّة مقتضية للثواب الأخروي.

﴿**إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ**﴾ متعلِّق بحال محذوف أي منتهية إلى البيت العتيق، أي إلى مقارب الكعبة وهو فجاج منى وفجاج مَكَّة، كما قال ﷺ: «**كلُّ فجاج مَكَّة منحر وكلُّ فجاج منى منحر**»[2].

وعلى أنَّ الشعائر مواضع الحجِّ يكون المعنى: لكم في تلك المواضع منافع الأجر والثواب بأداء ما وجب فيها إلى أجل مسمًّى، وهو انقضاء أَيَّام الحجِّ، ثمَّ محلُّ الناس من إحرامهم منتهٍ إلى الكعبة، لطواف الزيارة.

﴿**وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا**﴾ عطف على قوله تعالى: ﴿**لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ**﴾، قيل: أو على ﴿مَن يُعَظِّمْ...﴾. والمنسك اسم مكان ميميٌّ، أي موضع النسك، أي مذهبا من طاعته تعالى، أو مصدر ميميٌّ أي نفس النسك، والنسك العبادة مطلقا، وقيل: المراد هنا الذبح تقرُّبا إلى الله ﷻ وقال قتادة: الحج.

(1) رواه **البخاري** في كتاب الحج (103) باب ركوب البدن، رقم 1689 و1960. و**النسائي** في كتاب المناسك (74) باب ركوب البدنة، رقم 2799. من حديث أنس.

(2) رواه **الدارمي** في كتاب المناسك (50) باب عرفة كلُّها موقف، رقم 1879. وأوَّل الحديث عنده هو: «إنَّ رسول الله ﷺ رمى ثمَّ قعد للناس، فجاءه رجل فقال: يا رسول الله إني حلَّقت قبل أن انحر، قال:...». ورواه **أبو داود** في كتاب المناسك باب الصلاة بجمع، رقم 1936 و1937. من حديث جابر مع اختلاف في اللفظ.

﴿**لِّيَذْكُرُواْ اسْمَ اللهِ**﴾ خَاصَّةً لقوله: ﴿فَإِلَٰهُكُمُۥٓ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ وقوله: ﴿اجْتَنِبُواْ الرِّجْسَ مِنَ الَاوْثَانِ﴾. ﴿**عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ الَانْعَامِ**﴾ عند ذبحها.

﴿**فَإِلَٰهُكُمُۥٓ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُواْ**﴾ لأنَّ إلهكم إله واحد ترتيب للإسلام على وحدانيَّته ﴿**وَبَشِّرِ**﴾ يا محمَّد ﴿**الْمُخْبِتِينَ**﴾ المطمئنِّين بالإسلام اطمئنانا يترتَّب عليه التواضع وانتفاء الظلم منهم للناس، وعدم الانتصار إذا ظلمهم غيرهم، والرضا بقضاء الله سبحانه، والاجتهاد في العبادة، من الإخبات وهو نزول الخبت وهو ما اطمأنَّ من الأرض، وفي ذلك مناسبة للحاجِّ.

﴿**الذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ**﴾ ذكروه في قلوبهم بإلهام أو سماع ﴿**وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ**﴾ خافت خوف إجلال لإشراق نور الجلال عليها ﴿**وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ**﴾ ممَّا يشقُّ على النفس من مشاقِّ التكليف والأمراض والمصائب والغربة عن الوطن، وفي ذلك مناسبة للحاجِّ.

[قلت:] ولا يجوز الصبر على ما فيه إهانة الدين بل يدفع ولو بقتال.

﴿**وَالْمُقِيمِي الصَّلَوٰةِ**﴾ الآتين بها على الوجه المستقيم من طهارة وحضور القلب، وفيه مناسبة للحاجِّ لأنَّ السفر مظنَّة الإخلال.

﴿**وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ**﴾ قدِّم للفاصلة والتنبيه على أنَّ الله هو الرازق ﴿**يُنفِقُونَ**﴾ في وجوه الخير، كالضحايا والهدي والإنفاق على الفقراء في الحجِّ، وإقراض المستحقِّ فيه. والجملة معطوفة على صلة «ال» وهي وصف، ولو كانت «ال» الموصولة هذه لا تدخل على الجملة إلَّا ضرورة أو نادرا، ويجوز جعلها حالا من المستتر في «الْمُقِيمِي» على تقدير قد، أو اكتفاء بفصل «مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ».

﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝36 لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ ۗ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ۝37﴾

التسمية عند الذبح والأكل والإطعام منها

﴿وَالْبُدْنَ﴾ جمع بدنة، بقرة أو بعير، ذكرا وأنثى، تنحر بِمَكَّةَ هديا كالضحية من الغنم، وسمِّيت لأنَّها تسمَّن ثمَّ تهدى، فهي عظيمة البدن.

روى مسلم عن جابر: «**كُنَّا ننحر البدنة عن سبعة فقيل: والبقرة فقال: هي من البدن**»[1]. وعن مجاهد والحسن: «ليست منها» روى أبو داود عن جابر عن رسول الله ﷺ: «**البدنة عن سبعة والبقرة عن سبعة**»[2] ويجمع بأنَّ الأصل والأكثر استعمالها في الإبل وقلَّ في البقر، أو هي منها حكما في الأجر لا لغة.

﴿**جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَآئِرِ اللهِ**﴾ علامات دينه ﴿**لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ**﴾ دنيوي وديني عند ابن عبَّاس، وعن السدِّي: ديني.

(1) رواه **مسلم** في كتاب الحج (62) باب الاشتراك في الهدي... رقم 1318، من حديث جابر، مع اختلاف في اللفظ.

(2) رواه **أبو داود** في كتاب الضحايا باب في البقر والجزور رقم 2809. وأول الحديث عنده هو: «نحرنا مع رسول الله ﷺ بالحديبية للبدنة عن سبعة...» من حديث جابر.

﴿فَاذْكُرُواْ اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا﴾ عند النحر «بسم الله والله أكبر اللَّهُمَّ منك ولك»، وقال أبو حيان: «الله أكبر لا إله إلّا الله والله أكبر اللَّهُمَّ منك وإليك». ﴿صَوَآفَّ﴾ كلُّ واحدة قائمة صفَّت ثلاثة أرجل وتعقل اليد اليسرى عند الجمهور كما يفعله النبيء ﷺ، كما رواه ابن أبي شيبة وأبو داود عن ابن سابط الصحابي [والده][1]، وعن ابن عمر اليمنى وعن عطاء: أيهما شئت. وهو حال من مجرور «على».

﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ سقطت على الأرض، كناية عن الموت، أو ﴿وَجَبَتْ﴾: ثبتت بلا تحرُّك جنب منها وذلك موتها، ولم تجر عادة بذبح البقر قائمة بل مضطجعة، وقلَّما نحر البعير مضطجعا عند الأوائل فترجَّح أنَّ البدن الإبل.

﴿فَكُلُواْ مِنْهَا﴾ ثلثا ومنه الادّخار للأكل ﴿وَأَطْعِمُواْ الْقَانِعَ﴾ ثلثا والمراد الجنس، فشمل القانعيْن وما فوقهما.

[لغة] وهو الراضي بما يعطى ولا يسأل، أو بما عنده، والفعل قَنِع يقنع كفرح يفرح، أو هو الساتر لفقره بعدم السؤال كالقناع الساتر للرأس ﴿وَالْمُعْتَرَّ﴾ ثلثا، والمراد الجنس وهو المتعرِّض للسؤال وهو يسأل، وقيل: القانع السائل، والفعل كسألت الله أسأله كقوله:

وما خنت ذا عهد وأبت بعهده ولم أحرم المضطرَّ إذ جاء قانعا[2]

والمعترُّ: المتعرض بلا سؤال، وعن سعيد بن جبير: القانع أهل مَكَّة والمعترُّ غيرهم، وعن مجاهد: الجار ولو غنيًّا، وقيل: الصديق الزائر، **والصحيح الأوَّل.**

---

(1) عبد الرحمٰن بن سابط من الطبقة الوسطى من التابعين جمحي النسب أقام وتوفي بِمَكَّةَ سنة 118هـ. ثقة كثير الإرسال. موسوعة الحديث الشريف الكتب التسعة، (قرص مدمج).

(2) البيت لعدي بن زيد في ديوانه، ص145. شواهد اللغة، ج4، ص23800.



والقسمة بالثلث لابن مسعود، وقيل عن محمَّد بن جعفر من ذرِّيَّة فاطمة: للقانع والمعتر ثلث، ولأهلي ثلث، وللبائس الفقير ثلث. ويروى: ادَّخِرْ ثلثا وكلْ ثلثا وتصدَّق ثلثا. وعن سعيد بن المسيّب: للبائس الفقير والقانع والمعترِّ ثلاثة أرباع، ولك الربع قيل: وهو مضطرب. **ولا يأكل مِمَّا هو كَفَّارَة.**

﴿**كَذَٰلِكَ**﴾ التسخير لها الذي شاهدتم حتَّى قويتم على عقلها ونحرها مع شدَّة قوَّتها ﴿**سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ**﴾ أثبتناها بعد، ويبعد أنَّ المعنى سخرناها لكم كما أمرناكم بذلك، وإنَّما قلت ما ذكر لأنَّه لا يشبَّه الشيء بنفسه، وأولى من ذلك أن يقال: سخَّرناها لكم على الكَيفِيَّة التي شاهدتم ﴿**لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾ إنعامنا بالتقرُّب مخلصين، ونفعها لكم.

ولا حاجة لله بها كما قال: ﴿**لَنْ يَّنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا**﴾ فينتفع بها، أو لن تصيب رضا الله بل تصيبونه بالتقوى كما قال: ﴿**وَلَٰكِن يَّنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ**﴾ بجعلها من حلال وإخلاصها، وقيل: أرادوا بسط اللحم حول الكعبة ونضحها بالدم تعظيما لها كالجاهليَّة، فنزلت الآية.

﴿**كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ**﴾ كرَّره تذكيرا للنعمة كقوله: أنعمت عليكم أنعمت عليكم، فانتبهوا، وتعليلا بقوله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿**لِتُكَبِّرُواْ اللَّهَ**﴾ لتعتقدوا كبرياءه لقدرته على ما لا يقدر الخلق عليه فتوحِّدوه، بصفاته وأفعاله، أو لتقولوا: «الله أكبر» عند الإحلال أو التذكية ﴿**عَلَىٰ مَا هَدَٰيكُمْ**﴾ «ما» مصدريَّة، والتقدير: على هدايته إِيَّاكم، متعلِّق بـ«تُكَبِّرُوا» لتضمُّنه معنى تشكروا أو تحمدوا، أو التقدير: لتكبِّروا الله شاكرين أو حامدين على هدايته إيَّاكم، أو «عَلَى» للتعليل.

﴿**وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ**﴾ العابدين الله بتوحيدهم له، والإخلاص في قولهم وفعلهم، كأنَّهم يشاهدونه، حاشاه عن إمكان مشاهدته.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ٣٨ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ٤١﴾

دفاع الله عن المؤمنين وأسباب مشروعية القتال

﴿**إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الذِينَ ءَامَنُواْ**﴾ المفاعلة للمبالغة كمًّا وكيفًا، أي يدفع دفعا عظيما كثيرا مرّة بعد أخرى الكفَّار الصادِّين عن سبيل الله عن المؤمنين، ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ﴾ [سورة المائدة: 64]، ولا نسلِّم أنَّ المقام ليس للعموم وإن سلَّمنا فالعموم مشعر بالمقصود بالذات.

﴿**إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ**﴾ كلام مستأنف، يتضمَّن أنَّ دفعهم على وجه الخزي لأنَّه لا يحبُّهم، وأن دفعهم لخيانتهم وكفرهم، وأنَّ أحبَّاءه المؤمنون لا هم، والنفي لعموم السلب إذ لا يوجد كافر إلَّا مبالغا في الكفر والخيانة، لأنَّ كفرة واحدة تتضمَّن العموم، وليس فيها ما يحتقر، والخيانة في أمر الله سبحانه ونهيه ومنه خيانتهم للناس والكفر في النعم.

﴿**اذِنَ**﴾ أذن الله ﷻ في القتال كما دلَّ عليه قوله: ﴿**لِلذِينَ يُقَاتَلُونَ**﴾ للمؤمنين الذين يقاتلهم المشركون ﴿**بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ**﴾ متعلِّق بـ«أُذِنَ»، أي

أمرهم بالقتال بسبب أنَّهم مظلومون. يأتونه ﷺ متظلِّمين، ما بين مشجوج ومضروب، فيقول: «**اصبروا لم أومر بالقتال**» وقد نهي عنه في نيِّف وسبعين آية في دعوى من يقول: كلُّ أمر بالصبر نهي عن القتال، ولَمَّا هاجروا نزلت هذه الآية آمرة بالقتال.

وقيل: أوَّل آية نزلت في الأمر به: ﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ الذِينَ يُقَاتِلُونَكُم...﴾ [سورة البقرة: 190] وقيل: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُومِنِينَ...﴾ [سورة التوبة: 111] وقيل: نزلت ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ...﴾ في المؤمنين هاجروا إلى المدينة فاتَّبعهم كُفَّار قريش ليردُّوهم وقاتلوهم.

﴿**وَإِنَّ اللهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ**﴾ هذا وعد لهم بالنصر في القتال، لا بالتخليص فقط من أيدي المشركين، على سنن التعاظم كالوعد بعسى ولعلَّ دون تصريح.

﴿**الذِينَ**﴾ نعت لـ«الذِينَ» أو بدله أو بيانه، و﴿وَإِنَّ اللهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ معترض، ولهذا الاعتراض حسن جعله منصوبا أو مرفوعا على المدح ﴿**أُخْرِجُواْ**﴾ أخرجهم المشركون بالتضييق عليهم، لَمَّا كان التضييق عليهم بالإيذاء سببا للخروج سمِّي إخراجا ﴿**مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ**﴾ متعلِّق بـ«أُخْرِجُوا»، وهو مفيد لما أفاده قول بعض: إخراجا ثابتا بغير حقٍّ، ولِمَا أفاده قول بعض: كائنين بغير حقٍّ، ومترتِّب عليهم بموجب إخراجه فلا حاجة إليهما.

﴿**اِلَّآ أَنْ يَّقُولُواْ رَبُّنَا اللهُ**﴾ بدل من «حَقٍّ» لتقدُّم النفي بـ«غَيْرِ» قيل: أو بدل من «غَيْرِ» على تضمين «أُخْرِجُوا» معنى النفي، أي لم يقرُّوا في ديارهم إلَّا بـ«أَنْ يَّقُولُواْ...»، وعلى الوجهين ذلك من تأكيد المدح بما يشبه الذمَّ، كقول النابغة: «ولا عيب فيهم...». كأنَّه عدَّ «ربُّنا اللهُ» غير حقٍّ، وأجيز كون الاستثناء منقطعا.

﴿وَلَوْلَا دِفَاعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ في الأمم السابقة، متعلِّق بقوله: ﴿أُذِنَ﴾، كأنَّه قيل: قاتلوا الكُفَّار فإنَّه لولا تسليط الله عز وجل المؤمنين على الكفَّار بالقتال ﴿لَّهُدِمَتْ صَوَامِعُ﴾ هي متعبَّدات الرهبان من النصارى، والصابين حين كانوا على الحقِّ، وكانت للصابين ملَّة حقٍّ، كما دخلوا في قوله تعالى: ﴿مَنَ ـ امَنَ مِنهُم...﴾ [سورة البقرة: 126]. والصومعة: بناء رقيق الأعلى، كما تسمَّى مئذنة الإسلام صومعة إذ كانت كذلك.

﴿وَبِيَعٌ﴾ جمع بيعة وهي مصلَّى النصارى حين كانوا على الحقِّ، ولا تختصُّ بالرهبان، وقيل: كنيسة اليهود، وزعم بعض أنَّ المراد بالصوامع والبيع متعبَّدات هؤلاء حال الإسلام، وأنَّها لِمَن في حماية المسلمين منهم، ولو اتَّخَذَ بعضها المسلمون مسجدا.

ونقول: حاشا الله أن يعتني بما للنصارى واليهود والصابين من المتعبَّدات بعد بعثه صلى الله عليه وسلم.

وقيل: لولا دفع ظلم المدَّعي ما ليس له بشهادة العدول المناقضين، أو بكون البيِّنة عليه، وقيل: لولا دفع الظلمة بعدل الولاة، وقيل: لولا دفع العذاب بدعاء الأخيار، وقيل: لولا الدفع بالقصاص، وقيل: بالنبيئين.

﴿وَصَلَوَاتٌ﴾ جمع صلاة كنيسة اليهود، وقيل: متعبَّد للنصارى دون البيعة، تسمية للمحلِّ باسم الحالِّ، وقيل: المراد نفس الصلاة على تقدير: وعطِّلت صلوات، أو تضمين «هُدِمَتْ» معنى عطِّلت، أو تقدير: ومواضع صلوات، والتنكير ينافي ذلك.

وقيل: هو مفرد أصله «صلوثى» بالإعجام والقصر فعرِّب، كما قيل: بيع إن كان عربيًّا كان من قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى...﴾ [سورة التوبة: 111]، وهو نكرة وإن كان علما فصرفه لشبه الجمع.

﴿وَمَسَاجِدُ﴾ للمسلمين، وفي اسمها تشريف بمزيد الخضوع بالسجود، وبأنَّ أقرب ما يكون العبد من ربِّه إذا كان ساجدا، وباختصاص المسلمين بالسجود، ووقوعه في الأمم قبلنا قليل، كقوله تعالى: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي﴾ [سورة آل عمران: 43]. وأخَّر ذكرها لتأخُّر زمان هذه الأمَّة، وإنَّما أخَّر ما لليهود على ما للنصارى مع تقدُّمهم لمناسبة المساجد بلفظ الصلاة، أو ذلك ذكر للأشرف بعد الشريف، لأنَّ البيع أكثر عبادة من الصوامع، وكنائس اليهود أكثر عبادة من البيع، لطول زمانها، والمساجد أشرف من الكلِّ، أو أخِّرت لتبعد من ذكر التهديد، أو لتجاور المدح في قوله تعالى: ﴿يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا﴾ إلى قوله: ﴿وَلِلهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾. ﴿يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا﴾ المراد: ذكرا كثيرا، أولى من تقدير: زمانا كثيرا. والجملة نعت «مَسَاجِدُ» أولى من جعلها نعتا للكلِّ، إذ لا يخفى أنَّ الاعتناء بالذكر في ما قبل المساجد بعد البعثة خلاف الأصل، وأنَّه لا يتصوَّر إلَّا باعتبار بقاء بركة ما قبل البعثة، مع أنَّ أكثر ما قبلها كفر إلَّا قليلا جدًّا.

﴿وَلَيَنصُرَنَّ﴾ والله لينصرنَّ ﴿اللهُ مَنْ يَّنصُرُهُ﴾ ينصر دينه أو أولياءه، وقد أنجز الله الوعد بنصر المسلمين على مشركي العرب، والأكاسرة والروم، وأورثهم أرضهم وديارهم ﴿إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ﴾ على ما أراد ومنه نصر ناصره ﴿عَزِيزٌ﴾ لا يمنع عَمَّا أراد.

﴿الذِينَ﴾ نعت ﴿الذِينَ أُخْرِجُواْ﴾ أو بدل منه أو من «مَن»، أو منصوب أو مرفوع على المدح ﴿إِن مَّكَّنَّاهُم فِي الَارْضِ﴾ قوَّيناهم على إنفاذ الأمر في جنس الأرض، أو في أرض مَكَّة ﴿أَقَامُواْ الصَّلَاةَ﴾ المكتوبة الخمس ﴿وَءَاتَوُاْ الزَّكَاةَ﴾ المالية الواجبة ﴿وَأَمَرُواْ﴾ من خالف ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ التوحيد والعبادة ﴿وَنَهَوْاْ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ الشرك والمعاصي، والآية على العموم، وقيل: لفظها في المهاجرين والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ﴿وَلِلهِ﴾ لا لغيره ﴿عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ مرجعها إلى حكمه، وهذا تأكيد للوعد بالنصر.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿42﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿43﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿44﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿45﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿46﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿47﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿48﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿49﴾ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿50﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿51﴾﴾

الاعتبار بهلاك الأمم السابقة وتحديد مهمَّة الرسل

﴿**وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ**﴾ يكذِّب قومك، تسلية له ﷺ بما يترتَّب على التكذيب، ولذلك كان مضارعا لا ماضيا مع أنَّ التكذيب ماض، أو لأنَّ شأن التكذيب أن لا يقع كما تناسبه أداة الشرط، ومفعول «كذَّب» محذوف أي أنبياءهم، ويقدَّر بعد كلمة «مَدْيَنَ»، أو نزِّل منزلة اللازم بمعنى: أوقعت التكذيب.

﴿**فَقَدْ كَذَّبَتْ**﴾ التأنيث لأنَّ القوم اسم جمع فهو جائز التذكير والتأنيث، وإنَّما جاز التأنيث في اسم الجمع لتأويله بمؤنَّث كأمَّة هنا، كما أشار إليه أبو

حيَّان ﴿قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ﴾ لم يذكرهما بلفظ قوم، لاشتهارهم بالاسمين بلا ذكر لفظ «قوم»، فالمراد بهما القومان فلم يقل: قوم هود وقوم صالح.

﴿وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ﴾ يذكِّر بالقوم من لا علم به للمخاطبين ﴿وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ﴾ لم يقل: وقوم شعيب لأنَّ أهل مدين ليسوا قومه، وعلى أنَّهم قومه قد كذَّبه أصحاب الأيكة وليسوا قومه، فلو قال: وقوم شعيب لم يشملهم، واختصَّ أصحاب مدين لأنَّهم أسبق في التكذيب وأشدُّ فيه.

﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾ كذَّبه القبط وقومه، كما أنَّه لم يعتبر تصديق القليل من هؤلاء.

﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ﴾ أمهلت لكلِّ قوم من هؤلاء في زمانهم، وصرَّح بالظاهر تقبيحا لهم على كفرهم، ولم يقل: فأمليت لهم ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ بالإهلاك لآجالهم ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ تغييري عليهم بالفعل؟! كما يقع بالقول، بأنْ غيَّر حياتهم بالموت، ونعمهم بزوالها، وعمارة بلادهم بخرابها. والاستفهام تعجيب وإرهاب لقريش.

﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ اَهْلَكْنَاهَا﴾ «كأي» أي كثير مبتدأ أو منصوب على الاشتغال والأصل عدم الحذف، ولكن الاشتغال موافق للجملة الفِعلِيَّة قبلها، وأمَّا ما قيل كون «كَأَيِّنْ» منصوبة بمضمر قليل فلا دليل له، بل هي من جملة المحتمل، و«قَرْيَةٍ» اسم لأهلها مجازا، أو يقدَّر أهلكنا أهلها، ويجوز أن يكون الإهلاك استعارة لعدم الانتفاع بها لهلاك أهلها.

﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ حال من ضمير النصب في «أَهْلَكْنَاهَا» وإسناد الظلم إليها مجازٌ، أو يقدَّر: وهي ظالمة الأهل، أو أهلها ظالمون ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ﴾ ساقطة ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ سقوفها تسقط أوَّلا إلى الأرض ولو تعدَّدت، ثمَّ تسقط عليها الحيطان، وكأنَّه اعتُبِرت الحيطانُ كلَّ البُنيان لكونها العمدة فيه، وذلك أولى من أن يقال: تسقط الحيطان والسقوف باقية على حالها على حيطانها.

أو ﴿خَاوِيَةٌ﴾: بمعنى خالية من أهلها مثل: خوي البطن من الطعام، وعليه فـ﴿عَلَى عُرُوشِهَا﴾ بمعنى: مع بقاء عروشـها، أو ﴿عَلَى عُرُوشِهَا﴾ خبر ثان أي قائمة على عروشـها السـاقطة، فالسقوف سـاقطة والحيطان باقية مشرفة عليها، وأسهل من ذلك تقدير مضاف هكذا: فحيطانها خاوية.

﴿وَبِيرٍ﴾ في الصحـراء البادية ﴿مُّعَطَّلَةٍ﴾ عن الانتفـاع بها لهلاك أهلها، سمِّيت بيرا لأنَّها بُيِرَت بمعنى حُفِرَت، سواء بالهمز أو بالياء، «فعيل» بمعنى «مفعول» في الأصل.

﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ مرفوع، أو بني بالشيد أي الجص، أو صُقل به، والعطف على «قَرْيَةٍ» فضمير النصب في «أَهْلَكْنَاهَا» شـامل للبئر والقصر فسلِّط الإهلاك عليهما. والتكثير على حدِّ ما مرِّ في القرية. وأكَّد إهلاك البئر بذكـر زيادة التعطيل، وقيل: ذلك عطف على معمولي عاملين، أي وكأيِّن من بئر وقصر مشيد أهلكناهما.

ومعنى إهلاك البئر مع أنَّها معطَّلـة الإخبار بأنَّ تعطيلها بإهلاك أهلها، أو يقدَّر: وكم من بئر معطَّلة أهلكنـا أهلها، وصار تعطيلها بإهلاكهم، وكم قصر مشيد أخليناه بإهلاك أهله.

[قصص] قيل: ومن جملة تلك الآبـار والقصور بئر أهل عدن من اليمن وهي «الرس»، وقصـر لعاد الثاني، ومنها قصر علـى جبل بحضرموت، وبئر بسـفحه نزل عليها صالح عليه السلام مـع أربعة آلاف آمنـوا به، وسـمِّيت القرية حضرموت لموته فيها، وقيل: مات في عكا، ومن ذلـك قرية بناها قومه عند البئر، وأمَّروا عليها جلهس بن جلاس، وعبدوا صنما وأرسل إليهم حنظلة بن صفوان فقتلوه في السوق، فأهلكت قريتهم وبئرهم.

﴿اَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الَارْضِ﴾ أمكثوا فلم يسيروا؟ أو أتقاعدوا عن اكتساب النظر الاعتباري فلم يسيروا؟ والاسـتفهام للأمر، أي سيروا للنظر، أو انظروا نظر اعتبار، فعبَّر عنه بما توقَّف عليه وهو السير، أو للإنكار أو التقرير.

﴿**فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ**﴾ التوحيد أو ما يوجبه ﴿**بِهَآ**﴾ أي ليحصِّلوا سيرا، فكوْنُ قلوبٍ عاقلةٍ لهم بلام الأمر داخلةٌ على يحصِّلوا، أو أَلَمْ يكن لهم سير؟ فكون قلوب عاقلة لهم وقد كانت لهم لكن غير عاقلة. والعقل: العلم هنا وهو يحصل بالقلب.

﴿**أَوَ ـ اذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا**﴾ ما يوحى، أو التوحيد، أو أخبارا توجبه عن الأمم السالفة ممن يجاورهم، فإنَّه أعرف منهم بحال الأمم ﴿**فَإِنَّهَا**﴾ أي القصَّة، وكذا يؤنَّث ضمير الشأن إذا كان بعده مؤنَّث مسند أو مسند إليه ﴿**لَا تَعْمَى الَابْصَارُ**﴾ تعليل لمحذوف، أي عموا عن الرشاد ولو كانت لهم عيون لأنَّه لا تعمى الأبصار، ليس الضلال متوقِّفا على عمي العيون فإنَّه كلا عمى بالنظر إلى عمى القلوب.

﴿**وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ التِي فِي الصُّدُورِ**﴾ ينتفي عنها نور إدراك الحقِّ الذي هو كنور العيون.

[سبب النزول] ويقال: لَمَّا نزل قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الَاخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ [سورة الإسراء: 72]، قال عبد الله بن زائدة بن أمِّ مكتوم: «يا رسول الله، أنا في الدنيا أعمى أفأكون في الآخرة أعمى؟» فنزل: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الَابْصَارُ...﴾ جوابا له، وتفريعا بالفاء على ما قبله.

وروي أنَّه تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام: أن اتَّخِذ نعلين من حديد وعصا من الساج ثمَّ سح في الأرض فاطلب الآثار والعبر، حتَّى تحفى النعلان وتنكسر العصا. فإمَّا أنَّه لا يصحُّ هذا لأنَّ موسى لم يفعل ذلك، وإمَّا أن يراد به **أنَّ العبر كثيرة لا يحصرها بشر في الأرض، متفرِّقة فيها.**

﴿**وَيَسْتَعْجِلُونَكَ**﴾ أي قريش حين تنذرهم بالعذاب على الإشراك ﴿**بِالْعَذَابِ**﴾ إنكارا لوقوعه واستهزاء به وتعجيزا لك، وذلك ذمٌّ لهم، أو في معنى الاستفهام التوبيخيِّ، والعذاب موعود به من الله لا يتخلف ولو أبطأ،

كما قال ﷻ: ﴿وَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ﴾ أي وعيده وهو الإخبار بذلك العذاب، فالوعد يستعمل في الشرِّ كما في الخير.

أو المراد مطلق ما وعده من خير أو شرٍّ فدخل عذابهم ـ قيل ـ وعذاب الأمم السابقة، وتردُّه «لن»[1] قال أبو عمرو بن العلاء لعمرو بن عبيد المعتزلي: يا أبا عثمان كيف قلت: لا يخلف الله وعيده؟ وخلف الوعيد مدح، ألم تسمع قول القائل:

ولن يخشى نجل العم ما عاش صولتي ... ولا أنا أخشى صولة المتمرِّد
وإنِّي إذا أوعدته أو وعدته ... لمخلف إيعادي ومنجز موعدي

فقال له عمرو إذا صرت إلى ذلك فقد قيل:

إنَّ أبا خالد لمعتدلُ الـ ... ـرأي كريم الفعال والبيت
لا يخلف الوعد والوعيد ولا ... يبيت من ناره على فوت

فانقطع أبو عمرو بن العلاء.

قلت: لا ينقطع لاحتمال أنَّ الشاعر أراد أنَّه لا يخلف الوعد والوعيد جميعا بل الوعيد فقط، لأنَّه لم يقل: لا يخلف الوعد ولا الوعيد.

﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ أي المدَّة الطويلة عندهم مدَّة قصيرة عند الله تعالى، ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا وَنَرَاٰهُ قَرِيبًا﴾ [سورة المعارج: 6ـ7] والعذاب المذكور عذاب الدنيا، وقيل: إنَّه الأخروي، وإنَّ اليوم وقته الأخروي، وهو المراد بقوله: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ وكونه كألف سنة لشدَّته، وقيل: إنَّ أيَّام الآخرة اعتبرت طوالا واليوم في الآية من أيَّام الآخرة.

(1) لأنَّ لن تنفي المستقبل لا الماضي.

[أصول الدين] والآية صريحة في أنَّه تعالى لا يخلف ما وعد وخلفه نقص تعالى عنه، ولو في الشرِّ لأنَّه تعالى لا يكذب ولا يجهل عاقبة تبدو له فيرجع إليها، **لا تبدو له البدوات علمه عامٌّ قديم.**

﴿**وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا**﴾ كما أمليت لهؤلاء، وهذا تحقيق لردِّ استعجالهم، فكان بالواو لا بالفاء المفرعة، كما كانت الأولى بالفاء في مقام التفريع ﴿**وَهِيَ ظَالِمَةٌ**﴾ كما ظلم قومك، توجب العذاب كما أوجبه قومك، ففي قومك ما في الأمم السابقة من موجبات العذاب، فلم لا يخافونه؟ ﴿**ثُمَّ أَخَذْتُهَا**﴾ بالإهلاك بعد الإمهال الطويل ﴿**وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ**﴾ لا إلى غيري، أو إلى أحد معي، فلا يخلف أي يردُّ أحد ما أريد فيهم، أو في غيرهم من العذاب والحكم.

﴿**قُلْ**﴾ يا محمَّد ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ**﴾ المشركون المستعجلون بالعذاب ﴿**إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ**﴾ بالعذاب ﴿**مُّبِينٌ**﴾ واضح، أو مظهر لما خفي عنكم من الدين، لا قدرة لي على تعجيل ما أخرَّ الله عز وجل.

ويتحصَّل من إنذاري نوعان: مصدِّق ومكذِّب، كما قال: ﴿**فَالذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ**﴾ إلى قوله: ﴿**أَصْحَابُ الْجَحِيمِ**﴾ وفي ذكر المغفرة والرزق الكريم للمؤمنين لزيادة الاجتهاد والتخلُّص من الذنوب.

أو يقدَّر: نذير وبشير، وحذف للفاصلة، والأوَّل أولى، ويجوز أن لا يدخل في القول كأنَّه قيل: قل يا أيُّها الذين آمنوا، أو عطف على «قل» إخبار على إنشاء. والمغفرة لذنوبهم قبل الإسلام وذلك امتنان عليهم بذكرها، أو بما بعده. والرزق الكريم: الجنَّة، وكذا في جميع القرآن.

﴿**وَالذِينَ سَــعَوْاْ**﴾ اجتهدوا ﴿**فِي ءَايَاتِنَا**﴾ في شــأنها بالردِّ اجتهادا شبيها بالإسراع في المشي إلى مهمٍّ فقالوا: ســحر، وقالوا: افتراء ونحو ذلك، فذلك اســتعارة تبعيَّة ﴿**مُعَاجِزِينَ**﴾ معالجيــن عجز المؤمنين بإبطــال دعواهم، أو طالبين لعجزهم كمــا أنَّ المؤمنين طالبــون لعجزهم في دعواهــم ﴿**أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ**﴾ ملازمو ﴿**الْجَحِيمِ**﴾ النار الشديدة التوقُّد.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿52﴾ لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۢ بَعِيدٖ ﴿53﴾ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿54﴾ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً أَوۡ يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَقِيمٍ ﴿55﴾ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿56﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿57﴾﴾

إحكام الوحي وصونه عن الشياطين وقصَّة الغرانيق

﴿**وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ**﴾ «مِنْ» للابتداء ﴿**مِن رَّسُولٖ**﴾ «مِنْ» صلة لتأكيد العموم المعلوم من النكرة بعد النفي، والتصريح بالاستغراق، بحيث لا يبقى وجه واحتمال، وهو من أوحى الله إليه وبُعث إلى غيره بأمر شرعي جديد، أو مقرِّر لِمَا تقدَّمه، كأنبياء بني إسرائيل بين موسى وعيسى عليهما السلام من الرجال ﴿**وَلَا نَبِيٍّ**﴾ مَن أوحى الله إليه كذلك، بُعِثَ إلى غيره أو لم يبعث، أو الرسول مبعوث إلى غيره بشرع جديد، والنبيء بالجديد أو بالتقرير، وقيل: الرسول بالمعجزة والكتاب والنبيء من لا كتاب له.

[نحو] ﴿الَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ دليل على جواز إتيان الجملة بعد «إلَّا» مطلقا، وشهر أنَّه لا بدَّ أن يليها مضارع أو ماض مسبوق بفعل، أو مقرون بقد، ويجاب بأنَّ «أَلْقَى» متَّصل بـ«إلَّا» تقديرا، و«إِذَا» خارجة عن الشرط. والتمنِّي نهاية التقدير أو القراءة كقول حسان في عثمان:

تمنى كتاب الله أوَّل ليلة   تمني داود الزبور على رسل

كما في ديوانه وهو راجع للتقدير لأنَّ القارئ يقدِّر حرفا حرفا.

والأمنية: التمنِّي أو الصورة الحاصلة من التمنِّي، والمعنى أنَّ الشيطان يلقي في قراءة الأنبياء ما يبطلها، كما قال: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ﴾ [سورة الأنعام: 121] ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيءٍ﴾ [سورة الأنعام: 112] الآيتين وذلك كقولهم: يحلُّ ما ذبحتم ويحرِّم ما ذبح الله، حين قرئ ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ [سورة المائدة: 3] وقولهم: عيسى والملائكة عبدوا من دون الله، حين قرأ ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ...﴾ الآية [سورة الأنبياء: 98]، والشياطين كما تلقي في قراءة الأنبياء تلقي في الرؤيا إذا نزلت من السماوات وكانت تحت السماء الدنيا، فما في السماوات صادق ولا بدَّ، وما تحت السماء هذه يصدق ويكذب.

وفي الحديث: «**الرؤيا الصالحة من الله تعالى والحلم من الشيطان**»[1]، ومن الصالحة رؤيا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ثلاثة أقمار نزلت في حجرتها، قصَّتها على أبيها فلمَّا توفي ﷺ ودفن فيها قال أبوها: هذا أحد أقمارك، وهو خيرها، ولما توفي أبوها ودفن فيها قيل لها: هو القمر الثاني، ولما دفن فيها عمر قيل لها: هو الثالث.

﴿**فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ**﴾ بردِّ النبيء له أو بوحي ﴿**ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ ءَايَاتِهِ**﴾ يأتي بها مثبتة لا تقبل الردَّ.

(1) رواه **الربيع** في مسنده (8) باب في الرؤيا، ج 1، رقم 52، مرسلا مع زيادة في آخره.

والأفعال الثلاثــة للتجدُّد، و«ثمَّ» للترتيب الرتبــيِّ لأنَّ الإحكام أولى من النسخ المذكور، وأظهر لفظ الجلالة بعد «يُحْكِمُ» لزيادة التقرير والإيذان بأن الأُلُوهِيَّة تقتضي إحكام الآيات، وكذا إظهار الشيطان للإيذان بِأَنَّ الشرور من شأن الشيطنة.

﴿**وَاللَّهُ عَلِيمٌ**﴾ علما عظيما بكلِّ شيء، ومنها ما يلقي الشيطان، والإظهار لما ذكر ﴿**حَكِيمٌ**﴾ في تسليط الشيطان بالإلقاء والجدال.

﴿**لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ**﴾ أي ما يلقيه أو إلقاءه، والإظهار لما مرَّ لا يتعلَّق بـ«أَلْقَى» على معنى سلَّط الله الشيطان بالإلقاء لعطف «لِيَعْلَمَ» عليه مع أنَّ الإلقاء لا يصحُّ علَّة له، بل يتعلَّق بـ«يُحْكِمُ» أو «يَنسَــخُ» فيصحُّ تعلُّقه بـ«أَلْقَى» ويقدَّر لقوله: «لِيَعْلَمَ» متعلَّق، أي فعل النسخ والإحكام ﴿لِيَعْلَمَ الذِينَ...﴾ الآية.

﴿**فِتْنَــةً**﴾ ابتلاء بالخــذلان ﴿**لِّلذِيــنَ فِــي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ**﴾ المشــركين المضمرين الشرك في قلوبهم، المظهرين التوحيد في ألسنتهم، كما قال في آية أخرى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [سـورة البقرة: 10] ﴿**وَالْقَاسِــيَةِ قُلُوبُهُمْ**﴾ المظهرين الشرك كأبي جهل وعتبة.

[سيرة] وشــهر في أحاديث كثيرة أنَّه قرأ ﷺ: ﴿أَفَرَآيْتُــمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ﴾ [سـورة النجم: 19ـ20] قرأ الشــيطان محاكيا لصوته: «تلك الغرانيق العلا وإنَّ شفاعتهنَّ لترجى»، ويروى «إنَّ شــفاعتهنَّ لترتجى، وإنَّها لمــع الغرانيق العلا»، ويروى: قرأ ذلك ناعســا وما في قلبه شــيء من ذلك، ورضي عنه المشــركون، وســجدوا حينئــذ إذ ســجد وانتبه لذلــك أو نبَّهه جبريل عليه السلام، فأخبرهم بأنَّه لم ينطق هو بذلك، أو لم يقصد ذلك.

[تضعيف ونقد الحديث] وضعَّــف البيهقي وعيــاض ذلك الحديث وذلك إمَّــا أن يتكلَّم به النبيء ﷺ عمدا وهذا لا يجوز لأنَّه إشــراك، وإنَّما

بعثه الله ﷻ لإبطال الشرك والطعن في الأصنام لا لمدحها، وإمَّا أن يجري الشيطان ذلك على لســانه ﷺ إجبارا بحيث لا يقدر أن يمتنع وهذا باطل، لأنَّه لا قدرة للشــيطان على ذلك في حقِّ غيــره، وكيف في حقَّه ﷺ ؟ قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْـسَ لَكَ عَلَيْهِم سُــلْطَانٌ﴾ [ســورة الحجر: 42] وإمَّا أن يجري على لســانه في غفلة أو نوم، وذلك لا يجوز لأنَّــه يؤدِّي إلى عدم الاعتماد على ما يقــول! وقد قال الله ﷻ: ﴿لَا يَاتِيهِ الْبَاطِــلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [ســورة فصّلت: 42] وقــال ﷻ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْــرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُــونَ﴾ [ســورة الحجر: 9] فَلَمَّا بطلت هذه الوجوه بقــي أن يقال: إنَّه لَمَّا تمَّت قراءته ﷺ عنــد قوله: ﴿وَمَنَــاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ﴾ قال الشــيطان عقبه محاكيا لصوته: «تلك الغرانيق» وسمعوا صوته، وقد سمع الناس صوته في مواضع، كما قال يوم أُحد: «إنَّ محمَّدًا قد قتل» ويوم بدر: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ...﴾ [سورة الأنفال: 48] وسمعوه.

﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ هم القاســية قلوبهم، والذين في قلوبهم مرض، وأظهر ليصفهم بالظلم ﴿لَفِي شِقَاقٍ﴾ خلاف وعناد ﴿بَعِيدٍ﴾ شديد.

﴿وَلِيَعْلَمَ الذِيــنَ أُوتُواْ الْعِلْمَ أَنَّــهُ﴾ أي التمكين من الإلقــاء ﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ أنَّه الحكمة الثابتة من لــدن آدم، ولا يصحُّ ردُّ الهاء للقرآن، لأنَّ قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسولٍ﴾ للعموم.

﴿فَيُومِنُواْ بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ تسكن إليه وتطمئنَّ، ويجوز ردُّ الهاء في «أنَّه» و«به» و«له» للموحى إليه العامِّ المفهوم من قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ﴾.

﴿وَإِنَّ اللهَ لَهَادِ الذِينَ ءَامَنُواْ﴾ من هذه الأمَّة إذ فيها الكلام، أو مطلقا على ما مرَّ ﴿إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْــتَقِيمٍ﴾ دين الله، أو النظر الصحيح الراد للشبهات التي تلقيها الشياطين.

﴿وَلَا يَزَالُ الذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرْيَةٍ﴾ شكٍّ ﴿مِّنْهُ﴾ من الصراط المستقيم على أنَّه دين الله، أو من القرآن أو من الرسول أو من الموحى. و«مِن» للابتداء أو إلى ﴿مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ و«مِن» للسببيَّة لأنَّ مرية الكُفَّار في ما جاءت به الرسل بسبب ما يلقي الشيطان.

﴿حَتَّىٰ تَاتِيَهُمُ السَّاعَةُ﴾ يوم القيامة، لأنَّه المعروف بالبغتة وقد قال: ﴿بَغْتَةً﴾ أي فجأة، وقيل: أشراط الساعة فحذف المضاف، فالساعة مجاز بالحذف، إذ هي كلمة تَغَيَّرَ إعرابُها بالحذف، أو سمِّيت أشراطها ساعة للجوار، فذلك مجاز مرسل، أو الساعة: الموت المعهود في الأذهان.

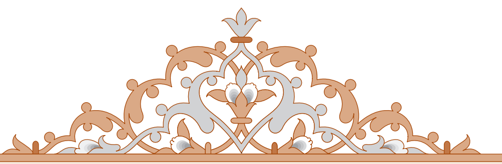
﴿اَوْ يَاتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ يوم القيامة، أظهره نكرة للتعظيم، وذلك عذاب الموت يومها كما يدلُّ لذلك قوله: ﴿الْمُلْكُ﴾ أي التصرُّف التامُّ ﴿يَوْمَئِذٍ لِلهِ﴾ وحده لا لغيره حقيقة ولا مجازا، ولا صورة.

﴿يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ أي يوم إذ تأتيهم الساعة، والهاء للفريقين لذكرهما قبل وذكرهما بعد تفصيلا، ووصف اليوم بالعقم لأنَّه لا يوم بعده، أو يوم عقيم يوم موتهم لأنَّه لا يوم بعده لهم، أو يوم حرب يقتلون فيه وقد قتلوا في حروب، فكأنَّه عقمت أُمَّهَاتهم، ولا سيما يوم بدر فهو عقيم من خيرهم، وعليه فهو أيضا عقيم بتفرُّده بقتال الملائكة فيه، ولا يخفى أنَّ الحكم يناسب كون الملك لله، فالجملة حال من اللفظ الجليل، لا مستأنفة جواب لسؤال نشأ من كون الملك لله كما قيل.

﴿فَالذِينَ ءَامَنُواْ﴾ تحقيقا دون مرية بالله أو برسوله، أو بالساعة أو بالقرآن، أو نحو ذلك، والعطف على «يَحْكُمُ» عطف اسميَّة على فِعلِيَّة، أو يقدَّر: «إن قيل: ما ذلك الحكم؟ فالذين آمنوا» ﴿وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ يقدَّر وصف مستقبل أو مضارع مستقبل خبر، كما قال: «يَحْكُمُ» أو يقدَّر وصف للماضي أو فعل ماض لتحقُّق الوقوع، أو باعتبار سبق ذلك في علمه تعالى، أو في اللوح المحفوظ والمراد بالنعيم النعم الكثيرة المتنوِّعة.

﴿**وَالذِينَ كَفَرُواْ**﴾ أشركوا بالله غيره أو كفروا النعم ولم يشكروها ﴿**وَكَذَّبُواْ بِئَايَاتِنَا**﴾ آيات القرآن أو الدلائل، أو كليهما، وهم الذين لا يزالون في مرية ﴿**فَأُوْلَئِكَ**﴾ الفاء لكون الذين كفروا بمعنى من كفروا على الشرط، أو على تقدير «أمَّا» قبل «الذِينَ» ولو لم تكن أَمَّا في الذين آمنوا لجواز: «زيد قائم وَأَمَّا عمرو فقاعد»، وإشارة البعد لبعد منزلتهم في الشرِّ.

﴿**لَهُمْ عَذَابٌ**﴾ اللام للاستحقاق، ولم يقل: في عذاب كما قال: ﴿فِي جَنَّاتِ﴾ اختيارا لجانب الاستحقاق، والإيجاب وجنَّات النعيم بطريق التفضُّل، والله أعلم، ولم يقل: وعملوا السيِّئات كما قال: ﴿وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ﴾ اكتفاء عنه بـ«كَفَرُوا» ﴿**مُّهِينٌ**﴾ مذلٌّ مخزٍ.



﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿58﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿59﴾ ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿60﴾﴾

وعده الكريم بالنصر والجنَّة للمهاجرين المجاهدين

﴿**وَالذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ**﴾ تركوا ديارهم لأجل دين الله ﴿**ثُمَّ قُتِلُواْ**﴾ لجهادهم، وهذا أولى من تفسير ﴿سَبِيلِ اللهِ﴾ بالجهاد استدلالا له بذكر القتل بعده ﴿**أَوْ مَاتُواْ**﴾ بغير قتل، والخبر هكذا:

والله ﴿**لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللهُ**﴾ ومَن مَنَعَ الإخبار بالقسم وجوابه قدَّر الخبر قولا حاكيا لهما هكذا: أقول، أو يقال، أو مقول فيهم: والله ليرزقنّهم الله ﴿**رِزْقًا حَسَنًا**﴾ مفعول به لـ«يَرْزُق» ثان أي نعيما حسنا، أو مفعول مطلق على بقائه على المعنى المصدري، وعلى إخراجه إلى معنى مرزوق كالوجه الأوّل يكون من باب ضربته سوطا.

وذلك [الرزق] في الجنَّة ولو كان الاختصاص للمهاجرين به لأنَّ المراد التبشير بالسعادة والإخبار بأنَّ سببها الهجرة، وأيضا لهم مزيد التأكيد بالقسم، أو الرزق الحسن الذي أخبر به فاق رزق غيرهم.

وقيل: في البرزخ لقول سلمان الفارسي: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من مات مرابطا أي ولو لم تثبت له الهجرة أو مهاجرا ولو لم يقتل، أجري**

عليه الــرزق، وأمن من الفتّانين»[1] اقرؤوا إن شــئتم: ﴿وَالذِيــنَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ...﴾ إِلىَ: ﴿...حَلِيمٌ﴾ فالهجرة تساوي القتل في الجهاد.

[سبب النزول] لَمَّا مات عثمان بن مظعون وأبو ســلمة بن عبد الأســد قيل: «من قتل من المهاجرين أفضل ممن هاجر ولم يقتل» فنزلت الآية تسوية بينهم. وروي أنَّه مرَّ على فضالة بن عبيد الصحابي بجنازتين من المهاجرين إحداهما قتل، فمــال الناس علــى القتيل، فقال: هما ســواء لقولــه تعالى: ﴿وَالذِينَ هَاجَرُواْ...﴾ الآية.

وعن أنس عنه ﷺ: «**المقتول في ســبيل الله والمتوفَّى في ســبيل الله بغير قتل هما في الأجر شــريكان**»[2] وظاهره التســوية، وذكر بعــض أنَّ المهاجر شهيد، وقال جماعات من المهاجرين: يا رســول الله علمنا ما لهؤلاء الشهداء فما لنا ونحن نقاتل معك؟ فنزلت الآية مسوِّية.

﴿**وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ**﴾ لأنَّه يرزق من يشــاء بغير حســاب، ويرزق ما لا يقدر غيره عليــه، كالإنبات والإمطــار والتوليد، والإيمــان، ولا يرجو مكافأة، ولأنَّ غيره يعطي مما أعطاه الله ﷻ.

[أصول الدين] والآية صريحة في تســمية غيره تعالــى «رازقا» على معنى مجرَّد الإعطاء، كما جاز في غيره أيضــا: رَزَقَ ويَرزُقُ، ومنع الراغب في غيره لفظ «رازق».

﴿**لَيُدْخِلَنَّهُم مَّدْخَلاً يَّرْضَوْنَهُ**﴾ مســتأنف لتقريــر ﴿لَيَرْزُقَنَّهُم...﴾ أو بدل منه، و«مَدْخَلاً» اســم مكان مفعول به ثان، وهو الجنَّــة أو درجات خصَّ بها هؤلاء المهاجــرون، أو درَّة بيضاء لا قصم فيها ولا وصم، لها ســبعون ألف

---

(1) أورده **الآلوســي** في تفســيره: ج 6، ص 187. وقال: أخرجه ابن أبي حاتم وابن مردويه عن سلمان الفارسي بدون ذكر لفظ «ولو لم يقتل».

(2) أورده **الآلوسي** في تفسيره: مج 6، ص 188، من حديث أنس ولم يخرِّجه.

مصراع، أو اسـم مصدر ميميّ لأنَّه من الثلاثـي وعامله رباعـيٌّ، كأنَّه قيل: ليدخلنَّهم دخولا أي إدخالا، وهو مفعول مطلق.

ورضاهم لأنَّ في ذلك مـا لا عين رأت ولا أذن سـمعت ولا خطر على قلب بشر، ولأنَّ دخولهم براحة واحترام.

﴿**وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ**﴾ بما يرضيهم فيعطيهم، وبأحوالهم المستحقَّة لذلك، وبأحوال أعدائهم المقاتلين لهم كما قال: ﴿**حَلِيمٌ**﴾ لا يعاجلهم بالعقاب.

﴿**ذَٰلِكَ**﴾ قد حقِّق، أو قد فرغ منه، أو واضح، أو الأمر ذلك ﴿**وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ**﴾ سمِّيت الجناية الأولى عقابا في قوله: ﴿**عُوقِبَ بِهِ**﴾ لأنَّها سـبب للعقاب المذكور في قوله: ﴿**عَاقَبَ**﴾ أو ملزوم لـه أو للجوار، فذلك مجاز مرسل أو تشبيه فهو اسـتعارة، [قلت:] ولا يثبت عندي أنَّ العرف جار على إطلاق العقاب على العذاب مطلقا ولو أوَّليًّا.

﴿**ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ**﴾ بالعـود إلى الظلم وأراد العقاب ثانيـا، واللهِ ﴿**لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ**﴾ على الباغي، القسـم وجوابه خبر «مَن» الموصولـة أو الموصوفة، وإن جعلت شرطية قدِّر جوابها مدلولا عليه بجواب القسم، أي نصره الله.

﴿**إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ**﴾ له فيما قـد يزيد مما لا يدرك أنَّـه زائد، أو في الانتقام لنفسـه، لا لله، أو في إعراضه عن قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [سورة الشـورى: 40] ﴿وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة التغابن: 14] ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [سورة الشـورى: 43] الآيات، أو ذلك تعليل للنصر بالمماثلة والجاني يسـتحقُّ فوق ذلك فاقتصر له على المماثلة.

والآية نزلت في تلك المعاني الخارجة عن سبب النزول، على ما قيل في مسلمين قاتلوا في الشـهر الحرام مشـركين قصدوهم بالقتل طمعا في أن لا

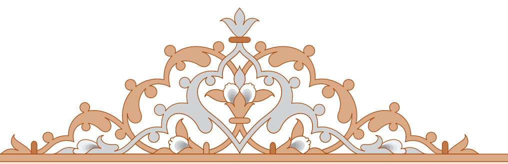
ينتصروا لحرمة الشهر، فغلبوهم لكن خافوا غضب الله للشهر الحرام، [قلت:] وإنَّما قلت بخروج الآية لأنَّه ليس في السبب ابتداء ثمَّ جزاء ثُمَّ ابتداء وجزاء.

وقيل: الآية في القصاص والجراحات كما أمر عمر جبلة بن الأيهم أن يذعن لأن يعور عينه الذي أعور هو عينه، والمماثلة في الآية بحسب ما يمكن، وبحسب الحديث وسائر القرآن كقطع أصبع بأصبع، أو يد بيد، وفي الحديث: «**لا قود إلَّا بالسيف**»[1] أي بالسلاح، وجاء «**من غرَّق غرَّقناه ومن حرَّق حرَّقناه**»[2] فقيل: لم يَصِحَّ، وفي القرآن ما يدلُّ أنَّه من قال: يا زاني، فقيل له: أنت الزاني جلدا معا حدَّ القذف.

---

(1) رواه **البيهقي** في كتاب الجراح (4) باب ما روي في أن لا قود إلَّا بحديدة، رقم 16089. من حديث الحسن.

(2) أورده **الزيلعي** في نصب الراية: ج 4، ص 343.



﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٦١ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ٦٢ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ٦٣ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ٦٤ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ٦٥ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ ٦٦﴾

من دلائل قدرة الله تعالى

﴿**ذَلِكَ**﴾ النصر العالي الشأن ﴿**بِأَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَيْلِ**﴾ بسبب أنَّه قادر على ما لا يقدر عليه غيره، كالنقص من الليل وزيادة ما نقص منه في النهار وعكسه، وأنَّه عالم بما يحدث فيهما من نحو بغي وانتصار، وأمَّا تحصيل أحدهما في مكان الآخر فليس بإيلاج فيه، وكذا جعل نهار بين ليلين، وليل بين نهارين ليس إيلاجا في الآخر.

[هيئة] اِعلم أنَّ لكلِّ برج منزلتين وثلثا، وأيَّامه ثلاثون وعشر ساعات ونصف ساعة، والمنزلة اثنتا عشرة درجة وإحدى وخمسون دقيقة، وكلُّ درجة يوم وإحدى وعشرون دقيقة. والبروج إمَّا منقلبة وهي: الحمل والسرطان

والميزان والجدي، لأنَّ الشمس إذا كانت فيها انقلب الزمان من حال إلى حال، ففي الحمل ينقلب من الشتاء إلى الربيع، وفي السرطان من الربيع إلى الصيف، وفي الميزان من الصيف إلى الخريف، وفي الجدي من الخريف إلى الشتاء، وأشدُّها انتقالا الحمل لاعوجاج مطالعه، والسرطان أخفُّها لخفَّة سير صاحبه وهو القمر، وأعدلها الميزان لأجل الزهرة، وأقواها الجدي لسبب زحل.

وإمَّا ثابتة وهي الثور والأسد والعقرب والدلو، لأنَّ الشمس إذا نزلت فيها امتزج الفصلان، وإمَّا مجسدة وهي الجوزاء والسنبلة والقوس والحوت، لأنَّ الشمس إذا نزلت فيها امتزج الفصلان فيكون النصف الأول من البرج على طبيعة الذي قبله، والنصف الثاني على طبيعة الذي بعده[1].

﴿**وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌۢ**﴾ عليم بكلِّ كلام ككلام المنتصر ﴿**بَصِيرٌ**﴾ عليم بأحواله وأحوال غيره، أو بجناية الجاني.

﴿**ذَٰلِكَ**﴾ الإيلاج، أو المذكور من السمع والبصر، أو ذلك الاتِّصاف بالعفو والغفران ﴿**بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ**﴾ الواجب لنفسه لا بموجب أو موجد، فهو كامل العلم والقدرة والجود.

﴿**وَأَنَّ مَا تَدْعُونَ**﴾ تعبدون أو تسمُّون إلها ﴿**مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ**﴾ الكامل في البطلان، كما أنَّ الحقَّ الذي لا يوجد مثله الوحدانيَّة، إلَّا أنَّه يقال: إنكار الله سبحانه أشدُّ بطلانا، فيجاب بأنَّ عبادة غيره مع الإقرار به من وادي إنكاره، فكأنَّ الآية شاملة للإنكار لأنَّ الأُلُوهِيَّة الاختصاص بالمعبوديَّة.

[بلاغة] وزيد لفظ «هُوَ» هنا دون سورة لقمان لأنَّه أنسب بالتأكيد، إذ وقع بين عشر آيات كلٌّ أكِّدت مرَّة أو مرَّتين، ولأنَّ المعلّل هنا أكثر منه في لقمان [آية 30] ﴿**وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ**﴾ الشأن على ما سواه ﴿**الْكَبِيرُ**﴾ عن أن يكون له شريك.

(1) انظر: ج 6، ص 196 وما بعدها.

﴿**أَلَمْ تَـرَ**﴾ بعينيك أولم تعلـم؟ ﴿**أَنَّ اللهَ أَنـزَلَ مِنَ السَّـمَآءِ**﴾ مما علَا كالسـقف وهو السـحاب، أو من جهة السـماء إحدى السـبع ﴿**مَآءً فَتُصْبِحُ الَارْضُ**﴾ تصير، وعبَّر به لتقريب الإنبات حتَّى إنَّه شوهد في بعض المواضع أنَّه نزل ليلا فنبتت الأرض فيه ﴿**مُخْضَرَّةً**﴾ بالنبات.

[نحو] والفاء سَـببِيَّة تغنـي عن ضمير يرجـع إلى المبتـدأ المخبر عنه بالجملة المعطوف عليها ما بعد الفاء، واسم «أنَّ» مبتدأ قبل دخولها، ولا مانع من أن تجعل الفاء عاطفة سَـببِيَّة غير مفيدة للاتِّصال، ومجرَّد الترتيب مفهوم من السَّببِيَّة، وهو مما وُفِّقت لاستخراجه ثمَّ رأيته لبعض فلا إشكال في تأخير الاخضرار، ويجوز أن يكون الاتِّصال معتبرا بالاستعداد.

﴿**إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ**﴾ يوصل المنافع والأرزاق إلى عبـاده برفق، أو من حيث لا يشـعرون، ومن ذلك إنزال المـاء والاخضـرار ﴿**خَبِيرٌ**﴾ عليـم بدقائق الأمور والمصالح، وبما في قلب القانط من الرزق وبكيفيَّة خلق النبات، وبأفعال العباد.

﴿**لَّهُ**﴾ له وحده لا لغيره ﴿**مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الَارْضِ**﴾ خلقا وملكا وزيادة ونقصا وتبديلا وتغييرا وإبقاء ﴿**وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ**﴾ الذي لا يفتقر إلى شـيء، لأنَّه الذي خلق المنافع والمضارَّ ﴿**الْحَمِيدُ**﴾ المحمـود حمدا لغويًّا لصفاته وأفعاله، وفي جميع خلقه اعتقادا وقولا وفعلا وحالا، ولو أنكر منكر أو كفر كافر لكذَّبه حاله.

﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ**﴾ سـهَّل ﴿**لَكُم مَّا فِي الَارْضِ**﴾ من نباتها وحيوانها ومياهها ومعادنها وجبالهـا، تتصرَّفون في ذلك بحسـب المنافع ﴿**وَالْفُلْكَ**﴾ عطف على «مَـا» عطف خاصٍّ على عـامٍّ لمزيَّته بالغرابة مع كثـرة منافعها، وقوله: ﴿**تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ**﴾ حال من الفلك، أو الواو عطفت الفلك على لفظ الجلالة، و«تَجْرِي» على «سَـخَّرَ» عطف معموليـن على معمولي عامل واحد هو «أَنَّ»، وهو ظاهر فصيح.

﴿وَيُمْسِــكُ السَّــمَآءَ ان تَقَعَ عَلَى الَارْضِ﴾ أي عن أن تقع، أو كراهة أن تقع، أو لِئَلَّا تقع، أو بدل اشــتمال من الســماء على تضمين «يُمْسِكُ» معنى يمنع، والعطف على «سَــخَّرَ» وهو دليل على قدرته تعالى، إذ أوقف جســما ثقيلا في الهواء بلا علاقة من فوق ولا عمدة من تحت مع عظم ثقله.

قال ﷺ: «**أطَّت الســماء وحقَّ لها أن تئطَّ ما فيها موضع قدم إلَّا وفيه ملك قائم أو ســاجد**»[(1)] لا يقع بعضها على الأرض ولا كلُّها، ولــو كان بعلاقة أو عمدة لاحتاجت إلى علاقة أو عمدة فيتسلسل.

﴿إِلَّا بِإِذْنِــهِ﴾ بمعنى لو أراد أحد وقوعها لم تقع بســبب مَّا إلَّا بأن أراد، ولا يريد، وإنَّما يكون الموْرُ والانشقاق والطيُّ والتبدُّل[(2)]، وصحَّ التفريغ لأنَّ في الإمساك معنى النفي، كـ«أَبَى».

والسماء الجنس، قال ابن عبَّاس: «إن خفت سلطانا فقل: الله أكبر الله أكبر من خلقه جميعا، الله أكبر من خلقــه جميعا، الله أكبر مما أخاف وأحذر، أعوذ بالله الذي لا إله إلَّا هو الممسك الســماوات السبع أن يقعن على الأرض إلَّا بإذنه، من شرِّ عبدك فلان وجنده وأتباعه وأشــياعه من الجنِّ والإنس، إلهي كن لي جارا من شــرِّهم جلَّ ثناؤك وعزَّ جارك وتبارك اســمك لا إله غيرك» ثلاث مرَّات.

وليس هذا وعيدًا بل امتنان كما يدلُّ لــه الامتنان في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ...﴾ [الآية: 63]، وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ...﴾ [الآية: 65]، وقوله: ﴿**إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾ إذ أنزل ماء وســخَّر لكم وهيَّأ أســباب المنافع، ولم يعطِّل ذلك بوقوع السماء، وسهَّل لهم دلائل الدين.

---

(1) تقدَّم تخريجه في: ج 8، ص 225.

(2) في الطور آية 9، والحاقة آية 16، والأنبياء آية 104، وإبراهيم آية 48.

[بلاغة] والرأفة: ما يقتضي دفع المضرَّة، والرحمة: ما يقتضي جلب المنفعة، وأخِّرت لأنَّ الرأفة أهمُّ وأبلغ لا للفاصلة، لأنَّه لو أخَّر لفظ «رَءُوفٌ» لصحَّ فاصلة لأنَّ الواو تعاقب الياء في الردف، كما في «الحميد» بل وجدت الواو في قوله:

﴿وَهُوَ الذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمُۥٓ إِنَّ الاِنسَانَ لَكَفُورٌ﴾ وقيل: الرحمة أعمُّ، والأظهر تعليق «بِالنَّاسِ» بـ«رَءُوفٌ» فتقديمه على طريق الاهتمام لا للفاصلة، والإحياء الأوَّل من مضغة وعظم، والثاني من القبور.

و«الإنسان» الجنس، والمراد: إنَّ في الناس مبالغةً في الكفر لا في كلِّ فرد، وقيل: الإنسان الكافر مطلقا، ولو قلَّ كفره لأنَّ الكفرة الواحدة تتضمَّن كثيرا من الكفر، وعلى نوع عظيم منه، وقيل: [المراد] الأسود بن عبد الأسد وأبو جهل وأُبي بن خلف، فإمَّا أنَّ «ال» للعهد عنده ﷺ وإمَّا تمثيل من قائله.

﴿لِّكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكًا هُمۡ نَاسِكُوهُۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِۚ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ ٦٧ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ٦٨ ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ٦٩ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٧٠﴾

لكلِّ أمة شريعة والله هو الذي يفصل بينهم يوم القيامة

﴿**لِّكُلِّ أُمَّةٍ**﴾ مضت أو حضرت ﴿**جَعَلْنَا مَنسَكًا**﴾ لا تتعدَّاه إلى منسك آخر، قيل: والتقديم للحصر، أي لكلِّ أمَّة لا لغيرها منسكا مختصًّا بها، لأمَّة موسى ما في التوراة، ولأمَّة عيسى ما في الإنجيل، ويردُّ إليها من أدركها من أمَّة موسى، ولهذه الأمَّة ولا أمَّة بعدها ما في القرآن، ويردُّ إليها كلُّ من أدركها من أمَّة موسى وأمَّة عيسى.

وقوله: ﴿**هُمْ نَاسِكُوهُ**﴾ نعت «مَنسَكًا». والآية زجر لأمَّتيْ موسى وعيسى عن معارضة سيِّدنا محمَّد ﷺ، أكَّد ذلك بقوله: ﴿**فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الاَمْرِ**﴾ أمر الدين فإنَّه يجب على كلِّ من أدرك نبيئا اتِّبَاعه في كلِّ ما خالف فيه ديانتهم، وذلك من نهي الغائب، وقد يقال: ذلك نهي لـه ﷺ، أو كناية عن نهيه عن أن يكون بحيث يطلق أنَّه شاركهم في النزاع، أو مبتدأً له معهم كقولك: لا أرينَّك هاهنا، أي لا تكن هنا فضلا عن أن أراك، وذلك خلاف الظاهر إلَّا أنَّه يناسبه قوله ﷻ:

﴿**وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾ والمنسك الشريعة أو العبادة، ويقوِّي هذا: ﴿هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ أو زمان

النســك أو مكانه، ويضعفهما أنَّه لم يقل: ناســكون فيــه، فيحتاج إلى حذف الضمير المجرور بدون شــرط حذفه علــى القلَّة، وأجــازه بعض حيث ظهر المعنى. والواو في «يُنَازِعُنَّكَ» المحذوفة لأهل الكتاب.

وقيل: المنسك الذبح، فالواو لمشركي العرب القائلين للمسلمين: ما لكم تأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتل الله؟ كبديل بن ورقاء وبشــر بن ســفيان، ويزيد بن خنيــس الخزاعيين، ووجهه مــع أنَّه لا دين لهــم أنَّ المعنى كيف ينازعون بما لا أثر له في الشــرائع الإلهيَّة؟ وعطفت آية النسك قبل دون هذه لقوَّة الجامع لها من المنافع بخلاف هذه.

ومفعول «ادْعُ» محــذوف، ادع الناس أو هــؤلاء المنازعين إلى عبادة ربِّك بما أوحينا إليك. والهدى المستقيم: الدين، أو أدلَّته، شبَّهه بالطريق، ورمز إليه بـ«مُسْــتَقِيمٍ»، و«عَلَى» اســتعارة تخييليَّة، وإن جادلوك في أمر الدين وقد أشــرقت دلائلــه فهدِّدهم بــأنَّ الله ﷻ أعلم بمــا تعملون من الأباطيل، فيعاقبكم عليها.

واســتأنف الله ﷻ له ﷺ قوله: ﴿**اللهُ يَحْكُــمُ بَيْنَكُمْ**﴾ يــا أَيُّهَا المؤمنون ويا أَيُّهَا الكافرون، ويبعد أن يكون من المقول، على معنى: إنَّ الله يفصل بين المؤمنين منكم والكافريــن بالثواب والعقاب ﴿**يَــوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَــا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ**﴾ من الدين والجدال أو الذبائح.

﴿**أَلَمْ تَعْلَمَ انَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّــمَآءِ وَالَارْضِ**﴾ جنســهما من الأجسام والأعراض، كأقــوال الكفرة وأفعالهــم واعتقادهــم ﴿**إِنَّ ذَالِــكَ**﴾ إنَّ ما في الســماوات والأرضين ﴿**فِي كِتَابٍ**﴾ اللوح المحفوظ [قيل:] طوله ألف عام، كتب فيه ما هو كائن. فــلا يهمُّك أمر الكفرة فيعاقبهم، وذلك تســلية له ﷺ؛ وقيل: المراد بالكتاب الضبط.

﴿**إِنَّ ذَلِكَ**﴾ المذكور مــن علم ما في الســماء والأرض وكونه في كتاب والحكم ﴿**عَلَى اللهِ يَسِــيرٌ**﴾ لأنَّ قدرته ذَاتِيَّة لا بعلاج، وقدِّم الجارُّ والمجرور للفاصلة لا للحصر، لأَنَّهُ لا مدَّعيَ أنَّ غيره يقدر على شيء من ذلك، اللهمَّ إلَّا على مجرَّد المدح.

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿71﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿72﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿73﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿74﴾ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿75﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿76﴾ ﴾

بعض أباطيل المشركين وتحدِّيهم بخلق ذبابة

﴿**وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ**﴾ أي الله ﴿**بِهِ**﴾ بعبادته ﴿**سُلْطَانًا**﴾ حجَّة مَّا، وهي الدليل السمعي الحاصل بالوحي، وقدَّمه لأنَّه أقوى يشترك الناس في فهمه ولا يحتاج إلى نظر، ولأنَّه يفيد اليقين، ولقوَّته عبَّر عنه بالسلطان، أي الحجَّة القاطعة القاهرة.

﴿**وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ**﴾ أي بعبادته ﴿**عِلْمٌ**﴾ من ضرورة أو استدلال، وهذا دليل عقليٌّ ولا يفيد اليقين، والكلام فيما لا إشكال فيه من الشرعيَّات، وما أشكل يحتاج إلى العقل، فلم يبنوا أمرهم على دليل سمعيٍّ ولا عقليٍّ، بل على باطل محض.

﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾ مطلقا، ودخل هؤلاء أوَّلا وبالــذات، أو المراد هؤلاء، ذكرهم باســم الظلم تقبيحا لهم، وتعليلا للحكم به ﴿مِــن نَّصِيرٍ﴾ في الدنيا بتصويب دينهم، ولا في الآخرة بدفع العذاب.

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمُوٓ ءَايَاتُنَا﴾ عطف جملة الشــرط والجواب والأداة على جملة «يَعْبُدُونَ». والمضارع للاســتمرار التجدُّدي بتكرير التلاوة عليهم، ولو لشــيء واحد، وبتكرير نــزول معنــى واحد، وبنــزول أمر بعد نــزول آخر ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ واضحات الدلالة على الحقِّ وبطلان دينهم.

﴿تَعْــرِفُ﴾ يا محمَّد أو يا من يصلــح للمعرفة مطلقا ﴿فِــي وُجُوهِ الذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي فــي وجوههم، وعبَّر بالظاهــر تقبيحا لهم بالكفــر، ﴿الْمُنكَرَ﴾ مصدر ميميٌّ بمعنى الإنكار وعدم القبول، أو اسم مفعول أي الأمر الذي ينكر شرعا من التجهُّم والغضب، وكلا الوجهين مناسب لقوله: ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ﴾ يبطشون ﴿بِالذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمُوٓ ءَايَاتِنَا﴾ والثاني أنسب. وفعل المقاربة معتبرة بالغالب، فلا يرد وقوع البطش بالتالي قليلا لقلَّته.

[نحو] وجملة «يَــكَادُونَ...» حال من «الذِيــنَ»، ولا بأس بعود الضمير إلى المضاف إليه إذا اتَّضَحَ المعنى، وهــو أولى من كونها حالا من «وُجُوهِ» على الاســتخدام بردِّ ضمير «يَكَادُونَ» إليها لا على معناها الأوَّل، بل على معنى أصحابها.

﴿قُلَ اَفَأُنَبِّئُكُم بِشَــرٍّ مِّن ذَالِكُم﴾ أتســمعون فأخبركم بما هو أشــدُّ سوءًا عليكم من غيظكم على التالين وســطوكم؟ أو من ضجركــم؟ وكأنَّه قيل: ما ذاك الذي هو شــرٌّ؟ فقال: ﴿النَّارُ﴾ أي هو النار، وإن شــئت قلت: هي النار، بتأنيث ضمير المذكَّر وهو شرٌّ للإخبار عنه بالمؤنَّث، وهو عندهم أرجح.

﴿وَعَدَهَا اللهُ الذِيــنَ كَفَرُواْ﴾ مســتأنف، ولا يصحُّ أن يكــون خبرا ثانيا لـ«هو» أو «هي» المقدَّر. ويجوز أن يكون «النَّارُ» مبتدأ والجملة خبره، كقولك

في جواب قائل: كيف جاء زيد؟: إنَّه من جملة الراكبين، بدل قولك: راكبا. ﴿وَبِيسَ الْمَصِيرُ﴾ هي.

﴿يَآ أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ﴾ بُيِّن لكم ﴿مَثَلٌ﴾ حال غريبة أو قصَّة غريبة [قيل ذلك] في اللوح المحفوظ، والماضي لتحقُّق الوقوع بعد، وذلك كمثل سائر في الأمصار والأعصار ﴿فَاسْتَمِعُواْ لَهُ﴾ للمثل للتفكُّر فيه، أو لأجل المثل.

وفسَّر المثل بقوله: ﴿إِنَّ الذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ﴾ إلى قوله: ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾، ويضعف أن يكون المعنى: جُعل لله شبه فاستمعوا له، أو لأجله فتعرفوا بطلانه بعجزهم عن خلق الذباب وعن استنقاذ ما يسلب الذباب منهم.

والخطاب في ﴿يَآ أَيُّهَا النَّاسُ﴾ للمكلَّفين ولو ذكر ﴿إِنَّ الذِينَ تَدْعُونَ﴾ على معنى: إنَّ فيكم هؤلاء الداعين من دون الله، خاطبهم بما فعل بعض، كقولك: يا بني تميم القاتلين لفلان، والقاتل بعضهم، أو الخطاب لِلْكُفَّارِ. وعبَّر عن الأصنام بـ«الذِينَ» لأنَّها عندهم كالعقلاء.

﴿لَنْ يَّخْلُقُواْ ذُبَابًا﴾ لن يقدروا على خلقه مع صغره ﴿وَلَوِ اجْتَمَعُواْ لَهُ﴾ أي لخلقه، وعبَّر عن القدرة بلازمها ومسبِّبها وهو الخلق، واختاره مما يماثله في الصغر أو كان دونه ليرتِّب عليه قوله: ﴿وَإِنْ يَّسْلُبْهُمْ﴾ أي الأصنام التي يدعون ﴿الذُّبَابُ شَيْئًا﴾ مما يلطخونهم به من عسل أو عطر أو زعفران أو نحوه، لأنَّ الذباب هو المعروف بالوقوع على الأشياء الدسمة. وسمِّي ذبابا لأنَّه يذبُّ أي يطرد فيرجع، من الذبِّ بمعنى الاختلاف ذهابا ورجوعا ﴿لَّا يَسْتَنقِذُوهُ﴾ لا يخلِّصوه ﴿مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ﴾ الذباب ﴿وَالْمَطْلُوبُ﴾ الصنم.

كانوا يلطِّخونها بأنواع الطيب ويغلقون عليها، ويدخل الذباب فيمصُّ منها فهو طالب لذلك، وهي مطلوبة بذلك، أو «الطَّالب»: الأصنام تطلب مجازا ما

سـلب منها، و«المطلـوب»: الذبـاب تطلبه بالـردِّ، أو **المطلـوب**: **الأصنام والطالب: عابدوها يطلبون أن تنفعهم.**

﴿**مَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ**﴾ ما عظَّموه حقَّ عظمته، بأن يؤمنوا به لأنَّه لا إله إلَّا هو، ولا يعبد غيره، ولا يصفوه بصفات الخلق.

[أصول الدين] وأمَّا معرفته بالكنه فمسـتحيلة، ولا يعرف نفسه إلَّا هو، ومن قال: يعرفه بالكنه أحد فقد أشرك عندي، لأنَّه أجاز في وصفه ما للخلق، قال ﷺ: «**سبحانك ما عرفناك حقَّ معرفتك**»[1]، وهو تنزيه عن الإدراك بالكنه، ثمَّ رأيت ذلك والحمد لله فـي كلام عليٍّ، قال الصدِّيق ﵁: «العجز عن درك الإدراك إدراك» وهو نثر بوزن شـطر بيت من البسـيط، ولم يقصده فتفطَّن له علـيٌّ فأتمَّه بقوله: «والبحث عن سـرِّ ذات الله إشـراك»، بحـذف آخر الوتد المجموع وإسكان ما قبل، هكذا:

العجز عــن درك الإدراك إدراك — والبحث عن سرِّ ذات الله إشراك

بفتح راء درك.

﴿**إِنَّ اللهَ لَقَـوِيٌّ**﴾ على كلِّ ممكــن ﴿**عَزِيزٌ**﴾ لا يردُّ عَمَّـا أراد. والجملة مستأنفة للمدح أو تعليل لما قبله.

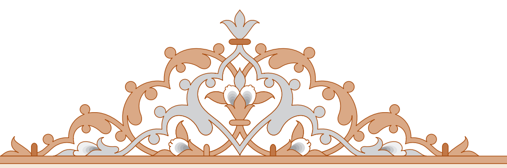
[سبب النزول] ويــروى أنَّ الوليد بن المغيرة لعنــه الله، قال: أأنزل عليه الذكر من بيننا؟ فنزل قولـه تعالــى: ﴿**اللهُ يَصْطَفِي**﴾ يختار ﴿**مِـنَ الْمَلَآئِكَةِ رُسُـلاً**﴾ إلى الأنبياء بأمر الدين، وإلى الناس به ﴿**وَمِـنَ النَّاسِ**﴾ إلى الناس، والعطف على «مِنَ الْمَلَآئِكَةِ»، فـ«رُسُلاً» شامل لرسـل الملائكة إلى الأنبياء

---

(1) أورده **الآلوسـي** في تفسـيره: ج 6، ص 202. بدون إسـناد ولا تخريج. كما ورد في حاشية العطار على شرح الجلال المحلِّي في معرض الحديث عن التقليد في أصول الدين. (جامع الفقه الإسلامي CD-ROM).

ولرسل الناس إلى الناس، كما رأيت، حين قلت: إلى الأنبياء بأمر الدين وإلى الناس به، [قلت:] فلا حاجة إلى تقدير: إنَّ الله يصطفي من الملائكة رسلا إلى الملائكة في شأن العبادة، ومن الناس رسلا إلى الناس في أمور الدين والعبادة ﴿**إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ**﴾ عليم بكلِّ ما تقوله الملائكة والأنبياء والناس وسائر الحيوان ﴿**بَصِيرٌ**﴾ عليم بكلِّ جسم وأفعاله وصفاته ﴿**يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ**﴾ ما بين أيدي رسل الملائكة والناس، أو ما بين أيدي المكلَّفين وهو ما مضى، لأنَّه لحصوله كالموجود بين الأيدي، و﴿مَا خَلْفَهُمْ﴾: وهو ما يأتي، لأنَّه لعدم حصوله إلَّا بعدُ كالشيء الغائب خلفك، المتبعِ لك، أو ما ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾: ما يأتي لأنَّه مستقبل لهم و﴿مَا خَلْفَهُمْ﴾: ما مضى لانقطاعه.

﴿**وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ**﴾ كلُّها وليس لغيره منها شيء يوم القيامة، فيجازي كلًّا بما استحقَّ، وهو مرتبط بقوله: ﴿يَعْلَمُ...﴾ أو إليه يرجع أمر الوحي، فلا يُسأَل عَمَّا يفعل، فيكون مرتبطا بقوله: ﴿يَصْطَفِي﴾.



﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٧٧ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ۝٧٨﴾

جملة من أوامر التشريع والأحكام

﴿يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ ارْكَعُواْ وَاسْجُدُواْ﴾ ركوع الصلاة وسجودها، وكانوا يركعون بلا سجود ويسجدون بلا ركوع في صلاتهم، فأمرهم الله سبحانه بالجمع بينهما، ذكره أبو حيَّان والفرَّاء قبله، أو هما أمر بالصلاة، وخصَّا لأنَّهما أعظم أجزائها من حيث الخضوع، ولو كان القيام أعظم من حيث اشتماله على القرآن، وقيل: المراد الأمر بالخضوع لله.

[فقه] ولا سجدة هنا عندنا وعند مالك وأبي حنيفة والحسن وابن المسيب وابن جبير وسفيان الثوري، وقال الشافعي: يسجد عند قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، قال عقبة بن عامر: يا رسول الله فضِّلت سورة الحجِّ بسجدتين، قال: «نعم»، وقوله بعد هذا: «ومن لا يسجدهما لا يقرأهما» موضوع. وقال عمرو بن العاص: أقرأني رسول الله ﷺ خمس عشرة سجدة، منها ثلاث في المفصل، وفي سورة الحجِّ سجدتان[1]،

(1) أورده **الآلوسيُّ** في تفسيره: ج 6، ص 208. وقال: أخرجه أبو داود وابن ماجه وابن مردويه والبيهقي عن عمرو بن العاص.

وبذلك قال عليٌّ وعمر وابنه عبد الله، وعثمان، وأبو الدرداء وأبو موسى وابن عبَّاس.

﴿وَاعْبُدُواْ رَبَّكُمْ﴾ بالفرض والنفل وقيل: المراد الفرض ﴿وَافْعَلُواْ الْخَيْرَ﴾ النفل، على أنَّ ما قبله في الفرض أو فيه والفرض، وعليه فهو تخصيص بعد تعميم، أو فعل الخير في الناس كمكارم الأخلاق وصلة الأرحام.

[فقه فضل الصدقة والإهداء] قال أبو عبد الله الغرناطي: «شملت الآية استئناف الهدية والمكافأة عليها، والصدقة بمخزون وبحادث على من حضرها»، وكان ﷺ يقبل الهديَّة ويكافئ عليها. قال أبو حنيفة: أرى المكافأة بأحسن منها لقوله تعالى: ﴿وإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ...﴾ [سورة النساء: 86] وقوله ﷻ: ﴿وَلَا تَنسَوُاْ الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [سورة البقرة: 237] وأهدى إليه الحجَّاج[1] ألف نعل وفرَّقها، وبعد يوم أو يومين اشترى نعلا لابنه فقيل له؟ فقال: «مذهبي تفريق الهدايا والمكافأة عليها بمثلها أو أضعافها» وقال عن رسول الله: «**إذا أهدي للرجل فجلساؤه شركاؤه**»[2]. وعنه ﷺ: «**ليس مِنَّا من وسَّع الله تعالى عليه فلم يوسِّع على نفسه وعياله**»[3] قال الحسن: إذا وسَّع الله عليك فوسِّع وإن أمسك فأمسك.

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ تفوزون، لعلَّ للتعليل أو للترجية، والمعنى: راجين الفلاح، وهو حال معنويَّة لا اصطلاحيَّة لأنَّ ذلك إنشاء.

﴿وَجَاهِدُواْ فِي اللهِ﴾ جاهدوا الكُفَّار لله، أو جاهدوا في سبيل الله. والجهاد: استفراغ الجهد أي الطاقة في شيء، والمراد: جهاد المشركين، ويقاس عليه المبتدعة والفسقة بحسب ما يكون، وجهاد الشيطان والنفس، قال جابر بن

(1) كذا في النسخ ولعلَّ المهدي إليه غير أبي حنيفة لأنَّ الحجَّاج توفي وفي عمر أبي حنيفة 15 سنة، أو الإهداء وقع من غير الحجَّاج.

(2) أورده **العجلوني** في كشف الخفاء، ج2، ص231. وعزاه إلى الطبراني، من حديث حسن بن علي.

(3) لم نقف على تخريجه.

عبد الله: قدم على رسول الله ﷺ قوم غزاة، فقال: «**قدمتم خير مقدم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر**» قيل: ما الجهاد الأكبر؟ قال: «**مجاهدة الهوى**»[(1)].

[قلت:] وفي سنده ضعف يجبره صحَّة المعنى، والأحاديث الأخر في هذا المعنى، ولا مانع من تفسير الآية بذلك كلِّه، وقرأ الحسن الآية فقال: «إنَّ الرجل ليجاهد في الله وما ضرب بسيف».

﴿**حَقَّ جِهَادِهِ**﴾ أي الجهاد الذي ينسب لله ويفعل لوجهه، بأن أمر به ويعبد به، وهو الذي بإخلاص وعدم تقصير، كما تقول في التمر المحبَّس لله: تمر الله، بإضافته لله، ولا حاجة إلى تقدير: جهادا فيه حقًّا.

ومن قال: المراد أطيعوا الله جدًّا، قال: نسخ بقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُواْ اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [سورة التغابن: 16]، وأمَّا أن تفسَّر بلا تعصوا البتَّة فلا يقبل النسخ، لأنَّه يفضي إلى إباحة بعض المعصية، قال عمر لعبد الرحمٰن بن عوف ﵁: «ألسنا كُنَّا نقرأ «وجاهدوا في الله حقَّ جهاده في آخر الزمان كما جاهدتم في أوَّله»؟ فقال: بلى، قال: متى هذا يا أمير المؤمنين؟ قال: إذا كان بنو أمية الأمراء وبنو المغيرة الوزراء»، وهذه الزيادة تفسير لا تلاوة ولو كانت ونسخت تلاوتها لشهر[(2)].

﴿**هُوَ اجْتَبَاكُمْ**﴾ اختاركم لعبادته وجهاد عدوِّه، ومجاهدة أنفسكم بترك ما تدعو إليه مما لا يرضى الله به ﴿**وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ**﴾ تكليف ما لا تطيقونه، أو يشتدُّ عليكم جدًّا، وذلك إمَّا ابتداء أو تسهيل بعد تكليف، كقوله ﷺ: «**إذا أمرتم بشيء فأتوا منه ما استطعتم**»[(3)].

---

(1) أورده **الهندي** في الكنز، باب في لواحق الجهاد (الجهاد الأكبر والأصغر): ج 4، ص 616، رقم 11779. و**الخطيب** في تاريخ بغداد: ج 13، ص 493. من حديث جابر.

(2) يبدو في هذا الأثر أصابع الوضاع والخائضين في الفتنة الكبرى من عدَّة جوانب.

(3) رواه **البخاري** في كتاب الاعتصام بالكتاب وَالسُّنَّة، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ، رقم 6288. ورواه **مسلم** في كتاب الحج، باب فرض الحج مَرَّة في العمر، رقم 1337. من حديث أبي هريرة. وَأَوَّلُ الحديث عنده: «خطبنا رسول الله ﷺ فقال: أَيُّهَا الناس قد فرض الله عليكم الحجَّ فحجُّوا...».

وقيل: ذلك جعلُه التوبة لنا كلَّما أذنبنا، والقصاص والدية والأرش وَالكَفَّارَة، **واستشكل بعض إدخال التوبة في ذلك.**

[نحو] ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ منصوب على الإغراء أي اِلزموا ملَّة أبيكم إبراهيم، أو مفعول بـ«أَعني» أي أعني بالدين ملَّة أبيكم، قيل: أو مفعول مطلق من معنى نفي الحرج لأنَّ معناه التوسعة على حذف مضاف، أي وسِّع عليكم توسعة ملَّة أبيكم، وهذا عجيب، كما أجيز أن يكون «إِبْرَاهِيمَ» مفعولا لاتَّبعوا محذوفا وإنَّما هو بدل أو بيان من «أَبِيكُمْ».

والمراد بالملَّة الأصول وما لم ينسخ من الفروع، وسمِّي أبا لأنَّ أكثر العرب أو أشرفهم وهو قريش من ذرِّيَّته، ولأنَّه أبو رسول الله ﷺ، وهو كالأب لأمَّته، إذ هو سبب لمنافع الدنيا والدين والحياة الطيِّبة في الآخرة، بل إبراهيم نفسه أيضا كذلك ولو كان سيِّدنا محَمَّد ﷺ أعظم في ذلك.

﴿هُوَ﴾ أي الله كما قرأ أُبي: «الله» ﴿سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ قبل نزول القرآن في الكتب السالفة كالتوراة والإنجيل ﴿وَفِي هَذَا﴾ أي في هذا الكتاب وهو القرآن، وهذا مما يقوِّي أنَّ الضمير لله سبحانه.

وقيل: الضمير لإبراهيم لقرب ذكره، وذلك أنَّه قال: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [سورة البقرة: 128] وكلامه هذا سبب لتسميته في هذا الكتاب القرآن مسلمين، لدخول أكثر العرب في الذرِّيَّة فهو مسمٍّ لهم في القرآن مجازا، ففي قوله: ﴿سَمَّاكُم﴾ جمع بين الحقيقة والمجاز بكلمة واحدة.

وقيل: «فِي هَذَا» خبر لمحذوف، أي في هذا بيان تسميته لكم مسلمين، إذ ذكر في القرآن تسميته، وقدَّر بعض: سمَّيتكم في هذا مسلمين.

﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ﴾ متعلِّق بـ«سَمَّاكُم»، واللام للعاقبة، ويجوز أن تكون للتعليل، لأنَّه ﷺ مسلم والإسلام سبب لقبول الشهادة.

﴿**شَـهِيدًا**﴾ يوم القيامة ﴿**عَلَيْكُمْ**﴾ أنَّه بلَّغكم، وقيل: على بمعنى اللام، وأنَّه يشهد لهم بالخير ويزكِّيهم، وفي ذلك قبول شهادته لنفسه يوم القيامة، وذلك من خصائصه ﷺ، وأمَّا في الدنيا فقد احتاج لمن يشهدان له بفرسه، حتَّى شهد له خزيمة فأذعن خصمه بشهادته[1].

ولم يقبل الله عن الأنبياء على أممهم حين أنكروا حتَّى شهدت لهم هذه الأمَّة كما قال ﷻ: ﴿**وَتَكُونُواْ شُـهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ**﴾ الأمم السابقة فيقولون: أنتم بعدنا كيف تشهدون علينا؟ فيقولون: أخبر الله نبيئَنا بكفركم في القرآن الذي أنزل عليه، وذلك في الأقوام المهلكة لا في الأفراد، وإن كان على العموم فقد يجعل الله لهم علامات، كما تجعل لأمَّته ﷺ له.

﴿**فَأَقِيمُواْ الصَّلَاةَ وَءَاتُواْ الزَّكَواةَ**﴾ شكرا لذلك، ولأنَّ كونكم شهداء يقتضي أن تكونوا عدولا، وفي ذلك تعظيم شأن الصلاة والزكاة، ولا بدَّ من غيرهما تبعا لهما.

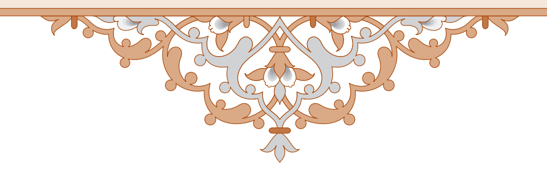
﴿**وَاعْتَصِمُواْ بِاللهِ**﴾ في أموركم كلِّها الدنيويَّة والدينيَّة ﴿**هُوَ مَوْلَاكُمْ**﴾ ناصركم ومتولِّي أموركم، **والسيِّد لا يخذل عبده** ﴿**فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ**﴾ هو ﴿**وَنِعْمَ النَّصِيرُ**﴾ هو، لكمال ولايته ونصره.

أسأل الله أن يجعلنا ممن اعتصم به فتولَّاه ونصره.
اللهمَّ زدنا ولا تنقصنا، وأكرمنا ولا تُهنَّا، وأعطنا ولا تحرمنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وأرضنا وارض عَنَّا.
[آمين]

---

(1) أورده **الهيثمي** في مجمع الزوائد: ج 9، ص 320. وقال: رواه الطبراني بلفظ: «من شهد له خزيمة فهو حسبه».

الفهـارس



الفهرس التفصيلي للمسائل الأصولية

الفهرس التفصيلي للمسائل الفقهية



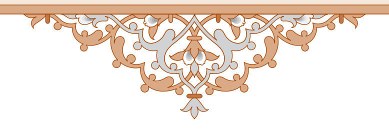
فهرس لبعض مختارات الشيخ

فهارس عامة للموضوعات الفرعية



فهرس الآيات والعناوين الرئيسية

التعريف بالمفسِّر(*)



- في سنة 1237هـ/1818م بمدينة غرداية العريقة شمال صحراء الجزائر، وُلد الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش.

- في سنة 1243هـ/1827م حفظ القرآن الكريم في بني يسجن ـ بلده الأصلي ـ، واشتغل بحفظ المتون الدينية واللغوية على يد شقيقه الأكبر إبراهيم اطفيش، وعلى غيره من مشايخ المنطقة، ونبغ في فروع الثقافة الإسلامية نبوغًا كبيرًا.

- في سنة 1253هـ/1837م جلس للتدريس والتعليم في داره ببني يسجن، ثمَّ في مدينة بنورة لفترة من الزمن، ثمَّ عاد إلى بني يسجن وواصل نشاطه الدؤوب في معهده، وتولَّى مهمَّة الوعظ والإرشاد والفتوى في المسجد.

- منذ سنة 1300هـ/1882م قاوم الاستعمار الفرنسي عند دخوله إلى وادي ميزاب، وتولَّى إحباط خططه وتصرفاته، وله زيارات ميدانية للدعوة والإرشاد والتعليم إلى جميع قرى وادي ميزاب.

(*) انظر تفاصيل ترجمته في مقدِّمة الجزء الأوَّل من هذا التفسير.

- في سنة 1304هـ/1886م زار البقاع المقدَّسة للمرَّة الثانية، وفي طريقه زار جامع الزيتونة بتونس، وجامع الأزهر بالقاهرة، واستمع لعلمائها، وألقى دروسًا في الحرم المدني، تشريفًا وتقديرًا له من علمائه.

- له مراسلات هامَّة إلى علماء عصره جاب بها الشرق والغرب، وترك في كلِّ فنٍّ تأليفًا أو أكثر يشهد له بالتفوق والإتقان.

- تخرَّج من معهده عدد كبير من الدعاة والقضاة والعلماء، وإليه يرجع الفضل الكبير في بثِّ الوعي الديني، ونشر الروح العلمية في هذه الربوع وفي غيرها بأبحاثه وتآليفه القيِّمة، وبتفانيه في التدريس والتعليم.

- في سنة 1332هـ/1914م اختاره الله إلى جواره في مركز نشاطه ببني يسجن، رحمه الله وأرضاه وجعل الجنَّة مثواه.